الجهاد صناعة الأمة

بحث فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مجدى أحمد حسين

الطبعة الثانية

رقم الإيداع:

٥٦٥٦ /٢٠٠٣

عنوان المؤلف: ٣٦ شارع الروضة - المنيل - القاهرة

تليفون وفاكس: ٣٦٤٤٠٥٥

بريد الكترونى : Magdyhussien@ Hotmail. com

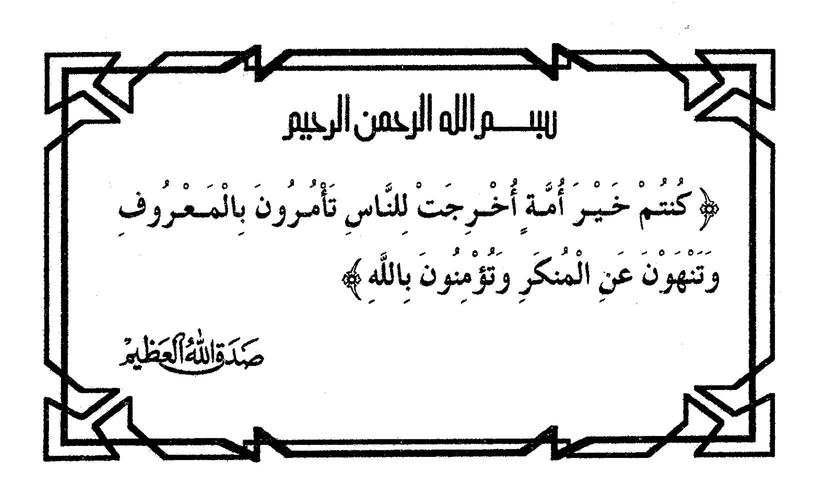
Magdyhussien@ gawab. com

التوزيع:

ت: ٠١٢/٣٣٧٥٤٠٤

الإشراف الفنى

طارق الكركيت


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾
صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى خلقنا وهدانا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.. وما كنا لنحيا بقلب راض إلا إذا ائتمرنا بأوامره وانتهينا عن نواهيه..

ولا معنى لحياتنا بدون الإيمان به والجهاد فى سبيله.. وأصلى وأسلم على رسول الله ﷺ.. المبعوث رحمة للعالمين الحبيب المصطفى.. الأسوة الحسنة.. والمصباح المنير.. أما بعد.. فهذه الدراسة أعدت خلال عام ٢٠٠٠ وتمت طباعتها على أجزاء ـ لضيق ذات اليد ـ خلال العامين ٢٠٠١، ٢٠٠٢.. ولما قاربت بعض أجزائه على النفاد، فكانت هذه الطبعة الثانية التى أردت لها ان تكون فى سفر واحد.. لتيسير قراءتها ككل واحد.. فالأجزاء الأربعة السابقة لم تكن مقسمة بشكل منطقى.. ولكن لمجرد مراعاة اقتصاديات الناشر والمشترى!!

ورغم اننى لا أرضى تماما عن أى شىء كتبته.. وأبحث عن التحسين والتجويد.. إلا اننى لم أجد ما أغيره فى هذه الطبعة المنقحة إلا ألفاظا طفيفة فى الجزء الأول.. فمازلت متمسكا بجوهر ما فيه، كما ان المفكرين والقراء الذين تفضلوا علىّ بقراءته لم يبدو أية ملاحظات انتقادية فى جوهر القضية المطروحة: جهاد الداخل أو فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد أضفت إلى هذه الطبعة دراسة سابقة لى حول الموقف الشرعى من المحاكم العسكرية التى تعرضت لها الجماعات الإسلامية .. فرغم ان العنف السياسى قد توقف فى بلادنا ولله الحمد، إلا ان هذه الدراسة تؤصل لكيفية تعامل الحكومات مع المعارضة السياسية حتى وان انتهجت أساليب العنف.. وهذه أحد فروع قضايا الممارسة السياسية فى الإسلام.

ولاشك أن أحداثا جساما وقعت خلال أعوام ٢٠٠١، ٢٠٠٢ ومطلع ٢٠٠٣ إلا ان هذه الدراسة لم يكن من شأنها أن تعلق على الأحداث، وان اتخذت منها أمثلة تطبيقية..

ولكن الأحداث الجسام التى مرت بها أمتنا العربية والإسلامية، والتى بلغت ذروتها فى الحرب الأمريكية العدوانية الهمجية على العراق.. وموقف السلطات المصرية منها.. أكسب الدراسة أهمية اضافية.. (من حيث موضوعها).. ذلك ان تغيير أوضاعنا الداخلية.. بات فرض عين على كل مسلم ومسلمة.. وفرض عين وطنى على كل مصرى ومصرية..

وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا الاسهام فى تسليح الحركة الإسلامية المصرية (وخارج مصر) بهذه الرؤية التى أراها تركز على الشيء الجوهرى المنقوص.. على الفريضة الغائبة: (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) بالمفهوم الصحيح لها الذى يختلف عن الوعظ العام والارشاد المجرد بمبادىء الدين.. ويركز أساسا على معترك أمور السياسة والمجتمع بمنظور إسلامي.. ويركز على رفض أو تأييد السياسات والقرارات والتشريعات بشكل محدد وفقا للمرجعية الإسلامية.. ويوجه الانتقاد إلى من هم أهل له وليس إلى صغار الموظفين..

وأرجو من الله سبحانه وتعالى.. إذا كنت موفقا فى فهم قرآنه وسنة نبيه.. ان يفتح قلوب المؤمنين لقولي.. وان تصنع الأمة فجرا جديدا لنهضتها فى القريب.. فقد طال الركود والرقود وتزاحمت علينا الهموم.. وأصاب الناس القنوط.. وأحسب أن هذه الدراسة تقدم تفسيرا لهذه الحالة.. وتقدم الحل الذى اعتصرته من رحيق التفاسير وكتابات العلماء الثقاة المخلصين.. وعجنته مع خبرتى السياسية ودراساتى فى العلوم السياسية والاقتصادية.

وأخيرا ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

مجدى أحمد حسين

١٣/٥/٢٠٠٣

الفصل الأول
(الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)
هو الجهاد الداخلى فى بلاد المسلمين

رغم أن هذه الدراسة تبحث فى أمور تأصيلية نظرية، إلا أنها ليست محلقة فى الفضاء، إنها تتفاعل مع أحوال الأمة، فنحن فى حزب العمل نشن الحملات تلو الحملات ضد المفسدين والموالين لأعداء الأمة وناشرى الكفر البواح، ومع أن جمهرة الأمة تتعاطف معنا، إلا إنها تقف فى موقف المتفرج المؤيد عن بعد فى أغلب الأحوال، وكأن جهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عمل القادة دون الجمهور، على طريقة ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

فهل حقا الجهاد صناعة النخبة (القادة أو أولى الأمر أو أهل الحل والعقد) أم هو صناعة الأمة بأسرها؟ وهل الجهاد فى السلام قاصر على أعداء الخارج؟ وهل هو بالأحرى ينحصر ضد الكفار المعتدين؟

على المستوى الوطنى فإن مقاومة الفساد والأختراق الصهيونى وأعداء الخارج يجمعنا فى حد ذاته مع أقباط مصر، ولكن المسلمين يحتاجون إلى تأصيل عقائدى لموقفهم من هذه المخاطر التى تحدق بالأمة.. ولهذا كانت هذه الدراسة.

شرع الله الجهاد للذود عن الإسلام، وحماية العقيدة وأركان ومقومات المجتمع الإسلامى، والجهاد دفاع شرعى عن النفس ضد أعداء الله الذين يعتدون على المسلمين وديارهم، وكثير من تشريعات القرآن والسنة تنظم أمور الجهاد بهذا المعنى الحربى المباشر، إلا أن الجهاد لايقتصر على مقاومة أعداء الخارج، ولايقتصر على العمل المسلح، فهناك مايمكن أن نطلق عليه «جهاد الداخل» والذى يكون ضد حكومة ظالمة خارجة عن الإسلام جزئيا أو كليا (وقعت معظم الحكومات فى بلاد المسلمين فى براثن الفكر العلمانى والتبعية بدرجات متفاوتة)، والأمة الإسلامية بعامتها وخاصتها يتعين عليها أن تمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مواجهة انحراف الحكم بكل درجاته، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يكون حول المعانى المجردة للإيمان والكفر أو حول المعانى النظرية للأحكام الإسلامية، بل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعنى التصدى لانحراف محدد، أو عمل محدد، أو سياسة محددة تضر الإسلام والمسلمين أو تضر أى مواطن فى الدولة الإسلامية حتى وإن لم يكن مسلما، بل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر صفة ملازمة للمسلم وللمجتمع الإسلامى فى كل الأحوال فهو كالشهيق والزفير إذا لم يعملا مات الإنسان لفوره، كذلك فإن المجتمع الإسلامى يفقد أهم خصائصه إذا تخلى عن هذه الفريضة، فهى مطلوبة حتى فى ظل الحكومة الإسلامية العادلة لأن هذه الحكومة غير محصنة ضد الخلل والانحراف وأهواء الحكام البشر، والإسلام لايعرف «مدينة الله» التى بشر بها أوغسطين الأوروبى، فلا توجد مدينة فاضلة بالمعنى الملائكى على ظهر الأرض.

أما فى حالة الحكومة الظالمة المنحرفة عن الإسلام جزئيا أو كليا فإن الأمر فى هذه الحالة يكون جهادا صريحا، (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) حديث شريف رواه الحاكم عن جابر بن عبدالله والطبرانى فى «الكبير» عن على ورمز السيوطى لصحته، وهو على شرط الصحيحين.

وأيضا: (أفضل جهاد كلمة حق عند سلطان جائر) (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه) وكان الرسول ﷺ يأخذ العهود على أصحابه أن يقولوا الحق أينما كانوا (متفق عليه) وفى

مزيد من التفصيل قال عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري. وأيضا (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حيان والحاكم عن أنس.

فعندما يكون الجهاد على أرض الإسلام (أي مسألة داخلية) يسمى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» والحقيقة ـ كما يقول أحد فقهائنا المعاصرين ـ: (أن بين الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تلازما، كل من الإثنين قد يطلق على الآخر في الداخل والخارج، ولكن العملية أصبحت مشتهرة هكذا: ما كان عى أرض الإسلام كان أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وما كان خارجه كان جهادا).

والحقيقة أن نصوص القرآن والسنة تضع هذا الجهاد (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في إطار المفهوم العام للجهاد باعتباره أحد أبرز خصائص وصفات المؤمن فالخلاف الجوهري يكمن في الأسلوب، فالجهاد الخارجي تكون المناظرة بالسلاح وفي الثاني (أي الجهاد الداخلي) تكون بجهاد الكلمة والعمل السياسي (التغيير باللسان وباليد) ومخاطر الثاني لا تزيد عن الأول بل قد تزيد لأن السلطان الجائر ربما قتله (أي المجاهد) وهو لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه كما يفعل في الجهاد المسلح وقد يشرده وقد يسجنه وقد يفتنه في زوجته و أولاده ورزقه إلى أخر أساليب الطغاه وبهذا المعنى نفهم وصفه بأنه «أفضل جهاد».

لقد اعتدنا أنه إذا اطلقت كلمة الجهاد باليد واللسان وإذا سمعته الأذن انصرف الذهن إلى جهاد الكافرين، ابتداء من الذين يمثلون دار الحرب (إذا اعتدوا على المسلمين وأراضيهم) وهذا لاشك من الجهاد باليد وهو جهاد نحو الخارج ولكن الجهاد باليد أوسع من ذلك إذ يدخل فيه كذلك جهاد البغاه والظالمين والفاسقين والناكثين على الأرض الإسلامية فهو جهاد بالنفس داخليا وهو لايعني بالضرورة حمل السلاح عليهم فهذا غير جائز شرعا إلا في حالات تاريخية استثنائية ولاتنطبق على أحوالنا في مصر (وقد شرحت ذلك في دراسة أخرى: «فقه التغيير السياسي» لكنه جهاد بالنفس لأن المجاهد الذي يأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر باليد «أى العمل السياسى» أو اللسان قد تتعرض حياته للخطر كما ذكرنا، وهذا الجهاد بالنفس فى دار الإسلام (داخليا) تركه عامة الناس ونفض إيديهم منه أكثر العلماء وتورع عنه الكثير حتى تعطل بورع كاذب، أو بجهل ساحق أو بجبن فاضح، مع أنه أحيانا يكون فرض عين وأحيانا يكون فرض كفاية وأحيانا يكون مندوبا، وقد أدى تعطيله بالتالى إلى ضياع الإسلام فى أرضه وسيطرة أهل الفساد، وغلبة أهل الأهواء ، لذلك كان لابد من إحيائه علما وعملا إذا أريد للأمة الإسلامية البقاء.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: (الجهاد ثلاثة: جهاد بيد وجهاد بلسان ثم جهاد القلب فإذا كان القلب لا يعرف معروفا ولاينكر منكرا نكس وجعل أعلاه أسفله).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبى بعثه الله من قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدرون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمنون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» (مسلم).

هل يوجد وصف لحكامنا فى مصر والبلاد العربية أبلغ من هذا التعبير (يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمنون).

كذلك روى مسلم عن عبادة ابن الصامت قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول الحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم) لاحظ أن البيعة تكون لكل مؤمن وليس للقادة أو نخبة (أولى الأمر).

روى الحاكم ورمز السيوطى لصحته الحديث التالى: (من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين) وهكذا فإن فرض حكام ووزراء غير صالحين على الأمة خيانة.. وهو ما يستدعى المقاومة من أجل التغيير، ويرى الحنفية أن الإمام إذا فسق يستحق العزل إذا أمكن عزله بالوسائل السلمية وهذا توجيه صريح من الرسول ﷺ.

فى حديث رواه أبو داود: (أعجزتم إذا بعثت رجلا فلم يمضى لأمرى أن تجعلوا مكانه من يمضى لأمرى) فإذا كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) يحض على عزل السيء من العاملين معه، فكيف نقبل فى أمة الإسلام أن يفرض علينا وزير عميل أو داعر أو شاذ جنسيا ونصمت.. إننا إذن من الآثمين.

الجهاد أفضل الأعمال بعد الايمان :

سئل الرسول عليه الصلاة والسلام أى العمل أفضل؟ فقال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا قال: «الجهاد فى سبيل الله» (البخارى ـ مسلم).

ويقول عليه الصلاة والسلام (فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة الجارية والأمر والنهى) (البخارى ومسلم).

عن يزيد بن أبى عبيد قال: قلت لسلمة ابن الأكوع: على أى شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال على الموت. (البخارى ومسلم).

ولاحظوا أن يوم الحديبية لم يكن يوم قتال.. بل يوم صلح.. ولكنها نية المسلم.. كل مسلم.. فى مبايعته لله ولرسوله.

ويتكرر هذا المعنى عند أحد الصحابة: انطلقت بأبى معبد إلى النبى ﷺ ليبايعه على الهجرة قال: «مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد» فلقيت أبا معبد فسألته فقال: صدق مجاشع (البخارى ومسلم).

وكان ذلك بعد الفتح حيث لم يعد للهجرة محل.

وقال النبى ﷺ يوم فتح مكة (لاهجرة ولكن جهاد ونية فإذا استنفرتم فانفروا) (البخارى ومسلم).

حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» (البخارى ومسلم).

وفى مسند أحمد عدد من الأحاديث التى تقطع بمسئولية عامة المسلمين عن المنكر والمعروف.

(١) «إن الله عزوجل لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلاينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

(٢) «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم».

(٣) «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحضن على الخير أو ليستنكم (ليستأصلنكم) الله جميعا بعذاب، أو ليأمرن عليكم شراركم، ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»، أى أن سيادة الأشرار على مقدرات الأمة هى نتيجة التخلى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو نوع من العقاب الدنيوى.

وفى الحديث الشريف أن نبينا ﷺ سئل: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم، إذا كثر الخبث».

وأيضا (والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) (أى بنى إسرائيل).

وروى ابن ماجة أن الرسول ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف ونهيا عن المنكر أو ذكرا لله تعالى».

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انكم على بينة من ربكم مالم تظهر فيكم سكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش، وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله، فإذا ظهر فيكم حب الدنيا فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون فى سبيل الله، القائلون يومئذ بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار».

هل تكفى هذه الأدلة الشرعية من السنة الشريفة لتأكيد أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرع رئيسى من الجهاد، وأنها من الصفات الأساسية للمؤمن، وأنها فريضة على كل مؤمن صحيح الإيمان؟! اعتقد أنها كافية ولكن لماذا لانزيد الأمر تأصيلا من نصوص القرآن الكريم.

الفصل الثانى

(فى القرآن الكريم) الله يأمر المؤمنين كافة أن يكونوا مجاهدين

فى الفصل الأول تحدثنا من واقع السنة النبوية الشريفة لتأكيد أن الجهاد صناعة الأمة الإسلامية بأسرها، وأن الجهاد من صفات المؤمن أى مؤمن وليس القادة فقط، وأن الجهاد لايقتصر على حمل السلاح ضد المعتدين من الخارج، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو جهاد الداخل فى المجتمع الإسلامى لإصلاح الاعوجاج أو الانحراف أو الكفر البواح الذى يعترى السلطات فى الدولة المسلمة. والآن ننتقل إلى القرآن الكريم.

ونبدأ فى القرآن من مصطلح الجهاد وسنجده متكررا ٣٢ مرة، وسنجد أن سياق هذه الآيات لايقتصر على الجهاد المسلح ضد الغزاة الخارجيين أعداء الدين، فالجهاد فى القرآن ـ كما فى السنة ـ معنى أشمل من ذلك بكثير.. إنه مصطلح جامع يجمع كل مايتعين على المسلم أن يبذله دفاعا عن دينه ونصرة له وتمسكا به، وبالتالى فهو جهاد بالنفس والمال والولد ضد أى خطر ممكن أن يحيق بالدين، وهو جهاد باليد واللسان والقلب.

ورغم أن آيات الجهاد التى جاءت فى سياق الحرب أحكمت صياغتها بحيث تكون ـ فى أغلبها ـ صالحة لهذا المفهوم العام.. ولكن منعا لأى التباس.. وتقصيرا لوصولنا إلى الهدف المنشود من هذه الدراسة فإننى سأركز على الآيات التى جاءت بعيدا عن سياق الحرب والغزوات، وإن كانت تصلح لها أيضا إذا نظرنا للجهاد بالمعنى الشامل المشار إليه.

*****

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ③ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ④ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑤ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٦].

سورة العنكبوت مصنفة على أساس أنها مكية، رغم أن بعض المفسرين يقولون إنها مدنية، ومهما يكن الأمر فإن السورة مطبوعة بالطابع المكى وهى لاتشير إلى حروب أو قتال، ولكنها تركز على الفتنة والإيذاء الذى يتعرض له المؤمنون (فى القسم الأول من السورة دون أى حض على القتال) رغم أنها تصلح للتوجيه فى كل الأحوال، أما معانى هذه الآيات فلايختلف حولها المفسرون.. وهى واضحة بذاتها.. ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ معنى عام وشامل لايقتصر على الجهاد المسلح،كذلك فإن الخطاب واضح أنه لعموم المؤمنين.. وليس لفئة أو نخبة والمرجح أنها نزلت فى المعذبين فى مكة كعمار بن ياسر الذى تعرض للتعذيب، ليغير آراءه ومعتقداته.. وليس لأنه حمل السلاح للإطاحة بسلطة المشركين السياسية.

ومعنى الآيات واضح فى أن الفتنة التى يتعرض لها المؤمنون ليست مسألة عرضية طارئة، ولكنها مسألة أقرب ماتكون إلى الناموس المتكرر، وأن الله قدرها لاختبار المؤمنين وتمحيصهم فى الحياة الدنيا، ومن أجل الفرز، فلا كان للإيمان مصداقية إذا لم تكن الآخرة هى مراد المؤمن حقا وصدقا وعملا، الإيمان علامة فارقة بين حب الدنيا، وحب الآخرة.. والإيمان درجات وقد يعتوره الوهن والخلل بل وقد يخترق النفاق صفوف المؤمنين، لذا فإن الفتنة والتحديات الجسام، هى وسيلة هذا الفرز بين المعكسرين: معسكر الصادقين ومعسكر الكاذبين، وفى الفتنة فإن الموقف الوسط ينكشف، كما يفتضح أمر النفاق والمنافقين، الذين يظهرون غير مايبطنون.

*****

سنجد الآية الأخيرة فى سورة العنكبوت تنتهى كما بدأت ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولايوجد معنى أعمق من ذلك وأشمل، أنها تشمل كل واجبات المسلم من الاصطبار على الصلاة وتلاوة القرآن إلى كافة الفروض التعبدية، إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلى مجاهدة النفس ضد الشهوات إلى مجاهدة العدو بالسلاح. وقد جاءت فى أعقاب آية ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحيوان هى الحياة الحقيقية، مرة أخرى الخطاب لجموع المؤمنين.

*****

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وسورة الحجرات كلها لم ترد فيها أى اشارة للحروب أو الغزوات، ولكنها فقط تتضمن التشريع الخاص باقتتال المؤمنين ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾وبالتالى فإن الإيمان الصادق غير المشوب بأى أرتياب مقترن بالجهاد بالمال والنفس.

*****

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

هذه الآية الكريمة تأتى بدورها خارج سياق القتال، وتضيف معنى بالغ الخطر والأهمية، إذا أعطاه الإسلاميون الاهتمام الواجب لما جنحوا إلى التواكل كلما تم الاعتداء على الدين والمقدسات.. فيقولون لاتخشوا على دين الله ويستشهدون بالآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ويقولون لاتخشوا على القرآن فإن الله حافظه.. نعم هو حافظه بجهاد المؤمنين، وليس من خلال معجزات..

ولذلك فإن استنام المسلمون ولم يبق من عقيدتهم إلا الأسم وبعض القشور، فإن الله

يحفظ دينه باستبدال هذه الأقوام بغيرها، وقد تكرر هذا المعنى فى آيات أخرى، إن التخلى عن الجهاد معناه التخلى عن الإيمان الصادق. وهنا نشير أيضا إلى توسع خطباء المساجد فى الدعوة ضد الظالمين، وأن يطلبوا من الله أن يقضى على إسرائيل، دون أن يقرنوا هذه الدعوات بالحض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضد الظالمين (جهاد الداخل) أو الحض على الاستعداد لمقاتلة إسرائيل (جهاد الخارج) ونلاحظ هنا تعبير (لايخافون لومة لائم) بينما ساد بين المسلمين فى كثير من البلاد ومنها مصر، قيم الالتواء وإخفاء المواقف المستقيمة، والتعلل بآيات مثل (لاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) بينما هى آية تصف الذين لايجاهدون بالمال!! أى هى آية (أو شطر من آية) لاتحض على الجبن والاستخزاء وإظهار غير مانبطن، أو الانبطاح أمام الباطل بدعوى الخوف على الرزق والأولاد..

*****

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

تجمع هذه الآية الكريمة بين جهاد الخارج ضد الكفار وبين جهاد المنافقين فى الداخل الذين أبطنوا الكفر واشدد على الفريقين فى جهادك، الذى يكون بالقوة والكلمة ضد الكفار، والكلمة ضد المنافقين، والمعروف من سيرة الرسول ﷺ أنه لم يقتل المنافقين فى المدينة.

*****

﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذه آية مكية بما يقطع بأنها نزلت قبل أن يشرع الله لرسوله الكريم قتال الكفار والمشركين وبالتالى فإن مصطلح الجهاد القرآنى أصبح محسوما أنه لاينحصر فى القتال أو الإعداد المباشر له، والمقصود بـ (وجاهدهم به) أى جاهدهم بالقرآن الكريم جهادا كبيرا.

*****

﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وَجاهدوا في سبيله لعلَّكم تفلحون﴾ [المائدة: ٣٥].

ولا تعليق لنا على هذه الآية الكريمة التي تؤكد نفس المعاني السابقة.

*****

﴿وَجَاهِدُوا في اللَّه حَقَّ جِهَاده هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عليكُمْ في الدّين منْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْرَاهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمين من قَبلُ وَفي هَذا ليَكُون الرَّسُولُ شَهيدًا عَلَيكُمْ وتَكُونُوا شُهداء على النَّاس﴾ [الحج: ٧٨].

ورغم أن هذه الآية مدنية إلا أنها تستخدم تعبيرات ﴿وَجَاهِدُوا في اللَّه حَقَّ جِهَاده﴾ وهى قريبة من تعبيرات الآية المكية ﴿وجاهدْهُم به﴾ أى القرآن. ولذلك فإن التفاسير تقول عن هذه الآية أنها تعنى: جاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الله وإبتغاء مرضاته حتى تنتصروا على أعدائكم وشهواتكم لأنه سبحانه قربكم إليه واختاركم لنصرة دينه وجعلكم أمة وسطا، وبطبيعة الحال بقدر ما أنتم مجاهدون وليس مجرد حاملى لقب «مسلمون» هذا الجزء من الآية، كان يبكى الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أوقف مرة أحد الصحابة عن استكمال تلاوة القرآن التى طلبها الرسول ﷺ عندما وصل إلى هذا الموضع، لأنه بكى وبلغ به التأثر مبلغه، نعم ففى هذا المعنى لب الرسالة، الرسول شهيد على المؤمنين، والمؤمنون شهداء على الناس.. كل الناس فكيف بأمة هذا قدرها.. أى أن تكون حجة على الناس.. أن تكون أمة من الضعفاء والجبناء الذين يخشون أن يقولوا لمرتكب المنكر هذا منكر فكف عنه؟! إنها إذا لم تفعل ذلك طرحت من جديد قضية الاستبدال.

*****

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣٣].

وحول أسباب نزول هذه الآية تشير بعض التفاسير إلى أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون أنه لا يضر مع (لا إله إلا الله) ذنب، كما أنه لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل. وهذا

المعنى مهم جدا لأنه أصبح شائعا الآن أن يتخلى المسلمون عن رسالتهم بدعوى الاكتفاء بالشهادتين، أو بالقول بأن «الله غفور رحيم» كتكئة للتفلت من أداء الأمانة، وهو نوع من تحريف الكلم عن مواضعه.

نخلص إذن أن الدستور القرآنى والسنة الشريفة المكملة له، وضعا الأساس البين الشامل لمعنى الجهاد، بحيث أصبح الجهاد قرين الإيمان الصادق، باعتباره ذروة العمل الصالح الذى قرنه الله بالإيمان فى شتى مواضع القرآن. وهذا ينقلنا لمعنى الجهاد الداخلى وتفصيله فى الفصل الثالث.

الفصل الثالث

معنى الآية الكريمة: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)

نتقل فى هذا الفصل خطوة إلى الأمام.. إلى جهاد الداخل.. إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما ورد فى القرآن الكريم باعتباره لازمة من لوازم الإيمان، وصفة أساسية للمؤمن.. أى مؤمن! وقد ورد النص بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ١٦ مرة فى القرآن الكريم (من بينها مرة واحدة خاصة بالعلاقة بين الأزواج).. ونذكر القارئ أن ورود الحكم مرة واحدة فى القرآن كاف للإلتزام به، ولكن التكرار يحمل معنى التأكيد والأهمية.. كذلك فإن مئات الآيات تصل بنا إلى نفس الإلتزام فى هذا الموضوع بدون استخدام ألفاظ (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فكل الآيات التى تحض على طاعة الله ورسوله تصب فى ذات المعنى بالإضافة لمعانى أخرى بالطبع، كذلك بعض الآيات التى تروى قصص الأنبياء.. إلخ إلخ.

ولكننا سنتوقف الآن عند الآيات التى تنص صراحة على «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» هذا المصطلح الربانى الشامل الجامع المانع.

الأصل فى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» أن الله لم يخلق الأنسان سدى، فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو القائل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فإن الله سبحانه

وتعالى هو الذى أوضح لنا فى محكم كتابه المعنى الشامل للعبادة وأنها لاتقتصر على الصلاة وباقى الشعائر، فإن الله عزوجل لن يزيده شيئا من هذه العبادة ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، فالمقصود إذن أن يؤدى الإيمان والعبادات المفروضة إلى ترقيق قلب المؤمن فيعمل صالحا.. ويصلح الدنيا وهذا هو المعنى الأساسى للخلافة فى الأرض.

إن الاصلاح هو الهدف التالى والمباشر للإيمان، بل إن الله عزوجل يقرن بينهما بصورة لا انفصام بينها.. وهذا منطقى، وإلا ما معنى أن ينهى المسلم صلاته، ثم يقوم ليقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، أو يذهب لعمله ليرتشى، أو يذهب إلى المحكمة ليدلى بشهادة زور، أو يسب جاره، ماذا سيأخذ الناس من صلاته؟ إنه بئس المسلم، وأسوأ دعاية للإسلام، أما الله عزوجل فإنه لن يأخذ من صلاته شيئا، وإن كان هذا لاينفى أن الله يحب عباده المخلصين.. حتى إنه جل شأنه يصلى عليهم.. أى والله يصلى عليهم ولكننا لانعرف كيف؟ ففى سورة البقرة الآية:١٥٧] ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فصلاتنا نحن المخلوقين إلى الله هى دعاؤه والتوجه إليه بالعبادة، أما صلاة الله على عباده الصابرين مطلقة من أى شرح محدد إلا ما تشيعه الكلمة فى النفس من أنها أعظم درجات التكريم والحظوة والمقامات العالية التى لا يرقى إليها إلا الصابرون وأقرأوا إن شئتم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أيها القارئ العزيز أرجو أن تستجمع فى هذا اللحظة كل حواسك وعقلك لأننا نتحدث فى مسألة مفصلية من شئون العقيدة.. لقد ركز القرآن الكريم على الصلاح والإصلاح حتى أنك لن تجد فى القرآن الكريم متكررا بعد لفظ الجلالة والإيمان.. إلا الصلاح فستجده موجودا بمشتقاته ١٥٩مرة فى القرآن الكريم.. ولاحظ أن هذا الاحصاء لايتضمن آيات تشير لهذا الهدف الجامع (الصلاح) بألفاظ أخرى: العدل ـ الأحسان ـ البر ـ إلخ.. إلخ، وإن كان الصلاح أشمل من كل هذه المعانى ويضمها جميعا، ولذلك كرر القرآن الكريم عشرات المرات: حوالى ٥٢ مرة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فالصالحات تشمل الخير.. كل الخير.

آيـات آل عـمـران :

آيات سورة آل عـمران حول الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر هى مفتـاح هذا الفصل.. ومـفـتـاح هذه الدراسـة كلهـا، ومن المهم أن نربط هذه الآيات بالسـيـاق الذى وردت فـيـه لتوضيح خطر وأهمـية «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» كعصب جـوهرى للحفاظ على لحمة الأمة الإسلامية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٥].

ونفهم من هذه الآيات وبعد استطلاع كـتب التفسير الرئيسية أنه بعـد أن دعا الله سبحانه وتعالى الأمـة الإسلاميـة إلى التجـمع وعدم التفـرق والتمـزق، وأن ذلك لا يكون إلا حول الكتاب والسنة، دعا القرآن الكريم أن مثل هذه الوحدة والمحافظة الدائمة عليها هى أمانة فى عنق الصفوة من علماء الأمـة ومفكريها وقادتها، فأمر أن يكون دائما فى الجـماعة طائفة تنبه إلى ذلك وتدعو له وتحذر من مغبة التفرق، والفتن والخلافات العنيـفة، وذلك بأن تدعو إلى الخيـر وتأمر بالمعـروف وتنهى عن المنكر وقد فـسر جـمهـرة من المفسرين حـرف «من» التى وردت فى (ولتكن منكم) بأنها للتخـصيص، أى أن هذه مهمة العلماء والمتـفقهين فى الدين بالدرجة الأولى، وبهذا المعنى فإن الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه الآية هو فرض كفاية، أى يتولاه فريق من الأمة وإلا أثموا جـميعا، وهذا ما ورد فى القرآن الكريم: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ولكن بعد ذلك بقليل نقرأ الآية التالية فى سورة آل عمران:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آية: ١١٠].

فهل هنـاك تعارض بين الآية الأولى رقم ١٠٤ التى تتـحدث عن أمة بمعنى جمـاعة من المؤمنين فى إشارة واضـحة إلى الصفـوة من العلماء والفـقهاء والعـارفين، والآية رقم ١١٠ التى تشير إلى الأمة ككل دون تخصيص؟! (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُون.....) .

بعد الاطلاع على التفاسـير الرئيسية هدانى الله إلى التصور الآتى وهو ليس متعارضا مع ما ورد فى هذه التفاسير ولكنه يربط بين ماورد فيـها مع ترجيح متفاوت لبعض العناصر فى هذه القضية الكبرى، كما وردت على لسان كبار المفسرين:

لاتعارض بطبيعة الحال بين الآيتين بل هما يكملان بعضـهما البعض.. فقـد بدأ القرآن بالصفوة لأنهم الأساس، فهم العارفون بالعلوم الشرعية وهـم ورثة الأنبياء وهـم قادة المجتمع (أولو الأمـر) وبالتالى فـهم حجـر الزاوية فى مسألة الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر.. وبالذات فى القضايا الكبرى التى لايصح ولايجوز الأفتاء فيها بدون علم، وهم أهل الذكر، وبدونهم وبدون أجتهـادهم المتجرد لوجه الله تعالى، يضـيع الدين فى هذا البلد الإسلامى أو ذاك، مؤقتا على الأقل أو يبهت إيمان أهله.

يعود القرآن الكريم لينسب الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر للأمة بأسرها، باعتبار أن هذه أهم صفـة وميزة تتـميز بهـا أمة الإسلام، حـتى لقد وضع الله عز وجل الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر قـبل الإيمان كنوع من التأكـيد الشديد على خطر هذا الأمـر، وأن الإيمان بدونه لا يكون صـادقا. رغم أن الترتيب المنطـقى الذى يرد عادة فى معظـم الآيات هو سبق الإيمان على العـمل الصالح ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ إلخ.

إذن هذه الآية تستـهل بالثناء على المسلمين واستحـقاقهم أن يكونـوا خير أمـة أخرجت للناس يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر، أى أن هذا شرط لازم للمسلمـين فى كل زمان ومكان ليستـحقوا أن يوصفوا فى مـجموعهم بالمسلمين، وهـكذا ألزم الإسلام المسلمين، لا

يقفوا عند حد الأعتناق، بل وأن يكونوا دعاة للحق والخير. وشاء الله أن يبدأ بذكر «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» كما قلنا إظهارا لأهميته وخطورته فى سلامة المجتمعات ولكى يبرأ المجتمع الإسلامى مما تردى فيه المجتمع اليهودى: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

لماذا لا يوجد تعارض بين الآيتين؟! لأن أساس وجوهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة الصفوة والقادة، ولكن هذا التكليف لا يسقط تماما عن كل مسلم، ففى بعض الأمور يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو فرض عين (أى فرض على كل مسلم).. الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دوائر متواصلة تبدأ من دائرة صغيرة ثم دائرة أكبر فأكبر.. وهكذا. والشرط ألا يتصدى مسلم لهذا التكليف الا فى حدود علمه ومعرفته بالدين والدنيا، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يبدأ بأشياء يعرفها كل مسلم، فرب الأسرة يأمر أهله بالصلاة والصوم وينهاهم عن ارتكاب المحرمات المعروفة لكل مسلم، ثم محيط الحى كما يحدث عندما يمنع مسلم الأطفال من تعذيب حيوان أليف فى الطريق العام، أو يفض مشاجرة أو يصلح بين أثنين، ثم محيط العمل حيث يحض المسلم زملائه على أتقان العمل، وينهى زميله عن الرشوة أو الاختلاس أو السرقة إذا علم بنواياه فى هذه الاتجاهات، ثم تأتى دائرة أخرى فى أى تجمع خارج العمل (وسائل النقل العام - النادى - الجمعية.. إلخ.. إلخ)، ثم تأتى دائرة الوطن ثم تأتى دائرة العالم الإسلامى.. ولا شك أن فى هذين المستويين يحتاج الأمر إلى الصفوة بدرجة أكبر حيث تكون الأمور أكثر تعقيدا، ومتصلة بتشريعات أو قرارات وسياسات عليا. والقضية ليست تقسيما جغرافيا، فقد تكون هناك مشكلة داخل الأسرة تحتاج لفقيه لحلها (كمشكلة ميراث معقدة)، وكذلك الأمر فى كل الدوائر المشار إليها.. فليس المقصود هو التوزيع المكانى، ولكن التمييز على أساس بساطة القضية أو تعقيدها، ومن الممكن أن تكون هناك قضية قومية تمس السياسات العليا، ولكن المواطن المسلم يمكن أن يبدى رأيه فيها.. دون التعمق فى الفقه.. كرفض تشريع يبيح الدعارة، أو كرفض اقتراح بالتحالف العسكرى مع إسرائيل!! وهكذا يظل كل مسلم داعية لدينه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فى حدود علمه وفى حدود القضية المثارة إذا كان يعلم بيقين

حكمها الشرعى، ولذلك فإن أمة الإسلام هى أمة دعوة.. ولهذا ساهم كل مسلم صالح فى نشر الإسلام فى أعماق آسيا وأفريقيا دون أن يكون خريجا من الأزهر، أو عالما من علماء الدين.

وسورة لقمان تبسط لنا هذا الأمر يفهمها أى قارىء..

ولقمان الحكيم يوصى ابنه، كما يجب أن يوصى كل أب ابنه.. ومن وصاياه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالصلاة مقرونة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويربط بعض المفسرين بين التصدى لهذه المهمة وما تلى ذلك فى الآية من إبتلاء ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ بسبب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأن (ذلك من عزم الأمور) أى معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها[١].. هذه الآية مهمة جدا فى تأكيد وجهة نظرنا.. فهذه السورة وما تضمنته من وصايا لقمان الحكيم لابنه، هى وصايا نموذجية من كل أب.. وإلى كل ابن، وهو ما يؤكد عموم الالتزام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل الأمة.

كذلك فإن الآية الكريمة التى تلعن الكافرين من بنى إسرائيل ترجع ذلك فى الآية التالية إلى أنهم ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩].

ويتناهون هنا تعنى عدم نهى بعضهم لبعض دون تخصيص لفئة معينة بل التهمة شائعة فى الذين كفروا من بنى إسرائيل ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ، ..﴾ [المائدة: ٧٨: ٧٩].

الفصل الرابع

رسالة الأنبياء.. والسلطة السياسية

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو جهاد الداخل، وأن الله سبحانه وتعالى قرن الإيمان بالعمل الصالح، وبذلك يصبح الجهاد هو ذروة العمل الصالح، وأن ذروة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (جهاد الداخل) هى فى أمر ونهى الحكام، وأن ذروة أمر ونهى الحكام ـ بعد الفشل فى إصلاحهم ـ هى الخروج عليهم وازاحتهم من أمانة الحكم، هذا إذن هو التسلسل المنطقى للأمر.. ودراستنا هذه متعلقة بالشأن العام، أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى القضايا الكلية العامة، وليس فى هذا أى تقليل من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الأمور الأخلاقية فهذه أمور لا غنى عنها لتماسك المجتمع الإسلامى بالحد الأدنى، وهى مكملة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شأن السياسات العامة للحكم (وهذه الأخيرة هى موضوع دراستنا وبدونها يتعرض المسلمون لفتنة.. وتتزلزل أركان المجتمع الإسلامى من القواعد) وعلى كثرة ما قرأت فى هذا الموضوع فإن أروع ما قرأته بعد القرآن والسنة ما كتبه الإمام أبو حامد الغزالى فى (إحياء علوم الدين) حيث وصف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بأنه : القطب الأعظم فى الدين، ولو طوى بساطه وأهمل عمله وعلمه، لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة،

واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، حتى إن الذى هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى الآية «يقصد الآية الكريمة» ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [التوبة: ٧١].

وترجع أهمية شئون الحكم من قرارات وسياسات وتشريعات إلى أنها تنعكس بتأثيرها على المجتمع الإسلامى ككل، إن خيرا وإن شرا، وهى إما أن تفتح طريق الصلاح للمسلمين أو طريق الفتن.

وفقا لمنهج السلف الصالح فإننا نبدأ بأدلة القرآن الكريم، والمنهج القرآنى بالغ الوضوح فى هذا الأمر ولكن بعض الناس لا يريد أن ينتبه لعظم المسئولية وضخامتها، فالواقع أن إصلاح الحياة الدنيا يتمحور حول قضية السلطة «السلطة السياسية» ولكن البعض يخشى من تسييس الدين وكأن القرآن قد حرم العمل السياسى!!

إن السلطة السياسية وما تشمله من تأثير على المجتمع ككل فى مختلف المناحى: الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية والعسكرية... إلخ.. إلخ، هى التى يستهدفها الإسلام.. فهى بمنزلة الرأس من الجسد إن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد! وهذا هو معنى التمكين الوارد فى القرآن الكريم وأهميته.. كأساس محورى لبناء المجتمع الإسلامى.. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦٥].

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤] .

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٥١].

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

لم يكن كل الأنبياء والرسل حكاما.. بل إن القصص القرآنى يقول إن معظم الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن استهدفوا إصلاح الحكام والمهيمنين على المجتمعات وحاولوا إصلاحهم وإدخالهم فى دين الله، وما يهمنا بالأساس سيرة الرسول الخاتم محمد ﷺ، لأن فيها النواميس النهائية إلى يوم الدين، فلم يكتف بالدعوة بل أقام دولة كان هو أول حكامها.. وبالتالى لم يعد للمسلمين خيار إلا أن يتأسوا برسولهم الكريم، وقد أجمعت الدراسات المعاصرة ـ حتى فى الغرب ـ على أن الدولة أمر لا غنى عنه، واندحرت النظريات التى حاولت أن تتحدى هذه السنة الآلهية فى العمران البشرى وعلى رأسها الماركسية التى بشرت بإلغاء الدولة، والفوضوية، وكل أشكال الإشتراكية الخيالية التى تصورت امكانية الاستغناء عن الدولة، وحتى نظرية آدم سميث التى حاولت أن تقصى الدولة عن الاقتصاد فقد ذهبت أدراج الريح.

إذن «السلطة السياسية» بالمفهوم العصرى للكلمة مفهوم محورى فى الإسلام والتى يشار اليها أحيانا بـ (أولى الأمر) لأنها الأداة الرئيسية للتمكين لدين الله فى الأرض والتخلية بين الناس وبين أختيار التوجه إلى الله، وحمايتهم من أى فتنة عن دينهم، وكما لخص الماوردى دور الدولة بأنه (حراسة الدين وسياسة الأمة).

وهنا نعود مرة أخرى إلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم، فهذه القصص ليست للتسلية أو التسرية عن النفس، وليست مجرد عبرة عامة «لأولى الألباب».

﴿ما كانَ حَديثاً يُفْترىٰ ولَكِن تَصْديقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ورَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾ [يوسف: ١١١].

لاحظوا إذن أن قصص الأنبياء فيها تفصيل كل شيء.. وفيه كما قال فقهاؤنا بعض التشريعات وليس مجرد أحكام عامة، لاحظوا مثلا أن تحريم السحر جاء فى إطار هذه القصص.. إلخ.. إلخ.

والآن لنطالع قصص الأنبياء من زاوية دراستنا «السلطة السياسية».. ولنتدرج معا.. ولنبدأ بقصة سيدنا نوح عليه السلام، ولقد أحتفل القرآن الكريم بقصة سيدنا نوح باعتبارها علامة فارقة فى تاريخ البشرية، وقد ورد ذكر اسم سيدنا نوح ٤٣ مرة فى القرآن الكريم، ولكننا سنتوقف من قصته على ما يخصنا فى هذه الدراسة.

ونوح لم يتول السلطة فى قومه.. ولكنه سعى لإصلاحهم بكبرائهم وعامتهم.. ولكنه كان بلا شك القائد العام للمجتمع الجديد الذى أسسه بعد الطوفان وإن كان القرآن الكريم قد أكتفى بالقول:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨].

ولكن الأهم من ذلك، فإن تفاصيل القصة (ونحن لا نخرج عما ورد فى القرآن إلى أى روايات أخرى غير موثقة) يركز على مقاومة كبراء قوم نوح لدعوته إلى الله.. إن السلطات السياسية هى التى تتصدى عادة لدعوة الأنبياء إلى الإصلاح.. لأنها تعتبر الدعوة انتقاصا من صلاحياتها وسيادتها.. وما يترتب على ذلك من متع دنيوية:

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]

والملأ هنا بمعنى الكبراء، أو أشراف القوم، أو الخاصة، وفى هذا إشارة صريحة إلى

السلطة السياسية وما يحيط بها من علية القوم، والأثرياء وذوى النفوذ.. ومن المهم أن نتذكر تعبير «الملأ» لأنه سيتكرر فى قصص أخرى تالية.

ويواصل القرآن الكريم التوضيح:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

فالكبراء ينعون على نوح أن أتباعه من سفلة الناس وأقلهم جاها ومالا وهذا أمر غيرمشرف.. وهذا يكفى لنصد عن دينك الذى تدعوننا اليه، ولأنهم سلطة سياسية وليسوا مجرد أفرادا متناثرين فقد توعدوا نوحا بالرجم:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

ويدعو سيدنا نوح ربه قائلا:

﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح:٢١، ٢٢].

وهنا ينعى نوح على الضعفاء الذين اتبعوا الكبراء والإشارة إلى المال والولد فيه إشارة للكبراء.. وكثرة المال والولد من أهم مظاهر عزهم، ومكر هؤلاء السادة بتابيعيهم من الضعفاء مكرا بلغ الذروة فى العظم، وهذه نقطة بالغة الأهمية، فرغم الدور السلبى المخيف للكبراء والسادة فإن هذا لا يعفى عامة الناس من الضعفاء أمام الله من المسئولية.. ونعنى بأهمية هذا المعنى أن القرآن الكريم بطبيعة الحال لا يتبنى فكرة صراع الطبقات فينحاز إلى الفقراء عامة.. ضد الأغنياء والسادة عامة.. فكل إنسان مسئول عن خياراته وهو مكلف.. وبالتالى فإن استكبار المستكبرين لا يقدم أى عذر للمستضعفين حين يسيرون فى ركابهم خوفا أو طمعا، حقا أن السادة من الكفار يفتنون الناس عن دينهم، ولكن الإنسان يختار بين الله الذى له الكبرياء حقا، وبين الحكام البشر الذين لهم السلطة والصولجان الدنيوى.. ويصدون عن سبيل الله.. والمؤمن يوقن أن الله أكبر من كل هؤلاء.. مهما تكبروا فى المدى القصير.

ولا شك أن اتباع الأنبياء فى بداية كل دعوة يكون معظمهم من الفقراء المستضعفين.. لأن مغريات الحياة الدنيا بالنسبة لهم أقل بكثير.. ومساواة البشر جميعا أمام الله تكون لصلاحهم وقد انتزعت منهم حقوق الآدمية، ولكن دين الله للجميع..

وبعض الكبراء يدخلون فى دين الله.. وكثير من المستضعفين ليقبلون على دين الله.. ويتبعون السادة والكبراء.. ولكن عندما يوطد الدين أركانه فإنه ينتشر بنسب أكبر بين مختلف الفئات الاجتماعية، وسنزيد كل هذه الخطوط العامة توضيحا كلما تقدمنا فى عرض باقى القصص القرآنى.

وفى قصة سيدنا إبراهيم وقد ورد اسمه ٦٩ مرة فى القرآن الكريم.. نجده فى دعوته قد دخل فى مناظرة مع الملك، وفى لقطة أخرى غير متصلة نجد كبراء القوم يأمرون بحرقه.. إذن فقد كان محور دعوته لله فى مواجهة السلطات المتكبرة والتى قررت فى النهاية بعد أن ضاقت بالحوار أن تتخلص منه كلية، وهذا مما لم يمكنهم الله منه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وفى سورة الأنبياء نقرأ حوارا مطولا بين كبراء القوم وبين إبراهيم بعد أن حطم آلهتهم.. وقد ضاقوا بالحوار:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٨، ٦٩]

فهؤلاء الذين أمروا بحرق إبراهيم لم يكونوا مجموعة شاردة أو على هامش المجتمع، بل هم أصحاب الأمر والنهى (السلطة السياسية بالمفهوم الشامل المعاصر) ولذلك فقد استدعوه أولا للمحاكمة:

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

وهذا مـا يقول به تفـسيـر المجلس الأعلى للشـئون الإسـلامـية الذى ضم كـبار العلمـاء والمفسرين فيقول فى تفسير هذه الآية:

قال كـبارهم: اذهبوا إليه فـأحضروه ليحـاسب على مرآى من الناس لعلهم يشهـدون ما فـعل، إن سيـدنا إبراهيم كان حلـقة أسـاسيـة مركـزية فى سلسلة الأنبـياء، وهو يسـمى أبو الأنبياء، لأن الله قال عنه:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وهكذا تصـادم أهل الحكم (بلغـة العصـر) مع سـيدنا نوح.. وكـذلك فـعلوا مع سيـدنا إبراهيم.. فهل توقفت هذه السنة الألهية.. لا.. بل تواصلت مع سلسلة الأنبياء حتى رسولنا الكريم محمد ﷺ..

• الحكام المستبـدون يواجـهون هـود وشـعيب وصـالح ولـوط

• النظـم الاستبداديـة لا تعيش إلا برضاء الناس وموافقتهم:

الدولة (السلطة السـياسـية بمعناها الشـامل) مسـألة محـورية فى المفـهوم البـشرى وفـقا للمفهـوم القرآنى، وقد تراوحت رسالة الأنبياء فى معظم القصص القـرآنى بين التمكن من السيـطرة السياسـية وإقـامة الخـلافة.. وبين الاصطدام مع السلطات السـياسية دون حـيازة التمـكين.. وهذا الاصطدام قد يكون الأنبـياء هم المبـادرون له.. (كتـحطيم سيـدنا إبراهيم لألهة قومـه).. أو يكون الحكام هم المبادرون بالعداء.. نظرا لأن الدعوة الجديدة ستجردهم من سلطانهم الكلى.. أو تضعه فى وضعه الطبيعى، ويمكن أن نقول إن الأنبياء هم المبادرون بالصدام.. بنشـر دعوتهم.. وهو ما يعـده الحكام الطواغيت صـداما، وليس هناك أخطر ولا أعمق من الصدام الفكرى، لأن المجتـمع يقوم بالأساس على مرجعية فكرية عـقائدية معينة، وهز هذه المرجـعيـة أو ضربهـا فى الصـميم هو الطريق الحـاسم لإزالة الهـيمنة التى كـانت معـقودة للسـادة، لأن سواد الناس إذا ما اقـتنعوا بالرسـالة الجديدة فـإنهم ينفصلون روحـيا ومـاديا عن مراكـز السـيطرة الطاغـوتية (التى تحكم بغـيـر ما أنزل الله)، ويتـم تحطيم العقد

الاجتماعى القديم الذى يربط بين الحكام والمحكومين، فى حين أن استتباب السيطرة قام أساسا فى المجتمعات على التسليم الطوعى للجمهور والاقتناع الضمنى والصريح بالنظام القائم، وأنه على الأقل هو البديل المتاح الواقعى، ولا سبيل غيره ولابد من التكيف معه، فأى نظام حكم لا يستقر إلا برضاء الناس، فإذا غضب الناس وانفصموا عن النظام فهذا هو طريق زواله.. فهم لن يعبدوا آلهة الحكام.. ويبنون معابدهم الخاصة، وسيتجهون لنظم لا يرضى عنها النظام.. ثم ينتهى الأمر بما يسمى العصيان المدنى.. أى رفض العمل بالجيش، ورفض دفع الضرائب.. فيسقط النظام.

غير صحيح أن النظم الاستبدادية تعيش بأجهزة القمع.. فهذه مجرد أداة مساعدة.. تستخدم لإطالة عمر النظام نسبيا.. وتأجيل التفاعل الاجتماعى، ولكنها لا تصلح فى النهاية وحدها لتثبيت النظام، فالنظام ـ أى نظام ـ يعيش برضاء الناس، برغبة الناس فى طاعته، وعدم الخروج عليه، لعدم اقتناعهم ببديل كحد أدنى، أو لاقتناعهم بالنظام فى حد ذاته على أساس (ليس فى الإمكان أبدع مما كان).. وقد عاشت النظم الشيوعية والفاشية والنازية وغيرها من النظم عبر التاريخ وفقا لهذه المعادلة.. أما إذا عدنا لمجرى حديثنا عن قصص الأنبياء.. فإننا نقصد من كل ما سبق التأكيد على أنه بمجرد دعوة الأنبياء لدين الله.. فإن طواغيت الأرض تستشعر ـ عن حق ـ بالخطر المحدق بسيادتهم، لأن هذه الدعوة تجتث سلطانهم من الجذور، بضرب الأساس الفكرى لنظامهم.. وهذه النظرية لا تختل عبر التاريخ، فحتى إذا كانت السلطات والدول فيما سبق ليست على نفس الدرجة من تعقيد الدولة الحديثة، فالمسائل نسبية وكل مجتمع له سلطة سياسية، حتى إذا كان هذا المجتمع مجرد قبيلة أو مجموعة من القبائل.

وبعد مرورنا بقصتى نوح وإبراهيم نواصل الآن مع قصة هود وقومه (عاد) بنفس المنهج فنحن نلتزم بما ورد فى القرآن الكريم دون غيره من الروايات، ونأخذ من القصص ما يعيننا على نسج هذه الرؤية التى ربما لم يركز عليهاكثير من المفسرين أو لم يخرجوا منها باستنتاجات حاسمة من خلال الربط بين وقائعها واكتشاف هذا الخيط الواحد الذى ينظمها.

ورد اسم هود ٧ مرات فى القرآن الكريم وهو الذى أرسله الله إلى قوم (عاد) الذين ذكرهم القرآن ٢٤ مرة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

ومعنى الآية: تلك عاد أنكروا الحجج الواضحة، وعصوا رسل الله جميعا، بعصيانهم رسوله إليهم، وطاعتهم لأمر كل طاغية شديد العناد من رؤسائهم وكبرائهم، أو بعبارة أخرى سار سوادهم وزعمائهم وراء كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم دون تفكير أو تدبر.

وتتواصل الآيات: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

ومعنى الآيات: أتشيدون بكل مكان مرتفع من الأرض بناء شامخا تتفاخرون به وتجتمعون فيه لتعيثوا وتفسدوا، يريد سبحانه تنبيههم إلى ما ينفعهم وتوبيخهم على ترك الإيمان وعمل الصالحات (١٢٨)، ثم وتتخذون قصورا مشيدة منيعة وحياضا للماء مؤملين الخلود فى هذه الدنيا كأنكم لا تموتون (١٢٩)، وإذا أخذتم أخذ العقوبة أسرفتم فى البغى جبارين تقتلون وتضربون غاضبين بلا رأفة (١٣٠).

وهذه الآيات ترسم صورة بالغة الروعة لنمط تفكير الطبقات الحاكمة المستبدة التى لا تحكم بما أنزل الله.. إنها طبقات مترفة، تعيش فى أبهى القصور.. وتشيد أفخر المبانى لأفرادها، وتبطش بطش الجبابرة بكل من يقف فى طريق استئثارها بالسلطة والمال والجاه والنفوذ.. كما تكشف هذه الآيات التقدم الحضارى الذى لم تنقله لنا الآثار عن الأزمان الغابرة.. إلا أنها ترسم صورة لما نحياه ونراه بأنفسنا لحكام معاصرين.. لا يكادون يخرجون من قصر إلا لقصر آخر.. ويحولون قصورهم إلى جنة أرضية.. ويتلاعبون بالطبيعة فيشقون بحيرات صناعية لتصل المياه إلى حيث يريدون.. ويفضلون بناء قصورهم على الربى العالية، أو على شواطىء الأنهار والبحار.. فى نفس الوقت لا يرحمون عامة الناس ويذيقونهم سوء العذاب، ولا تأخذهم شفقة وهم يبطشون. وهكذا نجد خطاب هود إلى

قومه.. وهو يتمحور حول السلطة السياسية ومن يقبلها ويتبعها من الناس صغارا كانوا أم كبارا.. حيث يخضعون لها ولعقائدها الفاسدة.

ولكن يبقى أن أصل الداء متوطن فى رأس المجتمع.. فى السلطة، وهذه الصورة لقوم عاد نعود فنقرأ عنها:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

أما الاستكبار والتباهى بالقوة من سمات الطبقات الحاكمة التى لديها من الأسباب ما يدفعها إلى الأغترار والغرور. حين يستخدم القرآن الكريم لفظ (عاد) دون تحديد أحيانا، لأن الإثم يعم على الجميع، فإذا قبل عامة الناس توجهات الفئات الحاكمة والمتنفذة فإنهم يأثمون معهم. والآن ننتقل إلى (مدين).. و(شعيب) الذى أرسله الله إليهم.. وقد ورد ذكر (مدين) و(شعيب) ١١ مرة بالقرآن الكريم، ولنقرأ الآيات:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

أى أن الكبراء الذين استكبروا تصدوا لدعوة شعيب واستنكفوا أن يتبعوا الحق وهددوا شعيبا ومن آمن معه بالطرد من القرية، فهم السلطة الآمرة الناهية، أما البديل الآخر ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ حتى يأمنوا استمرار المصالح الدنيوية واستقرارها. وعندما رفض شعيب هذا العرض الخسيس لجأوا لتهديد أنصاره:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠].

فقد خافوا أن يكثر المهتدون مع شعيب بظهور قوته وثباته على دعوته فاتجه كبراؤهم الكافرون إلى تابعيهم يهددون قائلين: إن طاوعتهم شعيبا فى قبول دعوته، إنكم لخاسرون، وتتواصل الآيات:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٤] .

ولا يجب أن نحصر الآيات فى التاجر الذى يبيع بالميزان ويطفف فحسب، فهى آية لكل الفئات.. وهى تدعو إلى العدل عموما، وعدم بخس الناس أشياءهم وعدم الإفساد فى الأرض.. والكبراء دائما يتحملون القسط الأعظم فى أنتشار الظلم أو العدل بحكم نفوذهم وتأثيرهم وقوتهم، وهم أشبه بتاجر الجملة الذى يطفف فى الكيل، والكل سيحاسب.. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. ولكن أصحاب النفوذ تكون آثامهم أكبر.. لأن تدميرهم للمجتمع أكبر.. وإفسادهم أعظم.. وهذا لا يعنى أن مجرم «التجزئة» سيعفى من الحساب، أو سينجو من النار، ولكن هذا يعنى أن أى خطة قويمة للإصلاح، لابد أن تستهدف رأس المجتمع، وتعطى لذلك أولوية خاصة، دون أن يتعارض ذلك مع توجيه الدعوة العامة للجميع، وضرورة الإصلاح من الجذور.. فى شتى قواعد المجتمع.. بل إن هذا يكون مقدمة ضرورية لعزل الرأس الفاسدة، وإقامة الحكم الصالح (الخلافة).

• ثمود :

أما عن (ثمود) قوم (صالح) فقد ذكروا فى القرآن الكريم ٢٧ مرة ولكننا نتوقف عند موضعين:

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٢- ٨٤].

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

نجد فى هذه الآيات نفس الوصف للطبقات المتجبرة.. التى تفسد فى الأرض ولا تصلح.. رغم عدم استخدام هذه الآيات للفظ (الملأ) إلا أنها ترسم صورة مماثلة لصورة أهل

(مدين).. ومرة أخرى فالقوى المسيطرة هى المسئولة عن الإفساد فى الأرض.. كذلك نجد أوصاف الحياة المترفة.. التى تنطبق على المترفين فى كل المجتمعات.. وكل العصور.. وكأن الآيات تتحدث عن ناطحات السحاب فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو المبانى الفارهة فى موسكو الشيوعية.. التى لم تغن قوم الشيوعية شيئا.. و﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تعبير قرآنى بليغ.. لا يشير كما يبدو ظاهريا إلى مجرد الكسب المالى.. بل كل ما يكسبون من مظاهر المنعة والقوة كالحصون، والنفوذ المادى والأدبى وبطبيعة الحال ما يكسبون من ثروات وأموال أيضا.

• قــوم لـوط :

وقد ورد ذكرهم وذكر (لوط) ٢٧ مرة فى القرآن الكريم، وسنجد محور الصراع يدور بين نبى الله، وبين قومه بقيادة القوى المسيطرة..

فكما هدد كبراء (مدين) بطرد (شعيب) فإن كبراء قوم لوط هددوا بطرده والمؤمنين معه:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد بلغ طغيانهم إلى حد أن قال لوط:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

معظم قصص الأنبياء يجمعها هذا الخيط.. والآن نصل إلى قصة محورية فى القرآن الكريم.. هى قصة موسى وفرعون التى أفرد لها القرآن الكريم مكانا عظيما وليس ذلك بدون مغزى بطبيعة الحال.

• قصة موسى وفرعون تشرح دستور الطغيان وتؤكد أن مقاومته فريضة

• لماذا ذكر اسم فرعون ٧٤ مرة فى القرآن .. وهى أكثر من ذكر جميع الأنبياء عدا موسى

موسى وفرعون.. هى القصة الأزلية لحياة البشر فى الدنيا.. لم يلتفت كثيرون لهذا التركيز الكبير للقرآن الكريم على هذه القصة المبثوثة فى طول القرآن الكريم وعرضه.. فى كثير من السور..

لماذا أخذت كل هذا الحجم من الاهتمام والعرض بصيغ مختلفة.. وأحيانا دون أضافة جديد عن آيات سابقة.. إنه الإلحاح والتركيز.. صراع الكفر والإيمان.. الحق والباطل.. ولكن المتمحور حول السلطة السياسية، ولم يكن سيدنا موسى بطبيعة الحال قائد ثورة تستهدف الإطاحة بنظام الحكم وتنصيب نفسه ملكا، لا بطبيعة الحال ولكنه استهدف إدخال السلطان (فرعون) فى دين الله فى الحد الأقصى.. أو التخلية بين الناس وبين الدين الجديد فى الحد الأدنى.

ولكن هيهات كيف يقبل المتكبر - الذى لم يدخل الإيمان فى قلبه إلا فى لحظة غرقه حيث لاينفعه إيمانه فى هذه اللحظة - كيف يقبل المتكبر أن يسود الدين الجديد.. بينما كان هو (فرعون) المرجعية العقائدية والفكرية لشعبه.. حتى لقد أصبح يعبد من دون الله.. حتى لو فترت همته فإن المحيطين به يحرضونه خوفا على وضعهم ومصالحهم:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

إذا لم تكن لاحظت - أيها الأخ الكريم - فمن حقك أن تندهش غاية الاندهاش من هذه الحقائق البسيطة، فقد ورد أسم فرعون فى القرآن الكريم ٧٤مرة.. أى أكثر من ورود ذكر أسماء الأنبياء والرسل جميعا عدا موسى الذى ارتبط بالجهاد ضد فرعون!! فقد ورد اسم موسى ١٣٦ مرة أما أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم فقد ورد أسمه ٦٩ مرة، يليه نوح ٤٣ مرة، وعيسى ٣٣ مرة، وشعيب ١١مرة، وهود ٧ مرات، وبالمناسبة فإن سيدنا محمد ﷺ ورد أسمه فى القرآن ٥مرات (٤ مرات محمد، ومرة واحدة أحمد) وهذا فى حد ذاته إعجاز خاص يفضح تخرص المستشرقين بإدعائهم بأن محمدا ﷺ قد كتب القرآن، فلماذا إذن لم يحاب نفسه ويكتب اسمه على الأقل أكثر من أى نبى أو رسول أو حتى أكثر من فرعون ذى الأوتاد، أما موضوعنا فهو التساؤل عن هذه الحكمة فى كتاب أحكمت آياته.. فى أن يرد اسم فرعون وبالتالى قصته أكثر مما ورد عن كل الأنبياء عدا موسى المرتبط به بقصة واحدة.. ولا يرد فى ذهن مسلم أو فى ذهن أى قارىء للقرآن، أن فى هذا أى نوع من التكريم لفرعون.. بل إن القرآن لم يوبخ شخصا أكثر من فرعون موسى.. إن هذا يؤكد أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يربينا ويعلمنا ويرشدنا.. إلى أن أصل الداء، هو فى طغيان

السلطة السياسية، وحيث لايتجسد حب الدنيا، والاقتتال عليها، بأكثر من تجسده فى حب السلطة والطغيان والتسلط على العباد مع الاستئثار بالتمتع بمتاع الحياة الدنيا وملذاتها إلى حد السفه والترف.

الله عزوجل هو الذى وجه موسى لهداية فرعون لدين الله ورده عن الفساد الذى عم فى الأرض على يديه، حيث يرتبط الكفر بالفساد أيما ارتباط:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ ـ ١٩]

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

وعندما استكبر فرعون عن آيات ربه.. هدد موسى بالقتل وبالسجن كما يفعل كل الطغاة من قبله ومن بعده حتى يوم الدين:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]

وهذه هى المرة الوحيدة التى ورد فيها ذكر السجن صراحة فى القرآن خارج سورة يوسف.

• دستور الطغيان:

قصة فرعون تروى دستور الطغيان فى كل زمان ومكان:

(١) عبادة الحاكم:

النظام الفرعونى يقوم على أساس تأليه الحاكم، غير أن عبادة الحاكم وتأليهه يمكن أن تأخذ أشكالا متعددة، فربما لا يقول صراحة: أنا الله ولكنه يقولها عمليا والبطانة التى حوله

تقولها.. فهو لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل كلماته حكم، وهو لايخطىء أبدا فى شاردة أو واردة، وهو ملهم، ومن المستحيل مراجعته:

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

من يلتقى به أو يصافحه يكون قد ناله الشرف الذى لم ينله الأولون ولا الأخرون، وهو لاينام لأنه سهران على مصالح الشعب، وإذا حدث خطأ من الدولة فليس هو المسئول عنه بل بعض أتباعه من الأراذل والحمقى. صوره فى كل مكان، الشعر والأغانى الوطنية مرتبطة باسمه، ثم جاء أختراع الإذاعة والتليفزيون ليكرس هذه العبادة، وهو إذا اتصل بالهاتف بشخص ما يصبح هذا أهم خبر، وإذا وصلته برقية تهنئة روتينية يمكن أن تكون مانشيت الصحف، وتتصدر نشرات الأخبار، وإذا أومأ بوجهه، أو حرك يديه أو عينيه بصورة معينة، فهذا مجال الاجتهادات فى التفسير عن المغزى العميق.. وتسمى كل الأشياء بأسمه: فيطلق اسمه على المدارس والمعاهد والمصانع والمدن والجمعيات ومختلف الهيئات والمشروعات التى ما كانت تقوم لها قائمة دون إرادته السامية، وتوضع صورته حكما فى كل مكتب إدارى، أما الأهالى فيتسابقون فى وضع صوره فى المحلات التجارية خوفا من مفتشى التموين، ومنعا للأذى، وتصبح صورته كالتميمة المقدسة، وإذا ذكر اسمه فى محفل عام فلابد أن يعقب ذلك التصفيق أو التمتمة ومصمصة الشفاه والتأوه خشوعا وطمعا ورهبا.. وفى بعض بلدان الأستبداد يصل الأمر إلى وضع صور الحاكم داخل المساجد وفى إتجاه القبلة وكأنهم يصلون له، أقول ذلك حتى لا يتصور أحد أن قصة فرعون هى مجرد قصة من قصص التاريخ.. أيضا فإن الطغاة المعاصرين لايموتون.. بمعنى أنهم لايتصورون أنهم سيموتون، ولايرتبون أحوالهم على ذلك الاحتمال المستبعد، وكذلك فإن التابعين لايضعون هذا الاحتمال فى تصورهم ويتعاملون مع الحاكم الإله وكأنه سيعيش أبدا، ولذلك عندما يموت هذا الحاكم تحدث حالة من الذهول بين الكبار والصغار على السواء ويتساءلون: أحقا مات؟! وتقول الروايات فى وفاة ستالين طاغية روسيا الشيوعية الذى كرس مسألة عبادة الحاكم..أنه لم يكتشف موته إلا بعد عدة أيام، لأن الحراس والمسئولين ما كان مخولا لهم الدخول عليه، دون أن يستدعيهم.. ولما غاب عدة أيام تجرأوا فى الدخول إلى جناحه

بالقصر فوجدوه ميتا! ولعلهم تساءلوا ساعتها أحقا يمكن أن يموت ستالين؟! وقد رأينا كيف كرست الشيوعية التقدم فى الطب لإطالة عمر الرؤساء إلى أرقام مذهلة حتى ظلوا يحكمون وهم خشب مسندة، ولكن إرادة الله كانت أكبر من كل ألاعيب الطب.. فماتوا فى النهاية!! كذلك تمتد ألوهية وقدسية الحاكم إلى أسرته.. فإذا كان هو بمنزلة اوزوريس فلماذا لاتكون زوجته إيزيس وابنهما حورس!! فتصبح قرينة الحاكم بدورها لاتنطق عن الهوى.. ولاتخطئ، ويقال عنها إنها إذا لمست التراب تحول ذهبا.. أما عن حورس فحدث ولاحرج.

لنستحضر إذن هذه الصور المعاصرة لتأليه الحاكم والمنتشرة فى عالمنا العربى والإسلامى وعالم الجنوب عموما ونقرأ الآيات التالية لنرى كم هى منطبقة عليها:

فعندما آمن السحرة بموسى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]..

وهكذا تحولت قضية إيمان السحرة برب موسى وهارون.. إلى قضية أمن دولة.. لأن المقصود هو هز الأستقرار والسلام الاجتماعى فى المدينة. وشق الوحدة الوطنية.. ومحاولة منكورة لقلب نظام الحكم.. وهذا هو مبلغ علم فرعون.. وها هو منظوره كطاغية مستبد لهذه الدعوة الجديدة. وقد تكررت الكلمات الماضية لفرعون ٣ مرات فى ٣ سور مختلفة بالقرآن الكريم كذلك: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]

ولأن فرعون ـ كأى مستبد ـ لايرى صوابا سوى نفسه وحكمه فمن الطبيعى أن يرفض أى دعوة تحوله إلى حاكم بشر ليس له أى قدسية، بل عبد من عباد الله كغيره من البشر.. فيقول: (ما علمت لكم من آله غيرى) (ما أريكم الا ما أرى) من خلال وسائل الإعلام وخطبه المقدسة والمسئولين الأماجد الذين يرددون أقواله دون آيات القرآن الكريم.. وفرعون يحتقر هذا الرسول الكريم لأنه لايملك مالا ولاقوة مادية فكيف يتسنى له أن يتحداه!! ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

(٢) رضاء الناس هو سبب استقرار النظم الطاغوتية:

النظم الاستبدادية الطاغوتية (أى التى لاتحكم بما أنزل الله)، أوضحنا أنها تستمر ويستتب لها الأمر برضاء الناس أولا قبل الجنود.. وقبل هامان (الذى يرمز لمعاون الحاكم الطاغية).. وكلنا جميعا نعرف الآية الشهيرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.. وفى قصة فرعون وموسى نجد آية حاسمة فى هذا المعنى الذى شرحناه من قبل: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

فالطاغية لايستطيع أن يحكم بالاعتماد على القوة المادية للجنود.. لابد من رضاء جموع الناس، وتعاونهم مع الحاكم، فهو لن يستطيع أن يوفر جنديا لكل مواطن ، كذلك فإن أنفضاض الناس سلبيا ثم إيجابيا عن الحاكم يؤدى إلى عزله وسقوطه، فإذا استطاع أن يستخف بعقول قومه ويقنعهم بمواقفه والإطار الفكرى والعقائدى لنظامه، فإنهم يطيعونه، وهم بذلك يصبحون شركاءه فى الإثم والفسق.

والآيات المتعلقة بقصة موسى وفرعون تتنوع لتوضيح هذه الحقيقة الأزلية.. التى لاترتبط بفرعون موسى إلا على سبيل المثال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود ٩٦، ٩٧].

وإذا كانت هذه الآية تشير إلى الخاصة وكبار القوم فإن الآية التالية عامة فى قوم فرعون:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

والتى جاءت فى أعقاب الآية التى تصف هلاك فرعون وجنوده.. والمعروف أن الجنود يكونون من عامة الشعب.. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].

(٣) ليس كل أهل الحكم كفارا.. وليس كل المستضعفين مؤمنين:

محور الصراع كان بين الدعوة والسلطة الغاشمة.. فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وملئه، لأن السلطة كانت فى يده لأن الحديث كان مع فرعون أولا رغبة فى إيمان

من خلفه بإيمانه، ولكن كان رأى فرعون ومن حوله من كبراء القوم (السلطة الحاكمة بالمعنى السياسى والاقتصادى المعاصر) أن موسى وهارون سينالان تأييدا شعبيا وزعامة دينية لأن الدين غالب فى نفوس الناس أجمعين، ويصبح ملك فرعون صوريا، بعد تصديق الناس برسالة موسى، فهم خوفا على ملكهم وجبروتهم وتسلطهم حاولوا منع أتباعهم من الإيمان تمسكا بالملك والجبروت وكراهية لكل رسالة إصلاح ودعوة وإيمان فقالوا:

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

أى لن نصدق برسالتكما لأنها ستسحب بساط الملك من تحت أقدامنا وهكذا يتعلل فرعون وملؤه بهذه التعليلات، فقد كان الملك والسلطان أهم عندهم من الهداية والإيمان.

وماذا كانت المحصلة إذن:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] وذرية بمعنى جماعة وإن تغلب عليها صفة الشباب، ومن الواضح أن الملأ (علية القوم) لم يكونوا عموما من المؤمنين.. بل عاندوا الحق.. وما ورد فى القرآن يشير إلى إيمان جمهرة السحرة، وهم أقرب إلى النخبة المشقفة منهم إلى الحكام، ولكن القرآن الكريم أشار صراحة إلى إيمان قلة من طبقة الحكام.. وهى قلة ضئيلة رمز لها القرآن برجل مؤمن من آل فرعون، وبإمرأة فرعون، التى كانت فى الأصل هى الداعية لاحتضان موسى وتربيته طفلا.. أما الآيات التى تشير إلى ذلك:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].

ولنلحظ هنا مسألة كتمان الإيمان.. وهى مسألة شائعة فى الطبقات الطاغوتية، لأن إعلان الإيمان يعنى التصفية الجسدية ولا أقل.. فهى الخيانة العظمى للنظام الطاغوتى.. ثم عادت الآيات تشير إلى نفس الرجل دون أن تسميه:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

وقد يكون هو الشخص الوحيد.. وقد يرمز ذلك لأقلية بالغة الضآلة، نحن نرجح المعنى الأخير.. لأن القرآن الكريم أشار إلى شخص ثانى على الأقل:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وفى المقابل فليس كل عامة الشعب ممن يدخل فى معسكر الإيمان، وليس المقصود بذلك جنود فرعون.. بل كل جمهرة الناس.. التى أطاعت فرعون واستجابت له، وهؤلاء مصيرهم فى الدنيا والآخرة كمصير فرعون وملئه.

وكما ذكرنا فقد كان الحد الأقصى لدعوة موسى إدخال فرعون وملئه فى دين الله.. فلما لم يتحقق ذلك.. أتجه إلى تعميق الدين فى قلوب المؤمنين، وإحاطتهم بسياج إيمانى عقائدى حتى لا يذوبوا فى محيط مجتمع فرعون:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

ولكنه كان مدركا رغم هذا التوجيه الإلهى له.. أن فتنة السلطة الطاغوتية على المؤمنين رهيبة فدعا الله دعوة شبيهة بدعوة نوح:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وفى ذلك إشارة صريحة إلى ارتباط السلطة الغاشمة بالكفر.

(٤) نهاية الطاغية وضرورة المقاومة:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

فبعد إغراق فرعون وجنوده في اليم، شاء الله أن تطفو جثته على السطح ويراها بنو إسرائيل بأنفسهم ليتأكدوا من هلاكه.. وليتأكد الناس أنه لايمكن أن يكون إلها.. وأن هذه الميتة البشعة على مرأى الناس عقاب على ادعاء الألوهية، وتشير بعض التقديرات أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس (١٢٢٥ق. م) وأن جثته هي التى لاتزال موجودة فى متحف الآثار المصرية بالقاهرة.. (تفسير المنتخب).

ولكن ما يعنينا فى هذه الدراسة هو الاندحار الساحق لفرعون وجنوده، وسيقول قائل: أى عبرة فى ذلك وقد انتهت هذه المعجزات، ونقول العبرة فى هذه النهاية البشعة للطغاة.. وقد رأينا عشرات ومئات الأمثلة عبر التاريخ.. وأن نهاية الطغاة ستكون ومنذ بداية دعوة الإسلام بأيدى المؤمنين وبتوفيق الله.. وسنجد فى قصة موسى وفرعون كثيرا من الدروس فى كيفية مقاومة طغيان المفسدين.. فى مجال الأخذ بالأسباب.. ولقد أشرنا للتو إلى مسألة تعميق الإيمان فى بيوت المؤمنين.. وكذلك نشير إلى ضرورة مواجهة الطغيان بالدعوة.. باللسان والعمل الصالح مهما كان رد الفعل الاستبدادى، فرأينا أن إيمان السحرة لم يهتز عندما هددهم فرعون بالإعدام وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف فردوا قائلين:

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

ويشوه البعض رسالة موسى أو يحرف الكلام عن موضعه حين يشير إلى الآية الكريمة:

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه:٤٤].

وذلك بخلط القول اللين بالنفاق والكذب، والحقيقة أن المقصود بالقول اللين عدم التهجم على شخص الحاكم، وعدم استفزازه بصورة شخصية، وإعطائه واجب الاحترام الذى يليق بمركزه.. أما فى جوهر الموقف فلا مساومات ولاتزويق للكلام، ولاتمييع ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ـ ١٩].

وأنه عندما أحتدم الصراع والنقاش كان موسى صريحا وحاسما.. فبعد انتصار موسى على السحرة قال له فرعون:

﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً﴾ [الإسراء: ١٠١]

فلم يجفل موسى ولم يحاول أن يبحث عن كلمة دبلوماسية فكان رده: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٢].

مثبورا أى هالكا.. ليست هذه كل الدروس المستفادة من قصة فرعون وموسى، لأننا نركز على نقطة واحدة، هذا التلازم الشديد بين الدعوة وبين السلطة السياسية سلبا أو إيجابا، فالدعوة إلى الله لايمكن أن تصل إلى ذروتها وغايتها إلا إذا دخلت فى صميم بنيان العمران البشرى ولايتأتى ذلك إلا من خلال السلطة السياسية، وهذا ما يعود بنا إلى معنى التمكين الذى أشرنا إليه فى بداية حديثنا.

وليس ما تناولناه حتى الآن وما سنتناوله، هو حصر شامل لكل ما ورد فى القرآن الكريم بهذا الشأن، ولكننا نرى فيه قدرا كافيا لنواصل بحثنا حول جهاد الداخل (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).. ولكن لابد قبل ذلك أن نشير إلى بعض الآيات التى تحدثت عن ذلك دون ربطها بقصة محددة من قصص الأنبياء للتأكيد على أن ذلك الحديث هو من سنة الله.. ومن النواميس التى كرسها فى العمران.. بالإضافة إلى إشارة مركزة إلى سيرة رسول الله ﷺ خاتم النبيين من خلال ما ورد فى القرآن الكريم.

الفصل الخامس

القوانين القرآنية فى العلاقة بين صراع الكفر والإيمان.. والسلطة السياسية

والآن بعد أن استعرضنا معظم قصص الأنبياء من زاوية دراستنا.. وهى العلاقة بين رسالة الأنبياء والسلطة السياسية سلبا أو إيجابا.. نتوقف فى كنف بعض الآيات المبثوثة فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ التى تجمل القوانين الأساسية لقصص الأنبياء، ولمسيرة البشرية والمتعلقة بموضوعنا، وسنندهش أكثر ـ إذا لم نكن مدركين من قبل ـ هذه العلاقة الوثيقة بين الحركة الإصلاحية للأنبياء.. كدعاة من أجل رسالة الله.. لنشر الإيمان على الأرض، ومواجهة الكفر.. وبين السلطة السياسية.. ونحن نتعمد استخدام اللفظ المعاصر «السلطة السياسية» أو «الدولة» أو «الحكم» أو «الحكومة» كى نضرب فى الصميم فكرة عزل الدين عن السياسة أوالسياسة عن الدين، ولا يعنينا موقف الحكام لأن هذا الفصل من مصلحتهم، وحتى يتحللوا من كل قيود وضوابط الدين، وحتى يستبدوا كما يحلو لهم أن يستبدوا، ولكن يعنينا فى هذا المقام أن نتوجه للمؤمنين الذين اقتنعوا بهذا القول الخاطىء: وهو أن السياسة والدين موضوعان منفصلان.. والحقيقة نحن أمام طرفين لاغنى لأحدهما عن الآخر، فالدين هو المرجعية لإصلاح الدنيا، والسياسة ـ بمفهومها الحقيقى الشامل ـ هى الدنيا، فكيف نفصل الدين عن الدنيا، هل سنطبق الدين فى

مختبرات معملية، أو فى الصوامع، والزوايا، وأركان المساجد، ثم نضع الدين خلف ظهورنا حين نخرج من المسجد إلى الدنيا الواسعة، كل ما هنالك أننا أمام احتمالين فى مجال السياسة: سياسة فاسدة معادية لفكرة الدين والإيمان، وسياسة صالحة تلتزم بشريعة الله.. فقد راج مفهوم سطحي للسياسة مؤداه أن السياسة هى الألاعيب الحزبية للوصول إلى السلطة.. وألاعيب البقاء فى السلطة أو الصعود إليها.. دون هدف أو رسالة.. إلا مجرد الاستمتاع بهذه المكانة العظمى فى المجتمع وما تجره على صاحبها.. من جاه وسلطان ومال وحول وطول.. والسياسة هى كيف تحرق الخصوم وتضربهم. وتحقق لنفسك مكاسب إلى الأمام.. إلى آخر مفهوم السياسة الذى شرحه مكيافيللى فى كتابه «الأمير»، الذى أصبح دستور الطغاة، والطريف أننا فى قسم العلوم السياسية فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية درسنا أفكار مكيافيللى، ولم ندرس كلمة واحدة عن ابن خلدون أو أى مفكر إسلامى أو عالم إسلامى من أى عصر من العصور، وكأن مكيافيللى هو أبو علم السياسة.. فإذا كان هذا هو حال كلية العلوم السياسية، فإننا لانتعجب عندما يصبح المفهوم الشائع عن السياسة هو المفهوم المكيافيللى، أى أن السياسة هى الكذب والقتل والاغتيال وكل الأعمال اللا أخلاقية، وأن السياسة هى نقيض الأخلاق.. وبالتالى فإن السياسى الأخلاقى لن يكون سوى السياسى العبيط أو الفاشل.

وكما ذكرنا فإن التعريف الشامل الجامع للماوردي هو الطرح الصحيح للسياسة ودور الدولة (حراسة الدين وسياسة الدنيا).. فالسياسة بمفهومها الحقيقى، ليست مجرد التلاعب حول كراسى الحكم، هذا هو المظهر السطحى للعمل السياسى، والقشرة الرقيقة لغلافه الخارجى، فالسياسة (أو عمل الحكومة) تتصل بحياة الناس الاقتصادية.. والاجتماعية.. والثقافية.. فلايوجد شأن صغر أو كبر فى حياة الناس لايتأثر بسياسة الحكومة وطبيعتها، إلى أى مدى هى عادلة؟ إلى أى مدى هى ظالمة؟ إلى أى مدى يتسم الحكام بالرشد واتساع الأفق والادراك العميق لمشكلات المجتمع ومشكلات العصر؟ أو إلى أى مدى يتسمون بضيق الأفق والغباء والحماقة؟! ولعل تطورات الدولة الحديثة تساعدنا على فهم هذا الأمر، فلقد توغلت الدولة فى كل شيء حتى فى البلاد التى تدعى أنها ديمقراطية وأنها تأخذ

بنظرية حرية السوق.. ولكن الحقيقة أن دور الدولة كان حاكما عبر عصور التاريخ، فالدولة بأبسط معانيها هي بمنزلة الرأس من الجسد.. وكل تجمع بشرى له رأس فى صورة شخص أو هيئة أو مجموعة من الهيئات المتناغمة المتخصصة فى أعمال مختلفة، حتى إن كان هذا التجمع عشيرة أو قبيلة، وقد تأثر تاريخ الشعوب بالحالة الرشيدة أو البليدة لهذا الرأس الحاكم.. ولكن العصر الحديث أوضح المسألة بصورة لاتخطئها أى عين.. فإذا نظرنا لأحوالنا فى الأعوام القليلة الماضية.. تتضح لنا ما هى السياسة؟.

فى الأعوام القليلة الماضية.. الدولة هى التى حددت العلاقة بين المالك والمستأجر فى الريف، فأثرت فى معظم بنية المجتمع المصرى.. وهى التى أستحدثت طرائق جديدة فى الزواج والطلاق والعلاقات الأسرية (قانون الأحوال الشخصية)، وهى التى أستحدثت قانونا جديدا للمرور، وهى التى رفعت أسعار الخدمات (الهاتف ـ الكهرباء ـ المياه).. وهذه مجرد أمثلة تتعلق بالحياة اليومية، وبالبنية الاقتصادية، وبأساس العلاقات الاجتماعية (الزواج) فمن ذا الذى يتحدث بجدية.. ويقول «مالنا ومال السياسة.. دع السياسة للساسة».. أو أن يقول متدين «ليس للدين علاقة بالسياسة».. إذن الدين ليس له علاقة بالزواج والطلاق والميراث، والظلم الاجتماعى، وعلاقات الملكية، وفى هذا تفريغ للدين من مضمونه.

من الممكن أن يكون المرء لايحب السياسة أو لايفهم فيها، أو يخاف منها، وكل هذا محتمل، وربما مفهوم أحيانا.. ولكننى أعترض على التنظير والتقعير لأفكار خاطئة بالمعيار الدينى، وحتى بالمعيار السياسى الرشيد.

كان لابد من الاستطالة فى هذه المقدمة، فى إطار محاولاتى المتوالية، فى دراساتى المختلفة، لكسر الحاجز بين المؤمن والسياسة، أنا أفهم لماذا يزود عنها؟! ولماذا يشمئز منها؟! ولكنى أدعوه لنوع آخر من السياسة.. هى السياسة الشرعية، كما أذكره بأننى أتحدث عن الجهاد.. وهو أمر لا خيرة للمؤمن فيه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

والآن لنعد إلى آيات الله.. التي تستخلص القوانين العامة لحركة البشرية، والتي تربط الصراع المحوري بين الكفر والإيمان.. بمسألة السلطة السياسية.. وإلى من تنحاز هذه السلطة؟! فالتمكين لدين الله يصطدم بهذه القضية شئنا أم أبينا.

• في سورة البقرة:

نبدأ بآيات في سورة البقرة.. فهي تضع أساسا عميقا لموضوعنا محل البحث.. وهي غير مرتبطة بقصة من قصص الأنبياء، وهي تقدم القانون العام الصالح لكل زمان ومكان.. ولاشك أن هذه القوانين جاءت مبثوثة في قصص الأنبياء، ولكن ذكرها بدون واقعة محددة يعطيها معناها المجرد بصورة أكثر قوة وحزم، وحتى لا يتصور المؤمن أن هذه العبرة قد تنطبق على الماضي.. ولكن قد لاتصلح للمستقبل.. وهكذا فإن القرآن يكمل بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا، وما يبدو فيه من تكرار غير مفهوم ـ من الناحية السطحية ـ يصبح واضحا بالتدبر والتعمق.. وبفهم النسيج القرآني، ونسيج كل سورة، ويتضح لماذا جاء هذا الخبر في هذا الموقع ولماذا تكرر في هذا الموضع؟! وحتى إذا لم يكن هذا واضحا في بعض الأحيان، فإن التكرار هو درس من الله عزوجل، هو قرع الآذان المستمر على طريقة (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين).. وهذا هو منهج القرآن الكريم في المحاور الرئيسية له.. فهناك بعض الآداب تذكر مرة واحدة.. ولكن الإيمان والعمل الصالح والحياة الآخرة وما يرتبط بها من محاور رئيسية نجدها مبثوثة في مختلف أركان القرآن الكريم وسوره.. قرع مستمر للآذان.. ترقيقا للجلود.. وتهذيبا للنفوس.. وتوجيها للعقول.. ولكن ماذا نجد في سورة البقرة:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

والآيات معناها واضح وتتحدث عن نفسها، أي من الناس من يختلف الذي تضمره

قلوبهم عن الذى تنطلق به ألسنتهم، اوتوا حلاوة فى صوغ الكلام يعجبك قولهم فيما يحتالون به على جلب المنافع فى الحياة الدنيا، ويؤيدون لك زعمهم أن الله يعلم صدق قلوبهم فيما تقوله ألسنتهم، وأنهم أشد الناس خصومة لك وأقساهم عليك، وإذا تولى ولاية يكون له فيها سلطان لا يكون سعيدا للإصلاح بل للإفساد وإهلاك الزرع والنسل، والله لايحبه لأن الله تعالى لايحب الفساد، وإذا نصحت له حينئذ بالخوف من الله ثارت فى نفسه الحمية وظن ذلك هدما لعزته، وحمله على ارتكاب الإثم فيما نهيته عنه لجاجة وعنادا، فحسبه على ذلك عذاب جهنم وبئس المستقر.

والحقيقة أن المفسرين قد اختلفوا فى تفسير كلمة (وإذا تولى) إلى فريقين: فريق قال إذا تولى بمعنى خرج من عندك (أى من عند رسول الله ﷺ) سعى فى الأرض ليفسد فيها... إلخ، وأن هذه هى طبيعة الذى يمتلك القدرة على الخداع اللفظى.. أما الفريق الآخر فيرى فى معنى (إذا تولى) أى إذا تولى ولاية يكون له فيها سلطان.. وإن كنت أميل إلى التفسير الأخير لأسباب سأوضحها فى النهاية.. إلا أنه لايوجد تعارض بين التفسيرين، لأن النوعين من المنافقين موجودان: المنافق الفرد.. المنافق الحاكم الذى له السلطان، وكلاهما ينطبق عليه حكم الله (فحسبه جهنم).. ويقول الشيخ محمد عبده بعد عرض الاحتمال الأول (المنافق الفرد) كلاما بالغ الأهمية، لذلك سنقتبس منه مطولا لأنه سيغنى عن كثير من الشرح والتعليق..

يقول (والقول الآخر أن المراد بـ (تولى) صار واليا لـه حكم ينفذ، وعمل يستبد به، وإفساده حينئذ يكون بالظلم مخرب العمران وآفة البلاد والعباد، وإهلاكه الحرث والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة فى الأموال، وإما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم، ومن انقطع أمله انقطع عمله، إلا الضرورى الذى به حفظ الدماء، ولاحرث ولانسل إلا بالعمل.

وهذا الوصف ظاهر جدا فى تفسير التولى بالولاية والسلطة، فإن الحاكم المتكبر المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذر من مفسدة، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه

وعلاه يجعله أعلى الناس رأيا وأرجحهم عقلا، بل الحاكم المستبد الذى لايخاف الله تعالى يرى نفسه فوق الحق كما أنه يرى نفسه فوق أهله فى السلطة فيجب أن يكون رأيه خيرا من جودة آرائهم، وإفساده نافذا مقبولا دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له: أتق الله فى كذا؟ وقد كان العلماء ينصحون الخلفاء والملوك الإسلاميين فيأخذون النصح بحسب مكانهم من الدين، وأما الطغاة البغاة الذين ليس لهم من الإسلام إلا ما يخدعون به العامة من إتيان المساجد فى الجمع والأعياد والمواسم المبتدعة، فإنهم يؤذون من يشير إشارة ما إلى أنهم فى حاجة إلى تقوى الله فى أنفسهم، أو فى عيال الله الذين سلطوا عليهم، وإن لم يبق لهم من السلطان والحكم مايمكنهم من كل مايهوون من الإفساد والظلم، وحمل التولى على الوجه الآخر لايتنافى مع أخذ العزة بالإثم من جراء الأمر بالتقوى، فإن فى طبع كل مفسد النفور ممن يأمره بالصلاح والاحتماء عليه، لأنه يرى أمره بالتقوى والخير تشهيرا به، وصرفا لعيون الناس إلى مفاسده التى يسترها بزخرف القول وخلابته، ولكن التعبير أظهر فى إرادة الولاة والسلاطين، وقد بلغ نفور المفسدين فى الأرض من الحق والداعين إلى الخير إلى حد استثقالهم والحقد عليهم، والسعى فى إيذائهم، إذ يرون أن الدعوة إلى الخير والنهى عن المنكر ـ على إطلاقهما ـ كافيان فى فضيحتهم، وذاهبان بخلابتهم، فلا يطيقون رؤية دعاة الخير ولايرتاحون إلى ذكرهم بل يتتبعون عوراتهم وثغراتهم ليوقعوا بهم وينفروا الناس عن دعوتهم، فإن لم يظفروا بذلة ظاهرة التمسوها بالتحريف والتأويل أو الاختراع والتقول، ولذلك تجد طعن المفسدين فى الأئمة المصلحين من قبيل طعن الكافرين فى الأنبياء والمرسلين، إن فلانا مغرور لايعجبه أحد، خطَّأ جميع الناس، وصفهم بالضلال، سفه أحلامهم، شنع على أعمالهم، فرق بينهم، وما أشبه هذا.

هذه آثار المفسدين فى الأرض عند العجز عن الإيقاع بالآمر بالتقوى، وإن قدروا حبسوا وضربوا ونفوا وقتلوا، ولذلك قال عز وجل فيمن يأنف من الأمر بالتقوى ﴿فحسبه جهنم﴾ أى هى مصيره وكفاه عذابها جزاء على كبرياءه وحميته الجاهلية) (إنتهى الاقتباس).

هذه الرؤية تبدو كافية.. خاصة وأن كثيرا من العلماء المعاصرين فسروا الآيات فى نفس الاتجاه، ومع ذلك لا بأس من الاضافات فى هذا الإطار.

(١) كتاب الله أحكمت آياته كي تكون موجهة إلى العالمين فى كل زمان ومكان.. ولكل الناس من كل الفئات والطبقات، لذلك تستخدم الآيات تعبير (ومن الناس)، وبالتالى فإن الآية شاملة تحتوى المنافق الفرد داخل أو خارج السلطة، وتحتوى الحاكم أو ذى السلطان المنافق الفاسد، لذلك ذكرت فى البداية أنه لاتعارض بين التفسيرين لأنهما تمثلان صورتين لظاهرة واحدة (النفاق والمنافقون) ولكن ما نركز عليه أن إفساد الحاكم أو أى فرد من طبقة الحكام ذوى النفوذ، يكون تأثيره شاملا ومدمرا للمجتمع، فى حين أن الفساد الفردى خارج إطار السلطة يكون تأثيره محدودا وموضعيا.. فإذا أشرف الحاكم - مثلا - على تنظيم تجارة المخدرات وجمع أرباحها، وتكريس قوى الأمن لحماية هذه التجارة، فإن البلاء يكون عاما وشاملا، أما تاجر المخدرات بالقطعة أو تاجر المخدرات الذى ينشىء شبكة للتجارة (على طريقة القطاع الخاص!!) يظل تأثيرها فى دائرة معينة لاتتخطاها.. ولاشك أن الأثنين إثمان.. ومأواهما جهنم وبئس المهاد، ولكن المؤمن كيس فطن، ولابد أن يركز أنظاره وانتباهه وبالتالى مقاومته وجهاده فى المقام الأول للفساد الذى يأتى من ولاة الأمور.. لأنه يكون عاما شاملا عاصفا مدمرا، فاتنا للمؤمنين والمؤمنات، بصورة عظيمة.

(٢) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ لاتوجد أروع من هذه الصورة فى وصف ممارسات العديد من أهل الحكم فى البلاد الإسلامية.. لايوجد حاكم منافق فى دولة إسلامية، إلا ويجد من يدبج له الخطب والمقالات والكلمات، وهى كثيرا ما تأتى متطابقة مع الشرع.. تذوب فى معانى التقوى.. والخضوع لله.. مرصعة ببعض الآيات من القرآن الكريم (لامانع أبدا !!).. وأنت إذا أخذت هذا الكلام بجدية فلابد أن تدمع عيناك، ولو كان هذا الحاكم المنافق أمامك لأحنيت رأسك له وقبلت يديه باعتباره من أولياء الله الصالحين.. وهو لاينام طوال الليل سهرا على مصالح الأمة، ويستيقظ مبكرا قبل أن يستيقظ الشعب ليوفر له كل أسباب الحياة، وهو زاهد فى الحكم دائما، إلا أن الجماهير تتكأكأ عليه كى يبقى حتى لاتضيع البلاد والعباد.. وهو دائما يشهد الله، ويقول الله شاهد على ما أقوله وما أعمله من كذا وكذا.. وقد جاءت وسائل الإعلام الحديثة لتساعد الحكام المنافقين فى هذه التمثيليات، وأصبح هناك مخرجون

متخصصون فى هذا النوع من الفن السياسى المعاصر.. وقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية الرائدة فى هذا المجال، وهى التى اخترعت مسألة المعارك الانتخابية التليفزيونية.. حيث ينجح المرشح لوسامته وحسن إلقائه ولباقته وسرعة البديهة، وقدرته على إلقاء النكات الخفيفة الوقورة، والذى يحتضن زوجته برقة وحنان دليلا على الوفاء.. و لايخونها كل ليلة مع نساء واشنطن، ويظهر فى معية أسرته وأبنائه كأب مثالى، كما أنه من فرط إنسانيته يحب الكلب فلان والقطة فلانة... إلخ. إلخ.

ووصل الأمر إلى افتعال بعض الأحداث والقضايا، ووصل الأمر إلى حد أستخدام المكياج، واختيار مستشارين فى الملبس واختيار رابطة العنق، فى هذه الولاية يلبس كذا وفى الموقف الفلانى يلبس كذا.. والولايات المتحدة لديها من الترف ما يسمح بهذه الألاعيب فالمرشحون كلهم سواء، لا فرق جوهرى فى برامجهم، وهى لعبة «ديمقراطية» بمنزلة ملهاة لجماهير لاتسعى إلا لمجرد الاستهلاك ومزيد من الاستهلاك.. وحكام المسلمين بالاضافة لغريزة وحب البقاء فى السلطة، والخبرة الخاصة المختزنة فى هذا المجال (مجال الحفاظ على السلطة لامصلحة الأمة) بالإضافة لذلك فإنهم يتعلمون من وسائل أمريكا والغرب، فنون «التمثيل» السياسى، وتعلموا كيف يستخدمون التليفزيون والصور فى الصحف للظهور بمظهر التقاة والرهبان فى محراب الله وخدمة الناس.. وكثيرا ما نقرأ عن حاكم لم ينم طوال الليل لأنه سمع عن طفل مريض واحد.. رغم أن أكثرمن نصف شعبه مرضى.. ونرى صورة له (أو لقرينته) وهو (أو هى) تحتضن طفلا ويقبله، أو يحتضن رجلا من عامة الشعب.. وأما فى الحقيقة فهو ألد الخصام، أى فاجر فى خصومته لايرعى الله، ومستعد أن يقتل بلا حدود إذا رأى فى ذلك وسيلة بقائه فى الحكم، وأن يسجن بلا حدود، وأن يعذب بلا حدود، وأن يرهق شعبه من أمره عسرا، والأجهزة الإعلامية جاهزة لتنكر هذه الوقائع وتنفى حدوثها من الأصل، أما التى لايمكن نفيها، فتتحول إلى أدلة جديدة على عظمة الحاكم.. لأنه يحمى الشعب من أعدائه.

(٣) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ ونتوقف أولا عند معانى الحرث والنسل، الحرث هو الزرع، والنسل هو ما تناسل

من الإنسان والحيوان، وأصبح التعبير بإهلاك الحرث والنسل معنى شاملا لكل ضروب الفساد التى تقع على المزروعات والحيوانات والبشر وكل ضروب الإفساد المادى والمعنوى، ولاشك أن هذا المعنى ينطبق على كل مفسد فرد يعيث فى الأرض فسادا على أى نطاق صغر أو كبر.. ولكنه يشير بشكل أكثر وضوحا للشخص أو مجموعة الأشخاص التى تمتلك القدرة على إحداث هذا الدمار الواسع فى المجتمع (إهلاك الحرث والنسل).. الآية تنطبق على أى شخص شرير يهلك المزروعات أو يحرق دواب منافسه أو جاره أو سعيا للحصول على إتاوة.. إلى آخر ما يفعله أى بلطجى أو قاطع طريق أو زعيم عصابة إجرامية ولكن من غير المقبول أن تتركز أبصارنا إلى هذا النوع المحدود من إهلاك الحرث والنسل وتبتعد أفئدتنا عن ممارسات الحكام التى تؤدى إلى حالة إهلاك الحرث والنسل بالغة الإيذاء والتدمير للمجتمع. وقد قدم لنا العلم الحديث صورة مجسمة لهذا النوع من الجرائم.. لم يكن المفسرون الأوائل ليصلوا إليها.. فاليوم أصبح بإمكاننا أن نرى رؤى العين كيف تتحقق هذه الآية على أرض الواقع بصورة حرفية.. فبإمكان المجرمين المفسدين أن يهلكوا الحرث على مستوى بلد بأكمله.. وما حدث لقطاع الزراعة المصرى على مدار العقدين الماضيين نموذج حى لهذه الآية الكريمة: المحاصيل الرئيسية ضربت، فقدنا مليون فدان على الأقل بالتجريف، المزروعات التى ازدهرت وشاعت أتضح أنها تعتمد على الهرمونات السامة، والمبيدات القاتلة المحرمة دوليا، وأن إسرائيل ساهمت بشكل مباشر فى إرتكاب هذه الجرائم.. وقد امتد هذا التخريب إلى قطاع الأسماك والثروة الحيوانية والداجنة.. وارتفعت نسبة السرطان، والفشل الكلوى والكبدى إلى أعلى معدلات فى العالم.. وتقوم فى البلاد حملة للتبرع للأطفال المصابين بالسرطان، فمتى كان الأطفال يصابون بالسرطان فى بلادنا. ويتضح إهلاك النسل، فى التدهور الصحى العام لحالة الشعب المصرى.. بالإضافة للسعى إلى تحديد النسل، واستخدام وسائل ضارة لمنع الحمل، بدلا من تركيز الجهود على إعمار الأرض وتوحيد مصر مع عالمها العربى والإسلامى.

وقد قدمت دول الاستكبار العالمى ـ فى أسوأ استغلال للتقدم العلمى ـ الوسائل والطرق العلمية لإهلاك الحرث والنسل: الهندسة الوراثية، الهرمونات، معظم وسائل منع الحمل،

وضرب المحاصيل الغذائية فى البلاد الإسلامية والأفريقية ودول الجنوب عموما، واستخدام وسائل الحرب الكيماوية والبيولوجية فى إهلاك الحرث والنسل .. من خلال مواد كيماوية تبدو بريئة.. وقد ساهم الاستعمار الأمريكى من خلال وسائل الهندسة الوراثية فى ضرب حزام السافانا فى أفريقيا.. وهذا هو السبب الرئيسى وراء المجاعات فى هذه المنطقة.. والأمثلة لاتعد ولاتحصى.. وتخرج عن نطاق هذا البحث.. ولكننا نشير فحسب إلى الوقائع الجديدة التى تجسم وتعطى أبعادا وأعماقا لهذه الآية البليغة.. وهدفنا الأساسى أن نؤكد أن تلاوة هذه الآية يجب أن تصرف الذهن أولا إلى أصحاب السلطة والصولجان والنفوذ الذين يستحقون أن يطلق عليهم، ويكونوا أول من يطلق عليهم هذا الوصف (يهلك الحرث والنسل).

والله لايحب الفساد، فكيف يرضى المؤمنون بالفساد، إن القرآن الكريم يحرضنا دائما على مقاومة الفساد، والفساد لاينمو ويتحول إلى ظاهرة تطبق الآفاق.. إلا إذا كان تحت حماية وإشراف سلطة سياسية، وقد أشار القرآن الكريم لهذا المعنى والسياق ٤٥ مرة، هذا من ناحية لفظ الفساد، ولكن الموضوع مطروح فى القرآن بشكل أكثر اتساعا من ذلك بكثير.. فالكفر ليس قضية نظرية بل هو مرتبط بالفساد والإفساد فى الأرض.

(٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾: لابد من الإشارة إلى كثير من التجارب المعاصرة.. حيث رأينا الحكام المنافقين وضعيفى الإيمان.. فى كثير من الدول الإسلامية، لايتحملون المعارضة، ويعتبرون كلمة (اتق الله) سبا وقذفا وتطاولا على الذات الملكية أو الجمهورية.. رغم أن الله سبحانه وتعالى خاطب نبيه الكريم هكذا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١].

يعتبرون أن النقد إذا مسهم شخصيا يكون قد مس أسم البلاد وسمعتها، ومس الأمن القومى والاستقرار الداخلى وكل القيم النبيلة.. فقد حولوا أنفسهم إلى ذات آلهية.. وذكى هذا الملأ المحيط بهم والمرتبطة مصالحهم بتنزيه الحاكم عن أى نقد، وقد عرفت بعض الدول العربية والإسلامية نوعا من التعددية الحزبية والصحفية، ولكن كان دستورها غير المكتوب،

وقدس أقداسها عدم التعرض لذات الحاكم (وكأنه الفرد الصمد)، والعقوبات تتجاوز كل الحدود إذا تم الاقتراب من قدس الأقداس، وهذا ما حول كثيرا من التجارب الحزبية إلى ملهاة وعبث.. فأصبح فن المعارضة أن تبحث عن مسئول صغير (عمدة ـ رئيس مدينة ـ رئيس قسم) لتعارضه.. أما سقف المعارضة فيتمثل فى اختيار معارضة بعض الوزراء الضعفاء أما إذا وصلت المعارضة لبعض كبراء الحكم.. أو «للذات الألهية» الحاكمة.. فعلى المعارض أن ينطق الشهادتين وينتظر الشهادة.. أو عذاب أليم! لم يعد مسموحا لامرأة تقول لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين عمر بن الخطاب: لا.. فيتراجع، أو يحاسبه مواطن على طول ثوبه.. وأمام الجماهير علنا، فحكام المسلمين حاليا أعلى قامة ومقاما من الخلفاء الراشدين.. أو هكذا يظنون أنفسهم.. وهذا هو الشرك المعاصر.

من المهم قبل مواصلة الاسترسال فى رصد القوانين القرآنية فى مجال الربط بين القضية الأولى بل والوحيدة للبشرية، وهى صراع الكفر والإيمان.. الربط بينها وبين قضية السلطة السياسية بمعناها الشامل، أن نوضح أن قضية صراع الكفر والإيمان ليست مسألة محض نظرية.. وصراع فكرى مجرد. بل هى وثيقة الصلة بإصلاح أمور الدنيا أو إفسادها.. وبالتالى فإننا عندما نقول أن مسألة الكفر والإيمان هى المسألة الوحيدة.. نعنى أن كل أمور الدنيا بكل تعقيداتها متفرعة عن هذا الأصل الواحد.. فالعلم على سبيل المثال الذى يبدو منفصلا عن هذه القضية يثبت بالدليل القاطع أنه غير منفصل عنها.. حقا أن القوانين العلمية تتسم بالموضوعية.. وعندما يبحث الإنسان بصورة فردية أو جماعية متتبعا هذه السنن الإلهية فإنه يكتشفها.. ولكن كيف يوظف الاكتشافات العلمية.. هذه هى القضية.. فالذرة يمكن أن تكتشف لإبادة البشرية أو للاستخدامات السلمية الخلاقة.. وغزو الفضاء يمكن أن يغرى باستخدامه فى حروب مدمرة (حرب النجوم).. أو بكشوف علمية تعود بالخير على البشرية.. والاكتشاف الأخير المسمى بالجينوم البشرى يمكن أن يستخدم فى الخير أو الشر، وهناك علماء يؤكدون أن مرض الإيدز وليد إحدى المحاولات الشريرة لإنتاج فيروس فى المعامل الأمريكية فى إطار الحرب البيولوجية.

وبالتالى فإننا عندما نقول أن الكفر والإيمان هو قضية البشرية الوحيدة.. أو القضية الأصل التى يتفرع منها سائر الفروع.. فإننا لا نبسط الأمور.. ولا نختزلها.. أو نضيقها، بل نوضح المنهج القرآنى فى التعامل مع الحياة.. وكما فى مجالات العلم (العلوم الطبيعية) فإنه فى المجال الأكثر أهمية، المجال الاجتماعى ـ السياسى الذى يحكم تنظيم أمور المجتمع ككل بما فى ذلك مسألة البحث العلمى فى أمور الطبيعة، فإن صراع الكفر والإيمان ليس مجرد مسألة نظرية مجردة، فالصلاح بالمعنى الدنيوى الشامل (وليس بالمعنى المادى كما هو الفهم فى الغرب) يرتبط بقضية الإيمان.. والخراب والفساد وإهلاك الحرث والنسل قرين الكفر.. ولا يغرنا ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ تقلب الذين كفروا فى البلاد.. ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[آل عمران: ١٩٦ ـ١٩٧].. فامتلاك معسكر الكفر لأدوات التفوق المادى.. وإمكانية السيادة على معسكر المؤمنين.. هو آية من آيات العدل الإلهى. فقد وضع الله سننه للناس أجمعين ووضعت قواعد اللعبة فى مباراة صارمة لا تعرف المحاباة أو الوساطة أو التحيز.. فمن يأخذ بسنن العمران البشرى أفضل من الآخر يسود عليه، فإذا كان الغرب المادى قد أخذ بسنن العمران البشرى دون الإيمان بالله .. فقد ساد على معسكر المسلمين.. لأننا تخلينا عن الاثنين معا: السنن الاجتماعية.. والإيمان بالله.. ولا أقصد أن معسكر المسلمين قد كفر وخرج من دينه تماما، بل لقد ضعف الإيمان إلى أبعد حد.. واستبدلنا آية ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] بعد تحريف معناها خارج السياق القرآنى .. بكل آيات الجهاد فى سبيل الله.. وطالما أن إيماننا لا يرتقى خارج إطار الشعائر فسيظل إيمانا منقوصا.. أما الذين يكتمل إيمانهم فهم ينتصرون رغم الفجوة التكنولوجية والمادية التى يتعلل بها القاعدون.

أقول ذلك وقد انتقلت إلى المحيط العالمى.. الذى يحكمه أئمة الكفر (الحلف الصهيونى الأمريكى) لأوضح أن الكفر قرين الفساد.. فقد يقول العلمانيون: كيف وقد حدث كل هذا التقدم فى الغرب؟! وأقول لقد حدث كل هذا التقدم المادى بأبشع أشكال الفساد ضد الشعوب الأصلية (فى الأمريكتين واستراليا).. وضد شعوب المستعمرات المنهوبة، والخاضعة الآن للتبعية الجديدة، وهناك فساد داخلى بشع فى الغرب وأمريكا بشكل خاص

ولكن تغلفه أوراق سوليفان من شبكة إعلامية جهنمية لا تصور لنا حقيقة الأمور فى أعماق المجتمع الأمريكى.

وإذا كان الإيمان خارج معادلة الصراع.. فستكون القوة واليد العليا لمن أخذ بالجانب المادى لسنن الله فى خلقه. ولكن على المدى الطويل تظل الحضارة الإنسانية الأصيلة هى التى إرتبطت بالإيمان بالدين بمعناه الصحيح وليس بالشكليات والمراسم التى شاهدنا أبشع صور لها فى العصور الوسطى الأوربية، أو فى الإنحرافات التى أعترت بعض نظمنا الإسلامية.

وفيما يتعلق بدراستنا، فقد قرن القرآن دائما بين الكفر والفساد.. وهذا يعنى أن من يدعى الإيمان ويمارس الفساد فهو المنافق بعينه.. وبالتالى فنحن نتحدث عن الجواهر لا المظاهر. والفساد قرين السلطة والقوة والنفوذ.. فإما ينبت ويبدأ من السلطة أو يزحف عليها. وبقدر ما ابتعد المسلمون عن إدراك أهمية المفاصلة مع أئمة الكفر على المستوى العالمى.. بقدر ما ابتعدوا أيضا بدينهم عن قضايا السياسة والحكم الداخلية.. فخسر المسلمون على الجبهتين الداخلية والخارجية.. فهم يركزون مثلا على شخص (مثقف يسارى مثلا) يعاقر الخمر علنا.. أو يشتكون من إنتشار الدعارة بصورة مقننة أو مقنعة، وينتقدون كثيرا برامج التليفزيون، والأفلام الأجنبية، وينتقدون تبرج النساء، ولكنهم كثيرا ما يتجاهلون ممارسات الحكام وأقوالهم المنافية لأبسط قواعد الدين، ولا اعتراض على النقاط الأخلاقية السابقة بالطبع، ولكن هرم إهتمامات وأهداف الحركات الإسلامية ينبغى أن يعاد ترتيبه، ولا معنى ولا مجال لتأخير مواجهة السلطان بالحكمة والموعظة الحسنة، فعندما توجه موسى وهارون إلى فرعون، لم تكن لديهما أية قاعدة جماهيرية !! بل لقد تكونت القاعدة الجماهيرية بعد ذلك الموقف وحماية الله للرسل والأنبياء تمتد إلى المصلحين والأئمة وأولياء الله.. الذين يتصدون للطغاة منذ نهاية بعثة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حتى يوم القيامة.

لابد من إعادة قراءة القرآن الكريم على أساس التفكير فى المخاطر الرئيسية والأعداء الرئيسيين وليس فى بعض المنعزلين من أهل الكفر والإلحاد.. الذين ليس لهم خطر..

ولا تأثيـر فى مجـرى الصـراع.. إنمـا الذى يؤثر فى مـجـرى الصــراع فى المحل الأول الطواغيت.. المستكبرون الذين يملكون السطوة والصولجان والجنود والسلطان.. وإذا بطشوا بطشوا جبارين فهم يدافعون عن (جنتهم) الأرضية.. عن مصالحهم التى لايرون شيئا بعدها أو ما وراءها.

*****

• **سـورة آل عمران:**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢١ - ٢٢].

وسياق الآيات يتحدث عن اليهود، ولكن الحكمـة عامة، والحكم عام، فمرة أخرى نعود ونؤكد أن بـنى إسرائيل الذين فـضلهم الله على العالمين، فـإن ذلك لم يكن صكا إلهيـا أبديا غير مشروط، فإذا هم لم يلتزمـوا جادة الصواب، تحولوا إلى أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وكثرة حديث القرآن عن بنى إسرائيل ليس نوعا من التكريم، بل للإدانة والعبرة للمسلمين، فإذا هم فعلوا مثلهم يحق عليهم مـا حق على بنى إسرائيل.. ونتوقف فى هاتين الآيتين عند ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى يقـتلون الدعـاة إلى القـسط والعـدل السائرين علـى طريق الأنبياء، فـمن الذى يقتل حقـيقة فى عـالمنا الإسلامى المعـاصر (الذين يأمـرون بالقسط من الناس) وفى أغلـب الأحيـان إلا كثـير من حكام المسلمـين.. من الذى يحارب الدعوة إلى الخير والعدل والإيمان إلا هؤلاء الحكام المنافقون، ومن غـيرهـم يجفف المنابع الإسـلامية والدينيـة والخلقيـة فى التعليم والإعـلام، ومن يطارد الدعاة فى المسـاجد، وحـتى حلقات الدعـوة فى البيـوت.. ومن يؤمم المسـاجد ويحـولها إلى قطاع عـام.. ومن يقضى على منابر التعليم الإسلامية، ومن يغلق الصـحف الإسلامية إلا الحكام.. طبعا يمكن أن توجد جـماعات مارقـة فى أى زمان ومكان تحارب الدعاة وتـقتلهم، ولكن ليس هذا هو

المجرى الرئيسى للصراع، الصراع الرئيسى يدور بين الدعاة إلى القسط وبين الحكام المستبدين.

*****

• سورة الأنعام :

قبل أن أواصل المتابعة.. أذكر القارئ العزيز.. أننى لا أتقدم بتفسير جديد للقرآن الكريم، فالآيات واضحة بنفسها.. وأعنى تلك الآيات التى تتناول موضوعنا، كذلك فإن التفاسير القديمة والمعاصرة لاتختلف حول معناها أو تفسيرها، أما مهمتى فهى قاصرة على الربط والتركيب والاستخلاص من هذه الآيات.. وكيف تفضى إلى وجهة نظر واحدة متماسكة فى مسألة العلاقة بين قضية الكفر والإيمان.. والسلطة السياسية.. أما السلطة العادلة للمؤمنين فهى ما أشار إليها القرآن بالتمكين أو أولى الأمر، أما السلطة الكافرة فهى ما أسماه القرآن (الطاغوت) و(المستكبرين).

ويرجع إهمال هذه القضية رغم وضوحها الخطير فى القرآن الكريم، إلى العملية التاريخية للغزو الغربى الذى أقصى الدين عن السياسة، كذلك فإن بعض الفرق الإسلامية رأت أن من الصواب الابتعاد عن السياسة لحماية الأصول العقائدية للدين، ولإتاحة الفرصة لتربية الأجيال على أسس العقيدة الدينية، وقد كانت هذه الخطة سليمة بلا شك فى فترات زمنية سابقة أو فى بلاد معينة حتى الآن، ولكن الإصرار الدائم على هذه الخطة التى تؤجل الجهاد إلى أجل غير مسمى يؤدى فى النهاية إلى ضرب جوهر العقيدة الإسلامية.. إذن فقد حدث تفاعل بين إجبار السلطات الاستعمارية ثم السلطات الوطنية العلمانية على إقصاء الدين عن السياسة.. حدث تفاعل بين هذا الفصل الإجبارى وبين الفصل الاختيارى لبعض الفرق الإسلامية التى رأت فى ذلك أسلوبا تكتيكيا ماكرا لبناء جيش التغيير الإسلامى، بينما تحول هذا الفصل الاختيارى بين الدين والسياسة إلى حالة من التنظير الفكرى والفقهى لدى بعض الفرق الأخرى، بإعتبار ذلك هو الخط الإسلامى السليم بغض النظر عن الظروف.. وأضيف لكل ذلك.. أن بعض القائمين على المؤسسات الإسلامية الرسمية عمقوا هذا

الفالق بين الدين والسياسة، وراحوا يؤكدون أنهم لاشأن لهم بالسياسة، فى حين يظلون رهن إشارة السلطات إذا طلبت منهم غطاء دينيا لموقف سياسى.. ووعاظ السلاطين هؤلاء كثيرا ما يقولون الفتوى وعكسها.. وفقا للتغير السريع فى الموقف الحكومى.. وقد أدت كل هذه العوامل إلى تعمق الأخدود بين الدين والسياسة، فأصبح قليلا ما تجد فقيها فى الأمور الشرعية على دراية كافية بأمور الحياة الدنيا السياسية والأقتصادية والاجتماعية والعلمية، وفى المقابل أصبح قليلا ما تجد من يعمل فى السياسة متفقها بصورة معقولة، وبالحد الأدنى فى الأمور الدينية.. وهذه الفجوة ستحتاج إلى ردح من الزمان كى يتم ردمها وتجاوزها.. وإذا ركزنا على المتقين فى الجانبين فإن حل هذه الفجوة يفرض عليهم إنتهاج أسلوب الاجتهاد الجماعى من خلال عمل مؤسسى جماعى للشورى.. أما على المدى الأطول.. فإن ضرب هذه الازدواجية يتطلب إعادة النظر فى هياكل المناهج التعليمية فى المدارس والجامعات.. أى ضرب الازدواجية من الجذور.. وهذه هى المهمة العظمى للصحوة الإسلامية فى مرحلة التمكين.

ولكن دعونا بعد هذا التمهيد نتجه إلى سورة الأنعام .. ففيها سنجد آيتين تتحدثان بشكل صريح لايحتمل التأويل أو اللبس عن المعنى الذى أجهدنا ونجهد أنفسنا لإثباته فى الفصلين السابق والحالى ثم القادم بإذن الله.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣ ـ ١٢٤].

الآيات واضحة بذاتها، ولكن ماذا تقول التفاسير المعاصرة: تقول على سبيل المثال (لاتعجب أيها النبى إذا رأيت أكابر المجرمين فى مكة يدبرون الشر ويتفننون فيه، فكذلك الشأن فى كل مدينة كبيرة يدبر الشر فيها الأكابر من المجرمين، وعاقبته عليهم وهم لايشعرون ولايحسون بذلك. وإن هؤلاء الكبار من المجرمين يحسدون الناس على ما آتاهم

الله من علم ونبوة وهداية، فإذا جاءتهم حجة قاطعة لايذعنون لها ولكن يقولون: لن نذعن للحق حتى ينزل علينا الوحى كما ينزل على الرسل.. والله وحده هو الذى يصطفى برسالته من يشاء من خلقه. وإن هؤلاء المعاندين إذا كانوا يطلبون الرياسة بهذا العناد، فسينالهم الصغار والذل فى الدنيا بسببه، وسينالهم العذاب الشديد فى الآخرة بسبب تدبيرهم السيئ) (تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية).

ثم أنتقل سريعا لنقل نموذج من تفسير قديم (ابن كثير).. لنجد أن الآيات لا تطرح أى رؤية خلافية.. يوضح تفسير ابن كثير أن الرؤية التى نطرحها فى هذه الدراسة مستقرة، وأن مهمتنا هى الربط بين هذه الآيات.. ثم ربط هذه الرؤية بالواقع المعاصر لإدراك الفجوة التى ما زالت قائمة بين المسلمين والرؤية القرآنية.. فى الأمور المتصلة بجوهر العقيدة.

ابن كثير يقول: (وكما جعلنا فى قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ومعناه أمرناهم بالطاعات فخالفوا فدمرناهم، وقال مجاهد وقتادة أكابر مجرميها قال: عظماؤها (عن تفسير الطبرى).

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٤ - ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة طلبوا أن تأتيهم الملائكة كالرسل كقوله جل وعلا ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على

رجل عظيم كبير مبجل فى أعينهم من مكة أو الطائف). (انتهى الاقتباس من تفسير ابن كثير).

يربط ابن كثير بين نفس الآيات التى تناولناها أو سنتناولها، المهم أن هاتين الآيتين من سورة الأنعام تشير إلى القانون العام.. إلى أكابر المجرمين.. الذين حاربوا دعوة الأنبياء إلى الله.. فى كل المجتمعات.. فى كل العصور.. وهذا يعنى فى المقابل.. أن الدين لن يستتب له أمر إلا بالقضاء على كبار المجرمين هؤلاء.

*****

• سورة هود :

نواصل إبحارنا فى آيات الله.. التى جردت ووضعت القوانين العامة التى تحكم حركة المجتمعات من زاوية القضية الرئيسية: الكفر والإيمان.. وفى إطار توضيحنا السابق أن الكفر قرين الفساد، وليس معنى ذلك أن جهاد المؤمنين لإصلاح مجتمعاتهم يرتبط بالضرورة بمواجهة سلطة كافرة.. تعلن الكفر البواح رسميا، فكما أوضحنا فى دراساتنا.. أن الكفر درجات .. والإيمان درجات.. كذلك فإن السلطة التى تدين بالإسلام ليست معصومة من الإنحراف، كذلك فإن المجتمعات الإسلامية تشهد فى عصرنا الراهن أنواعا مختلفة من الأنظمة السياسية، فهى قد لا تعلن عداء سافرا للإسلام، ولكنها تبدو كسلطة منافقة، تعلن الإسلام بلسانها، ولا تلتزم به فى أفعالها، وهناك أنواع أخرى تلتزم ببعض الإسلام ولا تلتزم بالبعض الأخر، وهناك من يعلن الحرب السافرة على الإسلام دون مواربة .. وإنحراف كثير من الحكومات فى بلداننا الإسلامية فى زماننا المعاصر هذا يرجع لأسباب شتى.. منها الجهل بالإسلام، وذلك يرجع إلى النشأة والتربية والتعليم التى تقلصت فيها التربية الدينية.. مع مجىء الاستعمار وإفساده للنظم التعليمية، واستمرار النظم الوطنية فى مرحلة ما بعد الاستعمار فى نفس طريق التعليم المنفصل عن الدين.. بل أصبحت النخب الحاكمة والمثقفة تتلقى تعليمها فى مدارس أجنبية.. وإذا كان ذلك ينطبق على شرائح بعينها، إلا أنه فى مراحل التعليم العليا فإن قطاعا واسعا يتلقى دراساته العليا فى البلاد

الغربيـة.. وخرجت أجيـال لم تعرف «الكُتاب».. (الكُتـاب الذى خرج أحمـد عرابى وكل زعماء وقيـادات مصر).. ثم دخلت التعليم العام فلم تعرف عن دينهـا إلا القشور وأخذت هذه القشور تتقلص مع الأيام، وأصبح الإعلام الذى يتعـاظم تأثيره يقدم ما يهدم الدين أكثر مما يقدم من برامج دينيـة معلبة جـافة تشرح الدين بمعزل عـن الحياة، وترهنه ببعـد واحد هو المسلك الشخصى الأخلاقى والتعبدى.

وبالإضافـة إلى الجهل بالإسـلام فهناك أسـباب عـديدة أخرى لانحراف الحـكومات فى الدول الإسـلاميـة: النفـوذ الأجنبى.. وإرتبـاط مـصالح الحكـام به.. والمصالح تـتحـول إلى «عـقـيـدة» و«دين».. وهناك الخـوف مـن ذلك النفـوذ الأجنبى.. وهناك الطمع فى البـقـاء «الأبدى» فى السلطة بمساعـدة هذا النفوذ الأجنبى، وهناك مغريات السلطـة والترف المحيط بها، وهذه مخاطر وتحديات تواجه الحكام ذوى التربية الدينية والإسلامية، ومن باب أولى أن تكون مؤثرة أكثر على طبقات من الحكام لم تتصف يوما بالورع.. ولم يسمع عنها أنها أدت نافلة.. بينما الشكوك تحوم حول أدائها للفروض !

والإصلاح كـما ذكرت فى دراسـتين سابقتين (فـقه التغـيير السيـاسى) و(أحكام القرآن الكريم فى تحـريم موالاة الكفار والمشركين)، لا يرتبط بـإعلان تكفيـر الحكام.. طالما هم لا يعلنون الكفر البـواح، ولكن الإصلاح يرتبط بمحاربة الظلم.. والجهـاد من أجل تطبيق شرع الله.. وإصلاح الحكام أو السـعى لتغييـرهم إذا اقتضت الضـرورة.. وعند التمكن من ذلك.. دون الإعلان عن فـتوى أو حكم شـرعى بتكفـيرهم (ولتـترك مسـألة إيمانهـم لله عز وجل) فليس لنا إلا الظاهر من الأمور.. وليس هناك فى الشرع ما يجـبر المسلمين على تحمل حاكم مسلم ظالم.. طالما كان هناك سبيل لتقويمه أو تغييره.

وفى كل الأحوال تبقى قـضية الإيمان هى المحور.. فالحاكم لايظلـم إلا بقدر إبتعاده عن الإيمـان.. وهكذا نكون قـد وصلنا إلى أعـتـاب سورة هود.. وهـى سورة مكيـة.. تعـرض لأباطيل المادية وتستـعين بالتاريخ وأحداث المجـتمعات المادية السـابقة فى توضيح أن عـاقبة المادية فى سلوك المجـتمع هى الطغيـان، وعـاقبـة الطغيـان هى زوال المجتـمع الظالم وزوال زعمائه الطغاة المستكبرين فى الأرض.

ولكننا لانخوض في كل سورة هود... ولكن نتوقف عند آيات محدودة في سياق بحثنا.. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٦ - ١١٩] .

يقول د. محمد البهى فى تفسيره لهذه الآيات: تعرض هذه الآيات لظاهرتين اجتماعتين من ظواهر المجتمع الإنسانى:

الظاهرة الأولى: ضرورة تغيير المجتمع عندما يستشرى فساد زعمائه فى غيبة الرقابة النافذة التى تستطيع الوقوف فى وجه ترفهم وإجرامهم وهى رقابة الأفراد المستقيمين فيه: «فلولا كان من القرون (أى فى المجتمعات) أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، أى لم يكن هناك فى المجتمعات البشرية التى انهارت وتقوضت فيما مضى إلا عدد ضئيل يحرص على الصلاح فيها، وهم من أنجاهم الله من العذاب ومن أجل ذلك لم يستطع هذا العدد القليل من المصلحين الذين نجوا أن يحول دون أن يتبع الزعماء ترفهم، مما أدى بهم إلى الظلم والإجرام فى أنفسهم وفى حق الآخرين معهم. ولذا كان تغيير هذه المجتمعات ضرورة اجتماعية».

ومعنى ذلك: أن المجتمع البشرى طالما فيه رقابة قوية من الأفراد المستقيمين تحول دون استشراء الظلم، لايوجد ما يدعو بالضرورة إلى تغييره.. «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» إذ أن الله سبحانه وتعالى لايقوض إطلاقا مجتمعا أستقام أمر العلاقات فيه بين أفراده بوجود المصلحين الذين يستطيعون تحقيق العدل، ودفع الظلم، وإنما تقويضه له بسبب ظلم الكبراء فيه وممارستهم لأنواع الجرائم فى حق الضعفاء.

والظاهرة الثانية: أن إختلاف الناس بين الإيمان والكفر، والمادية والروحية، قانون من قوانين الحياة الإنسانية، فهناك المجتمع الكافر أو المادى، وهناك المجتمع المؤمن أو الإنسانى أو الإسلامى.. وسيظل هذا الإختلاف قائما إلى يوم البعث، لأنه يعبر عن مشيئة الله فى تجربة

الحياة الدنيا، بينما توحد الأمة البشرية ضد مشيئته «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» أى ولكن لم يشأ ذلك لأن الناس لو أصبحوا أمة واحدة فى الكفر أو فى الإيمان لوجب قيام الساعة، ولانتهت الدنيا كدار للتجربة، ولتمييز المطيع من العاصى، والمؤمن من الكافر.

ومعنى ظاهرة ضرورة إختلاف الناس بين الكفر والإيمان كظاهرة اجتماعية ضرورية فى المجتمعات البشرية: أنه لا يأس مع ظلام المادية الحالك وغلبتها وقوتها المخيفة فى وقت من الأوقات، لا يأس مع طغيان الفكر المادى والإكراه عليه بالإرهاب والتهديد بقطع موارد العيش والحياة، والرسول فى وقته والمصلح من بعده يجب أن يعلم أن نور الإيمان بالله قائم وإن خفت ضوؤه، ولكنه لا يفنى على أى حال. (انتهى الاقتباس من د. محمد البهى).

وبعبارة أخرى فإن هذه الآيات تقول أنه كان يجب أن يكون من تلك الأمم السابقة التى أهلكناها بسبب ظلمها جماعة منهم لهم كلمة مسموعة وفضل من دين وعقل ينهون غيرهم عن الفساد فى الأرض، ولكن الذى حدث أنه كان فيهم قليل من المؤمنين لم يسمع لهم رأى ولا توجيه فأنجاهم الله مع رسلهم فى الوقت الذى أصر فيه الظالمون المعاندون على ما تعودوه من قبل من حياة الترف والفساد، فأهلكهم الله تنفيذا لسنته فى خلقه. ويستفاد من ذلك أن الأقلية المؤمنة المستضعفة كانت فى صفوف المعارضة (بتعبيرات العصر) وأن السلطة (حيث المترفين) كانت فى يد الطغاة المنكرين لفضائل الإيمان وما يستتبعه من إصلاح وعدل.

ولنتابع رحلتنا مع الآيات التى ترسم نفس اللوحة.. الصراع بين رسالة الأنبياء ومن يتبعهم من المصلحين وبين المستكبرين القابضين على أعنة مقاليد السلطة.

*****

• **سورة إبراهيم :**

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٢ - ١٥].

وسورة إبراهيم مكية.. تقوم بدور تلخيص وتكثيف خلاصة رسالة الأنبياء .. وتضع القوانين العامة.. وقد أتت هذه الآيات عقب قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾.

نحن هنا أمام الخلاصة: الرسالة واحدة - اعتراضات المكذبين المستكبرين واحدة - وحقيقة نصر الله للمؤمنين واحدة، وحقيقة إستخلاف الله للصالحين واحدة، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين واحدة.. قوانين واحدة عملت فى السابق.. وستعمل حتى يوم الدين.

إذن الآيات التى بدأنا بها لاتخص رسولا بعينه.. وجاء فيها ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾.. فالرسل كانوا أمام قوم جبارين ذوى سلطة وصولجان وجاه، وقادرين على الإيذاء.. وهذا ما يتأكد فى الآية التالية.. فهم يأمرون رسلهم ويضعونهم أمام خيارين لا ثالث لهما:

[١] إخراجهم من أرضهم (النفى) وهى عقوبة لاتملكها إلا سلطة سياسية.

[٢] أو العودة إلى «ملتنا»، وهذا ديدن الطغاة فى كل زمان ومكان.. فيأتى إليك ممثل الطاغية وأنت مهدد بالسجن أو فى السجن فعلا.. ويطلب منك كتابة إقرار.. فيه إعتذار عن كذا وكذا (سواء كان عملا أو قولا) والتزام بالحفاظ على السلام الاجتماعى والوحدة الوطنية.. وإعلان الولاء للعرش، وإما أن تكتب هذا الإقرار أو تسجن أو تظل فى السجن إذا كنت مسجونا، وأحيانا تخير بين كتابة الإقرار والإعدام.

وتواصل الآيات تأكيد هذه المعانى ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وفيها إشارة إلى تمكين المؤمنين من السلطة.. هذه الآية تتحدث صراحة عن الصراع حول السلطة، لأن السلطة السياسية فى المجتمعات هى أداة الإصلاح الشامل أو الإفساد الشامل، فأوحى الله إلى رسله بأن العاقبة ستكون للمؤمنين فى ميراث أرض الكافرين، تلك سنة الله تعالى فى خلقه أن يعاقب الظالمين المعتدين وأن يأخذ بيد المؤمنين العاملين، الصادقين الذين يتجاوز

الإيمان ألسنتهم ويستقر فى قلوبهم وعلامة ذلك ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤] أى من يخاف حقا مثوله بين يدى الله.. ومن وعيد الحساب فى الآخرة.

هؤلاء المؤمنون الصادقون هم الذين سيمكنهم الله فى الأرض.. وقد أشرنا فى بداية الدراسة إلى عدد من الآيات التى تؤكد ذلك.. ولكن لا بأس من إعادة التذكير بها، لإدراك الترابط فى آيات القرآن:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : ٢١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

*****

• **سورة الإسراء :**

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦ ـ ١٧].

أى أمرنا متنعميها بطاعة الله (ففسقوا) أى فتمردوا وعصوا (فدمرناها) استأصلناها ومحونا آثارها، وقد أشار السيوطى فى تفسيره إلى أن مترفيها بمعنى منعميها.. بمعنى رؤسائها.. وهكذا فإننا عندما نتحدث عن «السلطة السياسية» لا نقدم تفسيرا مبتدعا للقرآن

الكريم وإنما نستخدم مصطلحات العصر.. لتوضيح المهام الملقاة على عاتق المؤمنين حتى لا يشغلوا أنفسهم بالفروع على حساب الأصول.. فالأصل هو السعى للتمكين لدين الله فى الأرض، والإصلاح وفقا للمنهج الإيمانى، وأن الحكام غير الملتزمين بهذا النهج، سيكونون أبرز الأعداء، وبالتالى لابد من مواجهتهم لإصلاحهم أو تغييرهم. وهاتان الآيتان تثيران قضية بالغة الخطورة: هل سننتظر العقاب الإلهى فى الدنيا لتدمير المترفين وتابعيهم والمرتضين بحكمهم؟! وهذه المسألة سنتناولها فى لحظة قادمة من دراستنا فى مبحث خاص.. ولكننا بشكل أولى نقول الآن .. إن القرآن الكريم يحض المؤمنين على السير فى طريق الأنبياء.. أى مقاومة المترفين ورفض فسقهم.. والجهاد لإقامة شريعة الله وحدها حكما للمجتمع.

*****

• الترف والمترفون :

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة مع هذا المصطلح القرآنى (الترف والمترفون) الذى ورد فى القرآن فى ثمانية مواضع (آيات)، وهو مصطلح جمع بين الجانبين السياسى والاقتصادى.. أى جمع بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية المالية، مصطلح يجمع بين النفوذ السياسى والتنعم بالثروات المادية إلى حد الترف والسفه، وفى عصرنا الحديث كما فى سالف العصور، فهناك إرتباط لا إنفصام له بين السلطتين السياسية والاقتصادية، وكل منهما تفضى إلى الأخرى، وينطبق ذلك على كل أنواع الأنظمة السياسية، ففى الأنظمة الشمولية التى تعتمد على ملكية الدولة لأهم وسائل الإنتاج فإن الاندماج بين السلطتين السياسية والاقتصادية يكون واضحا إلى أبعد حد، وفى الأنظمة التى تعتمد الطرائق الرأسمالية أو ما يسمى اقتصاد السوق فإن العلاقة تظل وثيقة بين السلطة السياسية والمراكز المالية والاقتصادية، وإذا أخذنا الولايات المتحدة بإعتبارها المثال الأكثر تطرفا فى تقلص القطاع العام، وسيادة ما يسمى بحرية السوق والقطاع الخاص.. فإن السلطة السياسية هى التى تحدد قواعد اللعبة الاقتصادية من خلال القوانين والقواعد المنظمة والقرارات الرئاسية، ويصل

الأمر إلى حد التدخل فى تحديد الأسعار، والحد الأدنى للأجور، والرقابة على العملية الإنتاجية من زوايا (الصحة والأمان والجودة والحفاظ على البيئة)، وأيضا من خلال التحكم فى التجارة الخارجية والمعاملات الدولية وتحديد أولوياتها، إلى أين تتجه الاستثمارات بشكل عام، ماهى الدول ذات الأولوية فى ذلك؟ ماهى الدول التى يجب أن تقاطع فى مجال الاستيراد أو التصدير؟ ماهى الدول التى يتم التعامل معها بشكل هامشى؟ وفى أى مجالات؟ وهكذا لاتوجد أدنى حرية على سبيل المثال فى الصناعات الحربية الأمريكية، لأن الحكومة هى المستهلك الوحيد فى الداخل، وهى الجهة الوحيدة التى توافق على التصدير للخارج؟ ولمن؟ وبأى كمية وبأى نوعية؟ والصناعة البترولية لاتتحرك بمعزل عن السلطة السياسية سواء فى الداخل أو الخارج: أسعار البترول، متى يعلن عن اكتشاف البترول فى هذا البلد أو ذاك؟ وبأى كمية؟ وإذا كنا ضربنا مثلا بالمجمع الصناعى العسكرى والبترولى وهو قطاع استراتيجى فلأنه المثل الأبرز، ولكن ليس معنى ذلك أن الدولة لاتتدخل بدرجات مختلفة فى القطاعات الأخرى، كالقطاع الغذائى، وقطاع المواصلات، وتتدخل الحكومة الأمريكية مثلاً فى المساحات المنزرعة من بعض المحصولات الزراعية حفاظا على الأسعار العالمية. وإذا كانت السلطة السياسية تتدخل فى العملية الاقتصادية، فإن المراكز العليا الاقتصادية والمالية ترغب فى هذا التدخل لصالحها، وهى تسعى بدورها لاحتواء السلطة السياسية لتكون المعبر عنها والمحافظ على مصالحها.. وبالتالى اذا نشأت سلطة سياسية فى أعقاب حروب أو ثورات غير ملتحمة مع المراكز المالية، فإن هذا التلاحم سرعان ما يتم، فالسلطتان السياسية والمالية لاينفصلان بعضهما عن بعض، وإلا سقط أو ضعف كل منهما.. فالسلطة السياسية لاتكون كذلك بدون المال، والسلطة المالية تتبدد إذا لم تحمها السلطة السياسية، ولكن فى المجتمع الرشيد لابد أن تكون السلطة السياسية هى الأعلى، لأنها تمثل العقل الشامل الاستراتيجى، الذى لاينظر لمجرد معدلات الربح أو الخسارة فى كل عملية أو قرار على حدة، ولو حدث ذلك لانهار المجتمع على رؤوس أصحابه، فالسلطة السياسية (الحكومة) ترى المصالح الشاملة للمجتمع، وتوازن بين الفئات والطبقات قدر الطاقة، وتحافظ على قوة المجتمع ككل فى وجه التحديات والمخاطر الخارجية، وبالتالى فهى

يمكن أن تقرر السير فى مشروع مكلف وغير مربح اقتصاديا للحفاظ على قوة المجتمع ككل.. وتقبل الخسارة فى قطاع لصالح قطاع أكثر أهمية، وتقبل تحمل الخسارة المؤقتة لتحقيق مكاسب عظمى فيما بعد.

والإسلام يضع ضوابط دستورية عظيمة فى العلاقة بين السلطة السياسية والاقتصاد.. وهذا يخرج عن موضوع دراستنا، ولكننا نشير الآن فحسب إلى هذا الترابط الأزلى بين ماهو سياسى وماهو مالى اقتصادى.. وقد يكون هذا الارتباط والترابط فى الخير، كما يمكن أن يكون فى الشر، وكذلك فإن القوة الاقتصادية فى المجتمع يمكن أن تكون قوة للنماء والخير والنهضة، اذا هى توجهت للإنتاج وتعظيمه، مع ضوابط تضمن العدل الاجتماعى، ويمكن أن تكون قوة للتخريب وإفساد المجتمع، بالاتجاه إلى الأعمال غير المنتجة، والحصول على المال دون أن يكون إنعكاسا لطاقة إنتاجية (الربا ـ المضاربات العقارية) كمثالين، والقرآن والسنة واضحان فى رفضهما وتجريمهما، وعندما تكون للسلطة المالية هذا المنحى المدمر، فإنها تتغلغل داخل السلطة السياسية تغلغل السرطان، ويحدث إندماج يكاد يكون كاملا بين السلطتين السياسية والمالية، وهذا ما يعظم ويبلور طبقة المترفين، وهى تجمع بين كبار الساسة والقادة والرؤساء وبين كبار الماليين، فيغرقون فى نوع مبالغ فيه من الحياة المنعمة الاستهلاكية الباذخة، فتغلظ جلودهم، لا يأبهون بالدعوات الإيمانية إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق والعدل، بل تصبح هذه كلها بمنزلة منغصات لا يحبون سماعها لأنها تخرجهم من حالة الدوار «اللذيذ» الذى يعيشونه فى خضم الشهوات والملذات، كما يفتقدون حساسيتهم لاحتياجات الناس ومطالبهم ومقتضيات العدل، لأنهم يعيشون فى مجتمع مغلق منعزل، فهم إما يتصورون الناس مرتاحين مثلهم، أو يتصورنهم غير مرتاحين ولكنهم ليسوا إلا مجرد عبيد فهل يريدون أن يتساووا معهم؟! وهذا هو الارتباط العضوى بين ضعف الإيمان لدى هذه الفئة وبين إفسادهم فى الأرض، أو بين الكفر والفساد، ولماذا هما صنوان لا يفترقان ولماذا يفضى أحدهما إلى الآخر، وقد أكد الأستاذ فهمى هويدى هذا المعنى بحديثه عن (تحالف دنس بين أطراف ثلاثة خبيثة)

الأول: الحاكم المتأله المتجبر في بلاد الله، المتسلط على عباد الله، ويمثله فرعون.

الثاني: السياسي الوصولي الذي يسخر ذكاءه وخبرته في خدمة الطاغية وتثبيت حكمه وترويض شعبه للخضوع له ويمثله هامان.

الثالث: الرأسمالي أو الإقطاعي المستفيد من حكم الطاغية، فهو يؤيده ببذل بعض أمواله ليكسب أموالا أكثر من عرق الشعب ودمه، ويمثله قارون ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩] (انتهى الاقتباس).

والحقيقة نحن لسنا أمام أفراد منعزلين.. فالحاكم السياسي حوله فئة أو طبقة أو مجموعة سياسية، وهامان ليس إلا رمزا لها، وقارون رمز للقوة المالية الفاسدة المتحالفة مع الطغيان السياسي.

في المجال الاقتصادي.. وضع الإسلام قواعد وملامح وشروط وضوابط في إطار عقائدي عام، ولا يقدم نظرية اقتصادية بالمعنى الأكاديمي المتعارف عليه في عصرنا.. وهذه الرؤية الإسلامية تقع في مكانة وسط بين هيمنة الدولة (الاشتراكية) وبين حرية السوق (الرأسمالية)، ولأن هذه سنة من سنن الله في خلقه، فإن المجتمعات الاقتصادية الكبرى في العالم تتجه إليها بواقع التجربة والخطأ، أقصد تتجه إلي الجانب العملي من هذه السنن.. لأن الهيمنة المطلقة للدولة خطل وتخريب، والهيمنة المطلقة للسوق فوضى وإنهيار وخسارة للجميع.

كما قلت إن شرح ذلك يخرج عن إطار دراستنا، لكنني أردت التأكيد أنني لا أقصد بالتركيز على السلطة المالية والاقتصادية في الحديث عن المترفين.. أن أصور الإسلام وكأنه ضد الملكية الخاصة، والاستثمار الخاص.. وإطلاق المبادرات في المجال الاقتصادي، فمصطلح المترفين يشير إلى هذه الطبقة العاملة في حقل المال والاستثمار حين تفسد، وهو مصطلح شامل يضم معهم الطبقة السياسية حين تفسد، ويندمج الاثنان معا في طبقة واحدة

فاسدة مترفة تميل إلى الاستهلاك الترفى وتبتعد عن العمل المنتج، وتعتمد على النهب للحفاظ على هذا المستوى الترفى من الحياة، وهكذا فى دائرة شريرة متواصلة.

وأكرر مرة أخرى نحن لا نتقدم بنظرية جديدة بل نعيد فهم واكتشاف ما جاء فى القرآن الكريم، وهو ما لم يختلف المفسرون عليه، وكل مهمتى تنحصر فى الرصد والربط والتركيب.. وإيجاد صلة بين هذه الآيات ومشكلات وتحديات العصر، بعد أن غلبت المفاهيم التى تختزل الإسلام فى (العلاقة بين المؤمن وربه) (الأخلاق الحميدة والسلوك الشخصى القويم) (الالتزام بالعبادات والشعائر) ولعلك يا أخى القارىء قد لاحظت كيف اهتم القرآن الكريم بهذه القضية، قضية إصلاح المجتمع ككل، وهذا لا يتأتى إلا من الرأس (السلطة السياسية).

إن كم الآيات الذى يتعامل مع هذه القضية جد كثير.. ونحن لم نفرغ منها بعد، ولم نحصها بعد، لأن الشرح أولى وأهم من الإحصاء، وإذا قرأت القرآن الكريم بهذه الروح فستعيد فهمه بصورة جديدة، أو بالأحرى بصورته الأصلية التى نزل عليها، ولكن الأدب الإسلامى الرسمى هو الذى جعل الأفئدة تتجه فى العصور المتأخرة (المعاصرة) وتنحصر فى المعانى السالف ذكرها (الأخلاق ـ الإيمان الفردى ـ أداء الشعائر)، والحقيقة أن الإسلام (القرآن والسنة) قام على توازن دقيق بين صلاح الفرد وصلاح المجتمع، ولاشك أن صلاح الفرد هو المبتدأ، هو اللبنة الأولى فى الإصلاح، يبدأ فى كل حقبة بفرد واحد، نبى أو رسول، ثم يتجمع حوله عدد ضئيل من الأنصار والحواريين، وبعد انقطاع النبوة، فإن القانون ما يزال ساريا، فالإصلاح يبدأ بفرد مصلح واحد أو مجموعة ضئيلة من الأفراد.. ولكن هذا هو المبتدأ، أما الخبر أو المنتهى، أو استكمال الدائرة فلا يكون إلا بإصلاح المجتمع ككل، والذى لا يتأتى بدون أن يتمكن المصلحون من السلطة السياسية والتى يتوقف على صلاحها، صلاح شتى شئون المجتمع: الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ الثقافية ـ العسكرية ـ العلمية.. بل يتوقف على صلاحها.. حسن أداء العبادات والشعائر، لأن السلطة العادلة لا تحارب التدين والمتدينين بل بالعكس مهمتها (حماية الدين) وتحض الناس على التدين

وتهيىء له الشروط، ولا تفتن الناس فى دينها بشكل مباشر (اضطهاد سياسى) أو غير مباشر (تجويع وقطع أرزاق)، وتكرس جهودها لمحاربة المظالم الاجتماعية، لأن المؤمن الحسن الإيمان لا يمكن أن يكون المتضور جوعا أو المشرد أو العليل الصحة.. وقد دعا الرسول ﷺ (اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر) فقرن بين الكفر والفقر، كما أننا نقول فى الدعاء المأثور (اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) وهذا العون روحى ومعنوى بأن يشرح الله صدرك للعبادة وحبها وحب الله تعالى، وأيضا العون فى سلامة الجسد، لأن الجسد العليل المصاب بالسرطان أو الفشل الكلوى أو الشلل.. والعياذ بالله لا يملك الطاقة على العبادة كجسد إنسان صحيح، وقد كانت آية سيدنا أيوب، صبره على المرض الشديد، وكانت تلك آية نبوته، وقد استجاب له ربه فشفاه ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

إذن فإن الأجسام العليلة الموبوءة بالأمراض ليست الأوعية المناسبة لأرواح تتعبد الله أناء الليل وأطراف النهار.. واذا كان المرض كفارة للذنوب، ويقرب الإنسان المؤمن إلى ربه، فإن الشفاء منه هدف حثنا الله والرسول عليه.. ونحن لا نتحدث عن الأمراض التى تصيب الناس بشكل فردى، وهذه من سنن الله فى خلقه، ولكننا نتحدث عن سنة أخرى، هى الأمراض والأوبئة الجماعية، الناشئة عن ظلم السلطات، التى تفقر الناس ولا توفر لهم أسباب العلاج، ولا تحميهم من الأغذية الملوثة بالجراثيم والأمراض الفتاكة وما أكثر هذه المخاطر فى العصر الحديث، وما أكثر مسئوليات الدولة فى إطار وزارات الصحة والزراعة والبيئة والصناعة والتموين والتجارة الخارجية.. وقد ضربت هذا المثل مطولا، لتأكيد أن صلاح السلطة السياسية ينعكس على صلاح العبادة نفسها، بإقامة العدل وإتاحة فسحة معقولة من الوقت للناس لممارسة الشعائر والنوافل، وبحيث لا يكونون مشغولين طول الوقت بالصراع من أجل لقمة العيش من أجل مجرد البقاء، أو الصراع من أجل معركة استهلاكية (تغذيها الحكومات بإعلامها المعاصر) أو الصراع من أجل مواجهة الأمراض والأوبئة. بل لقد رأينا حكومات فى البلدان الإسلامية تضيق على العبادة ذاتها: التضييق

على الحج والعمرة ـ إغلاق المساجد بعد أداء الصلاة مباشرة ـ منع الاعتكاف فى المساجد فى رمضان إلا بإذن إدارى ـ عدم مراعاة مواعيد العمل مع مواعيد الصلاة ـ حض الناس على الإفطار فى رمضان (حكم بورقيبة فى تونس) ـ منع صلاة العيد فى الخلاء ـ فرض موظفين دون العلماء لإلقاء خطبة الجمعة.. إلى آخره من الأمثلة.

نعود مرة أخرى إلى قولنا.. أن الإسلام يقيم التوازن الصحيح بين صلاح الفرد وصلاح المجتمع، وأن صلاح الفرد هو الأساس والمبتدأ لأنه اللبنة الأولى التى نبنى عليها.. ولكن الإصلاح لا يمكن أن يمتد هكذا على هذا المنوال وحده.. إصلاح فرد ثم اثنين ثم ثلاثة حتى مليون، ثم ٢ مليون ثم ٤ مليون.. إذا تحولت هذه إلى خطة، لباءت بالخسران، فالطغاة من ناحية لا يتركون عملية الإصلاح الفردى تمضى فى سلام بل يهدمون بأكثر مما يبنى الصالحون بما فى أيديهم من سلطات ونفوذ، كما أن القرآن الكريم لم يدع إلى هذه الخطة الفاشلة التى تتعارض مع سنن الله، فبناء جماعة المؤمنين الصلبة هى الخطوة الأولى نحو الإصلاح الشامل للمجتمع، بالتمكن من رأس المجتمع، حتى يمكن إعادة تربية الأمة بأسرها على أسس سليمة.. وقد أشرنا إلى مواجهة موسى وهارون لفرعون دون أن تكون لديهما قاعدة جماهيرية تذكر!! وفى كل الأحوال سيظل الإصلاح الفردى هو العمود الفقرى للمجتمع، لأن الإيمان عملية فردية خالصة.. وعلاقة مباشرة بين العبد وربه، وهو تصديق القلب، كذلك يظل الإيمان الفردى، هو حجر الزاوية فى محاسبة الله لخلقه فى الآخرة، غاية ما هناك أن الإيمان فى الإسلام يتطلب أعمالا محددة ليصدق هذا الإيمان، وأن الجهاد بمعناه الشامل فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

كانت هذه مقدمة طويلة نسبيا قبل أن نصل إلى الآيات التى تتناول «الترف والمترفين» والمترفون طبقة سياسية مالية مندمجة.. متنعمة.. بطرت معيشتها.. تلاحم فيها السياسى والمالى، الكفر والفساد، الانعزال عن الله وعن المؤمنين الضعفاء.

ذكرنا أن مصطلح «الترف والمترفون» ورد فى القرآن ثمانى مرات وأشرنا من قبل إلى اثنتين فى سورتى هود والإسراء.. فماذا جاء فى الست الباقيات؟

لعل أهم آيتين من زاوية بحثنا هما اللتان حسمتا المسألة باعتبارها قانونا اجتماعيا عاما لا يرتبط بزمن محدد أو مكان بعينه.. هما الآيتان اللتان قالتا بصراحة لا تقبل الخلاف أن المترفين كانوا هم قادة أعداء الدين والإصلاح.. وسيبقون كذلك إلى يوم الدين..

الأولى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

والثانية: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

ولنبدأ بآية سورة سبأ وما تبعها من آيات:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤ ـ ٣٧].

وفي تفسير مجمع البحوث الإسلامية نجد القول الفصل في تفسير هذه الآيات.. ووفقا لهذا التفسير فإن المترفين هم (أصحاب النعمة والرياسة) أما التفسير فجاء كالتالي بالنسبة للآية الأولى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

(هذه الآية مسوقة لتسلية رسول الله عما ابتلي به من مخالفة مترفي قومه وكفرهم به وتكذيبهم وعداوتهم له ـ عليه السلام ـ وليتأسى بما حدث لمن قبله من المرسلين حيث كذبهم المترفون.

والمعنى: وما أرسلنا في قرية من القرى رسولا يدعو أهلها إلى الحق ويأمرهم بالإيمان ويخوفهم عاقبة المخالفة والخروج على أوامر الله إلا قال مترفوها: «إنا بما أرسلتم به كافرون»

أى: إنا بما جئتم به من التوحيد وغيره مكذبون لا نؤمن به ولا نتبعه، وإنما كان التكذيب طبيعة المترفين وديدنهم لما شغلوا به من زخرف الدنيا وبهجتها، وما غلب على قلوبهم منها، فهم منهمكون فى الشهوات، ولأن الأديان جميعها جاءت تقرر حقوق الإنسان من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية وهذه كلها أمور ليست فى مصلحتهم، كما أن الأنبياء جاءوا بمناهج من السماء فيها أوامر ونواه، وإتباع الأنبياء والإيمان بدعوتهم، يتطلب فعل الأوامر واجتناب النواهى، وهذا يشق على المترفين أولى النعمة والثروة والرئاسة وأصحاب الرفاهية، ولهذه الحقيقة كان على رأس المكذبين لدعوات المرسلين ومناهج السماء المترفون الغارقون فى الملاهى والشهوات من الرؤساء والجبابرة، أما الفقراء فإن قلوبهم لخلوها من ذلك أقبل للخير، ولأن رسالات الأنبياء تحررهم من الأغلال وذل الإسار لكبرائهم، وتقرر لهم حقوقهم وتحقق لهم مطالبهم ـ لهذا كله ـ كانوا أشد الناس حبا لها وإقبالا عليها وتعلقا بها وتفانيا فى نشرها، ولذا تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام، ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة، وحكى عن قوم نوح قولهم له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١] (انتهى الاقتباس).

وهذا التفسير يغطى إلى حد كبير الآية المماثلة فى سورة [الزخرف:٢٣] ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وأمة هنا بمعنى ملة.. فهم توارثوا وضعهم المميز فى المجتمع بناء على العقائد أو الإطارات الفكرية للآباء.. سواء أكانت أوثانا.. أو صفة إلهية يلصقها الحاكم بنفسه ويورثها لابنه، أو نظرية فكرية كافرة وجاحدة بالله.. فالصياغة عامة ولا تقتصر على الأوثان كما يحصر الأمر بعض المفسرين.

•سورة المؤمنون:

ورد الترف والمترفون فى موضعين:

الأول: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا

مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [٣٣ ـ ٣٤]، والملأ كما استقر المفسرون (الكبراء ـ الأشراف ـ الرؤساء).

أما الموضع الثانى فهو يشير إلى استقرار هؤلاء المترفين فى نار جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤] وهذا ما تكرر فى سورة الأنبياء:

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ⑬ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ ـ ١٤].

وليس المقصود أن المترفين هم وحدهم الداخلون إلى جهنم فسيدخل معهم أتباعهم من الضعفاء ولكن هاتين الآيتين تخصصان المترفين للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة بحماية الأتباع والحشم لهم فى الدنيا لم ينفعهم يوم القيامة حيث لقوا ما لقوا من الأهوال والشدائد، فلأن يلقاها سواهم من تابعيهم وحشمهم أحق وأولى. أما القول ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ فهو نوع من التوبيخ حيث لن يعصمكم من عذاب الله شىء، وارجعوا ـ إن استطعتم ـ إلى ما كنتم فيه من نعيمكم ومساكنكم لعل خدمكم وأشياعكم يسألونكم المعونة والرأى كما كان شأنهم.

وفى موضع ثالث يؤكد القرآن ذات المعنى ويقرن جهنم بالمترفين ويجعلهم عنوانا لأهل النار، وذلك فى سورة الواقعة ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ⑪ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ⑫ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ⑬ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ⑭ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [٤١ ـ ٤٥].

وقد وصف القرآن الكريم فرعون وجنوده بأنهم ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١]، وكذلك رمز القرآن الكريم لأهل النار بكبار القوم المستكبرين ففى سورة الدخان بعد وصف العذاب المهول فى الجحيم يقول الله عز وجل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩]، وفى القرآن الكريم أيضا ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وكذلك قـوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة:١٧].

• سـورة البـروج :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [١ ـ ١٠].

لم نُضـمن هذه الآيات فى إطار الفـصل الخـاص بقصص الأنبيـاء، لأنها وفـقـا للنص القرآنى لا ترتبط بنبى محدد من أنبياء الله، ولكن كمـا ذكرنا مرارا من قبل فإن السياق واحد والقوانين الاجتماعية واحدة فى القصص القرآنى ككل أو فى الاستخلاصات العامة التى لا ترتبط بقصة محددة. وفى سورة البروج تسلية وتذكـير للمؤمنين، وتهديد ووعيد للمعاندين وأن الساعـين لإيذاء المؤمنين سيطردون من سـاحة الرحمـة كما طرد من سلك سـبيلهم من الذين سبقوهم من الأمم.

ولكن مرة أخرى من أصحاب الأخدود؟ ومن القادر على أن يحفر خندقا عميقا وطويلا ويضع فيه جمـاهير المؤمنين لتحترق.. ليفتن المؤمنين عن دينهم؟ لا يفعل ذلك بطـبيعة الحال إلا أصحاب سلطة.. والقابضون على أجهـزة القمع.. من جنود وعاملين قادرين على تنفيذ هذا الأمر «السيادى»!!

والحقيقة لقد تعددت الروايات فى التفاسير حول أصـل هذه القصة.. ولكن كل الروايات اتفقت على أن الذى قام بهـذه العملية الإجرامية ملك من الملوك.. وهذا هو التـفسير الممكن والمنطقى لعمليـة إجرامية بهذا النطاق الواسع.. بل إن السـورة نفسها لم تتـركنا لنتردد حول هذا الأمر فانتهت بمقارنة أصحاب الأخدود بفرعون وجنوده ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧ ـ ١٨].

وتقول إحدى روايات التفسير إنه قيل للملك ـ بعد انتشار الإيمان بدين التوحيد ـ خد أخدودا ثم ألق فيها الحطب والنار ثم اجمع فيها المؤمنين بالله فقال من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه فى هذه النار فجعل يلقيهم فى ذلك الأخدود.

على أى حال فإننا نكتفى بما ورد فى السورة الكريمة عملا بالحكمة التى قال بها بعض المفسرين المعاصرين.. وهو أن القرآن ليس كتاب تأريخ، وأنه عندما لا يحدد الاسم ولا الزمان ولا المكان فإنه يقصد ذلك.. بمعنى أن هذا النموذج صورة قابلة للتكرار فى مختلف الأزمنة والأمكنة، هذا ما قاله أحد المفسرين المعاصرين فى معرض الآيات التى تتحدث عن حوار سيدنا إبراهيم مع الملك (هل هو نمرود أم ملك آخر؟..) فليس فى ذلك أهمية تفيد فى ترسيخ المعنى العام المقصود بالآيات.. بل إن عدم التحديد مقصود.. حتى لا ينصرف الأمر إلى مجرد حكاية، بل يصبح قانونا عاما.. يجب دراسته وفهم مغزاه.. وإمكان تكراره عبر التاريخ والحاضر والمستقبل.

ويقول الشيخ محمد متولى الشعراوى فى معرض تفسيره لسورة الكهف: (فى قصة الإسكندر ذى القرنين.. ونحن لن ندخل هنا فى مناقشة من هو الإسكندر وتحديد شخصيته إلى آخر هذا.. فليس المقصود فى القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص أن يحدد شخصا بذاته لأن التشخيص قد يفسد القضية، فإذا حاولنا أن نحدد من هم أهل الكهف مثلا.. ومن هو فرعون موسى.. ومن هو قارون.. إلى آخر الشخصيات التى ذكرت فى القرآن الكريم فإننا نتوه عن الحقيقة التى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها، ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان.. وهى قصص مضروبة لكل عصر، والعبرة هنا تأتى فى الشيوع، أى تأتى على من تنطبق عليهم القصة.. فى أى زمان كانوا وفى أى مكان وجدوا) (انتهى الاقتباس)..

ومن باب أولى أن نطبق هذا المنهج على قصة أصحاب الأخدود التى لم تشر فيها الآيات لأى أسماء أو أماكن.. ولكن ما يعنينا بالأخص فى دراستنا هذه.. أن منطق الأحداث وفق الآيات، والروايات بالتفاسير توضح أننا أمام سلطة سياسية غاشمة تبيد المؤمنين.. والدين الجديد.. الذى يهدد سيادة هذه السلطة الطاغوتية.

ومرة أخرى لماذا نجد الحكام والملوك وكبار القوم يطلون برؤوسهم فى كل القصص القرآنى باعتبارهم قادة المعسكر المعادى للدين ـ إلا من رحم ربى من الحكام المؤمنين ـ هل هى مصادفة أن نجد الملك فى قصة إبراهيم.. وفرعون فى قصة موسى.. والملأ فى معظم قصص الأنبياء!! هى ليست مصادفة لأن هذا كتاب الله ولا توجد به مصادفات، وهذا هو واقع التاريخ، وأيضا لأن الله عزوجل يقدم لنا الإرشاد والهداية.. ولا يقدم لنا موسوعة فى التاريخ.. وبالتالى فإن هذا القصص المختار له مكانه وموضعه فى البناء الفكرى للإسلام.. وكل واقعة واردة فيه لها مغزى أو قانون اجتماعى أو تشريع.. أو عبرة أخلاقية.

*****

• أهل الكهف :

وقصة أهل الكهف فى سورة الكهف من نفس نوع قصة أصحاب الأخدود، فهى قصص قرآنى، غير مرتبط بصورة مباشرة بنبى من أنبياء الله.. ولعل فى ذلك عظة مقصودة.. فبين نبى ونبى كان المصلحون المؤمنون يتمسكون برسالة الله.. وهذا ما يحدث الآن بعد انقطاع النبوة، ويتعرض المصلحون لنفس الابتلاء الذى تعرض له الأنبياء.. وهكذا يتواصل التدافع إلى يوم الدين.

كثير من العبر فى قصة أهل الكهف ولكننا نأخذ ما يخصنا فى دراستنا هذه، فأهل الكهف اعتصموا بالكهف هربا من بطش سلطة الكفار، وتقول التفاسير أنهم عدد من النصارى فروا من ظلم الحاكم الرومانى، وبغض النظر عن تعيينهم أو تعيين السلطة الكافرة.. فنحن أمام موحدين.. ضد سلطة طاغوتية تحكم بغير ما أنزل الله، وفى تفسيره للآية ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤] فى تفسيره لهذه الآية يقول السيوطى «إذ قاموا» أى قاموا بين يدى ملكهم وقد أمرهم بالسجود للأصنام.

وسياق القصة يؤكد ذلك، فما معنى الاعتزال والاختفاء بالكهف إلا وهم ـ أى هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم ـ إزاء سلطة غاشمة، لذلك فعندما أيقظهم الله وبعثوا أحدهم لشراء

أزكى طعام بالمدينة كان عليه أن يتخذ حذره ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٢٠] فنحن إزاء سلطة قادرة على توقيع العقوبات الجسدية (الرجم).. وممارسة منطق الطغاة: الرجم أو العودة إلى الملة.. ومنطق الطغاة فى كل زمان ومكان: الاعتذار أو الموت.. الخضوع أو الموت.

*****

• الاستكبار والمستكبرون:

وقد أفرد القرآن الكريم الحديث بشكل خاص عن الاستكبار والمستكبرين، والمتكبرين والجبارين.. باعتبارهم أئمة الكفر وقواد الضلال ورؤوس الفتنة، فليس معسكر الكفر مجرد كتلة صماء من البشر المتساوين فى الأهمية والنفوذ والتأثير، كما أن معسكر الإيمان ليس بدوره كتلة صماء من البشر المتساوين فى الأهمية والنفوذ والتأثير.. ويكفى أن نشير إلى الآية الكريمة.. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

فى هذه الآية نجد حديثا صريحا عن أن العذاب فى الآخرة درجات(كما أن النعيم فى الجنة درجات) وهذا من آيات العدل الإلهى.. وبالتالى فإن أئمة الكفر الذين لم يكتفوا بالكفر بل صدوا عن سبيل الله، أى سعوا لمنع الناس عن الإيمان، وفتنتهم.. هؤلاء سيلقون ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

وحديث القرآن الدائم عن معسكر الكفر.. لا ينفك يركز على المستكبرين.. القادة والزعماء وأصحاب السلطة والنفوذ.. الذين يحاربون دين الله.

وقد ورد فى القرآن الكريم مصطلح الاستكبار بمشتقاته حوالى ٥٣ مرة.. وهو يأتى بمعنيين: معنى الاستكبار العام للكفار والمشركين عن عبادة الله.. والخضوع لتعاليمه.. بمعنى التعالى والغرور والشعور بالاستغناء والعجب بالنفس وبالدنيا.. ولكن «الاستكبار» يأتى بمعنى آخر مكمل لذلك، يربط كل المعانى السابقة بأصحاب السلطة والنفوذ والمحاربين

لدين الله.. الذين يفسدون فى الأرض ويملكون من القوى ما يمكنهم من هذا الإفساد (قوى سياسية واقتصادية وعسكرية).. وهذا المعنى الثانى يتعرض أحيانا لعدم الإبراز.. بالمكانة والأهمية التى يستحقها لدى بعض المفسرين. ولذلك من الأهمية أن نشير إلى الآيات التى استخدم فيها مصطلح «الاستكبار» للإشارة إلى السلطة السياسية، أو أصحاب النفوذ السياسى والاقتصادى.. وفى اللغة استكبر بمعنى استعظم، والاستكبار مشتق من الكبر، وفى صحيح مسلم نقرأ حديث رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر» وقد عرف الرسول ﷺ الكبر بأنه «بطر الحق وغمط الناس» والبطر معناه إبطال الحق وتسفيهه، وغمط الناس احتقارهم.

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٣٩] والحديث عن فرعون.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣] وهى آية جاءت بعد الآيات التالية.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١١ ـ ١٥].

أى أن الاستكبار جاء كصفة لمن جعل الله له مالا مبسوطا واسعا غير منقطع وبنين حضورا معه وبسط له الجاه والرياسة بسطة تامة ثم يطمع أن يزيده فى ماله وبنيه وجاهه بدون شكر.

وهنا أريد أن أقف عند كثرة المال والأولاد كعلامة على السلطان، وهل تغير هذا فى العصر الحديث؟ أى اقتران كثرة المال مع كثرة الأولاد.. أما المال فلا خلاف عليه، أما كثرة الأولاد.. فهى ما تزال مستمرة فى العصر الحديث حيث نجد لدى الملوك المعاصرين بنين بلا حد أو عد. والأسرة المالكة نجدها تضم الآلاف من الأمراء ذوى الوضع الخاص فى بعض الممالك المعاصرة.. واذا كان بعض الحكام فى العالم الإسلامى وخارجه قد أصابتهم لوثة «تحديد النسل» فأصبح لبعض رؤساء الجمهورية نسل محدود، فليست هذه سوى ظاهرة عارضة فى التاريخ ولن تستطيل كثيرا، بل هى قد أدت فى المقابل إلى ظواهر لم تشهدها

النظم الجمهورية من قبل.. فرغم قلة أبناء بعض رؤساء الجمهوريات إلا أنهم يسعون جاهدين لتوريث حكمهم لأحد أبنائهم، ضاربين عرض الحائط بمعنى النظام الجمهورى وفى خمسة بلاد جمهورية عربية على الأقل يجرى إعداد أحد أبناء الرئيس لوراثة الحكم، فغريزة التباهى بالأبناء إلى حد توريثهم الحكم.. رغم تعارض ذلك مع معنى النظام الجمهورى غلبت على هؤلاء الحكام الذين التزموا بموضة العصر الزائلة «تحديد النسل»!!

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

أى ونادى أصحاب الأعراف (وهناك خلاف بين المفسرين حول معنى أصحاب الأعراف، ولكننا لن نبحث هذا الأمر الآن لأنه لن يؤثر على مجرى بحثنا) نادوا من كانوا يعرفونهم بأوصافهم من أهل النار قائلين لهم لائمين: ما أفادكم جمعكم الكثير العدد ولا استكباركم على أهل الحق بسبب عصبيتكم وغناكم، ويشيرون إلى ضعفاء المسلمين قائلين:

﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، أى أن هؤلاء الضعفاء الذين استكبرتم عليهم، وأقسمتم أنه لا يمكن أن ينزل الله عليهم رحمة قد دخلوا الجنة.

ومرة أخرى نجد الاستكبار يقترن بالجمع.. أى كثرة المال والجنود..

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وقد أشرنا من قبل إلى أن معنى الملأ هم أهل الصدارة والزعامة (السلطة السياسية)، وهؤلاء المستكبرون هم قادة معسكر الكفر، وأعدى أعداء دين الله.. يتعين أن يتخذ المؤمنون حذرهم منهم.. وأن يعدوا العدة لمقاومتهم إذا أرادوا التمكين لدين الله فى الأرض، كما أمروا من الله عز وجل.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

مرة أخرى اقتران مصطلح الاستكبار بالسلطة السياسية (الملأ) الفاسقة.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والحديث هنا عن آل فرعون (السلطة السياسية الفاسقة).

ثم تعود سورة الأعراف لتؤكد هذا المعنى العام بهذه الآية:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

مرة أخرى فإن تعبير «التكبر فى الأرض بغير الحق» كلمة كبيرة تنصرف بالأساس لأصحاب السلطة والنفوذ والقوة والجنود.. بأكثر مما تنصرف إلى كافر منعزل فى بيته، أو كافر يردد كلمة الكفر على مقهى، أو فى مطبوعة محدودة التداول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

مرة أخرى الاستكبار والإجرام قرين السلطة السياسية الفاسقة، ونفس المعنى يتكرر فى الآيات التالية:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٦].

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

وأخيرا فقد شرحنا من قبل مفهوم طبقة المترفين (أى اندماج الطبقة الحاكمة السياسية والاقتصادية على نحو فاسد) فسنجد الآيات تربط المترفين بالاستكبار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٧].

هذه الآيات الصريحة الواضحة فى الربط بين الاستكبار والمستكبرين بالطغمة السياسية الحاكمة بغير ما أنزل الله.. الطغمة الفاسدة المستبدة.. لا تتعارض مع استخدام القرآن الكريم لمصطلح «الاستكبار» فى مواضع أخرى من القرآن الكريم أكثر شمولا.. وهو الاستكبار عن عبادة الله وبهذا المعنى فالاستكبار يشمل الرؤساء والتابعين الضعفاء.. لأنهم ساروا على نفس النهج.. وتعالوا عن عبادة خالقهم.. ولكننا نركز فى دراستنا على البعد السياسى.. لأن وعاظ السلاطين يغفلون عنه، وإذا ذكروه.. ذكروه فى صورة حكايات تاريخية غير مرتبطة بكل الأزمنة والأمكنة بما فى ذلك العصر الحالى بطبيعة الحال.. وأيضا - وأساسا - لأن هذا كما نكرر هو الخطر الداهم على الدين.. أى السلطات الاستبدادية الغاشمة التى تكرس إمكانيتها الجبروتية فى إفساد المجتمع.. وفتنة الناس عن دينها.. حفاظا على مصالحها.. واستدامتها فى السلطة.. والاستمتاع المترف بالنعيم الدنيوى..

ومن أمثلة الآيات التى تحدثت عن الاستكبار (عموما) أى عن العبادة.. دون الإشارة إلى الشق الآخر من الاستكبار.. أى الاستكبار على عباد الله المؤمنين..

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

كذلك استخدم القرآن الكريم نفس التعبير فى وصف موقف إبليس من الأمر الإلهى بالسجود لآدم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وهذا أيضا يندرج تحت بند الاستكبار عن العبادة.. وعن الالتزام بأوامر الله والانتهاء عن نواهيه، فهذا هو المعنى الشامل والكلى للاستكبار.. ويظل استكبار الطغاة هو العمود الفقرى.. ومحور الصراع الأبدى بين الإيمان والكفر حتى يوم الدين، واستكبار الطغاة يبدأ بالاستكبار عن عبادة الله.. ثم يقترن بالاستكبار على عباد الله والإفساد فى الأرض بغير الحق.

الفصل السادس
سيرة الرسول .. وطغيان سلطة قريش

تأتى رسالة الرسول الخاتم محمد ﷺ .. لتقدم لنا فصل الخطاب فى هذا الأمر.. فى موضوع دراستنا.. أى فى الارتباط العضوى بين الدين والسياسة.. وبين الدين والسلطة السياسية.. فنحن أمام التشريعات الربانية النهائية حتى يوم الدين.. منذ آدم.. لم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها نبيا أو رسولا.. واختلفت مهمات الأنبياء ودرجاتهم عند الله.. وتزامن الأنبياء مع بعضهم البعض أحيانا.. وتفاوتت أدوارهم بين انذار قوم بعينهم، أو الإصلاح وتجديد الارتباط بتعاليم الله.. وتبقى رسالة الإسلام الأخيرة كما وردت فى القرآن والسنة هى الكلمة الأخيرة للعالمين.

وفى دروس الدعوة الإسلامية، نلحظ أن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام قد اصطدمت بسلطة قريش، وهى السلطة الأولى فى جزيرة العرب، وذلك فى المرحلة المكية، أما فى المرحلة المدنية بعد الهجرة إلى المدينة.. فقد كان أمام الدعوة الإسلامية احتمالان نظريان مفترضان:

١ـ أن يكتفى الرسول عليه الصلاة والسلام بعد بناء مسجد فى المدينة بالعبادة ونشر

الدعوى، وترك الشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية لسلطات أهل يثرب التقليدية (الأوس والخزرج).

٢ـ أن يقيم نواة الدولة الإسلامية.

والواضح أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وفقا لوحى الله ـ قد أخذ بالخيار الثانى بلا تردد، بل اعتبر البيعة الأولى ثم الثانية اللتين سبقتا الهجرة، بمنزلة بيعة شاملة، وليس مجرد بيعة دينية.. وبالتالى يمكن أن نصف الرسول عليه الصلاة والسلام بلا أدنى تردد أو مبالغة أنه أول رئيس لدولة إسلامية.. وأنه أقام هذه الدولة بتوحيد جزيرة العرب حول راية الدعوة الإسلامية.. وليس أمام المسلمين إلا اتباع رسولهم والسير على نهجه الشريف.

إذن السيرة النبوية تجسيد حى للمرحلتين:

١ـ مرحلة المعارضة أى الدعوة للإسلام من خارج السلطة.

٢ـ مرحلة التمكين وبناء الدولة الإسلامية.

وقد أشرت إلى هذه المعانى الجوهرية فى دراستى (فقه التغيير السياسى فى الإسلام)، أما الآن فإننا نسير على نفس الخطة التى اتبعناها مع قصص الأنبياء، وهى الاكتفاء بما ورد فى القرآن الكريم، رغم أن حياة الرسول ﷺ لدينا كثير من التفاصيل المؤكدة عنها على خلاف قصص الأنبياء.. إلا أننا كما ذكرت مرارا لسنا أمام كتاب تفسير أو عرض للسيرة النبوية.. نحن ندرس فكرة الجهاد فى الإسلام.. كصناعة للأمة المؤمنة. وقد ركزنا فى دراسة (أحكام القرآن الكريم فى تحريم موالاة الكفار والمشركين) على جهاد الخارج.. أما هذه الدراسة فتؤكد على جهاد الداخل: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. الذى تصل ذروته إلى إزاحة الحاكم المستبد أو الظالم. وهناك علاقة وثيقة بين جهاد الداخل والخارج.. لأن الحاكم العادل الذى يمثل أمته الإسلامية حقا.. يكون واعيا مدركا لمخاطر أعداء الخارج.. كذلك فإن أسوأ حكام المسلمين.. هم أولئك التابعون لأعداء الخارج.

والآن فإننا سنتوقف عند بعض الآيات الصريحة الوثيقة الصلة بما نقول.. ولنبدأ بالمرحلة المكية:

الدعوة الإسلامية وإن جاءت من السماء فهى تجرى فى وعاء الأرض بكل قوانينها الاجتماعية التى سنها الله للبشر.. وبالتالى فإن الدعوة لدين الله تتحول إلى صميم العمل السياسى والاجتماعى بالمعنى الواسع للكلمة.. فى البداية يضفى الطابع السياسى على الصراع أصحاب السلطة والنفوذ، لأنهم يرون الدعوة الجديدة تقويضا لمكانتهم ولسلطانهم.. حتى إنهم يتساءلون اذا كان الله «مصرا على إرسال رسول من عنده» فلماذا لا يكون هذا الرسول واحدا من بينهم؟!!

إن معارضة السلطة الطاغوتية للدعوة تضفى الطابع السياسى على الصراع ولكن ليس ذلك إلا الجانب الأول.. أما الوجه الحقيقى للدعوة من زاوية الإصلاح المستهدف، فهو فى قلب السياسة.. اذا فهمنا السياسة بمعناها الصحيح.. وهى ادارة وتنظيم المجتمع.

نعم هى دعوة للإيمان والتوحيد.. ولكنها تستهدف الانطلاق من الإيمان والتوحيد لبناء مجتمع ينضبط بشرائع هذه الدعوة (وهذه هى المرحلة المدنية).. أما فى المرحلة المكية.. فإن الدعوة الإسلامية تقوم بدور المعارضة العقائدية الفكرية والسياسية أو يفرض عليها القيام بهذا الدور نظرا لصد أئمة قريش عنها، ومحاربتهم لها..

ونبدأ بسورة الزخرف وهى مكية:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢].

أى قال أئمة المشركين، استخفافا بمحمد ﷺ واستعظاما أن ينزل عليه القرآن، هلا نزل القرآن الذى يزعم أنه وحى الله على رجل عظيم من مكة أو الطائف! وعن ابن عباس: جبار من جبابرة قريش. ويرد الله عليهم فى هذا الاعتراض أنه ليس بأيدى المشركين مفاتيح الرسالة حتى يجعلوها فى أصحاب الجاه، نحن تولينا تدبير معيشتهم وفضلنا بعضهم على بعض فى الرزق والجاه، فقد فاوت الله بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة.... إلى آخر الآية.

وتواصل الآيات مقارعة الحجج مع هؤلاء الضالين الذين يقيسون المكانة بالجاه والمال.

﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

أى لولا أن يعتقد الناس أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيتجمعون على الكفر لأجل المال لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا ومصاعد يرتقون عليها من الفضة لهوان الدنيا علينا.

فعلية القوم فى قريش يكررون نفس ما قاله أسلافهم لنوح وكيف يتبعه الأراذل (الضعفاء).. ولا يتصورون قيادة روحية للأمة خارجة عن سلطانهم.. وأنفسهم.. وهم أصحاب الرياسة والمال.. وقد سبقت هذه الآيات الآية التى أشرنا إليها من قبل والتى كانت توضح للرسول عليه الصلاة والسلام أن ما يعانيه من كبار ومترفى قومه هو نفس ما عاناه كل الأنبياء من قبله.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وأمة هنا بمعنى «ملة».

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

والكلام هنا على لسان كبراء قريش من الكفار إذ يقولون فى شأن الذين آمنوا استهزاء بهم واستعلاء عليهم: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إلى الإيمان به، فإنا نحن أصحاب السيادة والعقول الراجحة وحين لم يهتدوا به (أى القرآن) يطعنون فيه فيقولون: هذا كذب قديم، وفى التفاسير قيلت أكثر من مناسبة لنزول هذه الآية، فقيل إن المقصود بها هو سبق بلال وصهيب وعمار وخباب وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء

وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] أي يتعجبون.. كيف اهتدى هؤلاء دوننا.. ولهذا قالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. وقيل ـ في أسباب نزول الآية ـ المقصود امرأة تدعى زنيرة إذ قال سادة قريش عندما سمعوا بإسلامها لو كان ما جاء محمد به خيرا لما سبقتنا إليه زنيرة، وأيا كان المقصود فالمعنى واحد وهو الغرور الذى يتملك الكافرين فيتصورون أنفسهم ـ بسبب وضعهم «السيادى» ـ أعلى قدرا وأعظم شأنا من الذين آمنوا.

*****

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ٦ـ ١٩].

وتنبه هذه السورة إلى أن الثراء والقوة قد يدفعان النفوس إلى مجاوزة حدود الله، ولكن مصير الكل إلى الله فى النهاية، وتنذر الطغاة الصادين عن الخير مهددة لهم بأخذهم بالنواصى إلى النار، ولن ينفعهم أهل ناديهم، أى أهل المجلس الذى يتجمع فيه كبراء القوم من عقاب الله ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أى متى أحس من نفسه قدرة وثروة يعد نفسه بهما فوق من دونه من الناس، وتذكر كتب التفسير أن مناسبة نزول هذه الآيات أن أبا جهل نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصلاة فى الكعبة قائلا: «لقد علمت ما بها رجل أكثر ناديا منى، لأملأن عليك هذا الوادى إن شئت خيلا ورجالا مردا» وفيه نزلت الآيات، ولا شك أن المعنى عام ـ كما نؤكد دائما فى فهمنا لنصوص القرآن ومناسبات نزول آياته ـ لكل وقت وزمن.

ولا تزال التحديات تواجه المؤمنين أحيانا بنفس الصورة الحرفية (منع الصلاة) كما كان الأمر فى البلاد الشيوعية، أو منع الصلاة الجماعية فى الخلاء، كما هو الحال فى كثير من بلاد المسلمين!! أو التضييق العام على المؤمنين والحركات الإسلامية.. وهذا حاصل بالتأكيد فى ظروف العالم الإسلامى الراهن من قبل السلطات الحاكمة.

*****

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أى احرص واحتفظ.. أيها الرسول.. بصحبة صحابتك الذين يعبدون الله وحده فى الصباح وفى العشى يريدون رضوانه، ولا تنصرف عيناك عنهم إلى الجاحدين من الكفار لإرادة التمتع معهم بزينة الحياة الدنيا، ولا تطع فى طرد فقراء المؤمنين من مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا لسوء استعداده وصار عبدا لهواه وصار أمره فى جميع أعماله بعيدا عن الصواب.

إنه نفس القانون يعمل.. فكما تجمع حول سيدنا نوح «الأراذل»، فقد تجمع حول سيدنا محمد «المستضعفون» وكتب السيرة مليئة بالتفاصيل الدقيقة، ولكننا نلتزم الآن بما سجله القرآن الكريم.. فإذا وجدت فى السيرة النبوية أمور عارضة تتعلق بالبيئة أو بالزمان والمكان المحدودين، لما حفل القرآن ككتاب هداية بتسجيلها، وكون المستضعفين هم الجمهور الأساسى للرسل والأنبياء، فهذا وجه العملة الآخر، فى أن جمهرة الكبراء والمترفين والمستكبرين (من الحكام) يكونون هم أعدى أعداء رسالات الله. وهذه الآية الكريمة تجمع وجهى العملة بكل التكثيف والبلاغة.

ولا شك أن المقبلين الأوائل على الدعوة لم يكونوا جميعا من الفقراء والمستضعفين.. فكان من بينهم أبو بكر الصديق، وكان من أكرم من عرفت قريش فى الجاهلية وأسلم على

يديه بضع نفر من أعرق بيوتات العرب مثل عثمان ابن عفان وقد أسلم بعد فترة وجيزة من بدء الإسلام عمر بن الخطاب، ولكن ظلت الغلبة للمستضعفين.. ومرة أخرى فليست هذه حكاية تاريخية.. انه قانون الصراع الأبدى... إن الحكام (اذا كانوا فاسقين) فإنهم يكونون الخطر الرئيسى على الدين.. والنظم الفاسدة الطاغوتية تقاوم أى إصلاح دينى، فيما عدا قلة من الأفراد تتمرد وتسمو فوق المصالح الدنيوية وتنضم إلى ركب الإصلاح.. ومعنى ذلك أن النظم السياسية فى البلاد الإسلامية اذا ما فسدت ـ وكثيرا ما هى الآن ـ فإن جمهرة المستضعفين ستكون هى الرصيد الاستراتيجى للمصلحين.. ومن يسعى للإصلاح بدونهم لا يكون جادا أو قد لا يكون مخلصا.. وقد يكون مجرد مخطىء.. ولكنه لن يفلح أذن أبدا.

*****

وهذا الموقف تكرر فى القرآن الكريم.. سنجده مطبقا على حالة خاصة.. نطالع فى القرآن شريط فيديو خالدا.. لقطة تاريخية ستبقى مضيئة أبد الدهر.. فى سورة عبس.. كثيرون يقرؤنها ويعرفونها.. ولكن هل يتدبرون معناها العظيم.. وإذا كانوا يتدبرونها فلماذا نراها شحيحة فى حياتنا؟! ربما لأن اجتماعاتنا العامة أصبحت تفصل بحدة بين علية القوم وعامة الناس فقليلا ونادرا ما يجتمعون فى جلسة واحدة للنقاش العام وهذه مصيبة أكبر.. ولنقرأ الآيات..

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١ ـ ١٠].

يقول الشيخ محمد عبده فى تفسيره :

(نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم وهو ابن خال السيدة خديجة رضى الله عنها وكان أعمى وهو من المهاجرين الأوائل واستخلفه ﷺ على المدينة يصلى بالناس مرارا وكان يؤذن بعد بلال، أى أن النبى ﷺ وهو بمكة بينما كان مشغولا مع صناديد قريش، عتبة وشيبة وأبى جهل، والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام

رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره الرسول قطعه لكلامه، فظهرت الكراهة على وجهه فعبس وأعرض عنه فنزلت الآيات.

يذكر الله نبيه في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يصح أن يكون حاملا على كراهة كلامه والإعراض عنه. فإنه حي القلب، زكي الفؤاد، إذا سمع الحكمة وعاها، فيتطهر بها من أوضار الآثام وتصفو بها نفسه من كدر الوساوس، أو يذكر بها ويتعظ فتنفعه العظة في مستقبل أمره، فلا يقع في مأثم، أما أولئك الأغنياء الأقوياء فأكثرهم الجحدة الأغبياء، فلا ينبغي الانصراف إليهم والتصدي لهم لمجرد الرغبة في إقبالهم على الأمر فيتبعهم غيرهم، فإن قوة الإنسان في حياة قلبه وذكاء لبه والإذعان إلى الحق إذا ظهر والانقياد للدليل إذا بهر، أما المال والنشب والعصبة والنسب والحشم والأعوان والأكاليل والتيجان فهي عوارى تغدو وترحل وتقر حينا ثم تنتقل، فكأنه يقول: يا أيها النبي إن أقبلت فأقبل على العقل الذكي، والقلب النقي. وإياك أن تنصرف عنه إلى ذي الجاه القوي والمكان العلي فذلك إنسان بنفسه، حي بطبعه، وهذا غائب عن حسه، معدوم بذاته، موجود بجمعه. وفي ذلك تأديب من الله لأمة محمد ﷺ ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم، هداهم الله) (انتهى الاقتباس).

إذن هذه الآيات.. وإن تضمنت نموذجا من الآداب الإسلامية الرفيعة، في كيفية التعامل مع الضعفاء (المعوقين والفقراء) فإنها تشير بوضوح إلى الخزان الاستراتيجي للدعوة الإسلامية، وأن الإسلام سيشتد عوده وينتشر عبر هؤلاء المستضعفين من الناحية الرئيسية، وليس عبر علية القوم، رغم الإغراء الواضح في أن دخول هؤلاء الكبار في الدين الجديد يبدو أقصر طريق للنصر.. ولكن أغلبهم معاندين مستغنين عن الهداية، فرحين بما لديهم من زينة الحياة الدنيا. بل إننا نرى من حياة الصحابة الذين انحدروا من الطبقات العليا، كيف تحولت حياتهم على الأغلب إلى مستوى من التقشف أقرب ما يكون إلى مستوى المستضعفين.. وعلى سبيل المثال عندما هاجر أبو بكر الصديق مع الرسول عليه الصلاة والسلام ترك أملاكه وبيته وأسرته، وحمل معه كل ما تبقى من ثروته وكان (نحو ٦ آلاف

درهم) وعندما فارق الحياة وهو خليفة رسول الله ﷺ لم يترك وراءه أى ثروة تذكر.. فهناك تعارض لا فكاك منه بين تكريس الحياة للدعوة وبين جمع المال، بين الإخلاص فى العمل فى سبيل الله.. وبين الترف.. وتظل هذه سنة الله.. فالحكام الصالحون من أبرز علامات صلاحهم بعدهم - وأسرتهم - عن مهنة «جمع المال»، وبعدهم عن الغرق فى مباهج الحياة الدنيا التى تنفتح أبوابها على مصاريعها عندما تكون فى السلطة.. وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى فتنة السلطة وأنها «يوم القيامة خزى وندامة».. وليس معنى ذلك أن الإسلاميين يجب ألا يسعوا إلى السلطة، ولكن يجب أن يدركوا خطرها، كما يدرك صاحب المال والأعمال أن ماله فتنة ويجب أن يتقى الله فيه، ويدرك أنه مال الله وأنه مستخلف فى إدارته لا أكثر ولا أقل. فإذا كانت السلطة فتنة كبرى للمسلمين الورعين فيجب ألا يرمش لهم جفن فى مراقبة أنفسهم وإلا سقطوا فى هوة سحيقة حتى لقد قال عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين عندما طُلب منه أن يستخلف.. أى يحدد خليفته (راغب راهب وددت أنى نجوت منها كفافا لا لى ولا على، لا أتحملها حيا وميتا) وما أروعه من تعبير عما نقصده بفتنة السلطة، نقول إذا كانت هذه حال المسلمين الورعين، فماذا عن سلطة يتولاها.. من لم يسمع عنه أنه ركع ركعة، أو سجد سجدة، أو أدى نافلة، أو أخرج زكاة، أو صلى فى مسجد إلا فى بعض المناسبات التليفزيونية، أو ذكر الله وهو يتخذ قرارا، أو استعان بآية من القرآن أو حديث شريف وهو يقرر أمرا من أمور الأمة. أى أن الطبقات الحاكمة والدوائر ذات النفوذ فى أى مجتمع إذا لم تستعن على نفسها بتقوى الله بما فى ذلك اتباع أوامر الله فى حق الرعية فى الرقابة، فإن هذه الطبقات تصبح بيئة مناسبة تماما لكى تكون مستنقع فساد، وبؤرة صد عن سبيل الله.. ولن تتقدم هذه الأمة إذا ظلت تقرأ سورة عبس على أساس أنها رواية تاريخية تمس بن أم مكتوم من ناحية وعتبة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة من ناحية أخرى وأن أثرها ومغزاها قد انقطعا!!

*****

وتتواصل الآيات تزيد نفسها شرحا وتفصيلا..

﴿ ولا تطرد الَّذين يدْعُون ربَّهُم بالْغداة والْعشيِّ يُريدُون وجْههُ ما عليْك منْ حسابهم مّن شيْءٍ وما منْ حسابك عليْهم مّن شيْءٍ فتطْردهُمْ فتكُون من الظَّالمين (٥٢) وكذلك فتنَّا بعْضهُم ببعْضٍ ليقُولُوا أهؤُلاء منَّ اللَّهُ عليْهم مّنْ بيْننا أليْس اللَّهُ بأعْلم بالشَّاكرين (٥٣) وإذا جاءك الَّذين يُؤْمنُون بآياتنا فقُلْ سلامٌ عليْكُمْ كتب ربُّكُمْ علىٰ نفْسه الرَّحْمة أنَّهُ منْ عمل منكُمْ سُوءًا بجهالةٍ ثُمَّ تاب منْ بعْده وأصْلح فأنَّهُ غفُورٌ رَّحيمٌ (٥٤) وكذلك نُفصّلُ الآيات ولتسْتبين سبيلُ الْمُجْرمين﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٥].

وفيها مزيد من الشرح لما جاء فى الآية السابقة ﴿ واصْبرْ نفْسك مع الَّذين يدْعُون ربَّهُم بالْغداة والْعشيِّ﴾.... الآية.

لم أجد أروع مما جاء فى تفسير ابن كثير عن شرح المعانى وأسباب النزول، فهى صلب ما نفهمه وما نريد أن نبسطه فى هذه الدراسة..

(أى لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك وقوله: ﴿ما عليْك منْ حسابهم مّن شيْءٍ وما منْ حسابك عليْهم مّن شيْءٍ﴾ كما قال نوح عليه السلام فى جواب الذين قالوا: ﴿أنُؤْمنُ لك واتَّبعك الأرْذلُون (١١١) قال وما علْمي بما كانُوا يعْملُون (١١٢) إنْ حسابُهُمْ إلاَّ علىٰ ربّي لوْ تشْعُرُون﴾ [الشعراء: ١١٣] أى إنما حسابهم على الله عزوجل وليس على من حسابهم من شىء كما أنهم ليس عليهم من حسابى من شىء.

جاء فى مسند الإمام أحمد: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزلت الآيات. وجاء فى تفسير الطبرى: مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مّن الله عليهم من بيننا؟ ونحن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت الآيات.

وقوله: ﴿وكذلك فتنَّا بعْضهُم ببعْضٍ﴾ أى: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ليقُولُوا أهؤُلاء منَّ اللَّهُ عليْهم مّنْ بيْننا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ وكان غالب من اتبعه فى أول البعثة ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ولم يتبعه من الأشراف إلا

قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧] وكما قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان حين سأله المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس وأشرافهم؟ قال بل ضعفاؤهم، فقال هم أتباع الرسل. والغرض أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أى ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيرا ـ ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قال الله تعالى فى جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

وفى الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وجاء فى تفسير الطبرى أن الآية ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.... الآية قال جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى، والحارث بن نوفل وقرظة بن عمرو بن نوفل فى أشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا (عسيف بمعنى أجير) كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له، فأتى أبو طالب النبى ﷺ فحدثه بالذى كلموه فأنزل الله هذه الآيات. وكان المقصود بهؤلاء بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبى حذيفة وصبيحا مولى أسيد، ومن الحلفاء ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، ومسعد بن القارى.. وأشباههم من الحلفاء ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ .... الآية.

ويعلق محققو تفسير ابن كثير: (وإنما كان ضعفاء الناس هم الذين يسارعون إلى إجابة

الرسل، لأنهم هم الذين يحسـون بالغبن ويعانون فى المجتمع من وطأة الأقوياء وظلم ذوى المزايا من الكبراء والأغنيـاء ولأن رسالة الأنبياء تستـهدف إقرار العدل، ورفع قـبضة الظلم، ونشر أضواء الحرية والمساواة) (انتهى الاقتباس).

*****

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ⑧ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⑨ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١٠].

ويستمر نفس منطق أئمة الكفر الذين قالوا من قبل ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، فهم يقرنون النبـوة بالجاه والثروة والتـميز عن طبائع البـشر.. لذلك فى موضع آخـر يرد الرسول عليه الصـلاة والسلام ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

كبار القوم الكافرين لا يتـصورون زعيما أو نبيا فقيـرا.. أما مطالبته أن يكون ملكا فليس هذا إلا نوعا من التعجيز بإثارة المطالب الصـعبة لإحراج الرسول ـ من وجهة نظرهـم ـ ولكن يظل حقـيقـيا أن أئمة الكفـر لا يفهمـون كيف تكون القـيادة فى المجتـمع لمن لا يملك أعظم الثروات والإمكانيات.. وهكذا فـإن الحوار القرآنى يعطى أهمية خاصـة لمناقشة هذا الصنف المتكبر من الناس.. وليس مجـرد الكافرين جميعـا بشكل عام.. وتشير التفـاسير إلى أن هذه الآيات موجهة إلى كبار الكافرين.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] وهكذا سنجـد «المجرمين» كمـصطلح قرآنى صـفة أخرى للمـترفين أى الطبـقات الحاكـمة الفاسدة الفـاسقة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبـأ: ٣٤] ويظل الإحتقار والتـعالى على الرسول الذى هو ليس رجـلا من القريتين عظيم

من وجهة نظرهم وأفقهم الضيق.. ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان: ٤١].

*****

• الهجرة والآيات التى دارت حولها :

إن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وما تعرض له المؤمنون من قهر وعذاب قبل الهجرة إلى المدينة درس حى متنوع الأشكال، لمعنى الجهاد دون قتال.. ودون استخدام سلاح.. جهاد بالصبر والثبات والإصرار على نشر الدعوة مهما كانت الإبتلاءات عتية، وقام زعماء كل قبيلة على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم واشتد عليهم العذاب حتى أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ولكن المهاجرين لم يزيدوا عن ٨٣ مؤمنا، وواصل النبى الجهر بالدعوة فى قلب مكة، فكانت الحرب القمعية بالمعنى المادى البوليسى.. وبالمعنى الإعلامى.. حيث تم تشكيل فريق «المستهزئين»، وأقاموا يستهزئون بالنبى ﷺ ويتعرضون له بالإستهزاء والإذاية حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده ثم كانت الذروة فى سنوات الحصار.. فلما رأى أئمة الكفر انتشار الإسلام وظهوره اجتمعوا وأصدروا قرارا سياسيا كتبوه فى صحيفة ووضعوه فى الكعبة.. أى هو أشبه ـ بلغة عصرنا ـ بقيام الحكومة بإصدار قرار بقانون ونشره فى الصحيفة الرسمية. ويتضمن ألا يناكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يكلموهم، فصاروا فى شعب أبى طالب محصورين متجنبين عدا أبى لهب فإنه كان مع قريش ضد قومه، فبقوا كذلك: ثلاث سنين، لا يصل إليهم شىء ممن أراد صلتهم إلا سرا، ورسول الله ﷺ مقبل على شأنه من الدعاء إلى الله، والوحى عليه متتابع. وفى محاولة لفك الحصار توجه النبى ﷺ إلى سادات الطائف وأشرافها ودعاهم إلى الإسلام، فأساءوا الرد، وأغروا به سفهاءهم فأتبعوه بالأذى حتى ألجأوه إلى أحد البساتين.

فى ظل هذه الأجواء تناولت بعض آيات القرآن الكريم الظروف المحيطة بالهجرة إلى المدينة، وهى تشير إلى تعرض الرسول عليه الصلاة والسلام إلى خطر القتل (الإغتيال) أو

النفى أو السجن.. وهذه هى المخاطر الثلاثة التقليدية التى تعرض لها الأنبياء من قبل وسيظل يتعرض لها المصلحون ـ من قبل الطغاة ـ حتى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧]، أى أن كفار مكة حاولوا أن يزعجوك من أرض مكة بعدوانهم ومكرهم ليخرجوك منها ولو تحقق منهم ذلك لا يبقون بعد خروجك إلا زمنا قليلا ثم يغلبون على أمرهم، وهى سنة تكررت مع رسلنا من قبل.

اذن الإخراج من الأرض (الطرد والنفى) من السنن الاجتماعية المتكررة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

والحقيقة أن الأمر الإلهى بالهجرة إلى المدينة، كان إستباقا لمؤامرات أئمة الكفر فى مكة.. لذلك وإن بدا أن قرار الهجرة قرار ذاتى من الرسول والمؤمنين (بوحى من الله).. إلا أن الهجرة كانت أشبه بالنفى الإجبارى.. وهى فى جوهرها نوع من الإخراج، والإجبار على الهجرة لأن البقاء فى مكة أضحى يهدد مجرد الوجود الجسدى للمؤمنين على قيد الحياة، لذلك فإن الهجرة فى الحقيقة كانت (إخراجا) أو (نفيا).

وقد كانت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام فى ظل أجواء مؤامرة محمومة لقريش تبحث كل الاحتمالات فقد أصبح لرسول الله شيعة وأنصار من غيرهم (فى المدينة) وأنه مجمع على اللحاق بهم، وأن أصحابه من المهاجرين سبقوه إليهم. وتشاوروا ما يصنعون فى أمره واجتمعت لذلك مشيختهم (مجلس وزرائهم) فى دار الندوة من بنى أمية وبنى نوفل وبنى عبد الدار وبنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح فتشاوروا فى حبسه أو إخراجه عنهم أو قتله، فاستبعدوا الحبس لأن ليس فيه حل ناجز، واستبعدوا الإخراج حتى لا يلحق بقاعدة أنصاره فتقوى شوكته ويعود ليصرعهم فاستقروا على القتل (الإغتيال) باختيار فتى شاب من كل قبيلة فيقتلونه جميعا فيتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب

جميعهم، واستعدوا لذلك من ليلتهم وجاء الوحى بذلك إلى النبى ﷺ فلما رأى رصادهم على باب منزله أمر على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده ثم خرج رسول الله ﷺ فطمس الله تعالى على أبصارهم، ووضع على رؤوسهم ترابا وأقاموا طول ليلهم، فلما أصبحوا خرج إليهم على فعلموا أن النبى ﷺ قد نجا. وكل هذه الأحداث المهولة لخصتها آية واحدة بالقرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومعنى يثبتوك، يقيدوك أو يحبسوك، والإثبات هو الحبس والوثاق، هذا أو القتل أو الإخراج، وعلمنا على ماذا استقروا ولكن (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)..

وقد أشارت آية أخرى لهذا الموقف ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠ ـ ٣١].

وأيضا فى حث المؤمنين على قتال مشركى مكة بعد الهجرة ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣] وأيضا ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ [التوبة: ٤٠].

نحن اذن أمام طغيان أئمة الكفار، سلطة سياسية اقتصادية لها خلفية ومرجعية عقائدية فكرية ثقافية وقوة عسكرية ظاهرة.. تواجه الدعوة بكل الأساليب الإستبدادية المعروفة عبر التاريخ وإمتدادا عبر المستقبل.. وإلى يوم الدين.

وقد استخدمنا من قبل مصطلح «قانون» لنصف به هذه الحالة من الصراع، ولم أكن قد اهتديت بعد إلى الآية الكريمة التى تقول بذلك حرفيا.. فسنجد بعد الآية التى أشرنا لها منذ قليل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦] سنجد هذه الآية التالية المكملة والشارحة لها ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].

كتاب الله الذى أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ينسخ ما قبله، ويهيمن عليه، وسنة الرسول المكملة والشارحة لكتاب الله.. الدستور النهائى للبشرحتى يوم القيامة.. وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام اختلفت فى كثير من التفصيلات عن سير من سبقه من الرسل والأنبياء، وما نستخرجه من أحكام وقوانين وعبر من حياة الرسول الخاتم فهى ملزمة لكافة المسلمين بلا مراء أو نزاع.. أما فيما يتعلق بموضوع دراستنا، فمن الواضح أننا أمام سنة من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتحول عبر الزمان والمكان، وما من نبى أو رسول إلا وتعرض للصد والرفض والإضطهاد من المترفين المجرمين.. فالرسول يشترك مع كل من سبقه من الرسل فى أمر جوهرى.. هو رسالة الإيمان التى يتلقاها من وحى الله.. أما الوجه الآخر فهو ذلك الصد والإضطهاد من أئمة الكفر.. وبهذا المعنى فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بدعا من الرسل ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] ثم ارتبط السياق بالآية التى أشرنا إليها من قبل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

ومن الغفلة أو سوء النية أن يدعي أحد أن هذه السنة (هذا القانون) قد انتهى مفعولها، مع انقطاع النبوة. والقول بذلك يمكن أن يلغى كثيرا من أحكام الشريعة الإسلامية.. إن القانون ما يزال سارى المفعول.. فالمصلحون والمجاهدون والفقهاء هم ورثة الأنبياء، أما الطغاة والمستبدون فهم أحياء يرزقون بين ظهرانينا.. يسدون الأفق.. وانحراف هؤلاء الطغاة عن جادة الإسلام جزئيا أو كليا بادى للعيان وليس أمام المؤمنين من سبيل إلا تجديد الدين.. بمعنى إعادة الأمور إلى أصولها، ورفض الإنحراف عنه وإعادة وصل ما انقطع بين الدين والحياة، دون أن ننشغل بتكفير الحكام، فالفسق والظلم يكفيان لرفضهم، وإعطائنا الحق فى مقاومتهم وإزاحتهم إذا كانت الظروف مهيأة.

فإتصاف الحاكم بالظلم والفسوق ليس شيئا هينا بحيث يستخف به ويستهان بأمره، فليس الكفر المخرج من الملة هو السبب الوحيد لمعارضة الحاكم وإقصائه، بل الظلم والفسق من أشد ما يجب أن يحذره المسلم الحريص على دينه، الخائف على نفسه، الراجى لقاء ربه

فقد قال تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ ـ ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ ـ ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾ ـ ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾ ـ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ ـ ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ ـ ﴿إن الله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ ـ ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾..

ويقول د. يوسف القرضاوى: (إن الحكم بغير ما أنزل الله ـ وإن لم يكن كفرا مخرجا من الملة لعدم جحود الحاكمين وإنكارهم لشرع الله ـ هو بالقطع حكم مخالف للإسلام، وحسب صاحبه إنه رضى لنفسه أن يكون ظالما وفاسقا. وهو ليس ظلم ساعة أو فسق يوم بل هو ظلم مستمر وفسق دائم بدوام الحكم بغير ما أنزل الله. ولهذا كان بقاء هذا الحكم منكرا بيقين وبالإجماع، وكان السكوت عليه منكرا بيقين وبالإجماع، وكانت معارضته ومجاهدته واجبين بيقين وبالإجماع، فيتعين على أهل الحل والعقد تغييره بالوسائل الدستورية، وإلا فبالقوة العسكرية أو الشعبية ولكن بشرط الإستطاعة وألا يؤدى إلى فتنة أكبر، ومنكر أعظم).

فكما كان المترفون هم العقبة الأساسية والخطر الداهم على رسالات الأنبياء، فإن الحكام المترفون فى العصر الحديث الذين غرتهم الحياة الدنيا هم العقبة الكؤود أمام إعلاء راية الإسلام وإستعادة عزة المسلمين، وإقامة العدل. وفى أحاديث رسول الله نرى نورانية عجيبة.. نجد حديثا عن عصورنا الحديثة، ما كان للرسول عليه الصلاة والسلام أن يستشفها أو يتنبأ بها بدون وحى الله، فالقرآن وحى بألفاظ الله، والسنة وحى بالمعنى دون اللفظ.

(١) «... فإن من ورائكم أياما، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون عملكم».. كيف تسنى للرسول عليه الصلاة والسلام ـ إن لم يكن وحيا ـ أن يستشرف المستقبل والإسلام فى قمة مجده وانتصاره بعد فتح مكة حين قال هذه الكلمات.. وراجع الكلام مرة أخرى، إن أجر المجاهد العامل فى ذلك الزمن القادم مثل أجر خمسين من الصحابة.. وما أدراك ما الصحابة.

(٢) تحدث الرسول عليه الصلاة والسلام عن «إمارة السفهاء» فقال: «أمراء يكونون من

بعدى لا يهدون بهـديى ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبـهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليـسوا منى ولست منهم، ولا يردون على حوضى، ومن لم يصـدقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم، فأولئك منى، وأنا منهم، وسيردون على حوضى».

إن الحكام المترفين الذين انحرفوا عن جادة الإسلام فى العصر الحديث يملكون من وسائل القمع والفـتنة ما لم يكن يملكه أسلافـهم الأوائل.. فأدوات القمع البـوليسى المادى تطورت بصورة هائلة.. ولديهم إمكانيـات لم يحلم بإمتلاكهـا طغاة الأمس، فتحـولت السجون إلى منظومة متكاملة، ومجتمع هائل داخل المجتـمع الأصلى، وأصبح التقدم العلمى يستخدم فى التعـذيب، و«المرشدون» و«العـسس» تحولوا إلى أجهـزة دقيقـة للمراقبـة والتنصت يمكن أن تقتحم كل الخصوصيات، أما مراقبة تحـركات المعارضين فأصبحت مجهزة بأجهزة لاسلكى وكل أنواع المركـبات، وأصبـحت هناك سجـلات دقـيقـة بالمواطنين، وبدلا من اسـتخـدام الكومبـيوتر فى التقـدم التكنولوجى، أصبح يستخدم فى صنع الملفـات الدقيقـة للمواطنين بحيث يمكن الاسـتفادة منها فى معـرفة وسائل الضغط والإرهاب ومكامن نـقاط الضعف.. وفى القديم كان الطغاة يلجأون كثيرا لمسـألة النفى (الإخراج) أما طغاة اليوم فلا يرضيهم إلا «المفرمة».. إلا أن وسائل التضليل المعاصرة فى تقديرى هى الأخطر من وسائل القمع البدنى المتطورة.. وكمـا أكدنا فى بداية الدراسة ـ وسنظل نؤكد ـ أن تضليل النـاس، وقبول الناس لهذا التضليل، هو السـبب الرئيسى لبقاء الـنظم الفاسدة.. فهى تبقى برضـاء الناس وتعاونهم معها عن اقـتناع كامل، أو باعتبارها أفضل الحـلول المتاحة، أو باعتبار «الذى نعـرفه خير من الذى نجهله» وهنا يأتى الدور الـرهيب لأجهزة الإعلام الحـديثة وهيمنة الدولة على العـملية التعليـمية بكل حلقاتهـا، وكذلك على إمكانيات العـمل الثقافى عمـوما (مسرح ـ سـينما ـ كتب) مما تلعب فـيه وزارة الثقافـة دورا أساسيا.. وعنـدما يسيطر الطغاة على هذه الأجـهزة الجهنمـية، فإنـهم يملكون قدرات هائلة على العـبث بعقول الجـماهير، وعلـى الأقل شغلهم بكل ما هو تافـه وسخـيف، لينصرفوا عن الأمـور الجادة التى لا شك تدفـعهم ـ فى الأغلب الأعم ـ إلى التفكـر فى دينهم، والآن تتضافـر جهود الـعديد من القنوات الفضـائية العـربية بتمويل عربى إسلامى لإفسـاد الذوق والأخلاق لدى جماهير المسلمين ولتلعب دورا مكملا

مع القنوات الفضائية الإباحية التى يسيطر عليها اليهود، والقنوات الفضائية العالمية التى تروج لثقافات مناهضة للقيم والأخلاق والتدين.

وفى مصر وتركيا كبلدين مستهدفين لأهميتهما فى العالم الإسلامى، نجد أمثلة صارخة على إغراق الناس فى طوفان إعلامى، الجاد فيه الذى يقدم فائدة للناس جد قليل، أما الغالب فيسيطر عليه إشغال الناس إلى حد الإغراق بكل ما يفسدهم، ويثير شهواتهم وغرائزهم، وبكل ما يصرفهم عن جادة الطريق القويم.. ولهذه الآلة الإعلامية التى وصلت فى مصر مثلا إلى حد عشرات لا حصر لها من المحطات التليفزيونية والإذاعية المكررة فى إنتاجها والتى تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة، وكأن الناس لا تعمل ولا تنتج ولا تنام.. وكأن لا هدف للإعلام سوى شغل الناس عن الأمور الجادة.. وصد عن سبيل الله وعن إعمار الأرض، بدلا من استخدام هذه الآلة الإعلامية الحديثة فى تربية وتعليم الناس وتثقيفهم، واستخدامها كأداة للحوار والشورى وتبادل الأفكار والمنافع، مع إعطاء مساحة معقولة للترفيه دون إفراط أو تفريط.. وقد لحقت بالقنوات التليفزيونية.. وسائل أحدث كالإنترنت لم يستخدمها حكام المسلمين فى أى شىء نافع حتى الآن (ومن قبل كان الفيديو والكاسيت).

إن مصارعة سلطات مستبدة تمتلك هذه الأدوات التى تقتحم كل بيت وكل غرفة نوم أضحت مسألة أشبه بمصارعة التنين أو الغول ذى الأيادى الطولى بالعشرات.. وليس فى ذلك دعوة إلى اليأس، فالله غالب على أمره، ولكنها دعوة لإدراك حجم المصاعب..

وفى مصر أيضا انضمت لكل هذه الوسائل.. التطويرات الحديثة فى الصحافة التى اقتصرت على الشكل مع تخلف المضمون.. فتوسع استخدام الصور الملونة وانتشرت المجلات والصحف الإباحية بموافقة الدولة ووزارة الإعلام، وأحيانا بتمويل مباشر من الدولة، بتحويل بعض المجلات الحكومية إلى طريق الإباحية، ونشر إعلانات الخمور بلا حياء، رغم أن القانون المصرى يحرم ذلك ويعاقب عليه، وكثر الحديث عن الصحف الصفراء (أى صحف الجنس والاثارة)، ولكن الحكومة تدعمها بكل قوة.. وأحيانا تقدم لها بنوك الدولة قروضا ميسرة!!

وبدأ الطغيـان يأخذ أشكالا مـزركشة جـديدة معاصـرة.. أى مئات الصـحف والمجلات ولكنها كلهـا تدور فى فلك واحد.. وتتحرك بـين هامشين لا يسمح بالخروج عنهـما يمنة أو يسرى.

خلاصة القول أن العصر الحديث وفر العديد من الوسائل الجهنمية للصد عن سبيل الله.. وأن النظم الإستبدادية تستعين بهـذه الوسائل.. والمؤمنون ملزمون بمقاومة هذه النظم التى لا تحكم بما أنزل الله، وهذا هو المعنى الأسـاسى لأن يكونوا مسـلمين سائرين على درب السـيرة المحمـدية.. ملتزمين بتعـاليم القرآن الكريم.. وأن يكفوا عن تداول وقـائع سيرة محـمد ﷺ على أنها «حدوتة» لا تمتد آثارها وسننها وضوابطها إلى يوم الدين.

ونعود مرة أخرى لأصل حـديثنا.. فالرسـول عليه الصلاة والسلام جسدت سـيرته الجهاد ضد طواغيـت الأرض.. حيث لم يجر نشر الدعـوة فى الفراغ.. أو فى مجال مـحايد.. وقد كانت الدعوة معجونة بالعمل السياسى بحـيث لا يمكن الفصل بينهما، فالإسلام الحق ـ كما شرعه الله ـ لا يمـكن أن يكون إلا سياسيـا وإذا جردت الإسلام من السيـاسة فقد جـعلته دينا آخر.

ويؤكد ذلك ويكمل الصرح تماما.. القسم التـالى من السيرة.. بناء الدولة الإسلامية.. بما يؤكد أن الإسـلام لا تقوم له قائمة بصـورة متكاملة بدون دولة، فلم تكن الهـجرة إلى المدينة إلا سعيا لإقامة المجتمع الإسلامى المتميز تشرف عليه دولة مسلمة متميزة.. كانت المدينة هى «دار الإسلام» وقاعـدة الدولة الإسلامية الجـديدة التى يرأسها رسول الله فهـو قائد المسلمين وإمامـهم، كمـا أنه نبيـهم ورسول الله إليـهم، وكان الإنضـمام إلى هذه الدولة لـشد أزرها، والعيش فى ظلالهـا، والجهاد تحت لوائهـا، فريضة على كل داخل فى دين الإسـلام، فلا يتم إيمانه إلا بالهجـرة إلى دار الإسلام والخـروج من دار الكفر والعداوة للإسـلام، والانتظام فى سلك الجماعة المؤمنة المجـاهدة، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٨٩].

وهكذا نفهم من سيرة رسول الله.. نفهم من القرآن والسنة أن الدولة والسياسة مفهوم محورى فى الإسلام سواء من وجهة نظر السلطة الحاكمة أو المعارضة، بمعنى أن المؤمنين المصلحين تواجههم السلطات الطاغوتية الفاسدة.. وتمثل العقبة الرئيسية فى طريقهم، وعليهم - أى المؤمنين - أن يستهدفوا إسقاط هذه السلطات طالما هى لا تستجيب لصوت الحق.. وأن يقيموا على أنقاضها دولة إسلامية، التى هى الهدف الأسمى للمسلمين فى الحياة الدنيا لتطبيق شريعة الله، وضبط عملية إدارة وتنظيم المجتمع وفقا لتعاليمها.. وهذا هو الهدف الذى وضعه الله لآدم عليه السلام ولذريته من بعده ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩].

والمؤمنون مجاهدون فى الموقعين.. موقع المعارضة أو موقع الحكم.. ولكننا نميل إلى التركيز على دور المؤمنين المجاهدين من موقع المعارضة لأنظمة منحرفة عن جادة الإسلام لأن هذا هو الوضع الأساسى الآن فى العالم الإسلامى..

يقول الشيخ محمد عبده: (إن الحاكم مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فاذا انحرف عن النهج قاموا عليه، واذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره. فالأمة هى التى تنصبه، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك فى مصلحتها).

وهذا حديث ثالث للرسول عليه الصلاة والسلام استشرف به مستقبل المسلمين، وتنبأ بما سيصيبهم فى أزمنة قادمة وقدم لنا العلاج والتوجيه..

(ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان (أى الدين والدولة) فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم). قالوا وماذا نصنع يا رسول الله، قال: (كما صنع أصحاب عيسى بن مريم: نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله).

الفصل السابع

المؤمنون جميعا مكلفون بالجهاد.. والمؤمنـون جميعا متضامنـون فى مقاومة الفسـاد وإصلاح الأوطـان

لقد قلنا فيما سبق أن جوهر هذه الدراسة يستند إلى الآية الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران : ١١٠].

ورأينا من قبل هذا التأكيد الإلهى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لقد ذكر فى الآية مقدما على الإيمان بالله.. وهو نوع من التأكيد البلاغى لا ينفى أن الإيمان بالله هو الأصل والمبتدأ فى رسالة المسلمين.

يقول د. القرضاوى (قدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الذكر على الإيمان، مع أن الإيمان هو الأساس لأن الإيمان بالله قدر مشترك بين الأمم الكتابية جميعا، ولكن الأمر والنهى فضيلة هذه الأمة، التى لم يخرجها الله لتعيش لنفسها فحسب بل أخرجت للناس، للبشرية كلها، فهى أمة دعوة ورسالة، همها أن تشيع المعروف وتثبته وأن تزيل المنكر وتمنعه).

ولا يكفى أن يوجد أفراد متناثرون يقومون بالوعظ والإرشاد فى دولة تدير لهم ظهرها ومجتمع ينأى عنهم بجانبه، فالقرآن لم يرد ذلك، إنما أراد وجود «أمة» فالأفراد المتناثرون لا يكونون «أمة».

وفى بيان السمات العامة لمجتمع المسلمين :

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١].

والآية قرنت المؤمنات بالمؤمنين وجعلت الجميع بعضهم أولياء بعض وحملتهم ـ رجالا ونساء ـ تبعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقدمت شعيرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الصلاة والزكاة، لأنها السمة الأولى للمجتمع المسلم، ولأفراد المجتمع المسلم، فالإسلام لا يكتفى منهم أن يصلحوا فى أنفسهم حتى يعملوا على إصلاح غيرهم.

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر].

فلم يكف الإيمان والعمل الصالح لنجاتهم من الخسران والهلاك حتى يضموا إلى ذلك التواصى بالحق والتواصى بالصبر، أى يوصى بعضهم بعضا أى يشتغلوا بإصلاح غيرهم، ويشيع فى المجتمع معنى التناصح والدعوة إلى التمسك بالحق والصبر عليه ويصبح ذلك من مقومات المجتمع.

فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى القرآن عَلَم على وجوب التكافل الأدبى بين المسلمين كما أن الزكاة عَلَم على وجوب التكافل المادى بينهم، وفى الحديث النبوى ما يصور هذا التكافل الأدبى أبلغ ما يكون التصوير وأروعه وأصدقه:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء، مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» [البخارى].

إن أسوأ ما يصيب المجتمعات أن يخرس الطغيان أو الخوف فيها الألسنة، فلا تعلن

بكلمة حق، ولا تجهر بدعوة ولا نصيحة، ولا أمر ولا نهى، وبذلك تتهدم منابر الإصلاح وتختفي معاني القوة، وتذوى شجرة الخير، ويجترىء الشر ودعاته على الظهور والانتشار فتروج بضاعة أبليس وجنوده من غير أن تجد مقاومة ولا مقاطعة، وحينئذ يستوجب المجتمع نقمة الله وعذابه، فيصب البلاء والنكبات على المقترفين للمنكر والساكتين عليه ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقال ﷺ «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»، وفي حديث آخر «إذا رأيت أمتى تهاب فلا تقول للظالم: يا ظالم فقد تودع منها».

إن كثرة لعن بنى إسرائيل في القرآن ، لا يمكن أن تكون على سبيل التشفى أو الإغاظة ـ حاش لله ـ وهي ليست حكايات تاريخية.. وإنما هي انذار ووعيد للمؤمنين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل.. وحتى لا يحيق بهم نفس ما حاق ببنى إسرائيل من لعنات ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة : ٧٨ ـ ٧٩].

وهذا حديث نبوى آخر نرى فيه كيف استشرف الرسول عليه الصلاة والسلام المحن المقبلة التي ستعانى منها مجتمعات المسلمين.

«كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم؟! قالوا وإن ذلك لكائن يارسول الله؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر، قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا، قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟ قال: كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون، يقول الله تعالى: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيرانا».

ويبدو أن الأمة الإسلامية قد اخترقت كل هذه المراحل.. انظروا إلى أحوالنا الآن فى مصر وراجعوا مراحل التدهور التى يشير إليها الحديث والتى بدأت بـ «طغى نساؤكم» وهذا ما يحدث منذ سنوات على مستوى السياسة العامة وعلى مستوى قضايا المرأة، «وفسق شبانكم» وهذا أمر واضح رغم وجود فئات صالحة ضد التيار، «وتركتم الجهاد» ولا يوجد بلد فى العالم الإسلامى ينطبق عليه هذا المعنى بأكثر من مصر فى أعقاب كامب ديفيد وحتى الآن، وهذه هى المرحلة الأولى..

أما المرحلة الثانية:

[٢] لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر.. وهو موقف سلبى.

[٣] رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا.. من استطالة فترة السلبية.. فأصبح الناس يستحسنون الشر.. ويرون فى الاستقامة والتمسك بالأخلاق الحميدة.. نوعاً من البلاهة.. والذى يتصرف لزيادة دخله بأى ثمن هو الناصح.. والمستقيم هو الخائب.. والذى يعترض على الانحراف متهور.. (يقف أمام القطار) وهو تعبير شعبى انتشر فى مصر.. والذى يساير الانحراف ويشترك فيه رجل حكيم يعمل بالقرآن الكريم ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وهو شطر الآية التى طالما تم تزوير معناها.. وأشرت لذلك.. وسأعود إليه مرارا.

[٤] والنتيجة المنطقية لكل ذلك أن يصل المجتمع إلى حد الإيجابية فى الشر فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف.

ولاأريد الاستطالة فى التحليل وضرب الأمثلة.. فلعله لا يوجد خلاف بين الأخيار حول التشخيص.. ولكن الخلاف دائما يتركز ويدور حول وسيلة العلاج.. ومع ذلك فلنضرب بعض الأمثلة وإذا أخذنا البعد السياسى العام فى مجال المعروف والمنكر.. سنجد أن موالاة أعداء الإسلام التى ينهى عنها القرآن.. أصبحت معروفا، التعاون مع اليهود المحاربين أصبح معروفا، وصداقة أمريكا من الثوابت الوطنية.. وعدم تطبيق الشريعة أصبح تطورا وتحررا ومواكبة ضرورية لدين العصر (العولمة) .. وتزوير الانتخابات شطارة محمودة، وحالة الطوارىء المستديمة واعتقال عشرات الآلاف .. حماية للوطن.. وللسلام الاجتماعى..

وتصفية القاعدة الاقتصادية للبلاد (القطاع العام الصناعى) عملا إيجابيا ووطنيا اسمه : «إصلاح اقتصادى» وتشريد عشرات الآلاف من العمال أيضا يسمى «إصلاحا» عملا بالآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] .

وأصبح ضرب القاعدة الزراعية فى البلاد لصالح الأعداء الإسرائيليين معروفا، وتسميم الشعب بالهرمونات المسرطنة معروفا.. ومعارضة ذلك منكرا.. يؤدى إلى الاضطهاد والسجن وقصف الرقاب والأقلام، وإغلاق الأحزاب والصحف!! وأصبح التشبه بأهل لوط معروفا، والاعتراض على ذلك منكرا، وطباعة الدولة لكتب تروج للإباحية والإلحاد معروفا، وإبداعا فنيا، وحرية للكلمة، والاعتراض على ذلك جريمة تورد من يرفع لواءها موارد التهلكة.

وهكذا سنحتاج لدراسة متكاملة لوصف وتشخيص تدهور أوضاع المجتمعات الإسلامية فى مصر وغيرها من بلاد المسلمين.. ولكن ليس هذا موضوع دراستنا.

وهذه الدراسة تركز على سبل العلاج.. وتضع فى رأس هذه السبل العودة إلى الالتزام بالأمر الإلهى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».. وذلك أن ترك الجهاد عموما.. هو بداية طريق الهبوط.. ولأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الفرع الداخلى للجهاد. فقد وصل الأمر بنا إلى هذا الدرك الأسفل.. والعلاج ـ فى تقديرنا ـ فى يد جموع المسلمين.

من يكون مؤمنا إيمانا حقيقيا صادقا، كيف يرضى أن تهبط أمته التى كرمها الله إلى هذا الدرك الأسفل؟! أمة وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولكن ليس بمجرد النطق بالشهادتين ولكن «بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»..

الأمة التى جعلها الله الأمة القائدة الشاهدة على الناس جميعا، كيف نقبل أن تكون فى ذيل الأمم.. بكل المقاييس الروحية والمادية.. تشحذ أكلها وشربها وسلاحها من الأعداء.. ثم تدعى أنها مستقلة.. لا يتدخل أحد فى قرارها الداخلى!

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

والوسط هو العدل والخيار، ذلك أن الزيادة على المطلوب فى الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفى الأمر، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنما تكون هذه الأمة وسطا باتباعهم له فى سيرته وشريعته، وهو القاضى بين الناس فيمن تبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين، لذلك يقول الشيخ محمد عبده: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدى الرسول واستقمتم على سنته وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التى وصفها الله فى كتابه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ بل تخرجون بالابتداع من الوسط.

ورغم أن الإسلام هو مؤسس فكرة الشورى.. فإن عدد البلاد الإسلامية التى تجرى فيها انتخابات حرة.. لا يصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.. وفى معظم البلاد الإسلامية ومن بينها مصر فإن الحكم فيها بالتغلب.. مع استبعاد المشاركة الشورية لأهل الحل والعقد، ولعامة الناس، رغم أن ذلك لم يحدث بهذه الصورة الفظة فى العصور السابقة حيث ابتدع الفقهاء اصطلاح «الإمارة بالتغلب»، ففى تلك العصور كان لرجال الدين ونخبة الأمة وقضاتها.. رأى وكلمة وموقف، ما كان للحاكم أن يتجاوزه بسهولة.

(إن استبداد حكام اليوم أخطر من استبداد حكام الماضى لأنه يمكنهم من الاستيلاء على سلطة التشريع وإصدار الدساتير والقوانين الوضعية التى يستخدمونها فى توسيع سلطاتهم وتمكين أعوانهم من أقسى أنواع البطش والطغيان التى تحرم الأفراد من حقوقهم الإنسانية وحرياتهم العامة والخاصة. إن هذا النوع من الاستبداد الشمولى المعاصر نتج عن تعطيل مبدأ استقلال الشريعة وسيادتها الذى بقى محترما طوال عصور تاريخنا ومهيمنا على المجتمع وأدى إلى نزع سلطة التشريع عن الدولة، هذا المبدأ الإسلامى هو الذى منع السلاطين والحكام ـ الذين استولوا على السلطة بالقوة أى بالتغلب ـ من تغيير الشريعة أو تعطيل أحكامها كما يفعل حكام اليوم) [الشاوى].

إن شريعتنا قد فرضت علينا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجعلته واجبا عاما على الجماعة وعلى جميع أفرادها فى نفس الوقت، وبذلك فرضت على الجميع المشاركة فى منع المنكر وعمل المعروف كل حسب طاقته، وهذه المشاركة الجماعية أساسها تضامن الجماعة وجميع أفرادها لإقامة المجتمع الصالح، ويضيف د. الشاوى: (إن الهدف الأول من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شريعتنا هو الزام الناس بالتصدى لطغيان الحكام وتقويم انحرافاتهم) ويصفها الشيخ محمد عبده بأنها (الفريضة التى أعطاها الله كل مسلم يقرع بها أدناهم أنف أعلاهم) وكان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين وينهاه فيما يرى أنه الصواب.

ومن المعروف أن من يتصدى للحاكم وينهاه عن المنكر أو يمنعه منه يكون ثوابه أكبر ممن يتصدى للأفراد لأنه يعرض نفسه لخطر أكبر.

ويقول الشيخ شلتوت فى كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة): (بتقرير القرآن مبدأ الشورى قضى فى الإسلام على عدو الإنسانية الفاضلة ومفسدها، وهو الاستبداد بالحكم والرأى واحتكار الشريعة والتصريف والإدارة ـ أى جمعها فى يد واحدة ـ وحقق للفرد كرامته الفردية، وللجماعة حقها الطبيعى فى تدبير شئونها).

والنظام السياسى فى الإسلام والشورى التى تحكمه ليس موضوع هذه الدراسة، وإنما نقتصر على ركن أساسى.. وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والخطأ الشائع فى بلاد كثيرة.. وإن كنا نركز على مصر لأننا أعرف بها من غيرها.. ولأن مهمتنا الأولى والأساسية هى إصلاح أوضاعها.. ولو صلح حالها لانصلح كثير من أحوال الأمة الإسلامية بحكم وزنها وموقعها وموضعها. الخطأ الشائع.. ان مهمة الإصلاح هى مهمة النخبة المعارضة مع أن النخبة ـ مهما خلصت نواياها ـ لا تستطيع أن تصلح الأحوال بقواها الخاصة، فهى لا تملك من العتاد إلا الورقة والقلم والكلمة الصادقة، ومهمة الكلمة الصادقة أن تتبناها الجموع قولا وسلوكا..وهنا ينفتح سبيل التغيير نحو الإصلاح.. بينما الطغمة المستبدة لديها قوى مادية عديدة لإحكام سيطرتها، وبالتالى فإن النزال يكون

غير متكافىء، حتى تتدخل الأغلبية الصامتة.. وتخرج من دائرة تغيير المنكر بالقلب.. إلى تغيير المنكر باليد واللسان، وهو فى ظروفنا يعنى العمل السياسى الجماهيرى بأوسع أشكاله.

نعم هناك أناس مؤهلون للتفقه فى الدين أكثر من غيرهم، للتخصص فى الاشتغال بالأمور العامة أكثر من غيرهم، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل فى تفسير الآية الكريمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران : ١٠٤].

وكذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل : ٤٣].

وهؤلاء القادة يتحملون مسئولية كبرى إزاء هذا الواجب.. فهو فرض كفاية، ولكن بالنسبة لأشخاصهم فهو فرض عين يأثمون إذا تخلوا عنه أو لم يتقوا الله فى فتواهم واجتهادهم ومواقفهم.. ومسئولية أهل الحل والعقد اذن مسئولية عظمى ولكنها لا تعفى عامة المسلمين من واجبهم فى مقاومة الظلم والاستبداد وأى انحراف عن جادة الإسلام.. فلابد أن يظاهروا المواقف التى يتخذها أولى الأمر من القادة.. حتى إذا لم يستجب الحاكم لها.. فإن الرأى العام (وفقا لمصطلحات العصر) يكون محاصرا له حتى يرتدع ويلتزم برأى الأمة الذى صدر عن قادتها وعلمائها ومفكريها.. ونحن نركز فى هذه الدراسة على عامة المؤمنين.. كل مؤمن ومؤمنة.. كل مسلم ومسلمة.. على دورهم، الذى إذا مارسوه وتلاحم مع بعضه البعض.. أصبح بإمكاننا أن نتحدث عن «أمة».. فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الآيات القرآنية صريحة.. بأن ذلك فريضة عامة.. لهذه الأمة التى هى شهيدة على كل الناس ولن يكون ذلك إذا ظل المؤمنون على حالهم الراهن فالمسلم المؤمن حقا

يتسم بالقوة النفسية والبدنية.. يعتز بعقيدته وكرامته.. ويعتز بنفسه كخليفة لله على الأرض، فكل إنسان هو خليفة لله على الأرض.. الإيمان بالله يتعارض مع قيم استعذاب الذل والهوان والخنوع والجبن. هكذا وصفهم الله عز وجل ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون : ٨].

إن الإيمان بالله هو مفتاح موضوعنا، كما هو مفتاح كل الموضوعات، فما معنى الإيمان بالله حقا بينما المؤمن يخشى الناس أكثر من خشية الله.

أخى المؤمن.. هل أخبرك بإحصائية طريفة ربما لم تفكر أن تحصيها بنفسك.. فأنت تسمع وتردد كلمة «الله أكبر» ١٤٤ مرة فى اليوم كحد أدنى ، ٤٣٣ مرة كحد أقصى بالنسبة لعدد واسع من المصلين. فأنت إذا اكتفيت بسماع الآذان وأداء الصلاة المفروضة فمعنى ذلك أنك تسمع الله أكبر.. لا إله إلا الله ٤٥مرة.. فى الآذان، ومن الآداب أن تردد بصوت خفيض مع المؤذن.. منطوق الآذان.. عدا حى على الصلاة .. حى على الفلاح فتردد «لا حول ولا قوة إلا بالله» وهذه لم تدخل فى الإحصاء!! أما فى الصلاة المفروضة فأنت تردد الله أكبر ٩٩مرة. أما إذا أديت السنن فإنك ستردد الله أكبر ٩٤ مرة وإذا استمعت لإقامة الصلاة فى المسجد أو للإمام فى البيت فستسمع «الله أكبر» ٣٠مرة أخرى، أما إذا قمت بالتسبيح عقب الصلاة فإنك ستردد الله أكبر ١٦٥مرة فى اليوم، وبالتالى يكون الحد الأقصى فى هذه الحالة ٤٣٣مرة كل يوم، وهناك من يزيد فى السنن (صلاة الضحى أو غيرها) وهناك من يزيد فى التسبيح.. ولكننا نتعامل مع المعدل العام للسنن والتسبيح.. فنحن نقع فى المتوسط العام لعموم المصلين ومن أكثر المسلمين المقبلين على الصلاة فى هذه الأيام بين ١٤٤ إلى ٤٣٣ ترديد لكلمة «الله أكبر».

فما معنى ذلك؟ وما دلالة هذه الإحصائية؟ وكيف ينعكس هذا التسبيح على حياتنا اليومية؟! من المفترض أن يكون هذا التسبيح اليومى بعشرات أو مئات المرات بالإضافة للصلاة وتلاوة القرآن والركوع والسجود.. وباقى العبادات.. إذا أداها المؤمن بكامل وعيه..

ويكل قلبه ووجدانه.. يصبح ربانيا.. لديه قوة لا تنفد.. مستمدة من القوة الإلهية اللا محدودة، وفى تكوين الإنسان القاعدة التي ينطلق منها هذا التواصل.. وهى روح الله التى تسرى فى جسده ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[السجدة :٩] بعد أن ﴿بَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧].. وما مسيرة الإنسان فى هذه الدنيا وكدحه فيها إلا الصراع بين تكوينه الطينى.. وروح الله التى فى جسده.. وأى تكريم للإنسان أن يكون خلقه من روح الله.. وهذا هو سبب أمر الله للملائكة بالسجود له.. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[الحجر : ٢٩].

وتكرر الآية بنفس النص فى سورة ص الآية ٧٢،وكان اعتراض إبليس على هذا الشق الطينى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[ص : ٧٦] .

فإذا تمثل الإنسان هذه الواقعة الكبرى.. فإن ذلك يرفع روحه المعنوية.. واعتزازه بنفسه إلى العنان.. بحيث لا يمكن أن يتصور أن يكون عبدا لإنسان مثله.. والإحساس بتواصل المؤمن المباشر مع الله.. ليس مجرد مسألة معنوية أو تكريمية عامة.. بل هى تعطيه قوة روحية ومادية ملموسة حقيقية فيبدو أكبر من حجم جسده الصغير.. ويبدو أقوى من امكانياته المادية الملموسة.. وقد فصل أحمد حسين فى كتابه المهم (الطاقة الإنسانية) هذا الموضوع تفصيلا كبيرا.وقد رأينا بأنفسنا الشعوب التى سرى فى أوصالها تيار الإيمان.. كيف حققت ما كان يمكن أن يعتبره البعض من قبيل المعجزات.. كيف انتصر الشعب الإيرانى الأعزل على آلة القمع الرهيبة لحكم الشاه، وكيف اقتحم الجيش المصرى خط بارليف وحرره خلال ساعات، وكيف صمد الشعب السودانى أمام عدوان ثلاثى (ارتيرى ـ أثيوبى ـ أوغندى) مدعوم من أمريكا وإسرائيل، وكيف انتصر حزب الله والشعب اللبنانى على إسرائيل وجيشها وأجبرها لأول مرة على الانسحاب بغير قيد أو شرط، ورأينا كيف صمد شعب البوسنة أمام المذابح الرهيبة، وكيف يحقق شعب الشيشان ما يشبه المعجزة، بإلحاق الهزيمة بالجيش الروسى منذ عدة سنوات ويكاد بإذن الله أن يحقق انتصاره الثانى الآن، وكيف يصمد الشعب العراقى أمام حصار لا مثيل له فى تاريخ البشرية لأكثر من ١٠ سنوات،

وكل الحسابات المادية تقول باستحالة ذلك.. ومن قبل رأينا كيف سحق الشعب الأفغانى الاتحاد السوفيتى وهو فى قمة عنفوانه، حتى كانت هذه الحرب من أهم أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى.. وهكذا فإن الأمثلة لا تعد ولا تحصى.. وأنا أتعمد الإشارة إلى أمثلة حديثة.. لإزالة فكرة شائعة وهى أن الأمة الإسلامية فى أسوأ أوضاعها وهذا ليس صحيحا.. فقد وصلت الأمة الإسلامية بالفعل إلى أسوأ نقطة عندما خضعت معظم بلدانها للاستعمار الأوروبى منذ النصف الثانى من القرن الـ١٩ وحتى منتصف القرن الـ٢٠.. ثم هبطت من جديد إلى أسوأ نقطة عندما سقطت موجة التحرر الوطنى التى لم تتسلح بصورة كافية بسلاح العقيدة.. والتى لم تدرك خلال عملية بناء الأنظمة الوطنية أن جوهر التحرر هو إعادة صياغة المجتمعات الإسلامية وفقا لأصول شريعتنا الغراء.. ووفق اجتهادات تراعى تطورات ومشكلات العصر.

إن إصلاح الأوضاع الداخلية للأوطان الإسلامية هو مفتاح النهوض.. ومفتاح الطريق لعودة الحضارة الإسلامية لتتبوأ مكانها الطبيعى بين الأمم.. ونعود مرة أخرى إلى الأغلبية الصامتة.. وإلى المفارقة التى طرحناها.. للمؤمن الذى يسبح بعبارة «الله أكبر» من ١٤٤ إلى ٤٣٣ مرة فى اليوم. بينما سلوكه اليومى لا يستفيد ولا ينعكس عليه هذا الإيمان بأن الله أكبر بالفعل فوق كل الجبارين والمتكبرين والفاسدين. ويخرج المسلم من صلاته ذليلا كما كان قبلها.. وكأن الصلاة لم تفلح فى إعادة شحن طاقته الربانية المعطلة، من جراء الفهم الضيق للدين.. الذى أصبح شائعا.. وهو محاولة مجرد النجاة بالنفس وليغرق باقى المجتمع فى الطوفان. يخرج المسلم من صلاته.. والتى ربما يؤديها فى مقر عمله.. ليتصرف فور الانتهاء من أدائها بما لا يتناسب مع ماردده فيها.. وكأن التسبيح بـ«الله أكبر» و«الصلاة» تحولا إلى فرع من «الفلكلور الشعبى» أو «التقاليد والعادات» أو مجرد وسيلة لإراحة النفس من عناء العمل والتفكير فى مشكلات الدنيا، مجرد رياضة روحية منبتة الصلة عن ما قبلها وما بعدها.. فى حين أن الإيمان الحق بـ «الله أكبر» هو مفتاح الحرية والتحرر والإصلاح.. هو مفتاح تحول الإنسان إلى عملاق.. يمتلك نفسية قوية متماسكة (النفس المطمئنة) وذلك على خلاف من رأى منكرا صمت عنه، وإذا اتضح المعروف له ما قام به ولا حض غيره عليه..

فموظف وزارة الزراعة يقوم بالتطبيع لأن رئيسه أمره بذلك، ويشارك فى عمليات إدخال مواد زراعية يعرف يقينا أنها مضرة بالصحة العامة للمواطنين.. وضابط الشرطة الذى يعذب مواطنا لأن رئيسه أمره بذلك، هى مجرد أمثلة لآلاف الممارسات التى تجرى فى كل لحظة على أرض مصر. فى حين إذا مارست الأغلبية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو على الأقل امتنعت عن أداء المنكر (وهو نوع من تغيير المنكر بالقلب) لتم حصار المنكر وانفتح الطريق للتغيير.. خذ مثالا بارزا وصارخا.. تزوير الانتخابات .. هو قرار سياسى شفوى من جهات عليا.. ولكن الذى ينفذه آلاف مؤلفة من المواطنين.. وهم رؤساء اللجان من صغار موظفى الدولة وصغار رجال الشرطة. بالتعاون مع بلطجية وأنصار مرشحى الحزب الحاكم.. وكثيرا ما روى لى هؤلاء الموظفون كيف زوروا الانتخابات، وأنه كان عليهم أن يفعلوا ذلك حتى لا يتعرضوا لأية مخاطر فى وضعهم الوظيفى.. لذلك حقت علينا الآية الكريمة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] .

فالذى ساهم فى ادخال مواد ضارة بالصحة يأكلها هو وأبناؤه.. والذى زور الانتخابات تنكوى حياته بمضار التشريعات الفاسدة للبرلمانات المزورة والباطلة. ولاحظ الاعجاز القرآنى فى عبارة الفساد ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ فهى كلمة ربما لم تكن مفهومة إلا بعد ظهور ما فى العصر الحديث من تلوث المياه والبحار ومشكلات البيئة فيهما .. وما يصيب الثروة السمكية وغيرها من اضمحلال أو أمراض قاتلة مما يطول شرحه.. ونعانى منه فى مصر (وسنعود إلى هذه الآية فيما بعد بإذن الله).

إذن ترديد المسلم لعبارة «الله أكبر» تتحول إلى «تميمة»لا تسمن ولا تغنى من جوع، ثم نتعجب لماذا لا يستجيب الله لدعائنا؟! ويردد المصريون كثيرا شطر الآية ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ باعتبارها رخصة للصمت عن مواجهة الموبقات، وأحيانا رخصة للمشاركة فى هذه الموبقات.. والعجيب أننى سمعت وقرأت لعلماء السلطة أو وعاظ السلاطين نفس الاستخدام المزور لهذه الآية، وكأن الله لم يقل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠] بل قال «إن الله يأمر بالظلم والعدوان وارتكاب الموبقات أو الصمت عليها» حاش لله وتعالى علوا كبيرا.

أما النص الكامل للآية التى يتم فيها تحريف الكلم عن مواضعه ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] .

أى أن الامتناع عن الجهاد بالمال فى سبيل الله هو الالقاء بأنفسنا إلى التهلكة، وإذا أراد فقيه أن يعمم معنى الآية، فيكون أن عدم تنفيذ أوامر الله هو الالقاء بالنفس فى التهلكة، ولم يستخدم القرآن الكريم هذا التعبير أو تعبيرا مشابها ليحض الناس على ارتكاب جرائم أو التواطؤ عليها والصمت عنها بدعوى الحفاظ على النفس من التهلكة.. وقد تحول هذا الشطر من الآية إلى شعار شعبى أكاد اسمعه يوميا من هذا المواطن أو ذاك.. ليبرر خضوعه وجبنه وتخليه عن أوامر الله: يا أخى ده حتى ربنا قال ﴿لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولأننا شعبٌ متدين فإننا نسعى لإيجاد شيء من القرآن يبرر تقاعسنا وسقوطنا فى ممارسات بنى إسرائيل ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٩].

أى أن الطامة الكبرى ليست فى فعل المنكر فهذا لابد وأن يحدث فى كل المجتمعات.. ولكن الطامة الكبرى فى عدم التناهى عن المنكر.. وهو الأمر الذى يحول المنكر إلى شيء معتاد.. ثم يتحول إلى شرعية فعلية.. ثم نصل إلى مستوى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ.. وهكذا أصبحت الرشوة فى بلادنا قانونا مشروعا، وأصبح التلاعب فى عداد التاكسى أمرا معتادا.. وهو أمر بالمناسبة لا وجود له فى أى بلد عربى أو إسلامى ناهيك عن باقى دول العالم. وأصبحت الدروس الخصوصية ـ كبديل للتعليم فى الفصل الدراسى ـ قانونا يحكم المجتمع، وأصبح عدم اتقان العمل والانتظام فيه فى الحكومة والقطاع العام هو الأمر الطبيعى، وأصبح الجمع بين أعمال ووظائف متعارضة أمر لا غبارعليه، وأصبح خرق القانون بسبب وساطات ذوى النفوذ أمرا أكثر من معتاد وطبيعى، وأصبح شراء أعضاء مجلس الشعب والوزراء من الدولة أمرا طبيعيا رغم انه يتعارض مع الدستور.. وأصبح استغلال أبناء المسئولين لمراكز آبائهم أمرا معتادا ثم يقال أنه

تصادف إنهم «عباقرة بالسليقة» أصبح كبار موظفى البنوك متواطئين على اقـراض بعض رجال الأعمال بلا ضوابط أو ضمانات.

أصبح من المعتاد أن توظف أموال البنوك والدولة لخدمة المترفين فى مجـال الاسكان الترفى بينما الشباب تطحنه البطالة وأزمة الاسكان. وتذكروا التلاعب فى تراخيص البناء، وفى مقاييس البناء، ومقاييس الانتاج!

وسنجـد فى كل هذه المواقع جيشا من بضع آلاف وربما يصل لبضع ملايين يساهم فى إدارة عجلة الفساد ولابد لهذه الحلقة الشريرة أن تنكسر، وهى لن تنكسـر إلا عندما تنتفض جموع الناس وتفيق إلى الحق.. ويعلن كل فى موقعه استنكاره لما يجرى بالمخالفة للقوانين ولما شرعه الله، وبهذا المعنى تعود البركة إلى البلاد ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[الأعراف : ٩٦].

نحن ندور فى الأساس خلال هذا الفصل حول الآية الكريمة التى يعلمها كثيرون ولا يعملون بها ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] .

إن انتفاضة جموع المسلمين هى الطريق الوحيد للإصلاح.. نعنى انتفاضتهم للحق..

إننا ــ فى حزب العمل ــ نختلف مع الذين يقولون إن الشعب المصرى شعب خنوع بطبعه.. ليبرروا تقاعسهم.. وهم لا يسندون كلامهم بأى رؤية علمية لتاريخ مصر، كذلك فإن هذا الكلام يتعارض مع القرآن الكريم الذى احتفل بجماهير المؤمنين وأزجى لهم المديح، وما أصاب الشعب المصرى فى هذه الآونة الأخيرة، فهو مرض عارض سيتجاوزه بإذن الله.. والعودة إلى الله بالمفهوم الجهادى الذى نلح عليه وكما هو مبسوط فى القرآن الكريم، هو طريق استعادة النفس.. وتغيير ما بالنفوس.. وبالتالى إصلاح الأحوال. ولذلك فإن دراستى هذه موجهة لجموع المسلمين التى اصطلح على تسميتها بالأغلبية الصامتة، فإذا خرجت عن صمتها... اعتدلت الأمور المعوجة.

وإن ما تردده النخبة فى الغرف المغلقة عن (الشعب الخنوع) وهو نوع من الاعتذار عن

تقاعس النخبة ذاتها، ليس هو ما يشغلنا فى هذا الفصل، ولكن انتقال هذا المرض إلى عامة الناس هو ما يشغلنا .. فكثيرا ما يردد المواطن المصرى نفس المقولة ليبرر لنفسه تقاعسه (أصل احنا شعب خنوع.. وجبان.. من أيام خوفو) والغريب أن كل واحد حينما يتحدث يستثنى نفسه وكأنه يبرر موقفه، ولا يلحظ أن ما يكيله من صفات رديئة للشعب باعتبارها صفات أزلية تنطبق عليه باعتباره فردا فى هذا الشعب، وقد شغلتنى دائما هذه الظاهرة، حتى هدانى الله إلى الحديث الصحيح «من قال: هلك المسلمون فهو أهلكهم» لذا اقترح على كل من يستمع لهذا الكلام الذى يشيع اليأس ويقول لقد هلك المصريون ولا امكانية لشفائهم مما هم فيه من تراجع الأحوال أن يرد عليه بهذا الحديث «من قال : هلك المسلمون فهو أهلكهم».

والحقيقة ان انتشار هذه الأقاويل هى من أعراض المرض الاجتماعى الذى يصيب أمة فى مرحلة من التدهور، ولابد من مقاومة هذه الروح بالعمل الجاد الإيجابى.. وأنا لا أقول بأننا فى مرحلة الصفر، فلاشك أن من بين جموع المؤمنين فريقا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولكن الدائرة ماتزال محدودة.. وأعلم علم اليقين أن بعض ضباط الشرطة رفضوا قتل بعض أفراد الجماعات الإسلامية فى السجون بناء على تعليمات وصلت إليهم، ومذكرات الضابط حمدى البطران نموذج حى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، رغم أنه ضابط عامل بالشرطة، وأعتقد أن القضاء انتصر له، وأعتقد أن رقبته لم تطر من فوق كتفيه.. وأعتقد أنه أدى الأمانة وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأنا أضرب مثلا من الشرطة لأنها تتسم بالانضباط شبه العسكرى، وهو الانضباط الذى شاع ــ خلال استمرار حالة الطوارىء ــ أنه يعنى تنفيذ الأوامر، أى أوامر. ولكن من حق ضابط الشرطة أن يرفض تنفيذ أمر مخالف للقانون، وناهيك عن الشريعة.. وكذلك فعل أحد ضباط القضاء العسكرى حين رفض التوقيع على حكم بإعدام عدد من أعضاء الجماعات الإسلامية.. حيث انهم لم يكونوا متهمين بقتل أى أحد من الناس، ومايزال فيما أعلم هذا الضابط حيا يرزق، وما تزال رقبته مستقرة فوق كتفيه.. وهو لم يلق بنفسه إلى التهلكة.. بل العكس صحيح تماما لو كان وقع على هذا الحكم الجائر، لأنه حكم بالقتل خارج نطاق القانون

والشريعة.. (وقد علقت على هذه الأحداث في حينها من منطلق ضوابط الشريعة الإسلامية فى جريدة الشعب).

ولكن لاشك أن هذه الدائرة التى تجهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تزال فى حدود ضيقة وغير كافية لمواجهة الطوفان.. ولابد من توسيع هذه الدائرة باستمرار فى مختلف مواقع ومؤسسات المجتمع. وكمثال نذكر أن اثنين أو ثلاثة من القيادات السياسية رفضوا تولى منصب وزير الخارجية، لقاء السفر لإسرائيل ثم توقيع اتفاقية كامب ديفيد الجائرة، وقد دخل هذا النفر فى قلوب الشعب، ولكن الدائرة كانت محدودة بحيث لم توقف طوفان كامب ديفيد الذى مانزال نعانى منه حتى الآن.

وعلمت أن بعض العاملين بوزارة الخارجية يرفضون العمل بسفارتنا بإسرائيل. وكل هذه نماذج طيبة... ولكن الذين قبلوا السفر لإسرائيل بسبب ضغوط وظيفية أو معيشية أكثر من الذين رفضوا.. (فى الخارجية ـ فى وزارة الزراعة ـ فى الصحافة)، والصورة ليست قاتمة تماما فهناك دائرة أوسع من تغيير المنكر بالقلب، ومعنى تغيير المنكر بالقلب يحتاج إلى وقفة، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

*****

تغيير المنكر بالقلب:

ومعنى تغيير المنكر بالقلب.. أن يرفضه المؤمن بقلبه.. فلا يشجع من يرتكبه، ولا يشارك فيه بطبيعة الحال، وهذا حل عبقرى بالنسبة للضعفاء، وهو حل اجتماعى استراتيجى على المدى الطويل، وتمثله الآن الأغلبية الصامتة النظيفة.. التى تتحرى الحلال والحرام فى سلوكها اليومى.. وهى الخزان الاستراتيجى للإصلاح المقبل بإذن الله.. فمعنى تغيير المنكر بالقلب.. أن يحافظ المؤمن على ذاته نظيفة من سوء المشاركة فى المنكر أو تشجيعه أو تأييده.. وليس هذا بالشىء القليل فالحاكم الذى يرتكب المنكر يتوقع من الناس أن تؤيده وأن تمدح

تصرفاته، وأن تلهج لـه بالثناء، فإذا لم يفعل الناس ذلك كان ذلك نوعـا من الحصار السلبى للمنكر وتضييق الخناق عليه.

لاحظوا مثـلا حرص الرئيس السـادات وإعلامه الـرسمى على ابراز التـأييد الشعـبى له بمبادرته بزيارة القـدس، والمظاهرات التى قيل إنها كانت فى استقـباله لدى عودته «الميمونة» من زيارة القدس المحتلة وإلقاء كلمة أمام الكنيست الإسرائيلى، فالحاكم مهما طغى واستبد يود أن يشعـر أن تصرفـاته وقراراته تلقى اسـتحسان الناس أيضـا لأن ذلك يعطيه شـعورا بالطمأنينة والأمان على عرشه وبأن الأوضاع مستقرة وبأن الدنيا قد دانت له.

وبالتالى فإن الذين لا يشـاركون فى مواكب وبرقيـات النفاق للحاكم المستبـد يساهمون فـى حصار المـنكر، ولعل هذه المقاطعة السلبـية تدفع الحاكم لاتخاذ بعض القـرارات تقربا للناس وتحسينا لمركـزه، فإذا كان فيه خيـر فربما ينصلح حاله.. أما الشيء المؤكد فـإن الحفاظ على نظافة القلب واليد لدى الأغلبية الصامتة.. هو الخزان الاستراتيجى للإصلاح... فعندما يأتى زمن الإصلاح فإنه يكون فى أشـد الحاجة للعناصر النظيفـة الطاهرة فى مختلف المواقع والتخـصصات كـى تساهم فى عملية إعادة بناء المجتمع، عناصـر لم تتلوث بتأييد ومسايرة المنكر.. فى زمن سيادة المنكر، ولكنها رضيت بالكمون والانتظار.

ولكن بكل تأكيد فإن التغيير لن يتم إذا واصلت الأغلبـية الاعتصام بتغيير المنكر بالقلب، أى واصلت أضـعف الإيمان، ولا يمـكن أن يكون أضـعف الإيمان هو مـثلنا الأعلى، بل إن التمسك بأضعف الإيمان أشبه بالطالب الذى يستعد للامتحان بمجرد النجاح البسيط، فيكون غـالبا مـعرضـا للرسوب، أمـا إذا عم البـلاء، وانحدر حـال الأمة إلى الدرك الأسـفل، وإذا أصبـحت هويـتها فى خطر.. ومصـابها فى دينها.. فإن مقـاومة الظلم والمنكر تصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة. بل إن الآية الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾لايمكن أن تفـهم إلا على أساس قيام مـجموع الأمة، أو أغلبيتهـا الساحقة على الأقل بهذه الفـريضة طول الوقت وفى كل الظروف، ومن باب أولى فى ظروف تدهور الأحوال العامة.

نحن لسنا أمام آية واحدة.. فكل توجيهات القرآن الكريم للمؤمنين جميعا فى شتى المجالات وعلى رأس ذلك الجهاد بمعناه الشامل (الخارجى والداخلى).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

أما الذى يفر من الاختبار والإيذاء: فإنما يفر من طريق الإيمان، طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد:٣١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِين﴾ [آل عمران : ١٤٢].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت :١٠].

﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١: ١٥٢].

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨].

والأحاديث النبوية تسير فى نفس الاتجاه مع المزيد من الشرح والتوضيح وبالإضافة لما ذكرناه من قبل نضيف:

(إنكم على بينة من ربكم مالم تظهر فيكم سكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش، وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله، فإذا ظهر فيكم حب الدنيا فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون فى سبيل الله، القائلون يومئذ بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار) أخرجه البزار عن معاذ بن جبل وبدون هذا تفقد الأمة الإسلامية خيريتها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

(إن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى، وإن منكركم اليوم معروف زمان يأتى، وإنكم لن تبرحوا بخير مادمتم تعرفون ما كنتم تنكرون، ولا تنكرون ما كنتم تعرفون) أخرجه ابن عساكر عن عدى بن حاتم.

باختصار.. لا يمكن أن يكون تغيير المنكر بالقلب هو الأساس وإلا لما حدث أى نوع من الإصلاح.. ولاضمحلت رسالة السماء.. القائمة على التبشير.. والانذار.. والمواجهة.. والتى يمارسها المصلحون وجمهور المؤمنين.. على درب النبوة بعد انقطاعها.. ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب: ٣٩].

*****

مقاومة الظلم واجبة:

وتحت هذا العنوان يقول الأستاذ فهمى هويدى فى نفس الاتجاه الذى نؤكد عليه باعتباره من ثوابت الدين المستقرة التى لا يموه عليها إلا وعاظ السلاطين يقول: [الظلم فى المفهوم الإسلامى ليس من أكبر المنكرات والكبائر فقط ولا هو مؤذن بفساد العمران فقط كما قال ابن خلدون، ولكنه قبل هذا وذاك، عدوان على حق الله، وانتهاك لقيمة العدل التى هى هدف الرسالة والنبوة ففى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» وكبح الظلم من أسباب توجيه الخطاب الإلهى ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف:١٢] وفى مجال التحذير منه ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢] بل أباح الإسلام القتال لرد الظلم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٩] ولم يسمح للمسلم بأن يجهر بالسوء إلا فى حالة واحدة هى تعرضه للظلم ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

بل هناك تحريض على مقاومة الظلم وشرعية قانونية معترف بها لتلك المقاومة ففى الأحاديث النبوية «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» و«سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» و«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب» أى أن الله يتوعد الساكتين على الظلم بالعقاب إذا هم استسلموا له. وأيضا قول الرسول ﷺ «كلا والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم بعضا».

لذلك انتهى فقهاء المسلمين إلى ايجاب العدل ورفض الظلم قطعا فى دار الإسلام حتى قال ابن تيمية إن «الظالم يستحق العقوبة والتعزير» وهو أصل متفق عليه.

وقد مضى الفقهاء على ذلك ولا أعلم فيه خلافا. انتهى الاقتباس.

*****

الإيمان والإسلام يتعارضان مع الأنانية والفردية :

ويتعارض الإيمان بالله وكما توضح لنا تعاليم الإسلام، مع الاستسلام للشعور بالأنانية والفردية، والرغبة فى الخلاص الفردى، وانعدام المسئولية تجاه الجماعة، والجبن، بحيث يميل المرء إلى أن يفر بجلده من هذا الخطر أو ذاك.. فالمفترض أن الإيمان يرقق القلب، ويجعل المرء أكثر رغبة فى اسداء المعروف للناس وحمايتهم من الأخطار، وأن يرهن مصلحته بمصلحتهم، فإن الله عز وجل لن يطعم ولن يشرب بالإيمان بالله.. ولكن الإيمان بالله يصلح شئوننا.. وشئون حياتنا .. كجماعة واحدة متحابة .. متضامنة.. وعنوان المسلم هو التزامه بجماعة المسلمين.. يقول الرسول ﷺ «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع» الترمذى والنسائى وغيرهما.

وكذلك «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» و «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

فإذا تعرض إنسان واحد لظلم لا يحق لمن يعرف ذلك أن يقف صامتا، وإذا تعرضت فئة لظلم يجب أن تتداعى لنجدتها سائر الفئات.. ولكننا نرى كثيرا فى بلادنا أن كل فئة أو جماعة أو نقابة أو حزب تتعرض للظلم ويتفرج الباقون عليها.. حتى إذا أتى الدور على فئة جديدة تكرر نفس الموقف البائس.. أما إذا تضامن المظلومون جميعا فى وقت واحد لما عرف الظلم طريقا إلى أى فئة من الفئات.

وهذا يعود بنا إلى النقطة التى بدأنا بها هذا الفصل، وهى أن ممارسة العمل السياسى (بمفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولا ينحصر العمل السياسى فى الانضمام لحزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات، بل يمتد إلى المشاركة فى شتى الهيئات الشعبية، والمشاركة فى كل أنواع الانتخابات، والجهاد من أجل حيدتها ونزاهتها، ولابد أن يكون كل مسلمة ومسلمة مناصرا على الأقل لهذا الحزب أو ذاك، لهذه الجماعة أو تلك، لهذه الجمعية أو تلك.. وهذا مع الأسف الذى يحض عليه ديننا.. أصبح الحال فى البلدان الغربية الديمقراطية، فكل مواطن يشارك فى العمل السياسى، والتصويت فى الانتخابات هو أضعف الإيمان.

إن المشاركة فى العمل السياسى من أجل إقامة حكم إسلامى متكامل.. أى إقامة النظام العادل.. فى ظل انحراف معظم الأنظمة فى المجتمعات الإسلامية عن جادة الإسلام جزئيا أو كليا.. إن المشاركة فى العمل السياسى بهذا المعنى ليس فرض كفاية، فمعنى فرض كفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط الاثم عن الباقين. فهذا صحيح إذا كان هذا البعض كافيا، إذ كلمة «فرض كفاية» تعنى بشكل واضح أنه إذا قام به من المسلمين ما يكفى فقد سقط عن الباقين، أما إذا كان عمل البعض غير كاف للإصلاح ولإقامة العدل، فقد أصبح فرضا عينيا على كل مسلم العمل من أجل إقامته. والمسلم غير مخير فى أن يتخذ موقفا سياسيا أو لا يتخذ بل يتعين عليه أن يدور مع كتاب الله حيث دار. وهذا ما يجعل العمل السياسى بالنسبة للمسلم ضرورة من الضرورات فى كل الأحوال، فى حالة وجود الحكم الإسلامى أو عدمه.

وهكذا كلما أوغلنا فى البحث ستكتشف معى أخي القارىء أن الدين الذى يقدمه لنا الإعلام الرسمى والتعليم الرسمى هو دين آخر، دين مُعلب، نزعت منه عشرات ومئات الآيات، التى لا يرد لها ذكر فى برنامج دينى ولا فى صفحة دينية بصحيفة حكومية، ولا حتى فى الآيات والأحاديث التى قليلا ما يذيعها التليفزيون، ولا فى خطب الجمعة فى المساجد الواقعة تحت السيطرة الرسمية، ولا فى الموضوعات والآيات المختارة فى المدارس، وهذه هى المنابع الأساسية لثقافة المتدينين، كذلك فإن عددا لا بأس به من الدعاة المستقلين آثروا السلامة وابتعدوا بدورهم عن لب العقيدة ، وهى أن تكون أمتنا أمة مجاهدة، أما كثرة الحديث عن الإيمان بالله دون ربط ذلك برسالة الأمة على الصعيدين المحلى والعالمى فينزع من الرسالة جوهرها، وإن عرض جزء من الدين دون جزء آخر أشبه بمن يقول نصف الحقيقة، وهو نوع من الكذب، ويحق على هذه الممارسات قول الله عز وجل الذى وجهه لبنى إسرائيل.. وهو بالتبعية موجه لنا جميعا عبر كل العصور ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة : ٨٥]، وإذا كان هذا الفهم المبتور للدين الإسلامى هو الشائع فمن الطبيعى أن تتدهور أحوال أمتنا وأن نكون فى ذيل الأمم، وأن يكون الفساد عنوان حياتنا، و«الجبن سيد الأخلاق» وفقا للتعبير الشعبى الشائع، وأن نقف مشدوهين أمام تقدم غيرنا من الأمم وكأنهم عمالقة ونحن الأقزام، ونفقد الثقة فى أنفسنا، وأن نكون أذلة أمام الظالمين، خاضعين أمام الطواغيت.

نعم الفساد أصبح عنوان حياتنا.. وذلك بما كسبت أيدينا، ومن الأقوال التى تلخص أحوالنا أفضل تلخيص من هذه الزاوية ما قاله د. جلال أمين عن مفهوم الدولة الرخوة والذى يقتبسه من عالم الاجتماع السويدى ميردال ويرى أنه ينطبق على مصر فى أوائل التسعينيات أدق الانطباق.

«هذه الدولة الرخوة تكاد تكون هى سر البلاء الأعظم وسببا أساسيا من أسباب استمرار الفقر والتخلف.. وهو يعنى بالدولة الرخوة: دولة تصدر القوانين ولا تطبقها، ليس فقط لما فيها من ثغرات، ولكن لأنه لا أحد يحترم القانون: الكبار لا يبالون به لأن لديهم من المال

والسلطة ما يحميهم منه، والصغار يتلقون الرشاوى لغض البصر عنه، الرخص والتصريحات معروضة للبيع، سواء كانت لبناء غير قانونى، أو لاستيراد سلعة ممنوعة، أو لاسترداد ضريبة واجبة الدفع، أو لفرض حماية لسلعة مستوردة.. إلخ.. والقيود لا تفرض إلا لكى يشرى البعض من كسرها والخروج عليها، والضرائب نادرا ما تحصل أصلا، والمناصب يلهث الناس للحصول عليها لما تجلبه من مغانم مادية.

والامضاءات تباع أو توهب للمحاسيب والأقارب والأنصار، والعملات الأجنبية وبدلات السفر توزع بلا حساب على أصحاب السلطة والمقربين منهم، وقروض البنوك تمنح بأسعار فائدة رمزية لمن لا يستحقها بينما يحرم منها من تقررت هذه الفوائد الرمزية أصلا لصالحهم.

فى هذه الدولة الرخوة يعم الفساد إذن وتنتشر الرشاوى، فرخاوة الدولة تشجع على الفساد، وانتشار الفساد يزيدها رخاوة. والفساد ينتشر من السلطة التنفيذية والسياسية إلى التشريعية حتى يصل إلى القضاء والجامعات. صحيح أن الفساد والرشوة موجودان بدرجة أو أخرى فى جميع البلاد، ولكنهما فى ظل الدولة الرخوة يصبحان «نمط حياة» (انتهى الاقتباس).

وقد كان هذا الكلام صحيحا تماما بالنسبة لأوضاع مصر فى أوائل التسعينيات، وهو أكثر صحة فى أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادى والعشرين. وحق علينا قول الله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[الروم:٤١] وقبل أن ننتقل إلى الآيات القرآنية الكريمة.. التى تحض على مقاومة الظلم والفساد والبغى والإسراف لابد أن نُذّكر بالفصول السابقة.. عن آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. والتى تتضمن الأمر الإلهى الصريح بذلك، ونذكر مرة أخرى بقصص الأنبياء التى لم يذكرها القرآن إلا لنهتدى بها.. ونسير على القدوة الحسنة لقادة البشر المرسلين من الله... وآخرهم رسولنا الكريم محمد ﷺ .. وقد سمى الله الأنبياء شهداء.. ومبشرين ومنذرين..﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[الفتح:٨] هم رجال دعوة.. يجهرون بالحق لا يخافون فى الله لومة لائم..

ولا فائدة من تلاوة ومعرفة الأحداث التى مروا بها إن لم نجعلها نبراسا فى حياتنا.. وأن يكون شغلنا الشاغل أن نقترب قدر الإمكان من هذا المثل الأعلى.. الذى اقترب إليه بالفعل الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم، وكثير من المؤمنين فى مختلف الأزمنة والأمكنة.. وبالتالى فإننا لن نعيد الآن شرح آيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا قصص الأنبياء فى مجال الصراع مع المتكبرين المفسدين فى الأرض.. ولكننا سنشير سريعا إلى الآيات التى جاءت على لسان الأنبياء.. والتى هى أشبه بالبيانات السياسية، والتى لم نشر إليها جميعا من قبل، وهذه (الجديدة) أو تلك التى أشرنا إليها من قبل.. ليست حصرا كاملا لما جاء فى القرآن الكريم.. وربما فى نهاية الدراسة سنقوم بهذا الحصر.. ليدرك المؤمنون العدد الهائل للآيات التى تصنف تحت بند العمل السياسى.. أى العمل الجماعى من أجل إصلاح المجتمع وفقا لعقيدة «لا إله إلا الله».

﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف :٧٤] صالح إلى قومه ثمود.

*****

ايمان السحرة ومواجهة فرعون:

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ [الأعراف : ١٢٠ـ١٢٦].

وهذا نموذج حى للانتصار إلى الحق مهما كانت النتائج.. وعندما يصدر فرعون حكمه الجائر.. على طريقة المحاكم العسكرية الفورية التى لا تستمع لدفاع.. وليس لحكمها استئناف أو نقض، لم يرمش لهم جفن.. ورأوا أن عذاب الله أشد بأسا وأشد تنكيلا من

عذاب فرعون.. ومن قراره بازهاق أرواحهم بعد تعذيبهم.. وكل ما فعلوه أن طلبوا من الله أن يفرغ عليهم صبرا.. صورة رائعة تقشعر لها الأبدان.. ولكنها ليست حكاية للتسلية (بالمعنى المعاصر لكلمة تسلية التى تشير إلى الترفيه وانشغال البال بمتابعة أحداث قصة مثيرة!)، وقد أمرنا الرسول بالثبات على هذه المواقف إن افترق الكتاب عن السلطان، فدعانا إلى أن نصنع كما صنع أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام «نُشروا بالمناشير وحُملوا على الخُشب.. موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله».

وقد تدهور بنا الحال.. حتى أصبح الناس يخشون الجهر بالحق.. ليس لأنهم معرضون لأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يصلبوا.. ولكن خشية أن تتأخر الدرجة «الترقية» أو خشية النقل إلى الصعيد! أو خشية إلغاء البدلات والحوافز، أو خشية أن يلقى بهم فى السجن أو يحتجزوا فى القسم لمدة يو م أو اثنين...

سيقول قائل ليست هذه هى المشكلة التى تواجهنا الآن .. فلا يوجد حاكم يقول صراحة: «أنا الله»، وليس هذا صحيحا تماما، فالشرك بالله قد يكون صريحا أو خفيا قد يكون مباشرا أو غير مباشر. إن هذا الصراع المروع فى المواقف بين فرعون والسحرة لم يعد فى ذمة التاريخ .. وإنه قابل للتكرار.. وقد تكرر بالفعل كثيرا.. وسيتكرر فى مصر وغيرها.. ولكننا على أى حال .. نتحدث حتى الآن عن مواجهة الظلم والفساد والمنكر.. بالقول اللين والحكمة والموعظة الحسنة.. وليس معنى أن ينطق الحاكم بالشهادتين.. أن يكون من حقه أن يفعل ما يريد ــ بغض النظر عن مطابقة قراراته مع الشريعة من عدمه ــ دون معقب. وهذا ما ينطبق أيضا على كوكبة المسئولين والوزراء المحيطين به.. وقد كان للخلفاء الراشدين ما يمكن ان يؤاخذوا عليه، فهل يعدم حكامنا ومسئولونا ما يمكن أن يؤاخذوا عليه؟! وهل الآيات التى تتحدث عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكذلك الأحاديث النبوية.. تقتصر على وجود الحاكم الكافر؟! لا يفهم ذلك أبدا من الآيات والأحاديث.. لأن وجود الحاكم الكافر الذى يعلن الكفر البواح يعنى ضرورة تجاوز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى الثورة المباشرة عليه (الخروج)، أما إذا كانت الظروف غير

مهيئـة للثورة وهذا وارد بطبيعة الحال، فإن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر يصبح هو الحد الأدنى الضـرورى لمقاومة زمـن الطغيـان والفساد.. وهـو طريق الإصلاح.. وتهـيئة الـتربة للتغيير الشامل، كذلك نفهم من قصة السحرة أنه لا معنى للإيمان الصادق مع الجبن والخوف من غير الله، ونفهم أنه لا معنى للإيمان بالآخرة، إذا كان المسلم مـتهافتا على الدنيا، ويخشى أن تفوته ملذاتهـا، وأن تكون الدنيا هى مبلغ عـلمه، ومنتهى أمله، ويصـبح الإيمان بالغيب.. الإيمان بالجنة والنار مـسـألة غامـضة مـحـاطة بالضبـاب، وكـأنها أمـر غـير جـدى.. وغيـر مضمون.. وكأنها بعيـدة إلى الحد الذى يجب ألا يكلف المسلم بها، وأن يركز كل همه على الخلاص من مشكلته فى هذه اللحظة الآنية مع الحاكم المستبد، حتى يضمن لنفسه السلامة.. والاستمتاع بملذات الحياة الدنيـا أطول فترة ممكنة، وكأن الأعمار والمصائب والنوائب فى يد الحاكـم، أليس فى ذلك الموقف شرك واضح باللـه.. الذى نص فى محكم آياته على الـقدر المحتوم ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١].

ونعود لنذكر هنا بأن شراسة فرعون نـابعة من حرصه على السلطة وما تعنيه من مكاسب دنيوية تبدو غـير محدودة، فهو إذا ترك الـسحرة بسلام فى ذلك اليوم المشهود لسـقط عرشه الطاغوتى تلـقائيا، لأن سـحرة ذلك الزمان، والذين حـشرهم فرعـون من مخـتلف الأقاليم يمثلون شريحـة بالغة الأهمية من المثـقفين.. مرتفـعى الصوت.. المؤثرين على الناس والرأى العام.. لذلك يقول ابن كثير فى تفـسيره لقول فرعون ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣] أى : [تجـتمعوا أنـتم وهو ــ أى موسى ــ وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم] .

ويعود القرآن الكريم إلى قـصة السحرة فى سورة طه.. وتهمنا هذه القـصة بشكل خاص لأن السحـرة ليسـوا أنبيـاء لأن الشائع فى مـصر إذا طلبت من شـخص ما يقـارف المنكر أن يكف عنه أن يقـول لك (يا أخى أنا لست نبيـا؟!) وكأن الأنبيـاء من المفـترض أن يحـتكروا الخـير كله.. فلو كـان ذلك صـحيـحا فـمـا كانت رسـالاتهم.. ومـا كان هناك جـدوى من اعتناقها!

كذلك تهمنا هذه القصة من زاوية أخرى.. أن السحرة من المفترض أنهم شر الناس.. ومع ذلك فإنهم إذا استضاءت قلوبهم بنور الإيمان فإنهم يتحولون إلى خير الناس وفى يوم واحد.. بل وفى لحظة واحدة..

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾[طه: ٧٠ ـ ٧١].

فكان رد السحرة كالتالى وهو أكثر تفصيلا مما ورد فى سورة الأعراف:﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

وكذلك نفهم من هذه الآيات أن فرعون هو الذى أكرههم على ممارسة السحر، كما يكره حكام اليوم الضالين من المثقفين على الخوض فى الباطل واستخدام وسائل الإعلام الحديثة فى سحر ألباب الناس وصرفهم عن الحق وشغلهم وإقناعهم بالباطل.

ثم يعود القرآن الكريم إلى ذات القصة للمرة الثالثة فى سورة الشعراء.. وليسأل كل منا نفسه لماذا يكرر القرآن هذه الواقعة دون غيرها من عشرات ومئات الوقائع التاريخية التى حفل بها المصحف الشريف.. وأن التكرار لا يعنى عند المفسرين إلا التذكرة والتأكيد ومزيد من التفصيل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[الشعراء: ٤٦ ـ ٥١].

*****

سيدنا إبراهيم ومقاومة الطواغيت:

من قبل تحدثنا عن قصة سيدنا إبراهيم وكيف واجه الملك الطاغية بصراحة ووضوح ومباشرة، ولن نعود إلى هذه القصة العظيمة إلا بقدر محدود، لندعوا إلى التأمل فى أسلوب الخطاب المباشر والقاطع لسيدنا إبراهيم.. وأيضا لأسلوبه الباتر فى الممارسة لتغيير المنكر باليد.. هذا الأسلوب الذى لايعرف مجاملة فى الحق.. ولا تزيين للكلام بحيث يصبح لزجا منافقا غير قاطع الدلالة.. وهذا برهان آخر من ربنا.. على معنى القول اللين للحاكم، فليس معنى القول اللين .. تمييع القضية.. وإنما معناه كما أسلفنا عدم الاستفزاز الشخصى وعدم استخدام كلام جارح إلا فى إطار الموضوع.. وإذا كان قول الحق جارحا.. للمارقين فليكن.. ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء:٥٢].

وواضح من هذا التساؤل ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أنه استنكارى يحمل معنى الاستخفاف والاستهزاء.

فلما ردوا عليه ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء:٥٣] كان رده متسما بالوضوح والحزم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء:٥٤] فلما استهزأوا به ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥٥] صعّد سيدنا إبراهيم موقفه ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧]. وبالفعل حطم الأصنام عدا صنما كبيرا ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عما حدث لباقى الأصنام.

وفى المحكمة الاستثنائية التى عقدت على الفور له، حيث لا استئناف ولا نقض.. تمت مواجهته بالتهمة فاعترف بها وقد جاءوا به مخفورا إلى المحاكمة.. وسألته النيابة ورئيس

المحكمة ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] فاستهزأ بهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٦٣] ثم أعلن صراحة أنه هو الفاعل ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧] ، و﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ كلمة قاسية تعنى قبحا لكم ولآلهتكم، وطبعا أصدرت المحكمة قرارها بالحرق الفورى.. دون استئناف أو نقض أو حتى تقديم التماس.. ولكن كان لله كلمة أخرى ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠].

هذه هى الصرامة فى الحق.. والمواجهة بدون استخدام رموز أو كناية أو استعارة أو لف أو دوران.

ومرة أخرى سيقول قائل هذه قصص التاريخ.. وما توجد عبادة الأصنام الآن والحمد لله.. ونقول: ألا يوجد حكام فى العالم الإسلامى ملأوا أوطانهم بتماثيلهم.. وصورهم الملونة بمختلف الأحجام الطبيعية وغير الطبيعية.. حتى تكاد تملأ وتسد الأفق.. حقا إنهم لا يجرأون أن يستخدموا ـ بعد ١٤ قرن من الإسلام ـ تعبير فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، ولكن سلوكهم وسلوك أجهزتهم الإعلامية والبوليسية تنطق بنفس المضمون.

وتبقى قصة سيدنا إبراهيم تنطق بمعنى مقاومة الباطل بكل درجاته: كفر ـ فسق ـ ظلم ـ بغى ـ منكر، فإذا كانت الشجاعة والإقدام مطلوبان فى مواجهة الكفر الصريح وهو قد يؤدى إلى صدور حكم بالإعدام.. فمن باب أولى أن تكون الشجاعة مطلوبة فى مواجهة أمور أقل خطرا من اتهام الحاكم بالكفر وهذه تعرض المرء لعقوبات أقل.. فى حين أن العقوبات التى يرغب الظالم فى فرضها ويصدرها فى أحكام فإنها لن تتحقق إلا بإذن الله، وإذا كان سيدنا إبراهيم نبيا فليس هذا هو الذى حماه من القتل، فقد قتل أنبياء على يد بنى إسرائيل.. والله يعصم بعض أنبيائه ورسله من الناس، وإذا كان سيدنا إبراهيم قد نجا بمعجزة.. فليس معنى ذلك أن المصلح فى عهد انقطاع النبوة، لا يلقى حماية من الله..

وليس شرطا أن تأخذ الحماية شكل هذه المعجزة. ونلمس فى التاريخ عشرات الأمثلة على زعماء تحدوا الطغاة، وقرر الطغاة قتلهم والخلاص منهم، فنجوا واندحر الطغاة.

يقول الله تعالى فى الحديث القدسى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب» متفق عليه.

ومرة أخرى سيقول قائل ولكن هذا ينطبق على القادة وأولياء الله.. وليس على المؤمن الفرد من عامة المواطنين.. ولاشك أن قادة الأمة لابد أن يكونوا أكثر صلابة وقدوة فى التضحية، ولكنهم لا يمكن أن ينتصروا وخلفهم جيش من الفرارين الجبناء!! ولأن القصص القرآنى يكمل بعضه بعضا.. فهناك صلابة النبى الفرد.. وهناك صلابة جماعة المؤمنين من أنصار الله (سحرة فرعون ــ أنصار المسيح عليه السلام) وهناك صلابة عامة المؤمنين.. (مؤمنوا الأخدود ــ الأنصار والمهاجرين الذين شاركوا جميعا فى الغزوات) وهذه مجرد أمثلة.

بل إن هناك آيات محددة تدين موقف المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.. الذين رضوا بالظلم فلم يهاجروا.

بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام حبب إلينا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فاعتبره صدقة: فعندما جاءه الفقراء من الصحابة يشعرون بالقلق لأن الأغنياء يفوقونهم بالأجر والثواب لأنهم يتصدقون بأموالهم، بينما يتساوى الجميع فى باقى العبادات فكأن الأغنياء بذلك يفضلون عليهم فبماذا أجابهم رسول الله ﷺ..

قالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهى عن المنكر صدقة... إلى آخر الحديث» مسلم.

وفى حديث آخر:

«على كل مسلم صدقة»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعمل بيديه فينفع نفسه

ويتصدق»، قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يأمر بالمعروف ــ أو الخير».. إلى آخر الحديث (رواه الشيخان).

وهكذا نجد فى القرآن والسنة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» خيطا أساسيا فى نسيج تكوين المسلم وسلوكه وممارسته اليومية، وبدونه لا يكون المسلم فى الصورة التى أرادها الله ورسوله.

*****

آيات الجهاد والصبر والابتلاء فى سبيل الله:

والآن ننتقل إلى مجموعة من الآيات التى تحض على الجهاد والصبر وتحمل الابتلاءات باعتبارها من شيمة المؤمنين التى يعرفون بها، بينما حب الدنيا من شيمة الكافرين.. ويقرر القرآن الكريم أن هذه الابتلاءات هى اختبار من الله عز وجل.. ولابد للمؤمنين أن يجتازوا هذا الاختبار بنجاح.. حتى يصدق إيمانهم ويستحقوا الجنة، فليس المؤمن الحق هو الذى ينطق بالشهادتين ويؤدى الفرائض ثم «يسير بجوار الحائط» حسب التعبير المصرى الشائع، فأى مؤمن هذا؟! وهل توجد دعاية سيئة للإيمان بأكثر من ذلك؟! أى إيمان ذلك الذى لا يعطى المؤمن قوة وطاقة وعزة.. أى إيمان ذلك الذى يترافق مع مؤمن ذليل كسير النفس ضعيف الإرادة.. يحلو له أن يهرب من المسئولية بترديد الأمثلة الشعبية بعد تفسيرها بأسوأ معانى السلبية، (الباب الذى يأتى منه الريح سده واستريح).

* * * * *

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٢].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وتشير هاتان الآيتان إلى أن السبب فى الانحراف والكفر هو طلب الدنيا، فقد زين للذين

كفروا شهوات الحياة الدنيا فمضوا يسخرون من الذين آمنوا لانشغالهم بالحياة الآخرة، ثم يتجه الحديث إلى المؤمنين فيقول لهم الله عز وجل: هل حسبتم أن تدخلوا الجنة بمجرد إقراركم بكلمة الإسلام بدون أن تصابوا بمثل ما أصاب الذين من قبلكم فقد أصابتهم الشدائد والنوازل وزلزلوا حتى بلغ بهم الأمر أن قال رسولهم نفسه وقالوا معه: متى نصر الله؟

وبعبارة أخرى يقول الله عز وجل أظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تمتحنوا بما امتحن به كل مؤمن قبلكم على مدى التاريخ، فالابتلاء بمعنى معاناة الشدائد والصبر عليها هو الشرط الأساسى لاستحقاق الجنة فهى لا تكون لغير المتقين، ولغير الصابرين.

والسؤال الذى يمكن أن يرد على الخاطر لماذا يتعين على الرسول (وكلمة الرسول هنا اسم جنس، أى أنها لا تتحدث عن رسول بعينه) أن يقاسى ويعانى هذه المعاناة، والواقع أن ذلك جزء من الرسالة فهو دليل صدقها أمام الدنيا كلها إلى أبد الآبدين، ذلك أن الكاذبين والمنافقين والمخادعين وأصحاب الأغراض الشخصية من أى نوع كان، إنما يفعلون ما يفعلون لجر المغانم والمنافع والرفاهية والهناء، فهم لا يمكن أن يحتملوا المتاعب فضلا عن الآلام، وهذا ينطبق على المؤمنين بهم ولذلك جمعتهم الآية معا فى معنى واحد ونداء واحد إلى الله عز وجل: متى نصر الله؟

وحول هذه الآية يقول الشيخ محمد عبده إنها تؤكد:

(ابتلاء الله المؤمنين الصادقين الداعين إلى الحق، ولكنك تجد أكثر المسلمين الذين تتلى عليهم دائما فى غفلة عنها، فمن لم يغفل عن تصور المعنى فى ذهنه يغفل عن انطباقه على الواقع ولذلك تجد الكثيرين منهم يذهبون إلى أن من يؤذى فى سبيل الحق بالقول وبالفعل كان وقوع الأذى عليه دليلا على أنه مبطل لا يطلب الحق! فما أجهلهم بكتاب الله! وما أبعدهم عن العلم بسنن الله! وما أغفلهم عن تأويلهما فى خلق الله!!

اتخذ المسلمون هذا القرآن مهجورا إلا ما يتغنون به من بعض سوره فى المحافل الجامعة ففقدوا روح الدين إلا قليلا من الرسوم، أما الرؤساء الذين لا قوام لعظمتهم إلا خضوع

العامة لهم فيحاربون من يدعو الأمة إلى الكتاب العزيز، ويستعينون عليه بعلماء الرسوم (يقصد وعاظ السلاطين) الذين يستمدون سلطتهم ورزقهم وجاههم منهم: لئلا تتوجه نفوس الجمهور إلى الكتاب، فيعرو رياستهم الزلزال والاضطراب.

هذا هو الحجاب بين الأمة وبين الاعتبار بالقرآن والاهتداء بهديه. المسلم العارف بتاريخ دينه يعرف قيمة أصحاب الرسول ﷺ، والمسلم العامى المقلد يعظمهم فى خياله وشعوره أشد مما يعظمهم العارف فى فكره وقلبه حتى إن الأكثرين من المسلمين يكادون يرفعونهم عن مرتبة البشر، ويكاد تعظيمهم إياهم يشبه العبادة، ولكن ما بال هؤلاء وأولئك لا يعتبرون بما خاطبهم الله تعالى به فى مثل هذه الآية ولا يتأملون كيف عاتبهم الله تعالى هذا العتاب الشديد على ظنهم وحسبناهم أنهم يدخلون الجنة وهم لا يقاسون من البأساء والضراء واحتمال الشدائد فى سبيله ما قاسى الذين سبقوهم بالإيمان حتى استحقوا الجنة؟ فكيف لا ينكر مسلم على نفسه وعلى من يراه من أمثاله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أوذى أحدهم فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، وآثر ما عند الناس على ما عند الله؟ بل لماذا لا ينكر على نفسه وعلى من يراهم لا هم لهم إلا زينة هذه الحياة الدنيا، والاستكثار من المال ولو من غير حله؟

جعل الله تعالى للمؤمنين آيات.. ووصفهم فى كتابه بصفات غيّرها المحرفون وأكبر آيات الإيمان وأظهرها الاهتداء بكتاب الله تعالى والدعوة إليه وإيثاره على كل ما يخالفه واحتمال البأساء والضراء فى سبيل الحق الذى يهدى إليه والخير الذى يحض عليه، ويدخل فى ذلك بذل المال والنفس فمن بخل بما آتاه الله من مال وقوة على تأييد كلمة الله فلا وزن لإيمانه فى كتاب الله.

فيا أيها المسلم المقلد لوالديه ومعاشريه وأقرانه، الذى يحسب أنه من أهل الجنة لأنه ولد وربى بين المسلمين، ورضى ببعض ما هم عليه من رسوم الدين، أو اتكالا على شفاعة الأولين، أقرأ أو أسمع وتأمل ما عاتب الله تعالى به أفضل سلفك الصالحين، وما ذكره عمن سبقهم من اتباع النبيين.

ولم يسلب الله هذه الأمة تلك النعم التى أنعم بها على سلفها بقيامهم بحقوق الإيمان إلا بعد التفريط فى صفات الإيمان، ثم إنهم ليمنون أنفسهم بالجنة بدلا عما فاتهم من السيادة والعزة).

ولعل ظروف أمتنا فى مصر وعدد لا بأس به من أوطان المسلمين، مماثلة للظروف التى كان يتحدث فيها الشيخ محمد عبده فقد كانت منذ قرابة قرن.. فى لحظة جذر بين صحوتين بين ثورة عرابى وقبل قيام ثورة ١٩١٩. حيث بدت البلاد وكأنها استسلمت للغزو البريطانى والنفوذ الأجنبى وأقصى درجات الحكم الاستبدادى.

وقبل أن نترك هذه الآية يجب أن نشير إلى المعنى الدقيق للبأساء والضراء لأن هذا التعبير سيتكرر معنا.. والبأساء: الشدة تصيب الإنسان فى غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة، والبأساء أيضا تطلق على الفقر. أما الضراء فهو ما يصيب الإنسان فى نفسه كالجرح والقتل ويفسره البعض بالمرض.

والمعنى العام الذى يشع من اللفظين معا أنهما يعنيان شدة المحن ويعزز ذلك لفظ «زلزلوا» وهو الاضطراب النفسى الشديد.

ثم يتكرر نفس المعنى فى الآية التالية:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٢].

والمعروف أن علم الله قديم وسابق.. ولكن الله يجعلنا نعلم.. والحجة تقام علينا بالابتلاء والتمحيص والاختبار ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠].

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] .

ويقول الشيخ محمد عبده:

(إن الجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته، فلا يدخل الجنة

من لم يجاهد فى سبيل الحق، والجهاد فى الكتاب والسنة يستعملان بمعناهما اللغوى ـــ وهو احتمال المشـقة فى مكافحة الشدائد ـــ ومنه جهاد النفس الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر. ومن أمثلة ذلك مجاهدة الإنسان لشـهواته لا سيما فى سن الشباب، وجهاده بماله، وما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق، إن لله فى كل نعمة عليك حقا وللناس عليك حقا، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس فلابد من جهادها ليسهل عليه أداؤها، وربما يفضل بعض جهاد النفس جهاد الأعداء فى الحرب بما يلقاه من مقاومة وإيذاء).

وبين تعالى للمؤمنين أن الفوز والظفر فى الدنيا ودخول الجنة فى الآخرة لا يكونان بالأمانى والغرور. ولا ينالان بالمحاباة والكيل الجزاف، بل بالجهاد ومكافحة الأيام ومصابرة الشدائد والأهوال، واتباع سنن الله فى هذا العالم.

* * * * *

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢ ـ ٣].

وهو نفس المعنى الذى دارت حوله الآيتان السابقتان وكذلك الآية التالية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[العنكبوت : ١٠].

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢].

يتوقف بعض المفسرين عند ربط هذه الآية بغزوة الأحزاب (الخندق) وهذا صحيح، ولكننا نركز دائما، ولا نمل من تكرار أن القرآن ليس كتابا للتأريخ، أو التعليق على الأحداث التاريخية، وإنما هو كتاب هداية يضع السنن التى تحكم حياة البشر والتى يجب أن يدركها المؤمنون أكثر من غيرهم، وآيات المناسبات المرتبطة بالغزوات كتبت بأسلوب

يستخرج الحكم العامة فى الحرب والسلم على سواء.. والشدة قد تكون فى السلم.. ولعل غزوة الأحزاب نفسها لم تشهد قتالا واسع النطاق، ولا معركة حربية بالمعنى المباشر.. فقد تحولت إلى حصار.. ثم حصار فاشل.. وما أكثر ما تتعرض أجزاء من أمتنا الإسلامية للحصار الآن ويتصور المسلمون فى البلدان المجاورة.. أن مهمتهم أن ينجوا بجلدهم من الطاغوت الأمريكى.. وأن يتركوا إخوانهم يأكلهم الحصار (العراق هو المثل الصارخ والحصار الظالم أنهى عشر سنوات حتى الآن) وأيا ما كان الأمر فقد يتصور القارىء لهذه الآية لأول وهلة أن تعبير ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ إنه يشير إلى النصر الذى تحقق فى النهاية.. بينما يرى المفسرون ـ استنادا لابن عباس وقتادة على سبيل المثال ـ أنه يشير فى المحل الأول إلى الابتلاء والشدة.. أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب، وهذا واضح فى ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أى ما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانا بالله وإنقيادا لأوامره، لذلك أعقب ذلك الآية التالية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾ [الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤].

ولا يفهم من تعبير «من المؤمنين» بعض المؤمنين الصادقين دون باقى المؤمنين الصادقين، فالمفترض أن المؤمن الصادق يجب أن يصدق الله فيما عاهده عليه..

وهكذا فإن الآيتين الكريمتين قسمت المسلمين إلى مؤمنين صادقين ومنافقين.. فلا يوجد مؤمن صادق الإيمان غير مستعد للاستشهاد فى سبيل الله.. وقد أصبح الأمر مستغربا فى بلادنا.. باعتبار أن ذلك كان من سمات الصحابة.. وممارسات صدر الإسلام.. وهو تاريخ وانقضى.. وأين نحن من عهد الصحابة؟ وأين نحن من عهود الخلافة الراشدة؟ وهذه أقوال كاذبة وخادعة فقد ظل المسلمون يخوضون الفتوحات.. ويذودون عن الأمة بعد الخلافة الراشدة وبعد الصحابة ، على مر القرون والأجيال، وكانت صفوف الشهداء تسقط فتتقدم

صفوف أخرى لحمل الرايات.. وسنحتاج لمجلدات لحصر ذلك.. ولكن يكفى أن نشير إلى ما نشهده الآن.. فى الشيشان .. نحن أمام شعب استشهادى.. وتابعنا بأنفسنا أرتال شهداء المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان.. ونتابع أرتال الشهداء على أرض فلسطين، وصفوف الشهداء من الشيوخ والشباب فى جنوب السودان ضد الحملات الصليبية المتوالية عليه..وقدمت مصر صفوفا لا تنتهى من الشهداء للدفاع عن الوطن.. وقدمت الجزائر مليون شهيد ضد الغزاة الفرنسيين.. وقدمت أفغانستان والبوسنة وكوسوفا إلخ.. إلخ.

وما ينطبق على الاستشهاد فى حومة الوغى.. ينطبق من باب أولى على كل الابتلاءات التى يتعرض لها المؤمنون فى الصراع السلمى الداخلى لإصلاح الأوطان الإسلامية.. ولإعادة أنظمتها السياسية إلى جادة الصواب، لذا نرى أن كثيرا من آيات الجهاد تسرى على الكفاح المسلح ضد الغزاة وأعداء الدين من الخارج.. والكفاح السياسى السلمى ضد طغاة الداخل الذين ضيعوا كرامة الأمة، وأهانوا بلاد المسلمين وجعلوها تركع أمام الطاغوت الأمريكى ــ الإسرائيلى، واستذلوا العباد، وأهلكوا الحرث والنسل، وعثوا فى الأرض مفسدين.

ونواصل حديثنا مع الآيات التى تشير إلى ابتلاءات المؤمنين دفاعا عن العقيدة والحق والعدل:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

نحن هنا أمام آية من آيات القرآن المحكمة تشتمل على دستور متكامل للمسلم الكامل. هى تشتمل على أصول الإيمان الخمسة والمواضع الستة لانفاق المال، وإقامة الصلاة، وإيتاء

الزكاة التى عليها مدار أمور الملة المالية والسياسية والوفاء بالعهد، الوفاء بالعهود الدينية والمالية والحربية والصبر فى مواقف الشدة الثلاثة.

هذه الآية تدفعنا بعمق إلى المعنى الذى نريد أن نلح عليه طوال هذه الدراسة.. وهو المعنى الذى يلح وعاظ السلاطين على اغفاله.. بينما هو جوهر الدين الإسلامى.. فالبر وهو (التوسع فى الخير) ليس بالطقوس الشكلية التى تشير الآية إليها فى اتجاه القبلة.. ولكن البر.. هو فى جواهر الأعمال، فى الإيمان الذى يتحول إلى أعمال مادية محددة يمكن قياسها وضبطها وتقييمها من قبل المجتمع.. ليست الصورة العجيبة التى نراها الآن في بلادنا.. حيث الإقبال على العبادات واسع النطاق.. بينما الخراب من حول المصلين واسع النطاق أيضا.. وهم ما إن يخرجوا من مساجدهم حتى يغوصوا فى أوحال الفساد من حولهم.. ويتصورون أن مهمتهم الدينية قد انتهت بأداء الصلاة!

الآية الكريمة تعلن للبشر كافة فى كل زمان ومكان أن العبادة ليست فى الشكل ولا فى الصورة وإنما فى الجوهر أى فى الأعمال الخيرة التى تؤدى إلى صلاح الفرد والمجموع.

يقول الشيخ رشيد رضا تعليقا على هذه الآية : (يذكر القرآن الإيمان بالله واليوم الآخر كثيرا، وإنما المراد به ماله مثل هذه الآثار التى شرحها فى آيات كثيرة، من أجمعها هذه الآية.. ولكن أهل التقليد الذين لا أثر للإيمان فى قلوبهم ولا فى أعمالهم إلا ما جرت به عادة قومهم من الاتيان ببعض الرسوم يؤولون كل هذه الآيات بجعلهم الإيمان قسمين: قسما كاملا، وهو الذى يصف القرآن أهله بما يصفهم به، وقسما ناقصا، وهو إيمانهم الذى يجامع ما وصف الله تعالى به الكافرين والمنافقين، ويرون أن الإيمان الناقص كاف لنيل سعادة الآخرة ولا سيما إذا صحبه بعض الرسوم الدينية،ولكن الله تعالى يرشدنا فى مثل هذه الآية إلى أن الرسوم ليست من البر فى شىء وإنما البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره فى النفس والعمل.

فالإيمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع والاستعباد للسلطة الدنيوية، سلطة الاستبداد، فإن العبودية لغير الله تهبط بالبشر إلى دركة الحيوان المسخر أو الزرع المستنبت، والإيمان

باليوم الآخر وبالملائكة يعلم الإنسان أن له حياة فى عالم غيبى أعلى من هذا العالم، فلا يرضى لنفسه أن يكون سعيه وعمله لأجل خدمة هذا الجسد خاصة لأن ذلك يجعله لا يبالى إلا بالأمور البهيمية، ولا يرضى لنفسه بالأولى أن يكون عبدا ذليلا لبشر مثله للقب دينى أو دنيوى وقد أعزه الله بالإيمان وإنما أئمة الدين عنده مبلغون لما شرع الله، وأئمة الدنيا منفذون لأحكام الله، وإنما الخضوع الدينى لله ولشرعه لا لشخوصهم وألقابهم.

(إن كثيرا من المؤمنين بالتسليم والتقليد كانوا كمن نزل فيهم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾) [الحجرات : ١٤ ـ ١٥].

لذلك لا تتدهور أحوال المسلمين إلا بتراجعهم عن هذا الفهم وعن هذه الصفات المقترنة بالإيمان ولذلك حرمنا فى مصر وعدد لا بأس به من الدول الإسلامية ما وعد الله المؤمنين من العزة والنصر والاستخلاف فى الأرض.

و﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد عبارة عما يلتزم به المرء لآخر، وهو بعمومه يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله بإيمانهم من السمع والطاعة والإذعان لكل ما جاء به دينه، ويراد بـ «العهد» فى القرآن أيضا وفى الغالب ما يعاهد به الناس بعضهم بعضا عليه ويشترط فى وجوب الوفاء بهذا العهد ألا يكون فى معصية.

وقد شرحنا من قبل «البأساء».. وهو الفقر وكل ما يصيب المرء من شدة فى أحواله.. والضراء المرض وما يصيب المرء من معاناة فى جسده مباشرة، والبأس: اشتداد الحرب.. وكأن الآية تريد أن تشير لكل أنواع الابتلاءات.. والمؤمنون فى بلادنا يحصرون ابتلاءاتهم فى حالة وفاة لعزيز، أو فقد لمال، أو رسوب لابن فى امتحان، وهى عموما من الابتلاءات والكوارث التى لا يملكون لها دفعا.. وهى دائرة المعاناة الشخصية الفردية.. والمطلوب فيها الصبر والثبات بكل تأكيد، ولكنها أضيق دائرة يحيط بها المسلم نفسه، وهى مشكلات الدنيا التى يعانى منها كل البشر، ولكن المسلم ليس جزيرة منعزلة عن باقى إخوانه المسلمين.. وهو

لا يمكن أن يكون ذلك الإنسان الذى لا يتذكر الصبر وقوة الشكيمة.. إلا عندما تدق كارثة باب بيته.. وهو ليس الإنسان الذى إذا احترقت البيوت حوله.. لا يشعر لنفسه بواجب، ولا تتحرك له نخوة.. وليس هو الإنسان الذى يعيش فى المدينة ولديه ماء شرب نقى فلا يهتم بأن نصف الشعب فى الريف يشرب مياها ملوثة ومعرض للفشل الكلوى.. تحت سمع وبصر الحكومة.. وعندما يقر العلماء أن تسرب المبيدات لمياه الشرب فى الريف من أهم أسباب ذلك، فلا يمكن لمسلم صحيح الإيمان أن يتغاضى عن ذلك طالما أنه سليم.. وبطبيعة الحال فإن المسلم الفرد لن يستطيع مقاومة جرائم الحكومة بمفرده.. لذلك وجب أن يعمل فى إطار الجماعات والهيئات والأحزاب من أجل الإصلاح العام فى هذه القضية أو تلك.. المؤمن إنسان حى.. وليس إنسانا ميتا أو متماوتا، بل يأبى الظلم.. وتغلى الدماء فى عروقه لانتشار الفساد والإجرام.. ولا يمكن أن يكون مجتمعا إسلاميا صحيحا وصحيا الذى تنتشر فيه مقولة (فرلعنه الله ، خير من مات رحمه الله)!!

كذلك فقد فشا معنى غريب وعجيب للصبر.. باعتباره الاستكانة والسلبية والصمت، فى حين أنه ما ورد فى القرآن عادة إلا مرتبطا بالمثابرة والجهاد والمقاومة ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان :١٧].

*****

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣].

ولا نريد أن نبحر فى تفسير هذه الآية ومناسبة نزولها حتى لا يتحول كتابنا هذا إلى كتاب تفسير وهو ليس كذلك بالمعنى المتعارف عليه.. إننا أمام آية تشير إلى حالة من ضعف فى معسكر المؤمنين، والخشية من هجوم الأعداء بشكل واسع وكاسح، ولكنهم تماسكوا بالإيمان.. وزادهم الله إيمانا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.. ومن ضمن تدهور أحوال المسلمين فى بلادنا أن هذه العبارة ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ تفهم على أساس أنها شعار المسكنة والضعف والانهزام والانكسار والسلبية.. على نفس طريقة فهم «الصبر»

والعكس صحيح فإن شعار ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هي راية المقاومة والصمود.. فإذا كان الله حسبك (أي يكفيك) فما الذي تخشاه؟ وممن تخشى؟! وأن مناسبة نزول الآية تشير إلى أنها مرتبطة بموقف جهادي.. حيث خرج المسلمون لمواجهة المشركين وفقا للأنباء المتواترة.. ولكن ثبت أن الأنباء غير صحيحة.. لذلك جاءت الآية التالية:

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران : ١٧٤].

ولكن الاختبار كان قد تم، وجرى الفرز، بين المؤمنين والمنافقين بين الطيب والخبيث لذلك جاءت الآية التالية:

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران : ١٧٩].

ثم تتواصل آيات سورة آل عمران حول الابتلاء ولا تترك مجالا للشك في أن ابتلاء المؤمنين الأساسي حول القضايا العامة وليس حول مصائبهم الشخصية!!

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦].

وهذه الآية تجمع بين الجهاد الخارجي والداخلي.. والمنهج واحد.. والقضية واحدة.. وقد جاءت في أعقاب ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥].

فنحن هنا أمام تذكرة بالموت.. والحساب الأخروي.. والحقيقتان معا تعطيان المؤمنين تسلية عن المشاق التي يواجهونها.. وما يعطي الصلابة لموقفهم الذي لا يفهمه غير المؤمنين بالله وبالآخرة. وكان هذا المعنى توطئة للحديث عن الابتلاءات..ولكن يهمنا أن نشير إلى الصورة التي تقشعر منها أبدان المؤمنين وذلك بحديث الآية عن هول النار وشدتها بالتعبير عن النجاة عنها بالزحزحة كأن الجميع كان مشرفا على السقوط فيها وأن مجرد الزحزحة عنها فوز كبير.

وفى تفسير الرازى نجد هذا الربط بين الآيتين بين ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ و﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.. ذلك أن الآيات تريد أن تؤكد أن ما ابتلى به المؤمنون فى أحد ليس نهاية المطاف فى الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال، حتى يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع وذلك لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه فإذا نزل البلاء شق ذلك عليه، أما إذا كان عالما بأنه سينزل فإذا نزل لم يعظم وقعه عليه.

نحن إذن أمام إيذاء فى المال والنفس بالإضافة لحملة إعلامية للتشويه وللفت فى عضد المؤمنين من قبل أهل الكتاب والمشركين.. وقد تناولنا فى كتابنا (أحكام القرآن الكريم فى تحريم موالاة الكفار والمشركين).. الجهاد ضد المعسكر الأمريكى الصهيونى باعتباره مركز الكفر العالمى.. وهو حلف الكفار الملحدين والمسيحية الصهيونية واليهود، ولاشك أن المعانى العامة للآية.. تسرى على الجهاد من أجل الإصلاح الداخلى فى إطار النظم التى انحرفت عن جادة الإسلام، وهى بذلك أصبح لها مع الشرك نسبا، وفى بلادنا بالتحديد جناح فى السلطة يجهر بالعداء للدين يتحلق حول وزارة الثقافة.. وأصدر عشرات الكتب التى تقدح فى الدين الإسلامى وكل الأديان.. وتقدح فى الله ورسوله.. وعندما ينتقد المؤمنون ذلك، يتعرضون هم للأذى.. وتتمترس فلول الشيوعية حول وزارة الثقافة وغيرها.. وتفتح لهم المحطات التليفزيونية والإذاعية والصحف الحكومية.. والمجاهرون بالكفر يلقون التكريم، ويلقى المؤمنون فى غياهب السجون.. ومن يسب الذات الإلهية لا يحبس حماية لحرية الرأى والفكر ومن ينتقد وزيرا مواليا لليهود وإسرائيل يلقى به فى السجن وهكذا.

وفى الكويت وفى أكثر من بلد عربى.. تم العفو عن الطاعنين فى الله والرسول.. وتمت ملاحقة الطاعنين فى الحكام.. أقول ذلك سريعا لتأكيد أن معركة الإيمان مع الشرك لم تنته ولن تنته إلى يوم الدين.. فلا يتصور أحد أن هذه الآية تتصل بالجهاد ضد الأعداء الخارجيين فحسب، كما أن آيات الجهاد تضع مبادىء عامة وقواعد تسرى على جهاد الخارج المسلح وجهاد الداخل السلمى.

وقبل أن نترك هذه الآية نود أن نتوقف مجددا عند الصبر الذى جاء متقدما على التقوى فى هذه الآية لتأكيد معنى الأهمية وأن التقوى بلا صبر ستكون فى النهاية شجرة بلا ثمرة.

يقول محمد عبده : (الصبر هو تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية فى دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع فهو مركب من أمرين: دفع الجزع ومحاولة طرده ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس).

فالصبر إذن هو ذروة العمل الإيجابى وهو الدرع الذى يتقى به المؤمن السهام المرتدة عليه بسبب قوله الحق ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ٣].

* * * * *

وتتواصل آيات الابتلاء والاختبار والفرز والتمحيص:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٦].

أى لاتظنوا أيها المؤمنون أن يتركم الله تعالى دون اختبار لكم بالجهاد ونحوه، إن من سنته تعالى الاختبار ليظهر علمه بالذين جاهدوا منكم مخلصين، ولم يتخذوا سوى الله ورسوله والمؤمنين بطانة وأولياء.

* * * * *

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩- ٢٠].

وبنفس منهجنا الذى اتخذناه.. وهو عدم حصر حكم الآية بمناسبة نزولها وظروفها التاريخية، وهو بالمناسبة ليس منهجا مبتدعا أو جديدا.. فقد كان دائما بين المفسرين القدماء والمعاصرين من يتخذون هذا المنهج بنطاقات تتسع وتضيق.. فيجب ألا نقصر معنى الآية

على المشركين الذين كانوا يستحوذون على الكعبة ويتولون الخدمات الملحقة بها.. فهذا حكم لكل الخلفاء والحكام المسلمين الذين كانت الكعبة تحت ولايتهم، فلا يظنون أن رعاية مناسك الحج تغنيهم عن الجهاد فى سبيل الله.. كذلك فإن الآية تضرب على نفس الوتر المشار إليه من قبل، إن الإسلام لا يقيم وزنا للطقوس الشكلية والرسوم فى حد ذاتها.. إلا بقدر ما تكون تعبيرا عن الإيمان الصادق بالله، والذى لابد أن ينعكس على الجهاد فى سبيله بالمال والنفس.

أما الهجرة فهى مفارقة الأوطان والأهل.. أما المجاهدة فهى من الجهد وهو المشقة وليس خاصا بالقتال، ثم تصل سورة التوبة إلى هذه الآية الفاصلة:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤].

والآية لا تحتاج لتعليق ولكن نشير إلى أن الآية تتوعد بعقاب الله فى حال اختيار المسلمين لارتباطاتهم الدنيوية على حساب إلتزامهم بأوامر الله والجهاد فى سبيله وهذا معنى ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾..

والحقيقة أن الآية الكريمة تشير لنفس الأعذار التى نسمعها الآن من الناكصين عن الجهاد: إنه لديه التزامات أسرية.. وهل ينصرف عن مستقبل أبنائه؟! أم هل يقصر فى علاقته مع زوجته.. أو عشيرته.. وهل يعرض أحواله الاقتصادية للخطر، وهل يترك بيته وعياله حيث الراحة النفسية.. ثم ينهى حديثه عادة بالفهم المزور للقرآن (يا أخى إن الله قال لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).. وكأن المصريين لم يحفظوا من القرآن غير هذه الكلمات.. ولكن بعد قلب معناها!!

ثم نأتى إلى الآية الأخيرة التى انتقيناها.. فليس هذا حصرا كاملا للآيات فى مجال الابتلاءات.. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

ولعل ما تقدم يكفى لتوضيح معانى هذه الآية.. ولكننا نخلص من كل هذه الآيات وغيرها عشرات بنفس المعنى أن القرآن الكريم يضع علامة التساوى بين المؤمن والمجاهد.. وبين الإيمان والجهاد.. الآن ننتقل إلى الهجرة وهى صنو الجهاد أو بالأحرى أحد أشكاله.

*****

الهجرة شكل من أشكال المقاومة الإيجابية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٨].

احتفل القرآن الكريم بالهجرة والمهاجرين فى سبيل الله، واعتبر ذلك من الوسائل الضرورية التى قد يلجأ إليها المؤمنون تمسكا بالدين والحق والعدل.. فالله الذى كرم الإنسان.. واستخلفه فى الأرض.. لا يقبل له حياة الذل والمهانة والخضوع.. والجهاد هو وسيلته لأداء الأمانة.. والهجرة أحد أشكال ووسائل الجهاد.. والهجرة بالمعنى المكانى الجغرافى أى الانتقال وترك الأوطان والأهل والمال فرارا بالعقيدة.. وحفاظا على أسمى صفات الإنسان.. هى أشبه بالورقة الأخيرة.. كى لا يكون للمؤمنين حجة على الله.. يوم الحساب.. والحض على الهجرة وإقرارها فى القرآن الكريم.. هى رسالة واضحة تقول.. افعلوا أى شىء.. إلا أن تخنعوا.. وتضعفوا.. وتتحولوا إلى أنعام.. قاوموا بكل الوسائل حتى إذا أعيتكم الحيل، وضيق عليكم.. وأصابكم من العذاب ما لا قبل لكم به.. فأمامكم طريق الهجرة.. والآيات الفاصلة فى كل هذه المعانى.. هى التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٩٧ ـ ١٠٠].

وقد استخدم القرآن نفس التعبير مع الكفار : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل : ٢٨].

وسعة الأرض وتنوع ظروفها وبيئاتها.. ومن ثم تنوع حكامها ودولها ومجتمعاتها.. من رحمة الله.. وقد أشار الله سبحانه وتعالى .. إلى ذلك أيضا:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

ويهمنا هنا أن نلحظ عدة معاني: الذى يتوفاه ملك الموت ومتى عجز عن إقامة دينه على الوجه الصحيح.. لا تنفعه حجة الاستضعاف.. بل سيكون مأواه جهنم وساءت مصيرا، فأين هذا من جماهير المسلمين الذين يظنون أن نطقهم بالشهادتين سينجيهم من النار.. رغم أنهم لم يحولوا هاتين الشهادتين إلى منهج حياة، كأنهم يدلون بصوتهم فى استفتاء فيقولون: نعم .. لوجود الله!! دون أن يرتبوا على ذلك النتائج المنطقية لهذا الاعتراف فى سلوكهم اليومى، أما ما جاء بعد ذلك ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فيقول المفسرون أن المقصود بالرجال هنا الشيوخ.. الطاعنين فى السن والولدان.. المراهقون الذين بلغوا سن التكليف بالكاد.. وحتى هؤلاء (عسى) الله أن يعفو عنهم.. ولكن القاعدة هى ﴿جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

ولا نريد أن نتوقف كثيرا عند أحكام الهجرة.. لأنها ليست الخيار الأساسى الذى ندعوا له الآن فى ظروف مصر.. وكثير من البلدان الإسلامية.. حيث تتعين المواجهة الآن مع الظلم.. والانحراف عن جادة الإسلام.. ولكن ما يهمنا الآن هو التأكيد على:

(١) أن الهجرة خيار مستمر ولم ينته وتقاس كل حالة بظروفها.. وهذا ما يقره المفسرون المعاصرون.

(٢) أن السفر بحثا عن عمل أو لمراكمة الثروات لا يدخل فى هذا الإطار.. «من كانت هجرته إلى الله ورسوله.. فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» حديث شريف ـــ البخارى.

(٣) إن الإسلام لا يقر أن يكون المؤمن مذلا مهانا خاضعا للظالمين مضيعا لتكاليف دينه، وإنه يجب أن يرفض ذلك حتى إذا اضطره الأمر لترك وطنه وأهله وماله.. فى سبيل الله.

(٤) ويبقى أخيرا الجانب المعنوى.. للهجرة.. (أى بغض النظر عن الانتقال المكانى) وهو التضحية بأعز ما يملك ويحب المرء فى سبيل هجرته لله.. وهذا الجانب المعنوى للهجرة.. ملازم للمؤمن الصادق فى كل وقت وهو ما يمثله معنى الجهاد.. وبالتالى يمكن أن نقول إن الهجرة = الجهاد + الانتقال المكانى (وما يمثله من لوعة وقسوة مفارقة الأوطان) والانتقال المكانى ليس مجرد الفرار بالجلد كما يقولون، ولكن لدعم جماعة المؤمنين بالانضمام إليها.. ولنصرة الدين.. أى أنه ليس سفرا لنزهة.. أو للاستيطان فى الولايات المتحدة من أجل رغد العيش!

أما الجانب المعنوى للهجرة.. فقد أشار إليه القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦] وتقول بعض التفسيرات إن سيدنا إبراهيم انتقل بالمعنى المكانى الجغرافى من العراق إلى الشام، ولكن الآية الكريمة أمامنا لا تبرز إلا الجانب المعنوى للهجرة.. وبهذا المعنى فإن جهاد الداخل ـ أى داخل الوطن المسلم ـ يمكن أن يأخذ هذه المعادلة: الجهاد = الهجرة إلى الله ـ الانتقال المكانى.. بل إن المجاهد قد يتعرض لانتقال مكانى قسرى ولا يقل سوءا عن الإخراج من الديار.. وأحيانا يكون أسوأ.. وهو التعرض للسجن لفترات طويلة.

وكما يقول أحمد حسين:

(ستبقى دائما وإلى أبد الأبدين هجرة المؤمن إلى الله ورسوله باتباع أوامره والانتهاء بنواهيه، وستبقى دائما وإلى أبد الأبدين هجرة الإنسان من المعاصى والذنوب إلى دنيا الطهارة والاستقامة والخوف من الله ظاهرا وباطنا).

وكما ذكرنا فإننا لا نطرح الهجرة بالمعنى المكانى كخيار أساسى، فى هذه اللحظة فى مصر وفى كثير من البلاد الإسلامية.. ولكننا أشرنا إلى آياتها لنؤكد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك أى مجال لقبول الاستكانة والذل.. فإما أن تقاوم.. وإما أن تهاجر!!

ونحن نرى أن ظروف المقاومة متوفرة فى منطقتنا العربية.. وأن الإسلام والمسلمين ليسوا فى الوضع الضعيف الذى كانه المسلمون الأوائل فى مكة.. ولسنا فى حالة صراع بسيط بين كفر وإيمان.. ولكننا بالتأكيد إزاء صراع فى مصر مثلا مع سلطة تتسم بالظلم والفساد والانحراف عن جادة الإسلام.. وضيعت فريضة الجهاد.. وتركت البلاد مكشوفة أمام الأعداء الأمريكيين والصهاينة.. وفرطت فى حقوق العباد.. ولم تأتمر بأمر الله فلم تقم العدل ولم تحكم بالعدل، حتى إن البلاد تشهد حالة من التدهور والفساد والظلم والفقر مالا مثيل له.. فى تاريخ مصر المعاصر.. اللهم إلا فى الفترة القصيرة التى سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢، ولكل هذه الظروف فإن الفئة الفاسدة الظالمة الحاكمة جد ضعيفة.. وجد معزولة.. إنها الطرف الأضعف فى الصراع رغم قوتها المادية الظاهرة.. ولا يبقيها كُخشب مسندة إلا عدم استجابة المؤمنين المصلين لنداء الأذان (حى على الفلاح)!

*****

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران :١٩٥].

وكما أن استكانة المؤمنين للكفار والظالمين تؤدى إلى النار.. ففى المقابل فإن رخصة دخول الجنة غالية الثمن.. أيها المؤمن أن تعيش فى سن التكليف ٣٠ أو ٤٠ أو ٥٠سنة فى المتوسط ثم تريد أن تعيش مخلدا فى الجنة.. دون أن تلتزم بتكاليف وفرائض الله.. وإذا كنت حقا موقنا بالحياة الآخرة، فلماذا تقدم قدما وتؤخر أخرى.. كلما دُعيت لقول الحق.. أو مقاومة ظلم.. أو وقفة عز؟! لماذا إذن كل هذا الحرص على الدنيا الفانية؟! ووفقا لهذه الآية فإن رخص (أو تراخيص) دخول الجنة ٤ أنواع:

(١) هجرة (٢) إخراج من الديار

(٣) إيذاء فى سبيل الله (٤) مقاتلة العدو الكافر.

والآن فإن جمهورا كبيرا فى بلد كمصر.. لم يقم أو لم يتعرض لأى وجه من الوجوه الأربعة.. خاصة بعد وقف القتال مع إسرائيل.. ستقولون ألا تكفى الصلاة.. أقول لكم ارجعوا إلى الآية الكريمة.. فقد جاءت استجابة الله بهذه الآية على أناس وصفهم بأنهم: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٩١]. ويقولون:

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران : ١٩٣ ـ ١٩٤].

فماذا كان رد الله سبحانه وتعالى:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٥].

وهذا مثال مهم على ضرورة قراءة الآيات بشكل مترابط.. وفهمها فى سياقها.. فالمؤمنون الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.. ويدعون الله بهذا الدعاء الحار الجميل.. يجب أن يكونوا من الصنف الذى يفعل كذا.. وكذا..

بعد ذلك لا تتعجب أخى المؤمن عندما ترانا فى ذيل الأمم.. تأكل علينا الأمم وتشرب.. تطعمنا ــ وإن كان أكلا غير مأمون ــ وتسقينا.. وتبنى لنا المدارس وتحدد مناهجها.. وتصنع لنا المجارى.. وتحدد نسلنا.. وقوانين الزواج والطلاق.. وتعطينا السلاح!! مجانا!! (بينما هى دول معادية للإسلام والمسلمين)!! وعندما يقتلون أبناءنا (اسقاط طائرة البطوطى) نذرف الدمع.. ونقول أن علاقتنا بهم «استراتيجية».. واستراتيجية تعنى علاقة رئيسية من ثوابت سياستنا.. وبعد ذلك تطمعون ــ حكاما ومحكومين ــ بأن يرضى الله عنكم.. وأن يفتح لكم أبواب جناته.. على خزيكم أمام أعدائه:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨٢].

وحول معانى آية سورة آل عمران التى بدأنا بها، يقول الشيخ محمد عبده:

(إذا رأينا النفس المؤمنة التى تتحلى بالصفات التى حددها الله إذا رأيناها تحتمل الإيذاء فى سبيل الله حتى القتل فلنبشرها بالصدق منها والرضوان منه تعالى، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التى لا ينجى عنده غيرها. وإنما كلف الله المؤمنين الصادقين الموقنين المخلصين هذا التكليف الشاق لأن قيام الحق مرتبط به، وإنما سعادتهم ـ من حيث هم مؤمنون ـ بقيام الحق وتأييده، والحق فى كل زمان ومكان محتاج إلى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه، والحق والباطل يتصارعان دائما ولكل منهما حزب ينصره، فيجب على أنصار الحق ألا يفشلوا ولا ينهزموا، بل عليهم أن يثبتوا ويصبروا حتى تكون كلمته العليا وكلمة الباطل هى السفلى.. وانظر إلى حال المؤمنين اليوم تجدهم يتعللون بأن هذه الآيات نزلت فى أناس مخصوصين، كأنهم يترقبون أن يستجيب الله لهم، ويعطيهم ما وعد المؤمنين من غير أن يقوموا بعمل مما أمر به المؤمنين، ولا أن يتصفوا بوصف مما وصفهم به من حيث هم مؤمنون وما علق عليه وعده بمثوبتهم، بل وإن اتصفوا بضده وهو ما توعد عليه بالعذاب الشديد وهذا منتهى الغرور).

*****

الارتباط العضوى بين جهاد الداخل والخارج:

بعد هذه العينة المختارة من آيات الهجرة.. نعود مرة أخرى لمجموعة من آيات الجهاد التى تصدق على الجهاد الخارجى والداخلى.. فنحن فى بداية الدراسة تعمدنا الابتعاد عن هذه الآيات لنؤكد أن القرآن الكريم استخدم مصطلح «الجهاد» كمعنى عام وكصفة عامة

للمؤمنين.. فى مختلف مناحى الحياة: مجاهدة النفس وشهواتها، المجاهدة فى العبادة والاصطبار عليها، جهاد أعداء الخارج، جهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لإصلاح أحوال المجتمعات الإسلامية، والتصدى للطغاة والمستبدين.. بغض النظر عن موقفهم المعلن (الكلامى) من الإسلام.. لأن الإسلام لا يقر الطغيان ولا الاستبداد ولا الفساد ولا الظلم ولا الاستغلال. والآن وبعد أن ترسخ هذا المفهوم ننتقل إلى آيات الجهاد.. التى يحرص البعض.. بحسن نية أو سوء النية على حصرها فى القتال.. ومحاربة الأعداء بالسلاح.

والحقيقة نحن أمام متغير معاصر لابد أن نلحظه ونحلله.. ونكتشف ما يترتب عليه من تكاليف، فنحن فى زمن لا تزال اليد العليا على المستوى العالمى لقوى الكفر.. وآخر شعاراتهم ونظرياتهم الاستعمارية هى «العولمة» ومن سمات هذا الشكل الجديد من الاستعمار.. ومن محاربة الإسلام.. هو التقليل ــ إلى أبعد حد ــ من استخدام القوة المسلحة، واستبعاد فكرة الاحتلال العسكرى بالشكل التقليدى.. الذى يضم رسميا الدولة الخاضعة للاحتلال إلى الدولة الأم، كما كانت مصر والهند تابعتين للتاج البريطانى، والجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا!! إلا أن القوة العسكرية غير مستبعدة، ولكنها تستخدم بالحد الأدنى، وعند الضرورة تستخدم إلى الحد الأقصى (العراق). فى عهد الاحتلال التقليدى كانت هناك دول مستقلة رسميا ولكن كان الجميع يعلم أن هذا الاستقلال مجرد عنوان شكلى.. وأن القواعد العسكرية الأجنبية قادرة على التحكم فى القرار الداخلى كما كان يحدث فى مصر عقب الحرب العالمية الأولى، فإن بعض البلاد الإسلامية أصبحت تعانى من أوضاع مشابهة وهى البلاد التى توجد بها قواعد عسكرية أمريكية.

ولكن يظل الشكل الرئيسى لمحاربة الإسلام ليس بإرسال جيوش على طريقة نابليون بونابرت عندما جاء إلى مصر.. ولكن الشكل الرئيسى هو تغيير نمط حياة المسلمين وتغيير عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم.. الشكل الرئيسى هو الهيمنة على القرار الاقتصادى (من خلال العولمة) والعسكرى (من خلا ل المعونة) ورشوة النخبة المثقفة داخل وخارج السلطة.. وإنشاء شبكة واسعة من المنظمات غير الحكومية التى تحارب القيم الدينية عموما والإسلامية

خصوصا.. واختراق السلطتين التنفيذية والتشريعية ووسائل الإعلام .. نحن أمام حرب من نوع مختلف وأكثر خطورة من أسلوب حملة نابليون التى فشلت خلال ٣سنوات.. ولم تكن كل هذه الأمور مغفلة فى زمن الاستعمار التقليدى.. ولكن جد اعتباران:

(١) أن أساليب التقدم التكنولوجى أصبحت تساعد فى عمليات الاختراق الإعلامى والثقافى.. وأيضا فى عمليات الضربات العسكرية عن بُعد بدون قتال متلاحم.

(٢) أن الأمريكيين على رأس المعسكر الغربى.. يبحثون عن كل الوسائل لتفادى الخسائر البشرية ، وهى سمة حضارة آفلة.. تريد أن يتمتع أفرادها بالترف دون تكاليف، وهى أيضا حضارة لاتؤمن بالله ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ..﴾ [البقرة : ٩٦].

فى خلال الاقتتال المتلاحم لا تكون هناك فرصة لعمى الألوان، يتمترس كل معسكر خلف راياته.. كما حدث خلال الحروب الصليبية، وحروبنا مع إسرائيل.. أما الخطر الذى نواجهه الآن فهو حرب الغواصات أى اختراق المجتمعات من الداخل.. ومن أعلى مستويات السلطة ومراكز اتخاذ القرار، وهى حرب سرية.. وإن كانت تتكشف أوراقها بالضرورة رويدا رويدا.. ولذلك فإن ما يظنه البعض صراعا داخليا مع حكومة إسلامية.. أى حكومة ينتمى أعضاؤها للدين الإسلامى.. وللأديان الأخرى فى الوطن.. ليس فى حقيقة الأمر إلا صراعا مع مركز الكفر العالمى (الحلف الأمريكى - الصهيونى).. ومن هنا سنجد أن الجهاد الخارجى يتلبس ويتداخل إلى أبعد حد مع الجهاد من أجل الإصلاح الداخلى.. حتى يكادا يتحولان إلى قضية واحدة.. خذ مثلا.. فإن أحكام ديننا تفرض علينا الجهاد المسلح ضد إسرائيل حتى تجلو عن القدس.. ونحرر المسجد الأقصى.. وحتى استعادة الحقوق الفلسطينية كاملة غير منقوصة.. ونحن بحكم القرآن والسنة وإجماع الفقهاء أول المكلفين نحن والدول المحيطة بفلسطين بذلك بعد الفلسطينيين.. حتى وإن تخلوا هم.. ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة : ١٢٣].

وإذا كنت لسبب من الأسباب لا أستطيع القيام بذلك الآن وفورا، فمن غير المعقول أن

نسمح للحكومة أن تدخل علينا الإسرائيليين فى كل مكان فى مصر.. وتغرق البلاد بالسلع الإسرائيلية.. فى قطاعات رئيسية وحيوية (كالزراعة) وأن نضخ البترول لإسرائيل، ونتفاوض معها حول مدها بالغاز الطبيعى.. إن الصمت على هذه التصرفات المخربة خيانة لله وللرسول وللمؤمنين.. والجهاد السياسى ضد هذه القرارات المخربة فرض عين.. على كل مسلم ومسلمة.. بعد أن دخلت السلع الإسرائيلية كل بيت فى مصر.. فى صورة الفواكه والخضروات على الأقل.. ناهيك عن الآثار المخربة لهذه السلع على صحة المواطنين التى ثبتت بكل الأدلة والتقارير العلمية.. نقول حتى لو كانت هذه السلع غير ضارة فإن الموقف الشرعى هو رفضها والنضال من أجل منعها ومعاقبة المسئولين الذين يقومون بذلك، لأنهم يحققون الرواج الاقتصادى لعدو كافر يحتل أراضى المسلمين ويقتلهم ويخرجهم من ديارهم ويستولى على أولى القبلتين وثالث الحرمين.. نقول حتى لو كانت هذه السلع غير ضارة بالصحة.. فإنها مرفوضة لأنها تكيف الاقتصاد المصرى على الاعتماد على اقتصاد العدو!! أما مسألة الضرر الصحى.. فهذا سبب إضافى يزيد ويغطى.. ويحول المسألة إلى كوميديا سوداء. لأننى فى هذه الحالة لست فى حاجة لفتوى لمجاهدة العدو ومقاطعة بضائعه (وهى فتوى صادرة بالفعل عن مفتى الديار المصرية الذى أفتى مرارا بمقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية).. بل أحتاج لموقف أكثر تبسيطا من ذلك.. وهو رفض (قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق) نحن أمام إبادة للحياة.. ولصحة المصريين.. وهذه جريمة حتى بمنطوق القوانين الوضعية التى تقول (بحق الدفاع الشرعى عن النفس).. وهذا ينطبق بكل المعايير على السلع المهندسة وراثيا الآتية من الولايات المتحدة إلى مصر.. رغم أن معظم دول العالم ترفضها لمخاطرها غير المحسوبة على الصحة.. ونفس الشيء ينطبق على الجهاد السياسى ضد الدور الإجرامى لوزارة الثقافة التى تروج مفاهيم العولمة.. وتحارب العفة والدين والتدين.. وتقيم احتفالات ماسونية فى شهر رمضان تراق فيها الخمور.. والجهاد السياسى ضد هذه الجرائم.. ليس جهادا داخليا بالمعنى البسيط، بل هو جهاد ضد أئمة الكفر العالمى.. الذين يخترقون بعض مواقع السلطة التنفيذية لتحقيق أهدافهم بتركيع البلاد وتأمين تبعيتها.. دون اطلاق طلقة نارية واحدة.

ونفس الشيء على صعيد المرأة والأسرة.. فهناك فى دوائر السلطة العليا من يحاول فرض مقررات بكين الكافرة..

ولكن لأن هذا الهجوم يتخذ أشكالا إعلامية وثقافية وفكرية.. وتعديلا للنسيج الاجتماعى بفرض سلوكيات مغايرة.. ومن خلال القوانين أحيانا، كالأحوال الشخصية.. ووثيقة الزواج الملعونة.. فإن الجهاد يجب أن يكون بنفس الوسائل .. أى بالعمل السياسى والثقافى والفكرى والإعلامى والجماهيرى.

إن الصراع يدور حول فكر وعقل وعقيدة المواطن.. ولا يمكن للخواجات الكفار أن يعيثوا فى أرضنا فسادا.. ثم نظل نحن من القاعدين.. إن كل من يفهم ويستوعب ويدرك هذه المخاطر لا يملك أن يصمت وإلا استجلب على نفسه غضب الله، كما أن المؤامرة بهذا الشكل لم تعد تحتاج لبحوث نظرية وفقهية.. إن كل مسلم يعرف ألف باء دينه أصبح يرى بوضوح كيف يتم الاجتراء على دينه.. وهو لا يحتاج لفتوى من أحد فى كثير من الأمور.. كى يعبر عن استنكاره بشتى الوسائل لما يجرى على أرض مصر.. هل هناك مسلم لا يعلم أن الخمر محرم فى الإسلام؟! إذن ما هو معنى أن تصر عدة مجلات حكومية على أن تكون أغلفتها الملونة إعلانات للخمور (نبيذ - بيرة) .. رغم أن القانون المصرى الوضعى يحرم هذه الإعلانات ويعاقب عليها بالحبس!! هل يحتاج أى مسلم لمن يشرح له حرمة الاحتفالات الماجنة فى رمضان أو حتى فى غير رمضان، خاصة بتمويل من الدولة؟! وطباعة الكتب التى تقدح فى الله ورسوله ومختلف الأديان.

إن مقاومة هذه المظاهر وغيرها التى يتلبس فيها الفساد مع معاداة الدين فرض عين على كل مسلم ومسلمة.. لقد دخل الأعداء ديار المسلمين.. وجاثوا خلال الديار.. واقتحموا كل المنازل وكل البيوت.. فهل سنتغابى ونقول لا انهم لم يأتوا علينا بالسلاح؟! ولكن ما حاجتهم للسلاح إذا أنتم رضيتم بهذا الذل والهوان، رضيتم بالتخلى عن ثوابت دينكم.

إن الغزاة يستخدمون السلاح للوصول إلى هذه النتيجة، فإذا تحققت بدونه فلماذا

السلاح؟! ليبق السلاح للشعوب التى ما تزال تقاوم فى الشيشان وفلسطين والعراق والسودان. ولا تشترط المقاومة ضد الأمور المتصلة بالعقيدة بشكل مباشر، وإن كانت لها الأولوية ، ولكن مقاومة الظلم بكل أشكاله عندما يعم، فريضة علينا جميعا، فى بلد يعيش ٥٠٪ من سكانه تحت خط الفقر، وينفق المترفون ٧,٥مليون دولار فى حفل زفاف واحد، وينفقون مئات الملايين سنويا فى حفلات مماثلة.. فى بلد تستخدم موارد الدولة والبنوك لبناء مدن لا حصر لها ولا عد للمترفين فى كل السواحل.. والبوادى.. بينما تصل نسبة البطالة فيه إلى حوالى ٢٠٪، ومن قال إن هذه الأمور لا تتصل مباشرة بالعقيدة،والله يأمرنا بمحاربة الفساد والظلم والترف والإسراف والسفه وموالاة أعداء الله، كذلك أمامنا فلاحون أخرجوا من ديارهم، وفلاحون مهددون بالسجن.. كل هذه المظالم التى شاعت، وعشرات الألوف فى السجون لا يعرفون متى يخرجون وبعضهم لا يعرف لماذا دخلوها؟! وما الذى ارتكبوه من جرم ليبقوا فى السجون منذ أواخر الثمانينيات حتى مطلع القرن الواحد والعشرين.

تزوير إرادة الأمة فى الانتخابات.. وتعطيل كل مؤسسات الشورى والمشاركة الشعبية .. كل هذه أمور تستوجب المقاومة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية.

وكل هذا الخراب والتدهور على مختلف الأصعدة يرجع لحلقة رئيسية: خضوع إرادتنا السياسية لمن لا يريد خيرا لهذه الأمة.. الولايات المتحدة المتصهينة.. وإسرائيل.. والبنك الدولى.. وصندوق النقد الدولى.. وسنجد أن التخلى عن الجهاد والركون إلى الذين ظلموا هو أساس البلاء، وعلى ضوء هذه الخلفية.. تعالوا نلقى نظرة على مجموعة مختارة جديدة من الآيات.. تلك الآيات التى لم تتنزل للمؤمنين قبل أكثر من ١٤ قرن فحسب.. وإنما لكل المؤمنين.. حتى يوم الدين.

* * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٥٣ ـ ١٥٤] .

يبدأ القرآن بالذروة ثم منها إلى السفح لأنه إذا ثبتت القضية بالنسبة للأعلى فثبوتها على الأدنى والأقل يصبح من باب أولى، فسوف تحدثنا الآية التالية عن ضروب من المكاره على المؤمن أن يصبر عليها:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٥٥].

فبدأ القرآن الكريم بأعلى صنوف المكاره وهو الموت فالكائن البشرى بحكم الطبيعة التى أودعها الله فيه ليس عنده مصيبة تعلو على مصيبة الموت فهو لا يكره شيئا فى الدنيا كراهيته للموت، ومن هنا جاء القرآن الكريم يؤكد لنا أن الموت فى سبيل الله ليس موتا من نوع الموت المكروه وإنما هو استمرار للحياة بأشكال أكثر علوا وهى من الأمور الغيبية الخارجة عن إدراكنا الحسى.

وهذه الآية ومجموعة الآيات المتصلة بها لا تتعرض للقتال بصورة مباشرة ولا تورد له ذكرا، ذلك أن الموت فى سبيل الله أوسع مدى من ذلك.. وأشرنا من قبل لأمثلة من القرآن الكريم، كإعدام فرعون للمؤمنين دون أن يرفعوا عليه السلاح، بل هم لم يقترفوا «جرما» إلا الجهر بإيمانهم!!

علم الله تعالى ما سيلاقيه المؤمنون في الدعوة إلى دينه وتقريره وإقامته من المقاومات وتثبيط الهمم وما يقوله لهم الناس فى ذلك، وما يقوله الضعفاء فى أنفسهم، كيف تبذل هذه النفوس وتستهدف للقتل؟ وما الغاية من قتل الإنسان نفسه لأجل تعزيز الدعوة؟ فأمر أولا بالاستعانة بالصبر والصلاة ثم ذكر أعظم شيء يستعان عليه بذلك وهو القتل فى سبيل دعوة الحق وحمايته ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى ولنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء وغيره من المصائب البشرية المعتادة فى المعايش، وأكد هذا بصيغة القسم لتوطين الأنفس عليه، فعلمهم به أن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضى سعة الرزق وقوة السلطان وانتفاء المخاوف والأحزان، بل

يجرى ذلك بسنن الله تعالى فى الخلق، والمؤمن الموفق يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار.

وهكذا فإن المؤمن مطالب بالاستعداد لمواجهة شتى صنوف الابتلاءات والإيذاء، بدءا من الموت فى سبيل الله.. انتهاء بأدنى أنواع الإيذاء.. ولقد فتح المسلمون الأوائل الدنيا وقهروا أعتى الامبراطوريات عندما كان ذلك إيمانهم. وصاروا كالأيتام على موائد اللئام عندما ابتعدوا عن هذا الإيمان الصادق. والآن فإن إصلاح قاعدة الانطلاق.. مرهون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لإعادة الحياة الإسلامية سيرتها الأولى واستعادة أمجاد الماضى.. والالتحاق بأمجاد الحاضر مع المجاهدين الصادقين فى بقاع شتى بالعالم الإسلامى.

*****

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١].

ورغم أن هذه الآية وردت فى سياق آيات عن القتال، ورغم أن الحرب هى بالفعل أعلى أشكال التدافع بين البشر، إلا هذا التعبير البليغ ﴿دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ يشير إلى معانى أكثر عمومية.. ويشير إلى قانون أساسى من قوانين الاجتماع البشرى.. وليس معنى أن هناك نظريات نشأت فى الغرب أرادت أن تحصر الحياة فى شتى أنواع الصراعات، ومن بينها الصراع الطبقى أن يكون رد فعلنا هو الأخذ بشعار «المخالفة الآلية».. إن الحديث القرآنى عن الصراعات بين البشر يأتى فى سياق مختلف، ولأن القرآن يتناول سننا اجتماعية قائمة بالفعل.. وتعمل فى الواقع سواء شعر المرء بذلك أم لم يشعر، كما تعمل أجهزة الجسم بغض النظر عن معرفة الإنسان لكيفية ذلك، لأن القرآن الكريم يتناول قوانين تعمل بالفعل منذ آلاف مؤلفة من السنين، ونلمس صدقها وواقعيتها من دراستنا لتاريخ البشرية، فمن الطبيعى أن تكون هناك نظريات انبثقت هنا وهناك، تناولت طرفا من هذه الحقائق، ووضعته فى سياق آخر مختلف.. ولسنا هنا فى مجال المناظرة مع النظريات الغربية، ولكننا

نشير إلى أن فكرة الصراع بين البشر بمختلف الوسائل والأشكال قانون أزلى من قوانين الاجتماع البشرى.. والإسلام لا يلغى هذه الصراعات بل يحجمها ويضبطها ويشذبها.. ويضعها فى الإطار الصحى قدر الإمكان.. ويضع آلية للتوازن بين أطراف الصراعات المختلفة.. بحيث يجعل مضارها فى الحد الأدنى.. ويجعل العدل هو أساس ضبط هذه الأمواج المتلاطمة.

ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الآية رغم أنها اقترنت بالقتال.. وكانت خاتمة لقصة طالوت وجالوت إلا أنها كانت قصة اختلاف فى اختيار الرئيس الذى يكون له الملك، وهى باصطلاحات عصرنا قضية سياسية داخلية، وليست من قبيل السياسة الخارجية وما يرتبط بها من حروب.

ومعنى الآية الكريمة وفقا لتفسير المنار:

(أنه لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد فى الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد فى الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض أن يكونوا حربا لأهل الباطل فى كل زمان.

ويضيف: دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة فى هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إن الحرب طبيعية فى البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى أن قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ ليس نصا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذى يقتضى المدافعة والمغالبة. ويظن بعض المتطفلين على علم السنن فى الاجتماع البشرى أن تنازع البقاء الذى يقولون إنه سنة عامة هو من أثرة الماديين فى هذا العصر) .

والدين الذى تنشره حكومتنا ينزع كل هذه الخصائص الجوهرية من القرآن الكريم.. بينما هو يتناول ويحتوى مختلف أشكال التدافع بين البشر فى كثير من الآيات:

(١) حروب إعلامية ونفسية: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[الأحزاب : ٦٠-٦٢].

(٢) قتال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢]، والقتل والقتال بمشتقاتهما وبمناسباتهما المختلفة تكررا ١٧٠مرة فى القرآن الكريم، والحرب ٦مرات.. ويدخل فى آيات القتال جريمة القتل الفردية، وأيضا اقتتال المؤمنين باعتباره مشكلة واقعية قابلة للحدوث.. وقد حدثت بالفعل بعد سنوات قليلة من اختتام الرسالة ووفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٣) وهناك الصراعات حول السلطة ومن بينها هذه الآية التى نتحدث فى ضوئها.

(٤) ومن بينها مختلف أشكال الحصار الاقتصادى من الأعداء وهى أحد الاحتمالات اللانهائية لمعنى الآية السابقة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ وقد تعرض المؤمنون الأوائل بالفعل لأول أشكال الحصار الاقتصادى .

(٥) وهناك الصراعات بين الفئات المختلفة (المهاجرين والأنصار) والخلاف حول أسلوب توزيع الغنائم (أول سورة الأنفال) .. وصراع أخوة يوسف ضده الذى وصل إلى حد التفكير فى قتله وهم أبناء أحد الأنبياء.. وذلك امتدادا للجريمة الأولى (لابن آدم).

وإذا نظرنا لحياتنا المعاصرة.. سنجد فيها نفس الثوابت.. صراع بين الفئات المختلفة.. صراع داخل العائلة الواحدة.. صراع فى مواقع العمل من أجل الفوز بقصب السبق.. حتى النواة الأولى: صراع بين الرجل والمرأة، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الموضوع باعتباره من ثوابت حياة البشر، فأطنب فى شرحه وضبطه.. فى عدد من السور.. ووضع كثيرا من

القواعد فى العلاقة بين الزوج وزوجته، واهتم باحتمال الطلاق.. ونظم له كثيرا من القواعد العادلة.. وبلاشك فإن الحياة مشقة وكدح ومكابدة حتى قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

والإسلام لا يترك الإنسان نهبا لهذه الصراعات اليومية التى تبدأ بالخلاف الأسرى ولا تنتهى بالحروب، فقد أنزل الله هدايته للبشر من خلال كتبه ورسله.. لا لتنتهى هذه الصراعات، ولكن لتضعها فى اطار محتمل، تلغى بعضها، وتقلص بعضها، وتضبط بعضها.. أما الصراع بين الخير والشر فهو سمة الحياة الدنيا.. والخير والشر ليسا معسكرين منفصلين.. بل هما مشتبكان فى كل بقعة من بقاع الأرض.. بل هما مشتبكان داخل كل نفس واحدة على حدة، حتى إن الشيطان يقتحم على المؤمن صلاته ويحاول أن يفسدها.. إذا وجد أى ثغرة سهو يمكن أن يتسرب منها.

وبدون هذه الرسالة السماوية فإن الإنسان يكون فى حالة يرثى لها.. بسبب هذه الصراعات.. أو التدافع المفتوح بلا نهاية، وبلا ضوابط، وبدون سند إلهى.. لذلك نجد فى مجتمع كالولايات المتحدة فإن نسبة عالية من الناس تتجه بانتظام إلى أطباء نفسيين، بينما الأطباء النفسيون ليسوا أفضل حالا من المرضى!!

إذن الصراعات من كل لون قائمة سواء رضينا أم أبينا، ولكن الإيمان يقدم لنا:

(١) سكينة نفسية وارادة للصمود والمقاومة والثبات.

(٢) نظام حياة عادل يعطى كل ذى حق حقه.. ويضع التدافع بين البشر فى حده الأدنى.. بحيث يسود التوازن على الاختلال، والتكافل على التنافس.

ويقول بعض المفسرين أن فضل الله فى التدافع لمنع الفساد فى الأرض، هو أنه اذن للمصلحين بالجهاد ضد المفسدين.. وليس فى ذلك ـ من وجهة نظرى ـ تفسير كاف لهذه الآية.. فقد قامت الحياة الدنيا على التناقضات: ليل ـ نهار، خير ـ شر، يسر ـ عسر إلخ.

ولولا تنافسات البشر لتجمدت الحياة على ظهر الأرض.. ولو تخيلنا حياة لا يشعر فيها الإنسان بالمنافسة.. ولا يشعر بأى معاناة أو مخاطر فى الحصول على الرزق بكل أنواعه.. فما الذى سيدفعه للحركة والنشاط والإبداع والمكابدة.. وأحد أسباب حالة القلق التى تولد الحركة والعمل والإنتاج ومحاولة الإصلاح، هو محدودية الموارد ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر : ٢١] وبعد ١٤ قرنا فإن الدرس الأول فى علم الاقتصاد الحديث هو: إن حاجات الإنسان لا محدودة.. والموارد محدودة.. وبالطبع هناك ما جبل عليه الإنسان من ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : ١٤].

الرسالات السماوية جاءت ومنذ اليوم الأول لنزول آدم إلى الأرض لتقرر هذا الواقع ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦].

وأيضا لضبط وقائع هذه الحياة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ٣٨].

إذن لولا وجود الجانب الشرير فى حياتنا لما كانت الحياة على الأرض.. ولكنا فى الجنة.. أو لاستطاع المؤمنون أن ينشئوا الجنة على الأرض، وهذا مستحيل، فهذه ليست إرادة الله.. أما كارل ماركس الذى أراد وبشر بجنة على الأرض يأسا وجحودا بجنة الله، فقد أدت دعوته إلى إنشاء قطعة من «جهنم» فى البلاد الشيوعية!!

إذن فالشر معطى لا قبل لنا على وجه الأرض أن نجتثه من جذوره.. ونقضى عليه تماما، ولكن مهمة المؤمنين.. مهمة حزب الله الذى يضم كل المؤمنين.. أن يحاصره.. وأن يكون متيقظا دائما كالديدبان.. لا يرمش له جفن.. لمؤامرات وتدبيرات حزب الشيطان (الشر) وإذا أجفل المؤمنون أو تراخوا، فإن الحزب الشرير سيجتاحهم كالطوفان، وساعتئذ يأثم الجميع.

لذلك فإن المؤمن صحيح الإيمان.. لا تغفل له عين.. هو إنسان حى (وليس إنسانا ميتا يحيا لشهواته وغرائزه كالسائمة) لحراسة الدين وإصلاح الدنيا.. ومن شيمته ألا يغفل عن ظلم أو فساد سواء أجاء من خارج البلاد أو من داخلها سواء أجاء على يد حكام يعلنون إسلامهم، أو على يد حكام الولايات المتحدة والكيان الصهيونى، إن عدم مقاومة المؤمنين.. هو الذى يرسخ الفساد .. لأن قطب المقاومة الخيرة ساعتئذ يذوب فى قطب الاقتحام الشرير.. ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف ـ وفقا للقانون الإلهى فى هذه الآية ـ أن يصل الفساد فى بلادنا إلى أرقام قياسية لم يعرفها فى تاريخه.. لأن البلاد الآن تعيش فى أدنى درجات التدافع والمقاومة.. لذلك فإن الفساد متربع.. بلا منازع.. ونتجه إلى التحلل والانحلال كمجتمع بمعدلات متسارعة ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ وقد فسدت الأرض فى مصر بطبيعة الحال ولا يوجد أقوى من هذا التعبير القرآنى.. فى عام ١٩٩٢ حسب أرقام البنك الدولى كان حجم الأموال المصرية المتسربة للخارج ٨٣,٧مليار دولار وصلت فى عام ٢٠٠٠ إلى ١٥٠مليار دولار.. والدولة تستدين من الخارج، وتعانى من شتى أنواع الأزمات الاقتصادية، وتهددها أمريكا بقطع المعونة (٢مليار دولار سنويا)!!

ونشرت الصحف تقريرا عجيبا آخر للبنك الدولى لم نسمع تعقيبا عليه من الحكومة يقول أن ٤٠ من رجال الأعمال يحتكرون معظم الاقتصاد المصرى، وأن ١٨ألف مؤسسة عائلية تدير أكثر من ٥٠٪ من موارد الثروة وتسيطر على ٩٠٪ من السلع المطروحة فى السوق، و٦٠٪ من الأنشطة الصناعية، و٩٠٪من السياحة، و٧٤٤شركة بالبورصة، و٢٠٠شركة اكتتاب عام!!

وانحطت المساحة المنزرعة من المحصول الرئيسى للبلاد (القطن) عصب الحياة الاقتصادية من ٢مليون فدان إلى ٦٠٠ألف فدان، ولا أحد من الحكومة يعقب على هذه الكوارث وكأنها أمور طبيعية.

ولاشك أن هناك قدرا من المقاومة لطوفان الفساد.. تمثله صحف قليلة من صحف المعارضة.. وقد تقدمت صحيفة «الشعب» فى هذا المجال وبقدر حجم الأهوال التى تواجه

الوطن.. فاعتبرتها الحكومة شاذة إلى حد غير محتمل، وتتآمر عليها بين أونة وأخرى بكل السبل الممكنة وغير الممكنة.

وبالإضافة لهذا الجهد المعارض.. هناك ـ للأمانة ـ أجهزة رقابية تجاوبت إلى حد بعيد مع كثير من حملات مقاومة الفساد ولكنها عجزت حتى الآن عن القيام بدور «ذى القرنين» فى بناء سد منيع يمنع يأجوج ومأجوج من الإغارة والإفساد فى الأرض، ودور هذه الأجهزة أشبه بمن ينزح مستنقع واسع للفساد بدلو صغير.

قانون التدافع يعمل ولكن بوتيرة خافتة وغير منظمة وغير كافية.. وهناك فورات جماهيرية هنا وهناك بصورة منعزلة.. من أجل بناء جسر.. أو بسبب طرد من أرض زراعية أو مصنع، أو بسبب إغلاق نقابة.. وتحول المقاومة من الخفوت إلى الارتفاع، ومن القلة إلى الكثرة ومن عدم التنظيم إلى التنظيم.. هو الطريق لضرب الفساد فى أرض مصر.

*****

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

أى لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لما عُبد الله فى الأرض، ولهدمت فيها كل دور العبادة المختلفة، وبالآيتين معا يكون لولا التدافع لما عُبد الله فى الأرض.. ولفسدت الأرض.

نحن إذن لسنا أمام نافلة من النوافل، بل فريضة محورية وقانون أساسى لإقامة دين الله وإصلاح الأرض.. ثم ها هى الآية التالية تصف المؤمنين الذين يحق لهم النصر والتمكين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. وعندما نرى هوان مصر الإسلامية أمام أعداء الإسلام، نعلم لماذا لا ينصرنا الله.. لأننا لا نقوم بهذه الفريضة.. وهنا نجد الآيتين تربطان بين

السياسة الداخلية والخارجية فى كل واحد.. وهذا ما تقول به العلوم السياسية المعاصرة.. كذلك نجد الآيتين تربطان بين الحرب والسياسة.. وهى المقولة التى أصبحت شائعة الآن أيضا فى أوساط علماء السياسة نقلا عن الاستراتيجى الشهير (كلاوزفيتز) وهى أن الحرب هى امتداد للسياسة ولكن بوسائل أخرى. والعلمانيون يحتفلون جدا بهذه المقولة باعتبارها كشفا جديدا، بينما كل آيات الجهاد فى القرآن قامت بهذا الربط المحكم بين القتال والسياسة، ولذلك قلنا ان آيات الجهاد تضع الأسس والقواعد للمؤمنين فى قتال أعداء الخارج بالسلاح وما يستتبع ذلك من جهود إعلامية وتثقيفية وتعليمية وتربوية ودبلوماسية وأيضا فى محاربة الظلم والفساد والاستبداد والتبعية عندما تستشرى فى أوساط حكام المسلمين، فالآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر هم الأمة التى ينصرها الله على أعداء الإيمان بالخارج والعكس صحيح فإن الذين ينصرهم الله على أعداء الدين الخارجيين.. هم الذين عندما يمكن لهم الله فى الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. والحقيقة أن الدولة الإسلامية التى يمكن لها الله فى الأرض تمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مجال السياسة الخارجية (الدبلوماسية الدولية).. فتكون حليفة المستضعفين وتسعى لتكريس الأخلاقيات ــ بقوتها ــ فى المجال الدولى.. وهذا معنى أن تكون أمة وسطا بين الناس وشهيدة على كل الأمم. ولكننا لن نتطرق الآن للسياسة الخارجية فى الإسلام لأنها تخرج عن نطاق دراستنا.. ولكن يهمنا الآن أن نؤكد.. أن القيم والمبادىء والمثل التى يتحلى بها المؤمن فى القتال ضد أعداء الدين.. هى نفس المثل التى يتحلى بها فى التصدى لأى فساد أو انحراف يعترى شئون الدولة الإسلامية.. فهو هو نفس الشخص بنفس المبادىء.. الاستعداد للاستشهاد فى سبيل الله.. لا يخاف فى الحق لومة لائم.. يبيع دنياه ليشترى الآخرة.. لا يخضع إلا لله ولا يخشى أحدا غيره.. ولا يشرك به شيئا..

فى بحث للدكتور محمد سليم العوا حول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول (إن الحريات التى قررها الإسلام مارسها المسلمون بلا عوائق ــ أحيانا ــ وبتحمل تبعة استعمالها ولو بلغت حد الاستشهاد فى سبيل الله أحيانا أخرى).

* * * *

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩ -- ١٤٠].

وقد تحدثنا من قبل عن شطر من هذه الآية﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والآن نواصل تناول باقى الآية.. هذه الآية نزلت بمناسبة معركة «أحد» وهزيمة المسلمين فيها، ولكن ها أنت ترى كيف أحكمت صياغتها لتضع حكمة عامة للمؤمنين فى كل زمان ومكان، فى الحرب والسلم على السواء.

لا تهنوا بمعنى لا تضعفوا وقيل لا تعجزوا وقيل لا تجبنوا، والوهن هو الضعف فى العمل وفى الأمر وكذا فى الرأى.. والحزن معروف، ويقول الشيخ محمد رشيد رضا:

(يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتا بما تربيكم على اتباع سنن الله فى الحزم والبصيرة واحكام العزيمة واستيفاء الأسباب فى القتال وغيره.. ثم كيف تهنون وتحزنون وأنتم الأعلون بمقتضى سنن الله تعالى فى جعل العاقبة للمتقين.. الذين يتقون الحيدان عن سننه. وفى نصر من ينصره ويتبع سننه باحقاق الحق وإقامة العدل).

إذن هذه الآية تستنكر اليأس ولا تعده من صفات المؤمنين، وهى تشحذ همم المؤمنين لمواصلة طريق جهادهم بعزم لا يلين، واثقين من نصر الله، ومن علوهم الأدبى دائما، ثم علو السيادة لهم فى الدنيا فى إطار تداول الأيام، وعلوهم المضمون فى الآخرة، كل ذلك شريطة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

وإذا كان المؤمنون يتعرضون للشدائد (القرح) : ومعناه الحرفى القتل والجرح.. أى ما تحدثه الأسلحة عموما فى الجسد.. فإن أعداءهم لا يسلمون من قرح مثله..وهناك آية مماثلة ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء : ١٠٤].

وهذه المعانى تسرى بلا تكلف فى الصراع مع حكم الطغاة والمستبدين .. فالناس تتصور

خطأ أن الحاكم المستبد عندما يلقى بمعارضيه فى السجون ويسومهم سوء العذاب، وتدين له السلطة وتستقر لـه فإنه يكون فـى حالة مستديمة من السعادة..والاستقرار النفسى.. والطمأنينة.. بينما المعارضون المؤمنون هم وحدهم الذين يألمون.. وتثبت وقائع التاريخ والسياسة أن ذلك غير صحيح.. ومن يقرأ مذكرات السياسيين حول مختلف الطغاة يتأكد من ذلك، على سبيل المثال الكتابات المنشورة عن الحالة النفسية السيئة التى كان يعانى منها الملك فاروق فى أيامه وسنواته الأخيرة.. ومذكرات رئيس الديوان الملكى لشاه إيران.. توجد بها صور حية عن الآلام والمعاناة التى تصيب الطغاة كلما استكبروا فى الأرض.. وهى ترجع بطبيعة الحال لخوفهم من فقدان سلطانهم، خوفهم من الاغتيالات أو الانقلابات أو الثورات.. أو حتى مجرد نشر فضائحهم.

ونحن نعرف الآن من حكام المسلمين من يخشون مخالطة الناس.. ويكادون لا يخرجون من قصورهم .. ولا يلتقون إلا بالزوار الأجانب.. أو أفراد بطانة الحكم.. كما أن الحاكم المستبد المعزول عن شعبه «يصطبح» كل يوم بتقارير أجهزته الأمنية.. عن حجم النشاط المعارض.. وعن الأقوال التى تتردد ضده فى أوساط الشعب.. وقد رأينا على الهواء مباشرة من خلال التليفزيون .. الحالة النفسية المروعة التى كان فيها السادات وهو يخطب يوم ٥سبتمبر ١٩٨١.. ووصل الأمر إلى حد المهاترات غير المسبوقة فقال إنه لا يعبأ بالدستور.. وقال عن داعية إسلامى «أهو مرمى زى الكلب فى السجن».. كان مشهدا تاريخيا لا يُنسى .. فالحاكم المستبد الذى اعتقل الآلاف فقد أعصابه إلى حد فقدان الاتزان.. فقدان القدرة على التمييز بين ما يقال ومالا يقال على الهواء مباشرة، بينما كان الداعية الإسلامى فى زنزانته يصلى إلى الله وقد تملكته حالة من الطمأنينة والسكينة.. وقد لمست نماذج من هذه الظاهرة خلال حملاتنا فى جريدة «الشعب» ضد المفسدين، فكانت تصلنا أنباء عن معاناتهم الرهيبة من هذه الحملات خوفا على مقاعدهم.. بل لقد صرح بعضهم بذلك، وصرح أنصارهم أن حملاتنا جعلتهم يتخبطون فى أداء عملهم المعتاد!!

إذن إذا كان المجاهدون يألمون ويمسهم القرح .. وبالفعل فنحن فى حزب العمل خلال

عـملنا فى الأمـر بالمعروف والنـهى عن المنكر، تعـرضنا لاعتـداءات بدنيـة أكـثر من مـرة.. وتعـرضنا للحبـس على فتـرات متـقـاربة، وتعرضنـا لتهـديدات بالقـتل، وتعرضت أسـرنا للمخاطـر، وتم التضييق على أرزاق بعضـنا وتم الاعتداء على أملاك البعض، وتمـت عملية ترويع واسـتدعـاءات من بعض الأجـهـزة.. وهذه بعض من تكاليف الجـهاد.. فـلاشك أن المجاهدين يألمون ويمسـهم القرح، وكذلك فإن الطغـاة والمفسدين يألمون ويمسهم قـرح مثله.. ولكن المجـاهدين هم الفـائزون.. لأنهـم يرجـون (من الله مـا لا يرجـون) فكل هم الطغـاة والمفـسدين الحـرص على مـغانم الدنيـا والاسـتـزادة منهـا، بينمـا هم المجاهدين ارضـاء الله سبـحانه وتعـالى، وهـم دائما صـابرون محـتسـبون مطمـئنوا النفس فى حالات الـنجاح أو الفشل.. طالمـا أنهم لا يرجون إلا وجه الله.. ودعـاؤهم دائما (إن لم يكن بك غـضـب علىّ فلا أبالى)، وهـم يعـرفون أن الانكسارات مؤقتـة.. وأن عليهم أن يأخذوا بالأسـباب حتى لا تتكرر، ولكنهم موقنون بقـول الله تعالى ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَـا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمـران: ١٤٠] فلا يمكن للباطل أن يدوم مـسيطرا.. ولا حتى دولة الحق لديها اعتمـاد مفتوح من الله عز وجل بالبقاء أبد الدهر.. فـإذا نخر فيها السوس وتركت الفساد يسـتشرى، وإذا لم تأخذ بالأسبـاب أى بسنن العمـران البشرى فـإنها ستفقـد سيـادتها وستطوى رايـاتـها ولن تكون جديرة بأن تسمى دولة الحـق والعدل.. وقد يتحول مـا تبقى فيها من الصـالحين إلى صفوف المعارضة لتبدأ الدورة من جديد.

وعندما يكون الباطل هـو السائد، فإن أنصار الحق لا يعرفون اليأس ﴿إن كنتم مـؤمنين﴾ وهـم يثقون ـ إذا عمـلوا بتوجيهات الله ـ أن الباطل سيندحر لأنه ﴿كان زهوقا﴾.

ليس من صفات المؤمن أن يردد كلمات اليأس (سعد باشا قال مفيش فايدة!!) ويردد أن الحزب الوطنى الحاكم باق للأبد فى الحكم.. فهذا موقف يتعارض مع الإيمان بالله والثقة فى وعده، ويتعارض مع سنن الحياة.. وهو محاولة واضحة لتبرير التقاعس عن أداء الأمانة.

فى بلادنا عندمـا يوسد الأمر لغير أهله.. ويسـتطيل زمن بقاء رمـوز فاسـدة فى صدارة الحكم، ففى ذلك نداء لجمهور الأمة للرفض والمقاومة.. لا بترديد كلمات اليأس، وكأن الله

الواحد القهار.. لا يرى ولا يسمع.. ولكن مرة أخرى فـ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].. وأول التغيير.. هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. والحد الأدنى هو تقديم الجمهور التأييد والمساندة لمن يتصدون لهذا الأمر والنهى من القيادات المؤمنة.

و﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ تذكرنا بالآية المماثلة :﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأحيانا يردد الناس هذه الآية على سبيل اعفاء النفس من المسئولية انتظارا لتصاريف الله.. أو الآية الكريمة الأخرى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، وهذه الآية تتحدث عن يوم القيامة! ولا مانع من استخدام معناها العام فى غير يوم القيامة شريطة ألا يكون ذلك وسيلة أخرى للاعتذار عن أداء الأمانة المنوطة بالإنسان.. وكون الله عز وجل يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء..لا يعنى أن دور المؤمنين أن ينتظروا هذه المشيئة الإلهية وهم فى غفلة ساهون.. وهذه المشيئة الإلهية لن تبدأ اليوم، فهى موجودة منذ الأزل.. والتاريخ يؤكد أن هذا التداول للملك والعز جاء وفق سنن مطردة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ان هناك مشيئة عامة لله عز وجل نستخرجها من كتابه الحكيم وسنة رسوله الكريم، ومن تاريخ الأمم (وهذا ما يحضنا القرآن عليه: سيروا فى الأرض فانظروا) وإن كنا لا نملك أن نحيط بعلم الله عموما ولا فى أى موضوع بعينه.. إلا أن الله سبحانه وتعالى علمنا وأتاح لنا أن نعلم فى حدود امكانياتنا وفى حدود وظيفتنا (إعمار الأرض والخلافة فيها) وبالتالى لابد أن نستوعب إلى أقصى حد ممكن سنن الاجتماع البشرى الواردة بالقرآن.

وهناك المشيئة الإلهية الخاصة بواقعة معينة، بحاكم معين، بنظام معين، وهذه لا يمكن الاطلاع عليها إلا بعد حدوثها، وليس بامكاننا أن نعرف لها توقيتا.. ولكن على المصلحين

بعد أن يفهموا السنن العامة.. أن يعملوا بها.. وأن يصلحوا فى الأرض.. وإذا وقف الحاكم فى سبيلهم نصحوه.. أو قوموه.. أو قاوموه.. أما التوفيق من حيث التوقيت فهذا من عندالله.

وهكذا فإن تداول الملك (الأيام) يعنى أن نعمل لتحقيق هذه السنة، وأن تمتلىء أشرعتنا بهواء الأمل.. وأن نكون واثقين ثابتى الجنان.. ونتحدث مع الطغاة من موقع قوة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ قوة الحق.. وقوة المساندة الإلهية.. لأن الله يعلن سلفا أنه معنا وأنه ﴿لايحب الظالمين﴾، فكيف نحبهم نحن أونظهر لهم الحب، أو نغفل عن هذا الدعم الربانى اللامحدود.

*****

شهادة الحق فريضة على المؤمن:

نكتفى بمجموعة الآيات السابقة المتعلقة بالجهاد والتى وردت فى سياق أحكام القتال لأنها تتضمن مبادىء عامة للمجاهدين فى كل مجال.. وننتقل إلى مجموعة أخرى من الآيات حول مسئولية المؤمن عن أداء الشهادة، وأنه ليس مخيرا فى هذا المجال، بل إن الله يأمره بأداء الشهادة وعدم كتمان الحق.. وإلا يكون بصمته قد اقترف إثما.

﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقد جاءت فى أعقاب أطول آية فى القرآن الكريم وهى رقم ٢٨٢ والخاصة بالعقود والتعاقدات.

وهو فى حد ذاته أكبر دليل على اهتمام الدين الإسلامى بضبط المعاملات بالعدل.. وهى الآية التى تضع مبادىء عامة فى التعاقدات المدنية وتميزها عن التعاملات التجارية، وتضع مبادىء للتقاضى، وتحرى العدل فى كل هذه الخطوات. وفيما يختص بموضوعنا (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).. يمكن أن نستخلص المبادىء التالية:

ضرورة استجابة الشاهد إذا دُعي للشهادة: ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة:٢٨٢]، ثم ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وإذا كان موضوع الآيتين يتناول العقود.. والشهادة عليها.. فإنه يسرى بصورة منطقية على الشهادة فى المحاكم.. سواء فى موضوع العقود المدنية أو غيرها.. وبالفعل فإن هذ الآية هى التى وضعت قاعدة ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وهو ما تعمل به المحاكم الملتزمة بالشريعة الإسلامية.

يأب: أى يمتنع، وهذا الأمر الإلهى يقوم على أصل ثابت من أصول الإسلام وهو وحدة الأمة الإسلامية﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ و﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ بالإضافة لأحاديث رسول الله ﷺ وعلى رأسها أن المسلمين جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولن ينهض المسلمون فى عصرنا هذا إلا إذا عادوا لهذا الأصل من أصول دينهم.

وهذا الأمر الذى نحن بصدده والذى يحتم على الشهود أن يدلوا بشهادتهم إذا ما دعوا لأدائها هو أحد تطبيقات هذا المبدأ العام، فليس لأى فرد من الأفراد أن يتخلى عن واجبه فى تقرير الحقيقة التى شهدها، والظاهر من قوله تعالى ﴿لا يأب الشهداء﴾ أن الامتناع عن الشهادة أداء محرم وأن الإجابة واجبة.

وقال البعض إنه فرض كفاية لا يجب على من دعى إليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم به. ثم تقول الآية بعد ذلك فيما يتعلق بالشهود ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة : ٢٨٢] أى أن أى ضرر يقع على الشهيد (أو الشاهد) يخرج بكم عن حدود طاعة الله إلى معصيته. وأيضا إذا مددنا هذا الحكم من العقود إلى المحاكم.. نجد كيف يحيط القرآن العدل بكل ضماناته.

والشهود معرضون للضرر والخطر، إذا كانت شهادتهم ضد الأقوياء ذوى السلطان. وسنجد كيف سبق القرآن الكريم أنظمة العدالة الحديثة التى توفر الحماية والضمانات

للشهود فى قضايا الفساد الخطيرة.. ونعلم أن نظام العدالة فى الولايات المتحدة يوفر حماية خاصة للشاهد إذا شهد ضد مجرم خطير، أو المافيا، ويصل الأمر إلى حد وضع حراسة خاصة له، وتوفير مسكن جديد آمن فى ولاية مختلفة طوال فترة تعرض الشاهد لأية مخاطر.. كذلك فإن هناك تقاليد تحمى الشاهد من البطش إذا شهد ضد كبار المسئولين.. أو حتى رئيس الجمهورية نفسه، وبغض النظر عن مصداقية هذا النظام على أرض الواقع، إلا أننا نركز على ادراك نظام العدالة لأهمية ذلك.. ووجود قدر من التقاليد الديمقراطية يقر حصانة الشاهد من التعرض لأى عدوان أو حيف أو تصفية حسابات.

وفى مصر خبرنا فى جريدة «الشعب» خلال حملاتنا ضد كبار المفسدين.. هذه المعضلة.. وكان من الصعب أن تجد شاهدا من ذلك النوع الذى يحسم القضية.. وفى احدى القضايا شهد شاهد لمصلحة الوزير ضدنا، وعندما خرج الوزير من السلطة، عاد فشهد معنا ضده !! وتخلى شهود الوزير السابق عنه! وفى قضية أخرى كان كثير من الشهود من أعضاء حزب العمل أو أنصاره القريبين، ورفض كثير من الشهود الآخرين الذين دعوا للادلاء بشهاداتهم وكانت شهاداتهم أكثر تأثيرا وحسما من حيث موقعهم، لكنهم تخلوا خوفا من تعرضهم للبطش.. وبالطبع فإن بعض المتطوعين للشهادة.. تعرضوا لاعتداءات جسدية، فتخلوا عن مواصلة الادلاء بشهادتهم، وكذلك فى احدى القضايا تحول مصدر قدم لنا المستندات إلى شاهد ضدنا لأنه تعرض لحملة ترهيب وصلت إلى «علقة ساخنة»، وفى قضية أخرى شهد ضدنا «الضحية» الذى دافعنا عنه بعد تعرضه لتهديدات خطيرة!!

نحن إذن ازاء مسألة مركبة.. فالادلاء بالشهادة واجب دينى، وأمر إلهى كما رأينا، وهى تكون فرض عين على المؤمن إذا لم يكن هناك من يحل محله فى وقائع الشهادة التى يعرفها، لذلك قال تعالى فى النهاية هذا الحكم العام ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ رغم أن الآية السابقة قالت المعنى ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ فالله سبحانه وتعالى يعود لتأكيد هذا الأمر وليغلظه على من لا يصدع به فيقرر أن كتمان الشهادة إثم كبير، وذلك مستفاد من نسبة الإثم إلى القلب وهو المضغة التى إذا فسدت فسد الجسد كله،

ذلك أن كتمان الشهادة عبارة عن حبس الحقائق وتضييع للعدالة والحقوق. وهذا ينفى ما يقوله البعض من أن الإثم لا يكون إلا بعمل الجوارح ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن آثام القلب سوء القصد وفساد النية، ودلت الآية على أن الإنسان يؤاخذ على ترك المعروف كما يؤاخذ على فعل المنكر لأن الامتناع فى هذه الحالة فى الحقيقة نوع من الفعل الذى يضر بالمؤمنين.

وهكذا فإن الادلاء بالشهادة أمر عام لكل المؤمنين، أما عندما يختل نظام العدالة كما هو الآن فى بلادنا من خلال الضغوط التى يمارسها بعض المسئولين خارج قاعة المحكمة، ولا تملك المحكمة حماية الشهود.. ولم تترسخ فى بلادنا قيمة «الشهادة» وضرورة احترامها، فإن الشهادة تتحول إلى عمل جهادى من الطراز الأول، وفى قضايانا ضد المفسدين لم نعدم كوكبة من هذا الصنف.. إن المخاطر التى قد يتعرض لها الشاهد لا تبرر له تقاعسه.. ومن المفترض إذا كان مؤمنا صحيح الإيمان أن يخشى الله أكثر من المسئولين.. وإذا زادت دائرة الذين يتجرأون على الباطل.. فإننا سنحاصره.. وسنرسخ مفهوم احترام الشاهد وحمايته بالضمانات وبقدر كاف من الحصانة.. وتحقيق هذه الضمانات من أركان أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كقضية عامة.. وليس فيما يتعلق بهذا الشاهد أو ذاك.

إن ما يجرى فى هذا المجال.. يسرى على المجالات الأخرى.. بمعنى إذا ظل الناس لا يرون إلا البطش المادى للسلطة.. ولا يرون قوة الله فوق الجميع، فسيظلون يستسلمون للسلاطين، وعندما تكون هناك قلة محدودة هى فقط التى تقاوم فإنها تتعرض لضغوط أكبر وافتتات أشد.. وأن التضامن الجماعى هو الحماية على كل جبهات مقاومة المنكر.

إن عدم الالتزام بالضمانات الإسلامية للعدالة ومن بينها ألا يضار الشهود.. جريمة يكتوى بها الجميع.. ويبقى أخيرا أن الحكمة الإلهية ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ حكمة عامة تنطبق على الأستاذ الجامعى أو المدرس الذى يصحح أوراق الامتحان فلا يحابى أحدا على حساب أحد.. تنطبق على لجان المسابقات فى مجال التعيين.. وتنطبق على لجان القيد فى

النقابات.. فإن من يعرف حقيقة وهو فى موضع المسئولية يؤدى كتمانها إلى الإضرار بأحد فهو آثم قلبه.. وكذلك كان من شعاراتنا فى الانتخابات هذه الآية.. حتى يدلى الناس بأصواتهم.. ولمن يستحق.. وأيضا تنطبق هذه الحكمة العامة على ادارات المصالح الحكومية والقطاع العام والجامعات و غيرها فى مجال الترقيات، أو فى مجال كشف الفساد..إلخ .

وسنجد عددا من آيات القرآن تدور حول هذا المعنى من بينها:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة: ٤٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء :١٣٥].

ونتوقف عند هذه الآية الأخيرة لنرى كيف يفسر القرآن بعضه بعضا وكيف يكمل بعضه بعضا فكل المعانى التى استخرجناها فى الآيتين (٢٨٢ - ٢٨٣: البقرة).. نجدها مبسوطة ومشروحة مع المزيد من الإضافات فى هذه الآية.. وهى آية لا يختلف اثنان على أنها عامة أى غير متصلة بالعقود أو غيرها.

والقسط هو العدل، والعدل هو الأساس لحفظ النظام وقوام أمر الاجتماع، وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس أو الوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد فى ذلك لغناه، أو مراعاته لفقره، لأن العدل والحق مقدمان على المصالح الشخصية وروابط القرابة، و(القوامون بالقسط) تعبير فذ من الناحية البلاغية وهو يعنى الاتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها فإن (قوامين) جمع قوام، وهو المبالغ فى القيام بالشىء، والقيام بالشىء هو الاتيان به مستويا تماما لا نقص فيه ولا عوج. أى لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم بأن تتحروه بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة فى نفوسكم.

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ إن الشهادة تكون أساسا لله فيجب تحرى الحق الذى يرضاه ويأمر به ومن غير مراعاة ولا محاباة لأحد. وأداء الشهادة بالعدل قد تكون فى المحاكم، أو بالعدل داخل الأسرة أو العمل حتى نصل إلى من يتولى السلطة السياسية.. فالعدل هو سمة المجتمع الإسلامى على مدى الهرم الاجتماعى كله.. فالشهادة بالحق ليست من خلال أداء الشهادة فى المحاكم فحسب ـ وإن كان سبب نزول هذه الآية يتعلق بنزاع قضائى فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ـ ولكن الممارسة بالعدل تعنى أن أشهد بالحق فى هذا الموضوع أو ذاك لهذا الشخص أو ذاك وأن أرعى ذلك وأضعه فى الحسبان لدى اتخاذ القرارات، ونحن نركز على البعد السياسى ـ لأن هذا موضوع دراستنا ـ أما الإسلام فيحض على إشاعة العدل كما ذكرنا فى كل خلايا المجتمع. نحن هنا فى تعبير ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾أمام مثال حى لاندماج الدين بالسياسة، واندماج العبادة بالمعاملات.. فأداء الشهادة نوع وشكل من عبادة الله.. والتقرب إليه والتسليم بربوبيته وعبوديتنا له.. هذا مثال لنفهم الفهم الأعمق لمعنى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات : ٥٦] فالعبادة لله سبحانه وتعالى على مدار الساعة وعلى مدار اليوم.. اللهم إلا فى ساعات الموت المؤقت (النوم) وكل عمل يقوم به الإنسان ليس محايدا.. نعم لا يوجد عمل محايد بين الخير والشر.. فالأكل إذا كان من حلال، وتمت مراعاة الآداب الإسلامية فى إعداده وتناوله.. فهو خير.. وإذا كان من حرام فهو نارفى البطون وشر .. وبضع الرجل لزوجته.. له فيه ثواب، وبضع الرجل فى الحرام شر له عقاب، وحتى فى الطهارة والاغتسال.. وأصغر ممارسة فى الحياة اليومية قد تكون لك أو عليك.. كل خطوة تخطوها فى طريقك لعملك الشريف هى لك، وكل خطوة تخطوها فى طريقك لارتكاب الإثم فى مكان العمل أو غيره هى عليك، وكل تصرفاتك مع أسرتك وجيرانك وكل من تتعامل معهم فى الطريق فإنك لا تكاد تجد عملا محايدا (فالكلمة الطيبة صدقة، وإن تبش فى وجه أخيك صدقة»إلخ .

وفقا للدين الإسلامى فنحن نتعبد إلى الله أو نعرض وننشغل عن عبادته وعن أوامره ونواهيه فى كل لحظة تقريبا.. فأنت تتكلم طول الوقت ـ على سبيل المثال ـ حيث لا يوجد

حياد، فإما أن تقول الصدق أو الكذب. وإما تتحدث بالحق أو الباطل.. وحتى اللغو فهو محسوب عليك.

أنت إذا دعوت أخاك المؤمن للصلاة جماعة فى المسجد يستجيب لك بسهولة.. ولكن إذا دعوته للشهادة معك فى المحكمة.. فإنه يختلق الأعذار.. ولو أدرك أن شهادته عبادة وأنه يثاب عليها بأكثر من النافلة، بل ان أداء صلاته المفروضة يصبح ناقصا طالما لم تنهه عن فحشاء أو منكر.. والهروب من الشهادة لله نوع من المنكر بل فى الحديث (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له).. وإذا أدرك المؤمن أن أداءه الشهادة هى عبادة لله لسعى إليها سعيا إذا طلبت منه لا أزور عنها أزورارا كما يحدث كثيرا الآن. بل إن الشهادة قد تكون أخطر لحظة من لحظات الصدق مع النفس ومع الله.. وإلا فكيف يشهد الإنسان على نفسه، فى المحكمة أو خارج المحكمة يقول أن فلاناً أحق بهذا الموقع أو هذه الترقية منى.. وهذا يحدث فى مجتمعنا ولكنه فى أقل القليل.. بل والنادر . والشهادة على النفس في العمل السياسى هى ما اخترعته التنظيمات العلمانية تحت مسمى (النقد الذاتى) وقد رأينا كيف تحول النقد الذاتى إلى هراء في الدول الشيوعية أو الأحزاب العلمانية.. لأنه لا يتوخى ولا يتوجه إلى الله.. فيتحول إلى مجرد حيلة للخروج من مأزق معين! بينما وجدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشهد ضد نفسه على الملأ عندما يخطىء ويقول: أخطأ عمر.. والمؤمن الحق يشهد على نفسه لأن ما يشغله هو الحساب الربانى فى الآخرة، وليس حساب البشر فى الدنيا ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١].

وعندما يشهد المؤمن فى المحكمة خاصة فى قضية عامة من قضايا الفساد فإنه يقوم بذلك بفرض كفاية، وقد رأى جمع من العلماء أفضلية فرض الكفاية على فرض العين (أمام الحرمين الجوينى ـ غياث الأمم) لأن الفروض الكفائية تتعلق غالبا بمصالح الجماعة أو الأمة كلها ومن ثم فلها أثر مباشر وعام فى الحياة الاجتماعية والسياسية. وفرض الكفاية يكفى أن يقوم به بعض الناس ليُرفع الإثم عن الأمة كلها.. شريطة أن يكون هذا البعض كافيا لأداء الفريضة.. أما فرض العين فهو الذى يتوجب على كل الناس طول الوقت (كالصلاة والصيام..).

إذن فإن شهادة الحق والعدل ليست لصالح فلان أو علان.. ولكنها لله.. وهو الذى يجزى عليها.. وهو الذى يحمى عباده الصالحين.. وقد أشرت من قبل لنماذج من الشهود فى قضايا الفساد، وكيف تخلوا عن الشهادة بعد أن تعرضوا لتهديدات، ولو كانوا جاءوا إلى المحكمة وأعلنوا ما تعرضوا له.. لكان لموقفهم هذا شأن فى وقف هذه الممارسة الإجرامية.. ولاضطرت المحكمة للنظر فى هذا الأمر.. ويبقى أن الشهادة لله حتى لو عرضت الشاهد للظلم.. فما بالك والمسلم يثاب إذا دخلت شوكة فى قدمه وهو سائر فى الطريق العام.. ولكن حساباتنا أضحت دنيوية محضة.. وأصبح الله لا يتذكره الناس إلا فى الصلاة.. وفى المناسبات إلا من رحم ربى. أعرف قضاة حكموا بالظلم.. وماتوا بعد إصدار الأحكام بأيام، أليس هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم؟! والشهادة كما ذكرنا أحد أشكال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. لأن شهادة الحق ستحاصر المنكر وتضربه وتنتصر للمعروف.. وهى ترقى إلى مستوى تغيير المنكر باليد، لأن الشهادة التى تساهم فى إصدار حكم ضد المفسدين تكون قد انتقلت من مجرد الإعلان باللسان (فى مقال أو خطاب) إلى عمل مادى.. أو جزء من عمل مادى لمقاومة المنكر وتغييره.

والشهادة كبيرة عند الله سبحانه وتعالى حتى يدعونا للشهادة على النفس ، أو الوالدين والأقربين كأولادكم وإخوتكم فليس من صلة الرحم أو بر الوالدين مناصرتهم فى الظلم أو جلب المنافع لهم بالكذب، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم، فتكون المحاباة فى الشهادة من أسباب فشو الظلم والعدوان، وذلك من المفاسد التى لا يأمن شرها أحد من الناس، فالمحاباة فى الشهادة مفسدة ضررها عام وإن كانت لمصلحة يريد المحابى بها نفع أهله.

وفى ظروف تدهور مجتمعنا الحالى فأنت إذا دعوت إلى ذلك سخر الناس منك.. واعتبروك ساذجا، لأنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورا.. والصحوة الإيمانية لا تزال تحصر نفسها فى العبادات.. بل نجد أن عدد المصريين المتجهين للعمرة سنويا يتراوح بين نصف مليون ومليون معتمر.. أما فى الشهادة للحق فلا تجد أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة.. إن

وجدت. حتى إذا كانت القضايا تمس حياة كل مصرى.. وتهدده فى بيته وصحته وأولاده وشرفه العقائدى والوطنى.. وهذا ما ينقلنا إلى الجزء التالى من الآية ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[النساء:١٣٥] .. فبعد الشهادة على النفس والأقربين تنتقل الآية لنطاق أرحب بعيدا عن صلات القرابة.. فتقول لا تحابوا الغنى طمعا فى ماله ولا خوفا من شره ولا الفقير عطفا عليه ورحمة به.. هذا ما يقول به المفسرون بمناسبة نزول الآية.. حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفصل بين مختصمين أحدهما غنى والآخر فقير وكان قلبه ميالا ومتعاطفا مع الفقير.. والآية معناها عام .. بمعنى أن الأصل الاجتماعى أو القوة والضعف يجب أن تنحى تماما كعوامل فى الشهادة التى يجب أن ترعى الحق والحقيقة بعيدا عن أى خلفيات .. ونحن نعلم أن الظاهرة الأخطر فى فترات تدهور المجتمعات.. هو الانحياز للأقوياء ضد الضعفاء كالأمثلة التى أشرنا إليها.. وما يتعرض له الشاهد بالحق للطرف الضعيف من تهديدات، ونضيف أيضا ما يتعرض له من ترغيب.

فالله عز وجل يقول: أنا أولى بغنيكم وفقيركم، ولا يمنعك غنى غنى، ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم فإن ذلك من الحق.

ثم تتواصل الآية حتى لا تترك أى ثغرة فى هذا الأمر الجلل (الشهادة) .. فهى مرتبطة بقضية الصدق والكذب .. فالصدق أبرز صفات المؤمنين والكذب أبرز صفات المنافقين.. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣] نقول تواصل الآية التأكيد وسد كل الثغرات ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ والمعنى واضح، ثم ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[النساء: ١٣٥] ذلك أن الشاهد فى المحكمة أو خارج نطاق القضاء معرض لاحتمالين خاطئين: أن يفر من الشهادة (تعرضوا) فلا يظن بذلك أنه نجا من الإثم والكذب، فهروبه وإعراضه أدى إلى ضياع الحق والحقيقة.. أما الاحتمال الآخر (تلووا) بمعنى أن تحرفوا فى الشهادة، وهو تعبير دقيق أن تلووا ألسنتكم فتخلطون الحق بالباطل وكثيرا ما يكون ذلك بذكر نصف الحقيقة أو جزء منها دون الحقيقة الكاملة، وهو ما يؤدى عادة إلى قلب الحقيقة أو إفسادها وتشويهها.. وهو ما يؤدى إلى الكذب وإلى شهادة

الزور. لذلك على المؤمن أن يحذر من هذين الاحتمالين لأن الله (كان بما تعملون خبيرا)..
وأصل الإيمان أن نخاف الله ولا نخاف الناس، (ولنلحظ أن القاضى هو الشاهد الأخير بالحق.. وحكمه هو نوع من الشهادة ذات الخطر) .

* * * *

ولا نزال نتحدث فى إطار الآيات الكريمة التى أمرت بالشهادة بالحق كفريضة على المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨].

وهذه استكمال مباشر للآية السابقة.. وهى تمد دائرة القسط حتى إلى قوم نبغضهم.. وحتى ولو لم يكونوا مسلمين.. فالعدل لا يتجزأ. وهذه ذروة العدالة فى الإسلام، ومن باب أولى يتضح مدى الالتزام بالعدل مع المؤمنين. وهذا يعنى أيضا أن الحاكم ليس من حقه أن يفترى على القوى المعارضة له.. لأنه يبغضها.. وعلى المعارضة الإسلامية بدورها أن تكون عادلة مع الحاكم المعادى، فإذا أصاب أقرت بصوابه كما تهاجمه عندما يخطئ.

ويدخل فى الشهادة بالقسط إظهار الحق للحاكم، وتحديد الموقف الصريح من أقواله إن خيرا وإن شرا.. أما الشنآن (البغض) فلم يعد ينفع كحجة أو تكئة للحاكم ليظلم.. ولا للمحكوم المعارض أن يفتئت على الحاكم بدون مسوغ من الواقع والحقيقة.. والمسألة كما ذكرنا أن العدل مسئولية الجميع فى المجتمع المسلم وعلى كل المستويات ولكن كما نعلم فإن الحاكم المستبد هو الذى يفرط عقد هذا التكوين الحضارى للأمة.. من واقع سيطرته على رأس الهرم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .. فيؤدى ظلمه إلى سلسلة من التفاعلات التى تخلخل منظومة العدالة التى أمر بها الله.. وهو ما يفتح الطريق لتفسخ المجتمع وتشققه واهترائه من الداخل، وفى هذا الوضع يمكن لأمة غير مؤمنة، ولكنها أقرب للعدل فى التعامل مع مواطنيها أن تتفوق على أمة المسلمين فى شتى مجالات العمران. وأن تهزمها فى

أى مواجهة عسكرية أو غير عسكرية .. وما هوان وضعنا فى مصر إزاء الحلف الأمريكى - الصهيونى إلا نتاجا لتخلينا عن سنن الاجتماع البشرى وعلى رأسها العدالة.. وبطبيعة الحال فإن مستوى عدالتهم فى مجتمعاتهم لا يرقى إلى النموذج الإسلامى ، ولكنه بالتأكيد أرقى من ممارستنا داخل مجتمعاتنا ، بعد أن هجرنا نموذجنا الإسلامى.. دون حتى أن نلتحق حقيقة بنموذجهم الغربى، ولذلك فإننا نعيش حالة من التفسخ والتحلل الاجتماعى.

* * * * *

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢].

ويربط المفسرون بين هذه الآية والآيتين السابقتين اللتين تناولناهما.. باعتبارها جميعا تنطوى على نفس الحكم مع مزيد من الإضافة والشرح، وهذه الآية جاءت فى سياق تسع وصايا من الأوامر والنواهى فى الآية السابقة التى بدأت ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام : ١٥١] .

وجاء العدل فى القول الوصية الثامنة.. وهذه الآية تضيف عما سبق التأكيد على قول العدل فى كل مكان وآن، حتى يكون واضحا ، إن المسألة ليست فى التقاضى أو العقود أو فى هذا المجال دون آخر.. فالمسلم يجب أن يلتزم وفقا للآية بـ :

(١) عدم الشرك بالله.

(٢) بالوالدين إحسانا.

(٣) عدم قتل الأولاد.

(٤) لا تقربوا الفواحش.

(٥) لا تقتلوا النفس التى حرم الله .

(٦) لا تقربوا مال اليتيم.

(٧) أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

(٨) وإذا قلتم فاعدلوا

(٩) وبعهد الله أوفوا.

فالعدل هو ركن العمران وأساس الملك وقطب رحى النظام للبشر فى جميع أمورهم الاجتماعية. ونحن نوجه كلامنا لجمهور المؤمنين من الأغلبية الصامتة كل فى موقعه وفى مكانه (وإذا قلتم فاعدلوا) فى الأمور العامة للمؤمنين ولا تلووا ألسنتكم.. وهى دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والساكت عن الحق شيطان أخرس.. وكل فى حدود ولايته وسلطاته ومجال عمله ونفوذه وتأثيره.

* * * * *

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وهكذا تتواصل الآيات فها هو قول الزور رديف عبادة الأوثان، والزور هو الباطل والكذب، وقول الزور على الله وعلى الناس. وإذا كان قول الزور يبدأ فى مجال العبادة، وعدم قول الزور على الله (أى عدم الشرك بالله فى بعض التفسيرات) فإن قول الزور أو شهادة الزور فى أمور المعاش هى بدورها تغضب الله لأنه أداة الظلم والطغيان والفساد وضياع الحق بين العباد. وكما ذكرنا ـ ونذكر مرارا ـ فإن كمال الإيمان وعدم الاشراك بالله لابد أن يؤدى إلى مجتمع تسوده العدالة بصورة كيفية لا تقارن بمجتمع لا يضع الإيمان بالله فى رأس اهتماماته ، ولذلك كما رأينا فى الآيات السابقة فقد اهتم القرآن الكريم بضبط المعاملات، فإذا كانت الدنيا ـ بالنسبة للمؤمنين ـ هى مزرعة للآخرة ، فإن هذه المزرعة لا يمكن أن تتسم بالبوار والخراب، بل لابد أن تكون مزدهرة بأسمى أشكال العلاقات الإنسانية والاجتماعية حتى تكون مقدمة منطقية لآخرة هانئة.

وقول الزور أعم من تعبير (شهادة الزور) لتوضيح أنه حكم عام فى التقاضى وغير التقاضى وأن المؤمن لا يقول إلا صدقا.. وهو الأمر الذى يدفعنا إلى البعد الأخلاقى فى تكوين المؤمن وربطه بما هو سياسى.. رغم أن هذه الدراسة لا تتناول أخلاق المسلم عموما

أو مسألة الأخلاقيات، فالإسلام كل واحد، والواقع متشابك لا تنفصل فيه الأشياء عن بعضها تماما، والأخلاق فى الإسلام لا تنفصل عن السياسة بل هى فى قلبها .. نتوقف هنيهة عند مسألة الكذب.. لأنها جوهر قول الزور.. فالحقيقة أن الصدق هو سمة المؤمن البارزة.. وفى نفس الوقت هو عاصمه من الزلل، فإذا لم يكذب المسلم فقد ضمن الدنيا والآخرة، لأن الإنسان الذى لا يكذب هو الإنسان الذى يتحرى السلوك السليم، فالإنحراف هوالذى يستدعى الكذب لتغطيته، وهذا هوالأساس الأعمق للكذب، ويتحول الكذب إلى جريمة كبرى إذا كان الهدف منه التستر على جريمة تمس المجتمع بأسره.. وتضر جماعة المسلمين ككل ، وبالتالى فإن قول الزور يصبح قرين الشرك لأنه عمل متعمد للإضرار بالناس جميعا خوفا وطمعا من الكبراء المنحرفين.

يقول رسول الله ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) البخارى - مسلم.

وبطبيعة الحال فالصمت هنا ليس فى موضع الشهادة، ولكن فى مجال الأحاديث العامة التى تجرى بين الناس، ويحضرنى هذا الحديث عندما نجد أناسا يتصدون لمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فبدلا من أن يجدوا مساندة من المثقفين نجد بعضهم بدلا من أن يلوذ بالصمت، يتحدث ويكتب أحيانا ضد هؤلاء المجاهدين باعتبارهم من «هواة الشهرة والسجن» أو« أنهم يعملون لحساب دولة أجنبية» أو «أداة لتصفية الحسابات بين أجنحة فى السلطة»، دون أن يناقشوا بجدية أو بأدلة كل هذه الأقاويل.. بل هم فقط يتحدثون بهذه الأقاويل ليعفوا أنفسهم من المسئولية ، بترويج أنه لا يوجد أحد يعمل لوجه الله فى هذا البلد.. وأن المنظمات والأحزاب الإسلامية تسعى للوصول للحكم - وكأن هذه جريمة خارج إطار الدستور - ويتم الترويج لهذه الأقاويل من أناس عاجزين عن المنافسة السياسية والفكرية فلا يملكون إلا تشويه التيار الصاعد.

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو فريضة عامة على الجميع.. فى حدود العلم والطاقة.. وحدها الأدنى مساندة من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بدلاً من التقول

عليهم بغير حق. أما عدم القدرة على امتلاك الشجاعة.. فإن الحل هو الصمت .. طالما أن الإنسان لا يستطيع أن يقول خيرا.. وهنا يدخل فى دائرة تغيير المنكر بالقلب.

كذلك فإن الكذب من الصفات الأساسية للمنافق (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) البخارى ـ مسلم، وفى رواية أخرى تضاف سمة رابعة : (إذا خاصم فجر) والفجر هو نوع من الكذب القبيح.. وفجر بمعنى مال عن الحق وقال الباطل. وقد ينطوى الفجور على ما هو أكثر من ذلك، ولكن هذا هو حده الأدنى.

وفيما يتعلق بموضوعنا بصورة مباشرة عد الرسول عليه الصلاة والسلام قول الزور ضمن أكبر ثلاث كبائر (ألا أنبئكم بأكبرالكبائر ثلاثا، قالوا بلى يا رسول الله قال: الاشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس ـ وكان متكئا ـ فقال «ألا وقول الزور» ومازال يكررها حتى قلنا ليته سكت) البخارى ـ مسلم، وفى رواية أخرى (الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور) البخارى ـ مسلم.

وفى حديث لأبى هريرة تحدث رسول الله ﷺ عن ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم من بينهم (رجل بايع إمامه لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضى، وإن لم يعطه منها سخط) البخارى ـ مسلم.

والآن عليكم أن تسألوا كم واحدا منا فى مصر ينطبق عليه هذا الوصف؟!! ولا نقصد بالبيعة هذا الاستفتاء الذى يجرى. بل إعلانات التأييد والنفاق والبرقيات التى تعود بالخير العميم على صاحبها.. وهو لا يؤيد ولا يسخط إلا بمعيار المصلحة الشخصية. بينما الموقف من الإمام أو الرئيس مسألة عقائدية وتعبدية فى المحل الأول.. تنبنى فى المحل الأول على التزام الحاكم بضوابط شريعة الله.. ومدى عمله من أجل مصلحة الأمة. وهذا النوع من الكذب والنفاق من أسوأ الأنواع لأن ضرره عام على الأمة.

وقال رسول الله ﷺ : (شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) البخارى ـ مسلم.

ويقول القرطبي (إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس).

ويقول النبي ﷺ : (إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة.. وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا. وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) البخاري ـ مسلم.

وإن المرء ليقرأ هذا الحديث ويقشعر بدنه فى مجتمع أضحى الكذب فيه صناعة لها أجهزة ومعامل وشبكات إعلامية.. ونحن لا ننعى هنا على الحكام.. فالظلم والفساد والاستبداد لا يستقيم معه الصدق.. لأن الصدق يكشف الفشل فى كل المجالات.. ولا توجد أى ثقة فى المعلومات الرسمية التى تعلنها الدولة.. وعلى سبيل المثال يقول د.إسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط الأسبق (اطلع مثلا على تقارير وتصريحات وزارة الزراعة تتأكد أنها كاذبة، ذكرت هذا من قبل ولم يجرؤ أحد على الرد. قارن ما بين تقدير وزارة الزراعة للمساحة المزروعة وتقدير وزارة الرى تكتشف التفاوت) وفى عهد د.الجويلى لوزارة التموين كانت معلومات وزارة التموين تؤكد كذب أرقام وزارة الزراعة عن حجم الانتاج. وكذلك فى مجال البطالة يقول أحد أجهزة الدولة أنها أقل من ٣٪، وجهاز آخر يقول ٨٪، بينما البنك الدولى يقول ٢٢٪ ، ومنظمة العمل الدولية ١٩٪، وهذه أمثلة توضح أن الكذب فى المجال العام أكثر خطورة وترويعا لأنه يؤدى إلى حالة من الغموض وعدم تحديد مشكلات وأولويات المجتمع وهو الأمر الذى يزيد الأحوال العامة سوءا، ويقطع الطريق على الإصلاح بإدعاء أن كل الأمور على خير ما يرام.. وهذا يسرى على مختلف القطاعات.

مرة أخرى نحن لا ننعى على حكامنا ذلك وما كان لهم إلا أن يكونوا كذلك حتى لا يعترفوا بفشلهم ويقدموا استقالاتهم !! ولكننا ننعى على جيش من العاملين فى الدولة وغيرهم الذين يسايرون هذه الأكاذيب، ويشاركون فى وضعها، ونشرها.. على اعتبار أنهم

ينفذون تعليمات عليا.. كما هو حال جيش الموظفين الذى أعتاد على تزوير الانتخابات كما أسلفنا الإشارة.

أما إذا أدرك عـامة الناس هول أن يكتبـوا عند الله كاذبين ، إذا أدرك عـامة الناس كل في حدود عمله ووظيفته أن قـول الزور من الكبائر.. لعلموا أن الله أحق أن يخشوه .. إن اندفاع الأمة نحو لحظة الصدق هو طريق الإصلاح والخلاص والنجاة.

ويقول رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يَزِلُ بها فى النار» البخارى ـ مسلم.

ويقول شراح الأحاديث أن كلمة الشهادة من أبرز الأمثلة على ذلك (ما يتبين فيها) أى لا يتدبر ما فيها ولا يتفكر في قبحها وما يترتب عليها: (يزل بها) أى يسقط.

وهذا قريب من حـديث رواه الترمـذي: (كف عليك هذا (اللسان) فـقلت يا نبى الله وإنا لمؤاخـذون بما نتكلم به؟ فقـال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس فى النار على وجـوههم إلا حصائد ألسنتهم)..

ولاشك أن اللسـان أداة مشـاركـة فى ارتكاب مختلف الجـرائم والانحرافـات.. ويظل الكذب جريمة فى حـد ذاته، وقرينة لمختلف الجرائم والانحـرافات كما أشـرنا من قبل.. لأن المنحرف لابد أن يكذب لتغطية انحرافـاته.. والكذب أحد أبرز جرائم اللسـان.. لأنه ينشر الفساد فى الأرض.. بإضاعة الحق.. ومساندة الباطل.

* * * * *

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢].

الآية السابقـة كانت (واجتنبوا قـول الزور) أما هذه الآية فهى أكـثر تحديدا حول شـهادة الزور، والزور هو الكذب والبـاطل.. (والذين لا يـشهـدون الزور) جـاءت فى إطار تعـداد صفات المؤمنين (عباد الرحمن) ومن الصفـات التى امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور

ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ليحصلوا على ما ليس لهم أو يضيعوه على من يستحقه (التفسير الوسيط ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر).

* * * * *

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج:٣٣].

ومرة أخرى يذكر القرآن الكريم الأمانة في أداء الشهادة في إطار تعداد صفات ومناقب المؤمنين، التي من أجلها يستحقون الجنة ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥].

ويقول أحمد حسين في تفسير هذه الآية (ومما يتصل بالأمانة وتطبيقاتها التي وردت في الآية السابقة:

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ أداء الشهادة على الوجه الصحيح إذا دعي الإنسان لأدائها ، فيجب أن يؤديها بصدق وأمانة، واعتبر القرآن التخلف عن أداء الشهادة مبعثا للإثم فقال وقوله الحق: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. وقد تنبه واضعوا القوانين الوضعية في كافة أنحاء العالم لما دعا إليه القرآن منذ أربعة عشر قرنا فوضعوا عقوبة مغلظة على شهادة الزور، كما وضعوا العقوبة على من يكتم الشهادة). وبالفعل ففي القوانين المصرية يحق للقاضي أن يفرض غرامة على الشاهد الذي يتخلف عن شهادته. ولكن من المؤسف أن بالقوانين ما يقدم حصانة للفساد في هذا المجال، فالقانون يمنع الموظف بالحكومة والقطاع العام أن يشهد على الانحرافات في موقعه بدعوى ارتكاب جريمة إفشاء أسرار العمل وعقوبتها ٦ شهور حبس و٥٠٠ جنيها غرامة.. وقد صدر مؤخرا قانون خاص بوزارة الداخلية ـ عقب حملتنا على الفساد في الوزارة ـ بجرم تسريب مستندات من الوزارة. والواقع أن الحفاظ على أسرار العمل قاعدة عامة لا بأس بها شريطة ألا تصل هذه الأسرار إلى حد الفحش في الفساد.. ولابد أن تكون هذه الأسرار والمستندات خاضعة لتقييم قضائي فإذا انطوت على جرائم يعاقب عليها القانون، فيجب ألا يعد تسريبها للصحف أو غيرها مؤثما.

ونحن هنا لا نسوق حجة للمتخاذلين كي يبرهنوا على صحة موقفهم.. فالله أحق أن نخشاه.. وإذا صدر قانون وضعي يخالف شرع الله.. فلابد من الجهاد لإسقاطه.. سواء من خلال المحكمة الدستورية العليا، أو من خلال حملة سياسية شعبية لتعديله، أو من خلال عدم الاعتداد به. فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. وهذا ما يحدث بالفعل ـ على نطاق ضيق ـ فالشرفاء فى مختلف المواقع ما يزالون يمدون صحف المعارضة بالوقائع والمستندات الدالة والناطقة على الفساد. ويتحمل الصحفيون الأحرار المسئولية وحدهم.. وهكذا نجد أنفسنا أمام عمل جهادى.. وليس مجرد عمل مهنى روتينى.. عمل ملؤه المخاطر.. ولكن هذه كما ذكرنا فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. ولن تكون فى مصر عدالة حتى تعود الهيبة للادلاء بالشهادة.. الهيبة والحماية والضمانات. وعدم وجود ذلك هو ما يشير إلى ما تقوم به الحكومة من فتنة الناس عن دينها. وهكذا ترون أننا لسنا مجتمعا يدار على أساس العدل من أصله، وهناك حماية واسعة لكبار المفسدين، وجهاز الكسب غير المشروع لا يقترب إلا من درجة وكيل وزارة كحد أقصى، وكثير من الأجهزة المماثلة لديها خطوط حمر بحيث لا تقترب من كبار المفسدين.. حتى تكاد أن تتحول هذه الأجهزة إلى صرح كبير لكتمان الشهادة.

والصحف تنشر أمورا لا تصدق.. ومع ذلك لا نجد أى تحقيقات فيها.. أو اتخاذ قرارات.. منها مثلا أن وزيرا قرر استخدام ثلث استثمارات وزارته فى مشروع واحد لخدمة أحد قيادات الحزب الحاكم ولرفع مستوى شعبيته فى الدائرة.. وأن وزيرا سابقا حصل على عمولات من شركات عالمية على مدار ٢٠ سنة من وجوده فى الوزارة قيمتها ١٦ مليار دولار، وهذه المعلومة الخطيرة على لسان د. إسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط السابق.. فإذا كانت هذه قيمة العمولة فكم كسبت إذن الشركات العالمية من دم هذا الشعب؟!

خلاصة القول إن الفساد صار مؤسسة حاكمة تدير البلاد.. وبالتالى فعندما نحث الناس على الالتزام بأوامر الله وعدم الادلاء بشهادة الزور.. وضرورة الادلاء بالشهادة بمنتهى

الأمانة.. فإننا نعرف مخاطر ذلك تماما.. وهذا معنى أننا ندعوهم إلى الجهاد.. حتى تستقيم الأمور.. ويعود من حق المواطن أن يشهد ضد الحاكم دون خوف أو تثريب، وهذا ما حدث خلال عصورنا الإسلامية وليس فى صدر الإسلام فحسب كما يردد البعض.. وبغض النظر عن التاريخ فإن الله عز وجل يأمرنا ونحن لا نملك إلا الطاعة .. ولو كان ما يأمرنا به فوق استطاعتنا ما أمرنا سبحانه وتعالى ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

*****

التعاون على البر والتقوى وعدم الخوف من لومة لائم:

وهنا تتداعى إلى الذهن مجموعة من الآيات عن أهمية صدق المؤمن وشجاعته فى الحق - استنادا لقوة الله عز وجل - ليس فى مجال الادلاء بالشهادة فحسب بل فى كل أشكال مقاومة الظلم والاستكبار والفساد.. وفى التعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان.

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة : ٢].

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم (ابن كثير).

وفى تفسير الطبرى: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان: مجاوزة ما حد الله فى دينكم ، ومجاوزة ما فرض عليكم فى أنفسكم وفى غيركم.

وفى الحديث (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما. قيل يا رسول الله . هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: تحجزه تمنعه فإن ذلك نصره) مسند أحمد - البخارى.

ويروى أبو القاسم الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام».

ويقول الشيخ محمد عبده:

(البر: التوسع فى فعل الخير . والتقوى: إتقاء كل ما يضر صاحبه فى دينه أو دنياه فعلا أو تركا .

والإثم : كل ذنب أو معصية.

والعدوان: تجاوز حدود الشرع والفرق فى المعاملة والخروج عن العدل فيها. وفى الحديث: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» [رواه مسلم].

وقد سبق وتناولنا معنى البر.. وأنه يتضمن فيما يتضمن (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) ويضيف:

(أما الأمر بالتعاون على البر والتقوى فهو من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن، لأنه يوجب على الناس إيجابا دينيا أن يعين بعضهم بعضا على كل عمل من أعمال البر التى تنفع الناس أفرادا وأقواما فى دينهم ودنياهم ، وكل عمل من أعمال التقوى التى يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم. كان المسلمون فى الصدر الأول جماعة واحدة يتعاونون على البر والتقوى عن غير ارتباط بعهد ونظام بشرى كما هو شأن الجمعيات اليوم، فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

ولما انتشر بأيدى الخلف ذلك العقد، ونكث ذلك العهد، صرنا محتاجين إلى تأليف جمعيات خاصة بنظام خاص لأجل جمع طوائف من المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب ـ التعاون على البر والتقوى ـ فى أى ركن من أركانه، أو عمل من أعماله، فالذى يظهر أن تأليف الجمعيات فى هذا العصر، مما يتوقف عليه امتثال هذا الأمر واقامة هذا الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فلابد لنا من تأليف الجمعيات الدينية

والخيرية والعلمية، إذا كنا نريد أن نحيا حياة عزيزة، فعلى أهل الغيرة والنجدة من المسلمين أن يعنوا بهذا كل العناية، وإن رأوا كتب التفسير لم تعن بتفسير هذه الآية، ولم تبين لهم أنها داعية لهم إلى أقوم الطرق وأقصدها لإصلاح شأنهم فى أمر دينهم ودنياهم).

وبطبيعة الحال لا يجب قصر مفهوم الجمعيات بناء على ما سبق فيما يسمى الجمعيات الخيرية، فالأحزاب والجماعات الإسلامية كانت تسمى جمعيات أيضا فى ذلك الوقت.. خاصة وأن الحديث السابق يشير إلى الآية ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والحقيقة فإن هذه الآية نجدها كخط من الخطوط المحورية فى تفسير المنار للشيخ محمد عبده، وهو تفاعل واعى مع روح القرآن.. حيث اعتبر هذه أبرز صفات أمة الإسلام.. وهو نبت صحوة إسلامية أعادت ربط الدين بالسياسة.. نبت العلاقة الجهادية الفكرية السياسية بين الأفغانى ومحمد عبده وتلميذهما محمد رشيد رضا الذى سعى إليهما بعد إطلاعه على أعداد مجلة «العروة الوثقى» التى كانا يحررانها والتى تميزت بـ:

(١) بيان سنن الله تعالى فى الخلق ونظام الاجتماع البشرى وأسباب ترقى الأمم وتوليها وقوتها وضعفها.

(٢) بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان وجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ومقتضى ذلك أنه دين روحانى اجتماعى، ومدنى وعسكرى، وأن القوة الحربية فيه لأجل المحافظة على الشريعة العادلة، والهداية العامة وعزة الملة لا لأجل الإكراه على الدين بالقوة.

وبالفعل نجد المنار متشربا بهذا المنهج الذى اختطه السيد جمال الدين الأفغانى، وصاحبا المنار لم يتشربا المنهج نظريا وإنما كانت لهما ممارسة سياسية عملية.. وهو ما جعلهما يتفاعلان مع الآيات القرآنية التى أصبحت مهجورة بفصل السياسة عن الدين. وكان لابد من هذا الاستطراد لتوضيح لماذا نقتبس من «المنار» أكثر من غيره، لأننا نراه هو الخط الصاعد للصحوة الإسلامية الذى يرفض الإسلام المُعلب.. إسلام السلطة.. الذى ينزع الجهاد وكثير من الفروض والأوامر الإلهية التى تربط بين الإسلام ومختلف مجالات الحياة السياسية

والاجتماعية والاقتصادية، ينزعها من التصور «الإسلامى» الذى يعرضونه للعامة بناء على أوامر سيادية!!.

وهذه الآية التى نحن بصددها من ذلك .. فأنت إذا وجدت واعظا من وعاظ السلاطين يتحدث عن هذه الآية.. فهو غالبا سيجعل كلامه منصبا على التعاون مع الجيران أو التعاون لتجهيز العروس.. ولن يتحدث عن التعاون لتحرير فلسطين أو فك الحصار عن العراق، أو فك أسر المعتقلين بلا ذنب أو جريرة، ومن باب أولى لن يتحدث عن إنشاء وتأسيس الجمعيات.

إن اتساع نطاق الأمة الإسلامية جعل من غير الممكن التعامل معها كأمة واحدة هلامية تجاوزت المليار نسمة، وهى مجرد أفراد متناثرة، وبالتالى فإن هذه الأمة الواحدة لن تتلاحم إلا عبر تلاحم الجماعات والجمعيات ثم الحكومات المتناثرة حتى تصل إلى صيغة ملائمة.. كما توحد الغرب الآن رغم تعدد الدول والجماعات والجيوش والمذاهب. أما ما يعنينا الآن فهو توحد الأمة على مستوى كل قطر.. من خلال أداء مهمتها وهى البر والتقوى لا الإثم والعدوان.. وأداء هذه المهمة غير ممكن بدون عمل جماعى (تعاون) وهذا ما كنا قد أشرنا إليه من قبل من ضرورة التحاق كل مسلم بجماعة أو جمعية أو تأييدها ودعمها على أقل تقدير.. ولابد من تأييد الأحزاب الإسلامية.. فإن الإنتماء لجمعية خيرية لا يغنى عن تأييد الأحزاب العاملة على الإصلاح الشامل وحيث لن تقوم للإسلام قائمة صحيحة بدون التمكين.. أى بدون السلطة. ولن يحدث إصلاح جوهرى إلا عبر العمل السياسى. الجمعيات الخيرية الاجتماعية والتربوية والتعليمية ضرورية للحفاظ على أساسيات العقيدة (بعد التراجع المستمر للتعليم الرسمى فى هذا المجال) والحفاظ على الثقافة الإسلامية والأخلاقيات بين الناس جميعا وبين النشء خاصة، كما أن هذه الجمعيات ضرورية لتحقيق عدد من الفروض والعبادات (التفقه فى الدين - الزكاة - إدارة المساجد وأداء الشعائر - إلخ..) وهذه جميعا دورها مكمل للأحزاب الإسلامية العاملة فى حقل الإصلاح السياسى الشامل.. وتسعى لتشكيل الحكومة يوما ما فى المستقبل فى إطار العمل السياسى السلمى الديمقراطى.

وهنا يقع المؤمنون فى خلط شديد.. فهم يرون أن الانخراط فى الجمعيات الأهلية غير السياسية يجعلهم أقرب إلى الله. وأن الاختلاف إلى المسجد والجمعية الملحقة به .. أفضل عند الله من الاختلاف إلى مقرات الحزب الإسلامى. فى حين أن دعم الحزب المجاهد لا يقل عن أداء الصلاة فى المسجد ودعم العمل الخيرى.. بل إن هدف الصلاة أن نصلح فى الأرض، وهذا لن يتأتى ـ جذريا وحقيقة ـ إلا عبر العمل السياسى.. كما أفتى العلماء بأن الزكاة يمكن أن توجه لتحرير فلسطين أو لدعم حزب إسلامى مجاهد وصحيفته المجاهدة.. تحت بند (فى سبيل الله) وهو أحد مصارف الزكاة .. ولا يوجد مصرف أهم من تجهيز المجاهد فى السلم والحرب فى مجال الانفاق فى سبيل الله. وعدم القيام بذلك هو الإلقاء بالنفس فى التهلكة ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

لقد خطا المؤمنون فى مصر شوطا كبيرا فى مجال ادراك التعاون على البر والتقوى فى مجال الجمعيات الخيرية.. ولكنهم لم يدركوا بعد أن دعم الجهاد السياسى من أجل الإصلاح لا يقل أهمية وخطورة من الناحية العقائدية، ومن منظور التقرب إلى الله الذى يسعون إليه.

وأخيرا نعود ونذكر أن الآية الكريمة انتهت بتهديد من الله ووعيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والعقاب فى الدنيا والآخرة.. فليس لدى المؤمن خيار بين[التعاون على البر والتقوى] و[التعاون على الإثم والعدوان] ولا أن يكون محايدا فى هذا الصراع الأبدى الذى يجرى بين الحق والباطل.

*****

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة:٥٤].

ومرة أخرى يعدد القرآن صفات المؤمنين الذين يتمسكون بدين الله ولا يرتدون عنه ومن بينها الجهاد ﴿ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾.

يقول ابن كثير حول هذا الجزء من الآية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، ثم يورد الأحاديث التالية:

عن أبى ذر «أمرنى خليلى ﷺ بسبع.. من بينها «أمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم، وأمرنى أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش» مسند أحمد ورواه الإمام أحمد من وجه آخر غير أبى ذر.

قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق» مسند أحمد.

قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرا لله فيه مقال فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس. فيقول: إياى أحق أن تخاف». مسند أحمد وابن ماجه.

ويقول محمد عبده: (لا يخافون فى الله لومة لائم، معطوفة على التى قبلها أو مبينة لحال المجاهدين، أى أنهم بتمكنهم فى الدين ورسوخهم فى الإيمان، لا يخافون لومة ما من أفراد اللوم أو أنواعه، من لائم ما كائنا من كان ، لأنهم لا يعملون العمل رغبة فى جزاء أو ثناء من الناس، ولا خوفا من مكروه يصيبهم منهم فيخافون لوم هذا أو ذاك، وإنما يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وتقرير المعروف وإزالة المنكر، إبتغاء مرضاة الله تعالى بتزكية أنفسهم وترقيتها).

ولا نحتاج أن نضيف لهذا الشرح الواضح للآية الواضحة.. إلا أن نقول أن الحكام المستبدين الذين تأخذهم العزة بالإثم.. ولا يحبون أن يسمعوا من يوجه لهم النصيحة أو النقد أو يكشف كوارث حكمهم .. فإن لومهم يكون شديدا.. وهو غالبا ما يمتد من الأقوال إلى الأفعال الباطشة. وهذه المخاطر لا تجعل المؤمن المجاهد يرتد له طرف.. فهؤلاء المؤمنون

المجاهدون الذين لا يخافون فى الحق لومة لائم .. يحبون الله ويحبهم الله.. فهؤلاء الذين ارتقت طاعتهم لله إلى درجة المحبة لا يكادون يرون أمامهم إلا وجه الله.. وهم يحبون فى الله ويكرهون فى الله.. ليس فى قلوبهم مرض ولا أغراض شخصية دنيوية.. يخاصمون أقرب الناس إليهم فى الله.. ويحبون أبعد الناس عنهم فى الله.. والذين يؤمنون بقضاء الله وقدره إيمان اليقين.. والذين هم بالآخرة يوقنون.. ليس ـ عندهم ـ الملك أو رئيس الجمهورية أو الوزير أو الرئيس المباشر فى العمل.. إلا فرد من الأفراد.. بل هو عرضة أكثر من المواطن العادى لتمحيص أعماله وتوجيهه ونقده وتبصيره.. لمصلحة الأمة.

فى المجتمع المسلم الحق لا يكون هؤلاء الأفراد قلة شاذة كما هو الحال الآن.. بل يكون ذلك هو الممارسة العادية التى يمارسها الجمهور العام.. ولنا فى تاريخ صدر الإسلام وما بعده كثير من الأمثلة على واقعية هذا المثل الأعلى.. والآية الكريمة أمامنا تتحدث عن جموع المؤمنين ، وليس عن قلة أو نخبة أو مجموعة من القادة المعزولين عن جمهور المؤمنين.

*****

خشية الله دون الناس:

وإذا كان من الصفات الأساسية للمؤمنين ألا يخافوا فى الله وفى الحق لومة لائم.. فإن ذلك ينقلنا مباشرة لعدد من الآيات.. التى أمرت المؤمنين بخشية الله دون الناس.. وألا يخشوا أحدا إلا الله:

﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء :٧٧].

﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣].

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وليست كل هذه الآيات متعلقة بمواقف القتال، بل تشمل مواقف متعددة عن ضرورة الصدع بالحق والجهر به بلا خوف.. وبعضها موجه للرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة مثل ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾..

وكما يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى فإن مثل هذه المخاطبات للرسول عليه الصلاة والسلام.. هى مخاطبة للأمة بأسرها من خلال رسولها.

والقرآن الكريم فى هذه الآيات يمس وترا حساسا بالغ الأهمية فى التكوين النفسى للبشر، فالإنسان عادة ما يتأثر بالمحيطين به.. أو بالرأى السائد.. وأحيانا بأقرب الناس إليه.. أو بآخر شخص ألتقى به.. وهذا ما يسميه علم النفس الاجتماعى الحديث (تأثر الإنسان فى مواقفه بالجماعة المرجعية) فالإنسان يتأثر بالناس المحيطة به سواء على حق أو باطل، وإن انسجامه مع هذه الجماعة المحيطة به، يكون دافعا له لمسايرتها.. فاختلاف المرء مع المحيطين به سواء فى العمل أو الأسرة أو الجمعية أو أى تجمع ، يشق على النفس.. وأن المرء كثيرا ما يعرض عن الحق ممالأة لهذا المناخ المحيط وإيثارا للسلامة، وكسبا لهدوء البال. وهناك تعبير شعبى شائع فى مصر له مغزى عميق يردده الناس عندما يرون أحد الأشخاص يتصرف بخشية شديدة لإرضاء هذا الشخص أو ذاك (صحيح الإنسان لا يخاف إلا من بنى آدم) هذا على المستوى الاجتماعى العام فى حياتنا اليومية.. أما على مستوى العقيدة بشكل مباشر عندما يكون الخيار قاطعا بين الالتزام بأوامر الله.. والخضوع لرأى أى جماعة أو هيئة من

الناس وعلى رأس ذلك الحكومة والهيئات الحاكمة.. وفى هذه المواجهة مع النفس يضاف إلى كل الاعتبارات الأدبية السابقة.. اعتبار المخاطر والتكاليف المادية التى من المحتمل أن يدفعها إذا اتخذ الموقف المعارض لها احقاقا للحق وامتثالا لأوامر الله.

القرآن الكريم يخاطب ضعفنا النفسى فى هذه اللحظة.. ويذكرنا.. يذكر صاحب الحق بأنه هو الذى يُخشى جانبه، وأن المبطل لا ينبغى أن يخشى منه، فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وما آفة الحق إلا ترك أهله لـه وخوفهم من أهل الباطل فيه. وقديما قال أحد أئمة الأمة (عجبت للشر فى إقباله وللخير فى إدباره) مشيرا للحالة التى تصيب أحيانا صاحب الحق فيبدو خجولا مترددا، بينما صاحب الباطل مقتحما جريئا متبجحا، وأهل الخير عادة ما يتصفون بالحياء، والحياء شعبة من شعب الإيمان، ولكن يجب عدم الخلط بين الحياء وبين كتمان الحق.. فبالإمكان قول الحق صريحا مستقيما دون الخروج عن الآداب. وكشف المجرم والمجرمين والمفسد والمفسدين ليس بالأمر الذى يتعارض مع الحياء.. وإلا تحول الحياء إلى نفاق أو جبن.

ومن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم إنى أعوذ بك من الجبن» البخارى.

وقد تعوذ من الجبن ﷺ لأنه يؤدى إلى عدم القيام بفريضة الجهاد والصدع (أى الجهر) بالحق وإنكار المنكرات (تحفة الذاكرين ـ الشوكانى).

ومن دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام إذا قام للتهجد (صلاة الليل): «اللهم عليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت» البخارى ـ مسلم.

ومن دعائه ﷺ فى القنوت: «إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت» .

فالجبن لا يمكن أن يكون من صفات المؤمنين.. وادراك صاحب الحق ـ وبيقين ـ أن الله معه يجعله يمتلك معينا لا ينضب من الشجاعة والإقدام والثبات.

ولكن كما ذكرنا فإن القرآن الكريم يشير إلى الحالة النفسية ، وما توسوس به النفس فى لحظة فارقة بين خشية الله وخشية الناس وعلى رأسهم أصحاب السلطان الذين يملكون المنح

والمنع، الإنعام والإيذاء أو هذا ما يبدو ظاهريا. والإنسان يتأثر بالمحسوسات وبما يراه مباشرة، فقد رأى أو سمع ـ مثلا ـ من ألقى كلمة حق فى مسجد فتم إلقاء القبض عليه .. وإنه يرى مباشرة ويلمس السجون والمعتقلات ومختلف أشكال الإيذاء التى يتعرض لها أصحاب الحق.. ولكنه لا يرى الله.. ولم ير رؤية العين الجنة والنار.. كما أن موعد القيامة بعيد.. وهى ليست حاضرة فى ذهنه صباح مساء.. وربما ركن إلى الفكرة الشائعة.. إن أداءه للصلاة فيه ما يكفى من طوق النجاة ـ فلا داعى لإقحام نفسه فى المشكلات !! أو أنه تأثر بالمفاهيم الدينية التى تروج رسميا وقد نزعت منها مفاهيم الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. ولكن هذه حجة عليه لا له. فلا يخلو بيت من مصحف أو عدة مصاحف. وهو يجيد القراءة.. أو بإمكانه أن يستمع للقرآن إن لم يكن يجيد القراءة وأن يسأل.. ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] .

وقد أشار القرآن إلى هذه النقطة الدقيقة عندما استعمل تعبيرا دقيقا فى مسألة الخشية من الله.. والتى اعتبرها من أهم صفات المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١].

وهذه من صفات الداخلين الجنة :

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣].

ومن صفات المتقين:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩].

وأيضا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

فما معنى خشية الرحمن بالغيب.. أقوال المفسرين لم تخرج غالبا عن معنيين متكاملين.. أى الذى يخاف الله وإن يكن لا يراه.. ويعمل حساب الآخرة التى يؤمن ويوقن بها رغم أنه

لم يرها ـ وهذه هي فضيلة المؤمن ـ التي يسخر منها الكافرون والمنافقون ـ إذ لو كان المرء قد آمن بعد معاينة النار وأهوالها لكان الخوف منها أمرا محتوما.

أما المعنى الآخر الذي لا يتعارض مع الأول.. بل هو أحد صوره.. وهو أن يخاف المؤمن من الله في سره وحيث لا يراه أحد إلا الله.. (ورجل ذكر الله خاليا ـ أي وحيدا ـ ففاضت عيناه).. أو ذلك الذي يخشى الله فلا يرتكب إثما رغم أن أحدا لا يراه سوى الله.. كمن يختلس من أموال، أو يسرق أو يقتل.. ويمكن أن يتم جريمته بحيث تكون محكمة ولا يكتشفها أحد.. ومن يخشى الله في السر فمن المؤكد أنه يخشاه في العلن.

إذن القرآن الكريم يقدر معضلة الإيمان بالغيب.. وان محسوسات وماديات الحياة الدنيا تجذب الإنسان إلى أصله الطيني.. وإن نجاته هي في إحياء وتجديد إيمانه بالغيب، فيخشى الله بالغيب.. ويرجع إلى أصله العلوي (إنه من روح الله). هذا الصراع داخل الإنسان المؤمن.. صراع يومي.. وفي كل لحظة ودقيقة.. ويجب أن يكون المؤمن في يقظة من نفسه حتى اللحظة الأخيرة من حياته (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) البخاري ـ مسلم.

إن المؤمن لا يحل مشكلته مع قضية الإيمان واتباع سبيل الله .. مرة واحدة وإلى الأبد.. عندما يقرر ذلك مخلصا في وقت ما من حياته .. إن الصراع كما ذكرنا من قبل بين الخير والشر في داخله وحوله مما يوسوس به الجنة والناس يلاحقه في كل لحظة حتى ساعة الموت.. ولو غفل لحظة لاقتحم الشيطان عليه حياته.. إنه كر وفر.. معركة حامية الوطيس.. لا تهدأ لها قذائف ولا نبل ولا سهام.. ولا ينقشع غبارها أبدا.. واقتحام الشيطان ـ لدى غفلة المؤمن ـ لا يعني بالضرورة أنه اقتحام كامل أو احتلال لكل «أراضي» النفس، فقد يحتل جزءا ويهدد باحتلال جزء آخر.. وقد يتمركز الاحتلال في منطقة.. وقد يتوسع الاحتلال.. وقد يجلو تماما.. ولكنه يظل على الأبواب مستعدا للاقتحام في أي لحظة غفلة.

الخناس.. من خنس أى رجع.. فالوسواس الخناس ليس مقداما وجسورا بل هو جبان وضعيف ولديه استعداد دائم للتراجع .. فإذا تمسك المرء بإيمانه صدقا وعملا سد عليه المنافذ ورده على أعقابه .. إنما هو ينفذ فى لحظات الغفلة والضعف والاستهانة وعدم الحرص.

ومن ذلك نعرف المغزى العميق للعبادة .. فالعبادة هى سلاح المؤمن للمقاومة، وللتصدى لهذا العدوان الدائم للوسواس الخناس من الجنة والناس، وهذه هى أهمية الصلاة بشكل خاص لأنها عبادة يومية.. وخمس مرات يوميا.. وبين كل صلاة وأخرى ساعات قليلة ولكنها لا تمر بدون أحداث.. أو على الأقل حديث بين المرء ونفسه.. وخلال هذه الساعات القليلة فالمؤمن بين الخير والشر.. والصلاة وسيلته للمقاومة.. وتجديد إيمانه.. وإرهاف حسه وترقيق جلده وقلبه.. مما يساعده على مواجهة الحياة الدنيا وفقا لما أراده الله أن يعمل وأن يكون.. فالمسلم لا يتخذ قرارا واحدا فى العمر بنطق الشهادتين.. بل هو يتخذ فى اليوم عشرات القرارات التى تسجل عليه وتحفظ فى كتاب، والعبادة تساعد فى هذا المعترك ، وتقوى إحساسه بالاتصال بالله .. وأن يكون الله حاضرا أمامه. وفى عقله وفى وجدانه.. فيخشى الله بالغيب، ومن لم تساعده صلاته على ذلك فعليه أن يراجع نفسه، أو لعله لا يعرف ما هى واجباته.. وما هى الفروض التى فرضها الله عليه.. وعليه أن يعلمها ويسأل من هو أعرف منه.. ولا شك أن الحكومة مسئولة إلى حد كبير عن هذا التجهيل بتأميم المساجد، وتوزيع تعليمات وأحيانا نصوص خطبة الجمعة، وعزل كثير من الدعاة الذين لا يخشون فى الله لومة لائم، وليست هذه الدراسة إلا إسهاما متواضعا فى توضيح هذه المناطق التى تتعمد الحكومة التعتيم عليها من أساسيات الدين سواء فى الإعلام المقروء والمسموع والمكتوب أو فى مناهج التعليم أو فى خطب الجمعة الرسمية.

ولكن لا شك أن كثيرا من الناس يعلمون كثيرا من أوامر ونواهى الله والمتصلة بالأمور العامة للمسلمين.. ولكنه قعود الهمة والركون إلى الدنيا.. وهذا مما يجب أن نقاومه فى أنفسنا لصلاح أحوالنا فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وعندما يسود الظلم.. ويتحول الفساد إلى نظام لا إلى مجرد ظاهرة ، فإن أصحاب الحق وأنصاره سيتعرضون لا محالة إلى الأذى.. وليس لهم أن ينكصوا على أعقابهم بسبب تلك المضار المحتملة أو المؤكدة ، بل ليس لهم إلا أن يقولوا مقالة الرسل هذه.. الصبر الجميل والتوكل على الله بعد أن يؤدوا ما عليهم من الواجبات ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

هذه الآية من سورة إبراهيم ليست متعلقة برسول محدد من الرسل، بل جاءت على لسان الرسل جميعا.. ومرة أخرى فإن المصلحين والدعاة وأنصار الحق والعلماء الأتقياء هم ورثة الأنبياء، وهذا هو خطاب المؤمنين جميعا فى كل زمان ومكان:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وتكون اجابة الله عليهم هى اجابته تعالى لكل المؤمنين من بعد الرسل وبعد انقطاع النبوة:

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم: ١٣ ـ ١٤].

وكذلك ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وهكذا أخى القارىء نكتشف سويا الكم الهائل من الآيات المتصل بهذا الصراع الممتد بين الحق والباطل، كل هذه الآيات التى تتحدث فى السياسة، أى الصراع بين المعسكرين حول الغلبة فى الدنيا، وأن انتماء المؤمن لرسالة الأنبياء مرتبط ارتباطا لا يتجزأ بهذا الصراع وأنه جندى من جنود الله فيه، وعليه أن يقاوم الباطل، وأن يدرك أن هذا الأمر ليس معقودا على فئة مخصوصة من المؤمنين بل بكل معسكر المؤمنين.

*****

والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون:

إلى هنا نكتفى بهذه المجموعة من الآيات المختارة حول ضريبة الإيمان: والابتلاءات والأذى. وضريبة دخول الجنة: الجهاد.. ويبقى أمامنا مجموعة أخيرة متفرقة.. يجمعها أيضا ما تتضمنه من حث المؤمن على العمل الإيجابى والانتصار لدينه ومقاومة الظلم والفساد ونبدأ بهذه الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

والحقيقة أن هذه الآية تأتى فى صلب موضوعنا وبصورة مباشرة للغاية.. فسورة «الشورى» مكية، ولا يوجد بها بطبيعة الحال أى دعوة للقتال، ومن هنا فإن الانتصار للنفس ورد الظلم يتم بأشكال مدنية سلمية أى سياسية ، وكذلك فإن الآيات لم تستخدم تعبير (الكفر) حتى لا يركن المسلمون للظلم بدعوى أن الحاكم مسلم ! فالبغى وهو الظلم والعدوان، أوسع من الكفر، وليس معنى أن الحاكم يعلن التزامه بالإسلام أن أسلم له رقبتى وأقبل بظلمه ، نحن هنا أمام نصوص دستورية بالغة الأهمية.. لأنها تغطى احتمالات مفتوحة لأشكال الظلم والعدوان.. وبالتالى فهى صالحة وممتدة للاحتكام لها وضرورة الالتزام بها فى كل زمان ومكان، فالمؤمنون ليسوا أناسا منكسرى النفوس ، منكسى الرؤوس، أذلة مهانين.. هذا والله ما يأباه الله ورسوله.. ولأهمية هذا الآية ومحوريتها فى موضوع دراستنا فإننا نستعرض الآيات التى جاءت فى سياقها لنكتشف أهميتها.. وما تضمنته من مبادىء وقواعد:

الآية ـ كآيات سابقة ـ جاءت فى إطار تعداد صفات المؤمنين وليس من قبيل الصدفة أن من صفات المؤمنين فى هذه السورة الكريمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ

لا يُحبُّ الظَّالمينَ (٤٠) ولَمَنِ انتصرَ بَعْدَ ظُلْمه فأُولَئكَ ما عَلَيْهِم مِّن سَبيلٍ (٤١) إِنَّما السَّبيلُ عَلَى الَّذينَ يَظْلمُونَ النَّاسَ ويَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إِنَّ ذَلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٧ ـ ٤٣].

نحن هنا أمام آية مركبة تشرع لكيفية مواجهة الظلم فى حالات فردية أو جماعية، ولنبدأ مع الآيات بالتركيز على الصفة التى تشغلنا فى هذا الجزء وهذه الدراسة.. التى كادت أن تنمحى من أفئدتنا (مقاومة الظلم).

من صفات المؤمنين أن يكون أمرهم شورى بينهم.. أى التشاور فى أمورهم لإقامة العدل فى مجتمعهم.. أى أن احتكار الحاكم ومجموعة ضئيلة من حوله لصناعة القرار هو اعتداء على سمة أساسية من مجتمع المؤمنين.. البرلمان بالتزوير.. ومع ذلك فلا رأى له ولا سلطة.. وإنما مجرد ديكور.. مجلس الوزراء مجموعة من الموظفين لا يؤخذ رأيهم فى الأمور الاستراتيجية.. كل وزير حول وزارته إلى عزبة خاصة.. الأحزاب محتقرة إلى حد أن رئيس الحزب الحاكم لا يلتقى بهم مجرد لقاء منذ ٧ سنوات ، مؤتمرات الحوار لم تعقد إلا مرتين على مدار ٢٠ سنة ، ومؤتمرات للتعليم والمرأة تعقد كديكور والقرارات معدة سلفا، فإذا كنا ندعى إننا مؤمنون فنحن مأمورون من الله عز وجل أن نكافح من أجل فرض الشورى على حكامنا.. الذى وصل بهم الأمر إلى استبعاد المتخصصين فى كل الأمور الفنية. فمشروع حديد أسوان الذى حولوه إلى فضيحة فى المحاكم، عقدت جريدة «الشعب» منذ أكثر من عام مؤتمرا لكبار المتخصصين فى مجال الحديد والصلب وقالوا بالإجماع إنه مشروع فاشل .. ولكن أحدا لم يستمع لنا ولا للمتخصصين.. نفس الشيء عن باقى المشروعات المسماة «كبرى» و«قومية».. نحن نعيش فى واحدة من أسوأ لحظات الاستبداد بالقرار «والشورى ليست من الكماليات، بل من الصفات الأساسية للمجتمع المؤمن».. ونحن أمام توجيه إلهى بأن نلتزم بها ونلزم الحكام بها. ولا نملك الصمت فى هذا المجال. ولا شك أن غياب الشورى أدى إلى هذا الكم الهائل من المظالم والمفاسد التى غرقت فيها البلاد. حكم يضرب عرض الحائط بالرأى العام.. ويفرض علينا وزراء فاشلين ومشبوهين لسنوات وعقود

ونقول ليس لنا من الأمر شئ .. فمن له إذن؟! إن هذه الأمة يجب أن تخرج عن بكرة أبيها لتقول لأهل الحكم.. «لسنا عبيد إحساناتكم.. لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا.. فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث، ولا نستعبد بعد اليوم».. كما قال المجاهد أحمد عرابى منذ ١١٩ عاما.

وكان من الطبيعى أن يلحق بمبدأ الشورى، هذا المبدأ أو الصفة التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[الشورى: ٣٩].

أى: والذين أعتدى عليهم ظالم هم ينتصرون لأنفسهم بمقاومة عدوانه، وفى تفسير ابن كثير (فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا).

والآيات تضع الأساس للقصاص الذى يفصله القرآن فى موضع آخر، وتحث على العفو دون تبرئة الظالمين عند الله.. لأن العفو من شيمة المؤمنين وهو مدعاة لتوطيد الاستقرار الاجتماعى.. والعفو هنا صنفان: عفو فى النزاعات الفردية وهذا يخرج عن نطاق بحثنا.. والعفو السياسى عند المقدرة .. وهو أمر لا يملكه المعارضون الآن لأنهم ليست لهم القدرة.. ويؤكد المفسرون أن العفو هنا لا يكون تمكينا للفساد فى الأرض. وقد ثبت فى الصحيح: «أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله» البخارى.

وقال ابن أبى حاتم: «كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا» (ابن كثير).

لذلك تعود الآيات لتقول ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أى لا مؤاخذة عليهم ولا لوم. ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى إنما اللوم والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس ويتكبرون فى الأرض ويفسدون فيها بغير الحق، وقد تحدثنا من قبل عن أن البغى والفساد فى الأرض يشير إلى ظلم واسع النطاق، لا يقوم به عادة إلا أصحاب السلطة من المستبدين

والمفسـدين.. ولا شك أن عصابة من قطاع الطـرق تثير الفـزع والرعـب فى إحدى المناطق.. وتقتل وتسلب وتنهب وتغـتصب، ينطبق عليها حكم الآية، ولكن يبـقى أن السلطة الفاسدة أكثر ترويعا وخطورة وفتنة للمؤمنين من أعتى العـصابات، لأنها تستخدم امكانيات الدولة، وتضفى أو تحاول أن تضفى على جـرائمها صفة شرعية وقـانونية، وهى تقنن المنكر، وأحيانا تصدر تشريعات ـ بطريقة التفصيل ـ لتـخدم فئة معينة، وتصدر القرارات الوزارية كى تحقق هذه الفئة أو تلك كسبا ماليا مضاعفا إلى آخره من الأمثلة.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

أخى المؤمن هل قرأت هذه الآية من قبل؟ ماذا فهمت منها؟ وهل عملت بها؟!

لا شك أن هناك أشكالا من المقـاومة.. ولـكنها تأخـذ شكل الفـورات العفـوية الفئـوية المعزولة فكل فئـة تثور بين حين وآخر بسبب ظلم إضافى فرض عليـها.. ولكن عندما يكون الظلم عاما، والشورى مجهضة، فإن الانتـصار هنا يجب أن يكون عاما لا فئويا، ومتزامنا لا مبعثرا من الناحية الزمنية، ولا مبعثرا من الناحية المكانية، ويجب إدراك البعد العقائدى، وأنه غضبة فى الله، وانتصارا لدعـوته.. وإن اقامة العدل هى رسالة المؤمنين على الأرض وهذا هو المعنى الأعمق للاستـخلاف .. والمؤمنون بنيان مرصوص.. موحـدوا الصفوف .. وليس من شيمة المؤمن ألا يثور إلا إذا وقع عليه ضرر شخصى مـباشر.. والمسألة ليست تضحية مجردة من أجل الغير وإن كان ذلك ليس عيبا، ولكن من حسن الفطن أن يدرك المؤمن أن الإصلاح الشامل سيعـود عليه شـخصيـا.. كما أن الـفساد الشـامل ينال من حيـاته واستـقراره وأمنه وكرامته.. إن هذه الآيات تدعونا إلى عمل سياسى سلمى منظم لمواجهة الظلم وفرض إرادة الأمـة فى الشورى، لأن مـشكلات البـلاد تعقـدت إلى حد لم تعـد تجـد معـه المسكنات أو الحلول الموضعيـة لهذا القطاع أو ذاك، إن الأمة مدعـوة لتقييم شامل وإعـادة البناء.. وضبط كل أمورنا بضوابط الشـريعة.. والعدل فى مقدمـتها.. ورفض استئثـار القلة بالقرار والثروة ومقدرات الأمة، إن تعـبير «ينتصرون» يحمل فى طيـاته معنى الجماعية والتـضامن الجماعى

لأنه بدون الموقف الجماعي لا يمكن رد الظالم عن ظلمه. جاء في الحديث: (يد الله على الجماعة) الترمذي ـ الطبراني.

وفي خطبة شهيرة لعمر بن الخطاب: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الأثنين أبعد».

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:٧٦].

أختلف المفسرون حول مغزى هذا المثل.. وهل المقصود به المقارنة بين الأوثان التي يعبدها المشركون، والله الواحد الأحد خاصة وأن الآية جاءت في سياق إقامة الحجة على المشركين، أم أن المقصود بالمثل هو المقارنة بين المؤمن والكافر؟ وبغض النظر عن هذا الخلاف فنحن أمام مثل واقعي.. رجل أبكم عالة على الناس لا ترجى فائدة منه، ورجل آخر ـ هو الأفضل بالتأكيد ـ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.. وبطبيعة الحال فإن الله يأمر بالعدل.. والمؤمنون يعدلون ويتواصون بالعدل ويأمرون أخوانهم بالعدل.. فالعدل هو رأس المعروف.. وأساس الملك. فالمؤمن لا يمكن أن يكون هو الأبكم البليد الضعيف الذى لا يسمع ولا يُسمع وعاجز عن خدمة نفسه أو غيره، فاقد الحيلة تابع ذليل لسيده، وإنما مثال المؤمن أن يأمر بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم. وهذان النموذجان لا يستويان.

* * * * *

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤].

هذه الآية تتناول نوعا من الحوار.. كثيرا ما يحدث في بلادنا الآن.. فيقول الناس: (لافائدة من معارضة هؤلاء الحكام أو وعظهم.. إنهم في غيهم سادرون.. وأنتم تنفخون في قربة مقطوعة والأفضل أن تتركوا العمل السياسي وتصمتوا).

وهذه الآية الكريمة تعالج هذه النقطة التى تثار يوميا فى حياة المصريين (البلد بلدهم.. وليس لنا من الأمر شيء.. وحتى إذا رحل فلان فسيأتى علان وهو أكثر سوءا منه أو مثله).

والآية تقول أن وعظ المكابرين والمعاندين.. وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.. فريضة إلهية لابد من القيام بها.. وهناك احتمال أن يستجيبوا أو يستجيب بعضهم.. ولكن هذا ليس نهاية المطاف فإذا لم يستقيموا على الطريقة أو يستجيبوا فلابد أن يزاحوا من على صدر الأمة ويلقون عذابهم فى الدنيا قبل الآخرة:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

هاتان الآيتان تتناولان هذه القضية الأزلية.. وكيف ينقسم المجتمع عادة إلى ثلاث شرائح رئيسية:

(١) فريق الحق.

(٢) فريق الباطل.

(٣) فريق صامت.. على الحياد يراقب الصراع وإن كانت عواطفه قد تكون أقرب لفريق الحق وهذا ما نسميه فى مصطلحاتنا المعاصرة (الأغلبية الصامتة) التى تبرر سلبيتها بحكاية «مفيش فايدة» متناسين عن عمد أن إصلاح أهل الباطل إذا لم يكن ممكنا.. فإن الواجب يفرض على أهل الحق أن يمنعوهم من إدارة المجتمع.. والتناسى هنا عن عمد لأن الواجب ثقيل ودونه مشقة كبرى.. وبذل.. وتضحية وفداء. وهذا التناسى ترفضه الآيتان.. وتؤكدا لنا أن الهلاك - فى الدنيا والآخرة - هو نهاية الظالمين.. وإن دعوتهم إلى الحق كانت من قبيل إقامة الحجة عليهم.. وإرضاء ضمير أهل الحق المصلحين فى المعارضة.. لأنهم يؤكدون بذلك أن المسألة ليست صراعا دنيويا حول السلطة ، فإن صَلُح الحكام فبها ونعمت..

وفى معنى ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول الشيخ محمد عبده:

(قال الواعظون للائمين: نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر

وقد أمرنا بالتناهى عنه، ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة، وحملهم لهم على اتقاء الاعتداء الذى اقترفوه. أى فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم. والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر).

ويضيف أن اليأس من التغيير (قلما ينشأ إلا من ضعف فى النفس أو الإيمان).

وقال ابن كثير «مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ»: (أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).

* * * * *

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٥ ـ ١١٦].

وقد سبق شرح لهذه الآية الكريمة ١١٦ فى الجزء السابق والتعليق عليها ولكننا نوردها الآن، لارتباطها بسياق حديثنا.

* * * * *

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

والفتنة هى الاختبار والمحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع (ابن كثير)...

وعندما وقعت الفتن عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام.. قال الصحابة: لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما رأينا أننا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها.. وفى أزمنة تالية.. وفى زماننا هذا.. نقول بل نحن المعنيون بها.. وهذا هو المغزى الدستورى ـ إن جاز التعبير ـ للقرآن وإعجازه.. إنه يضع القوانين العامة للحوادث الاجتماعية.. فإذا أكتملت أشراطها.. أدرك

المؤمنون مغزاها بصورة أعمق.. إنها قوانين (سنن) تعمل بشكل دورى منتظم.. عبر الأزمان.

والفتنة لها أسباب متعددة.. وأشكال أكثر تعددا وتنوعا .. تنازع بين فئات مؤمنة يصل إلى حد الاقتتال، صراعات حول السلطة وجه الحق غير واضح فيها، صراعات مذهبية وحزبية تأخذ أشكال تعصبية جاهلية، تفرق فى الدين والشريعة، وقد تأخذ شكل الحرب الأهلية أو مختلف أنواع الاضطرابات التى تطحن فى المجتمع دون أن تقدمه إلى الإمام. ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن الظلم من الأسباب الجوهرية لوقوع هذه الفتن.. والآية تشير بوضوح إلى «الذين ظلموا منكم».. والآية نموذج لما أحتواه القرآن من قوانين الاجتماع البشرى.. والتى تؤكدها الدراسات الاجتماعية والتاريخية.. وتنطق بها الأحداث السابقة والراهنة، فكم هى الصراعات التى تحدث فى المجتمعات الإسلامية، وغير الإسلامية (لأن القوانين تعمل فى كل مكان وهى ليست منزلة خاصة للمسلمين) التى يخسر فيها الجميع، كل الأطراف تخسر، والصالح والطالح يخسر.. والأمثلة لا تعد ولا تحصى (الغزو العراقى للكويت ـ الحرب الأهلية اللبنانية ـ الحرب العراقية ـ الايرانية) وكثير من الحروب الأهلية فى أفريقيا وآسيا التى تتوقف بسبب الانهاك الذى يصيب كل الأطراف، وإن وجود أصابع أجنبية وراء الفتن لا يعفى أصحابها من الغفلة والمسئولية والخيانة وإتاحة الفرصة لهذه الأصابع الأجنبية أن تعبث...

لا نريد أن نخرج عن موضوعنا، لأن موضوع الآية الكريمة أشمل وأوسع ومع ذلك فإن الظلم يكون من أهم أسباب الفتن وتفرق المجتمعات وتشققها.. وإن سلاح المؤمنين فى المجتمعات الإسلامية هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمواجهة الظلم، وحصاره، ومنع استفحاله ولذلك فإن هذه الآية استدعت فى تفسيرها ـ لدى المفسرين ـ الأحاديث الشريفة التالية:

(إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة) أحمد ـ أبو داود.

(والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم) مسند أحمد وفى رواية أخرى (أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم).

(لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضُنّ على الخير، أو ليسحتنكم (ليستأصلنكم) الله جميعا بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

وكذلك حديث خرق السفينة الذى أشرنا إليه من قبل. وأيضا:

(ما من قوم يعمل فيهم المعاصى، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب) مسند أحمد ـ ابن ماجه.

الفصل الثامن

الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر
من سنن الله فى العمران البشرى

بعد هذا الشوط الذى قطعناه لتوضيح الأهمية العظمى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كفريضة أساسية عامة للمؤمنين.. وكيف أنهم مأمورون بمقاومة الظلم.. ورفض البغى والعدوان سواء جاء من مسلم أو منافق أو كافر.. وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمنزلة دعامة أساسية أو عمود خيمة المجتمع العادل المستقر.. وأن العدل يبتعد أو يقترب من النظام السياسى بقدر ابتعاده أو اقترابه من الأمر والنهى.. إننا يمكن أن نقول إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو المصطلح والرؤية في الإسلام لما يسمى فى العصر الحديث «العمل السياسى الديمقراطى» ، وإن الأنظمة السياسية التى تبتعد عن هذا الأسلوب فى ادارة الحياة العامة هى أنظمة هالكة.

إن الشورى هى النظام الديمقراطى الكلى فى الإسلام.. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو وسيلة ومنهج العمل السياسى داخل هذا الإطار.. وقد شرح كثير من الفقهاء المعاصرين أن الشورى لا تختلف عن المفهوم الديمقراطى الغربى إلا فى الالتزام بضوابط الشريعة الإسلامية.. أما الآلية الديمقراطية فى حد ذاتها، فهى.. التطبيق العملى لمفهوم الشورى فى الإسلام.

وكما ذكرنا من قبل فإن نظام الشـورى فى الإسلام ليس موضوع هذه الدراسة التى تركز فحسب على أحد الأركان الأسـاسية لـهذا النظام، وهو الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وهو منهج العمل السـياسى أى تحديد الموقف من كل واقعة أو حـدث أو تصرف أو قرار أو تشريع، على أسـاس الشريعة الإسلامـية.. وهو أسلوب عام للحـياة السياسـية.. يمكن أن يكون فى دائرة الحكم بين الحكام بعـضهم البعض، وبين المعارضـة والحكم، وداخل الحزب الواحد، وبين الناس بعضـهم البعض فى الحياة اليومـية.. كل ذلك فى دوائر متكاملة ، وفى حدود علم ومعرفة كل من يتصدى لموضوع محدد.

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سنة من سنن الله الأساسـية فى خلقه.. قانون يحكم العمـران البشـرى .. والأمم التى لا تلتزم به تتـراجع وتندثر.. وقـوانين الله تعمل فى مـجال الطبيـعة كمـا فى مجال الاجـتماع البـشرى ، بغض النظر عن مـوقفك الإيمانى، فـالقوانين سارية على البر والفاجر، على المسلم والكافر.

لذلك فـإن الأمم التى تسودنا الآن.. وتسـود العالم.. هى الأمم التـى أخذت بالأسـباب أكـثر من أمـة الإسلام، وهى التـى أدركت سنن الله فى خلقه بأكـثـر مما أدركهـا وعمل بهـا المؤمنون أصحاب الرسالة فى هداية البشر!! وهذا وضع معوج، ولا سبيل له إلى الاستمرار طويلا.. فبإذن الله بدأت الصـحوة الإسلامية تتصاعـد ويستعيد المسلمون فـهم رسالتهم تجاه أنفسهم وتجاه البشرية.. ولكننا نريد أن نقف وقفة صغيرة أمام اللحظة الراهنة.

لا شك أن القول الذى ينسب لرفـاعة الطهطاوى من أنه قـال لدى زيارته لأوروبا: (لقد وجدت إسلاما بدون مـسلمين) يشير إلى هذا المعنى الذى نود توضيحـه وعلى الرغم مما فيه من مبالغة.. فبطبيعة الحال لا يوجـد إسلام بدون مسلمين.. ولكننى فهمت هذه العبارة على أنها صيغة مـبالغة لـتأكيـد أن الأوروبيين يأخذون بكثيـر من سنن الله المتضـمنة فى الإسلام وتخلى عنهـا المسلمون، ولا يمكن تفـسيـر استـمرار التـفوق الغربى عـلينا.. إلا وفقـا لهذا المنظور.. وقد انضم إلى التفوق الغربى.. التفوق الآسيوى!.

ولنلقى نظرة عامة على أحوال الأمم من هذه الزاوية التى تشغلنا الآن (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)..

أرجو ألا تكون مفاجأة لأخى القارىء عندما أقول له ابتداء.. أن المعروف واحد.. والمنكر واحد.. بالنسبة لكل الناس وكل الأمم.. فهناك فى الأصل إجماع إنسانى على المعروف وأنواعه وأشكاله، والمنكر بأنواعه وأشكاله .. ثم طرأت انحرافات حول هذا المفهوم الشامل المتفق عليه، والانحرافات بعضها نظرى وفكرى وعقائدى وبعضها عملى مع الارتباط والتأثير والتأثر بين النظرى والعملى، ولنبدأ القصة من أولها..

لم يخلق الله الإنسان سدى.. ولم يتركه وحيدا بلا هداية.. وما من أمة خلت إلا فيها نذير..

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٤٧].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وتتعدد الآيات حول هذه الحقيقة.. ويؤكد القرآن الكريم أنه لم يقدم حصرا بأسماء هؤلاء الأنبياء والرسل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

وكما ذكرنا من قبل فإن القرآن الكريم كتاب هداية وليس موسوعة تاريخية .. وقد ضمنه الله سبحانه وتعالى بعلمه ما فيه حد الكفاية لهذه الهداية.. وتمليك المؤمن لطريقة

التفكير والتعامل مع الحياة.. هل هى مسألة اختصار؟! على أساس أن الموسوعة التاريخية ستكون كبيرة فى مجلدات عديدة، ربما كان ذلك أحد الأسباب..

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:٢٢].

كذلك فإن الله عز وجل بعد أن قدم للإنسان المنهج والطريقة ترك مسافة واسعة للغاية.. لعقل الإنسان كى يدرس ويفكر ويتدبر..

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ هكذا جاء فى الآية المشار إليها آنفا والخاصة بالرسل [النحل:٣٦] وقد تكرر هذا المعنى عدة مرات بالقرآن الكريم.. والأمر الإلهى دعوة لدراسة التاريخ.. سواء من خلال الآثار.. أو المخطوطات ، ولا يمكن أن يقتصر ـ كما يقول البعض ـ على السير بالمعنى الحرفى (الترحال) باعتباره أمرا موجها للعرب لزيارة مواقع عاد وثمود القريبة منهم.. ولا بأس من ذلك ولا اعتراض لكن معنى الآيات أوسع من ذلك.. وقد تكرر الأمر ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [الروم:٩]، لأخذ العظة والخبرة.. والمعنى واضح: البحث والتفكير والدراسة، وقد يكون ذلك فى المكتبات التى تحوى مخطوطات التاريخ والمتاحف، ولكن لا شك أن تعبير (السير) تعبير بليغ لأنه يوحى بكل أشكال البحث، بما فى ذلك السفروالترحال وزيارة الآثار. ومن علامات أننا أمة منكوبة.. أننا تركنا هذا الفرض ليقوم به الأجانب من كل شاكلة وطراز.. فيكشفون من الآثار ما يريدون ويخفون ما يشاءون، وينهبون ما يشاءون.. ونحن الأولى بهذا العمل فى وطننا مصر، لأن ذلك أشبه بالسماح للأجانب بالإطلاع المنفرد على مستندات رسمية.. حقا إنها مستندات تاريخية.. ولكنها لا تقدر بثمن من زاوية المعرفة.. لذلك يجب أن نتعامل معها كما نتعامل مع مناجم الذهب وأكثر حرصا، ويجب أن نخبر وسائل التنقيب، وأيضا أن ندرس هذه المستندات الحية أو المكتوبة بلغة قديمة بأنفسنا مباشرة قبل أن تعبث بها الأيادى الأجنبية، وبعضها مغرض يسعى لإثبات أشياء أو نظريات معينة ويدفعه هذا لإخفاء بعض الحقائق .

بل إن معنى هذه الآيات التى تدعونا للبحث والتدقيق فى آثار الأمم، أن نكون نحن الذين نرسل البعثات للخارج لدراسة نشأة الأديان فى أعماق أفريقيا وآسيا، وبين سكان أمريكا الأصليين، بدلا من أن نترك علم الأنثروبولوجى (علم الأجناس) نهبا لعلماء الغرب.. منتظرين منهم النتائج والأبحاث والاستنتاجات.. التى نتلقاها كالبلهاء .. ونترجمها .. باعتبارها الحقائق المطلقة!!

أما موضوعنا الأساسى.. ان كل الأمم وصلتها رسالة السماء عبر الأزمان الغابرة.. عبر عديد من الرسل والأنبياء المحليين أى الذين كانوا موجهين لأمم وأقوام خاصة، وفى هذا السياق كان هناك عدد من الرسل.. اتسمت رسالاتهم بالصبغة العالمية الشاملة.. وكانت الذروة فى سيدنا محمد ﷺ. فهو رسول لكل الأمم.. وقد بلغت دعوته المراكز الأساسية للعالم فى حياته، وبلغت الرسالة فى العقود التالية لوفاته على مساحة ممتدة من الصين إلى فرنسا، أما الآن فبإمكان دعاة الإسلام أن يصلوا بدعوتهم إلى كل فرد فى العالم فى كل القارات إذا استخدموا وسائل التقدم فى الاتصالات.

ما يهمنا الآن أن واقع أن لكل أمة رسول.. جعل القيم الإنسانية واحدة.. الحلال بين والحرام بين.. الخير معروف والشر معروف.. إن الحرام أو العيب، أو الخطأ أو المنكر أو غير الشرعى وغير القانونى هو واحد فى كل الأمم.. من الناحية النظرية على الأقل.. وإليكم بعض الأمثلة المتفرقة:

فى التوراة سفر اللاويين: (فإذا زنى مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزانى والزانية).

ويقول المسيح: (لقد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن أما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه).

والمحرمات الأساسية فى الإسلام موجودة فى التوراة والإنجيل: لا تسرق، لا تزن، لا تقتل، لا تكذب .

كل الموبقات والمنكرات متفق عليها بين الأديان السماوية ومتفق عليها بين الأمم التى لا

تدين بالمسيحية فى آسيا. والمرجح أن الأديان الآسيوية أصلها أديان سماوية تم تحريفها وتأليه أنبيائها.. والأصل أن جميع الأنبياء اتفقوا على الحض على مكارم الأخلاق والأمر بالمعروف وقمع الشهوات.. وتكاد تكون ألواح الوصايا واحدة فى الجميع.. فى الكتب المقدسة لدى الهنود تجد فقرات لا يمكن أن تختلف معها.. وتدرك الشيء الحقيقى الذى كان موجودا وتم تحريفه (يمكن مراجعة تفصيل ذلك فى كتاب أمة تبعث - تأليف: أحمد حسين).

والأديان الهندية تحرم الزنا بدورها. وتعارض العنف وتحض على مكارم الأخلاق، وبوذا الذى عاش قبل ألفى عام .. من وصاياه العشر : لا تقتل - لا تكذب - لاتشرب الخمر - لا تزن وباقى الوصايا تدور حول رفض الترف.

وليس هدفنا الآن أن نبرهن أن بوذا كان نبيا.. ولكن من المرجح أن معظم الديانات الآسيوية ذات أصل سماوى.. وما ذكره القرآن حق.. حول إرسال رسول لكل أمة.. وعندما نجد هذه المساحة المشتركة فى القيم.. فيجب أن نفكر فى الأمر وندرس.. هى دعوة للدراسة.. بدلا من تركيز الإسلاميين فى دراساتهم حول المجتمع الجاهلى فى الجزيرة العربية.. دون باقى المجتمعات. هذه دراسة تزيدنا فهما لتاريخ البشرية.. وسنن الله فى خلقه.. وتساعدنا فى التفاعل مع هذه الدوائر الأقرب إلينا من دوائر الغرب، خاصة وهناك أقليات إسلامية فى معظم هذه الدول الآسيوية..قضيتنا الآن ليس إثبات الأصل الرسالى لهذا الدين أو ذاك.. وإن كان ذلك مطلوبا فى دراسات أخرى متخصصة.. فحتى إذا عدنا للشرائع الفرعونية القديمة أو لحضارة ما بين النهرين.. سنجد القوانين تعاقب على نفس الجرائم التى يحددها الدين الإسلامى، ولا يتسع المجال للأحاديث عن الأديان المحلية لسكان أمريكا الأصليين أو الأديان الأفريقية. ومع الأسف فى حدود علمى لا توجد دراسات إسلامية حول هذا المجال الواسع رغم أن القرآن الكريم يحثنا عليها. وعلى النقيض من ذلك فإن وزارتى التعليم والثقافة عندما أرادت إصدار موسوعة تاريخية قامت بترجمة موسوعة صهيونية!!

نحن الآن نحاول أن نضع الأساس لفهم لماذا كانت القيم الأخلاقية وميزان الخير والشر واحدا بين الأمم. وأنت إذا قمت بدراسة مقارنة لقانون العقوبات بين مختلف دول العالم فلن تجد خلافا كبيرا حول توصيف وتعداد الجرائم والمنكرات : القتل ـ السرقة ـ السطو المسلح ـ الاغتصاب ـ الرشوة والاختلاس وباقى جرائم المال العام ـ واستغلال النفوذ وخيانة الأمانة وتبديد المال العام والغش التجارى وضرورة الوفاء بالعقود، إلى آخر المسائل المدنية ـ المخدرات بأنواعها ـ وحتى البلاد التى لا تحرم الخمر إلا أنها تقيد استخدامها وتعاقب المخمور إذا أخطأ فى الطريق العام أو قاد سيارته، بل لقد حاولت الولايات المتحدة فى أوائل هذا القرن محاولة جادة لمنع الخمور ولكنها فشلت.. وبلغت تكاليف الحملة الدعائية ٦٥مليون دولار وملأت ٩ مليارات صفحة وقادت الدولة الحملة بنفسها وأصدرت قانونا بتجريم الخمر، وكانت المقاومة عنيفة حتى لقد قتل ٢٠٠ أمريكى وسجن نصف مليون أمريكى فى إطار هذه الحملة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٣ .. وانهزمت الدولة!!.

ومع ذلك يظل مدمن الخمر شخصا كريها فى المجتمعات الغربية ويمنع من تولى كثير من المواقع المهمة والحساسة، ويضاف إلى ما سبق جرائم الجاسوسية والعمالة لقوى أجنبية فى زمن السلم والحرب على السواء. جريمة الكذب (الشهادة الزور) ـ الاعتداء على الممتلكات العامة ـ أو ممتلكات الغير.

خلاصة الأمر أنت لن تجد مجتمعا يعد ويعتبر ويعلن أن السرقة عمل مشروع.. أو القتل أو الرشوة إلى آخر القائمة المشار إليها كأمثلة على أبرز الجرائم.

ثم إذا خرجنا إلى دائرة أوسع من القوانين الرسمية.. إلى إطار القيم السائدة فى المجتمع ستجد تقاربا أكبر بين الأمم، فما لا تحرمه القوانين الغربية، يستهجنه الناس.. فما لا تحرمه القوانين ليس بالضرورة يلقى الاستحسان من الأغلبية كالزنا والشذوذ الجنسى.

المهم أن المجتمعات التى سبقتنا أصبحت لديها توليفة من القيم الوضعية والأخلاقية يتم الاحتكام إليها.. وبالتالى فإن لديها قائمة من أعمال الخير.. وقائمة من أعمال الشر.. وتحكم

القائمتان العمل السياسى.. فهم لديهم نوع ما من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، رغم الاختلاط الذى أصاب المعروف والمنكر بدرجة أو بأخرى.. ولكن وجود قاعدة يحتكم إليها فى المجتمع.. أفضل من مجتمعاتنا التى لم تعد تحتكم للشريعة، ولا القوانين الوضعية.. وإنما أصبحت تحتكم للأهواء وتسلط الكبار المفسدين فهم معيار الصواب والخطأ.. كما أشرنا فى حديثنا من قبل عن الدولة الرخوة. فدولة تحترم قيمة العمل.. (بغض النظر عن الدوافع الدنيوية لهذا الاحترام) خير من دولة لا تحترم قيمة العمل حتى ولو رفعت مائة راية للإسلام.

فى البلاد التى سبقتنا هناك حد أدنى للالتزام بالقواعد يسرى على الجميع، لاشك أن هناك تلاعبا، ومفاسد خاصة من الكبار.. ولكن فى إطار قواعد معقدة من اللعبة .. فى إطار أن هناك قواعد أصلا.. أما هنا فإن القواعد تكاد تتلخص فى أهواء الحاكم. وفى هذا المجال يقول الشيخ محمد الغزالى:

(فى الصين فقد السيد «شان تو» عضويته فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى، لماذا؟ لأنه وهو مدير عام للطيران المدنى سعى للحصول على تذاكر سفر مجانية لأولاده! إنه ـ لهذه المحاباة ـ فصل من عمله ومن الحزب معا. قلت ما أكثر الذين يستغلون نفوذهم عندنا لنفع أقاربهم وأصدقائهم ولا ينالهم أذى). [رحم الله الشيخ الغزالى..] إن حصول مسئول الطيران على تذاكر مجانية لأبنائه أصبح من قبيل المعروف لا المنكر.. ومثل هذه المحاباة أصبحت مقننة ومعروفة وتمارس علنا لا فى الخفاء.

ويضيف الشيخ الغزالى:

(وقرأت كيف رفض مجلس الشيوخ الأمريكى اقتراح رئيس الجمهورية (ريجان) تعيين أحد القضاة فى منصب خال بالمحكمة العليا، وسبب الرفض أن القاضى المرشح اتهم فى شبابه بتدخين الماريجوانا! قلت: إن لدينا من شرب الخمر ويدخن الحشيش وتولى أعلى المناصب! وعلم الناس ولم يعترضوا، ولو وقع اعتراض لعوقب المتكلم ونجا المتهم!.

كما أتساءل: لماذا انسحب مرشح الحزب الديمقراطى من الانتخابات لرئاسة الجمهورية عندما اتهم بعلاقة مريبة مع إحدى الغوانى ؟ لماذا استقال وزير الحربية فى انجلترا لعلاقته السيئة بسكرتيرته؟ إن شئون هؤلاء الناس تبدو غامضة أمامى ! مباذلهم شائعة، وضوابط الحياة العامة صارمة، وأهواء الأفراد تحترق أمام المطالب القومية والمصالح الوطنية. أما فى العالم الثالث فالأفراد تحاكم الشعوب).

نحن أمام مجتمعات تواضعت على معروف وتأمر به، وعلى منكر وتنهى عنه، وهذا هو جوهر صراعاتها الديمقراطية السياسية، وهى خلطة جديدة من المعروف والمنكر.. مستقاة فى الأصل من قيم البشرية المستقاة من الأديان، بعد الإنحراف بها وتحويرها بدرجات متفاوتة فى المجالات المختلفة، ولكن ظل - كما ذكرنا - هناك معيار ومقياس للصواب والخطأ، وحرية فى مقاومة الخطأ وتأييد الصواب. والديمقراطية الغربية ليست النموذج أو المثل الأعلى وقد أشرنا من قبل إلى جانبها المفتعل.. وقدرتها على تزييف الرأى العام وتوجيهه وتجهيله. وليس هنا مجال التوسع فى ذلك، فالذى يهمنا أن نظامهم بالتأكيد أكثر رشدا من نظامنا فى مجال حرية النقد.. وتداول السلطة بين الأفراد .. وهذه من أهم الأشياء التى ساعدت النظام الغربى على الفوز على النظام الشيوعى فى صراعهما الضارى. أما أنظمتنا فهى أقرب إلى النمط الشيوعى (من زاوية الشمولية السياسية) ولذلك فهى أنظمة هالكة ولا يرجى خير للمسلمين فى ظلها.

أما علاقة أهل الغرب بالمعايير الدينية فينطبق عليها الآية:

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾[القصص:٤٥].

فالمجتمعات الغربية فى انحدار - من الزاوية التى ندرسها - فتوليفة المعروف والمنكر تتدهور بشدة. وتتقلص بقايا المكونات الأخلاقية لصالح الروح العملية اللا أخلاقية، وما كان مستهجنا منذ عشرين عاما لم يعد كذلك الآن بنفس القدر.. والتساهل مع كلينتون فى أزمته الأخلاقية.. بالمقارنة مع إدوارد كيندى الذى يشير إليه الشيخ الغزالى .. علامة من علامات الانحطاط الاجتماعى.. حقا أن كثيرا من الرؤساء السابقين كانت لهم إنحرافات

نسائية.. ولكنها لم تكن بهذا المستوى ولم تتفجر إلى هذا الحد .. وقد كان الحوار الدائر فى المجتمع الأمريكى بالغ الانحطاط والتخلف حيث ساد الرأى الذى يقول أن إنحرافاته الجنسية غير مهمة.. ولكن المهم هو أنه قد كذب تحت القسم (شهادة الزور) ثم عاد المجتمع الأمريكى وعفا عنه حتى من الكذب تحت القسم ويقال إنها فى الولايات المتحدة من الكبائر. ومن علامات السقوط والانحدار هذه الموجة المتصاعدة فى أمريكا والغرب لإضفاء الشرعية على الشذوذ الجنسى.. وهناك بلاد أوروبية بدأت تضفى شرعية على أنواع من المخدرات، وغيرها من الأمور التى كانت مستنكرة للغاية منذ عقود قليلة. ومع الانحدار المجتمعى .. قد تنقل نقطة من بند المنكر إلى المعروف ثم تنتقل نقطة أخرى.. وهكذا.. وهم يريدون أن يفرضوا علينا هذا الانحطاط من خلال مقررات مؤتمرات القاهرة للسكان وبكين للمرأة . وهناك بلاد - كإيطاليا - تتساهل منذ فترة فى مسألة الرشاوى وتسميها عمولات.. وهذا ما شجع ويشجع عددا من المسئولين عندنا فى التعامل مع إيطاليا!!

لسنا معنين الآن بدراسة أزمة الغرب، ولكن بأزمتنا نحن!! ومايزال الغرب متفوقا علينا لأنه رغم تدهوره ما تزال هناك قواعد للمحاسبة بين الناس وبعضهم، وبين المحكومين والحكام، وما تزال هناك إمكانية لهذه المحاسبة فى العلن! أما عندنا - فى مصر مثلا - فيمكن أن يبقى أكثر من رئيس تحرير فى الصحف الحكومية فى مواقعهم بالمخالفة الصريحة للقانون بلا معقب. وممكن أن يبقى وزير مشبوه لمدة ٢٠ سنة فى الحكم ويرضى الناس على ذلك أو يصمتون. وممكن أن يقال علنا على لسان شخص عارف بالأمور ووزير سابق.. أن وزيرا خرج مؤخرا من الوزارة حصل على ١٦ مليار (دولار) كعمولات وسمسرة غير شرعية.. فترى الحكومة أنها غير معنية بهذا الخبر التافه. ولا يرى المحكومون أن هذه أموالهم التى نهبت فيطالبون باستردادها ومحاكمة الوزير السابق، ولا ترى المعارضة فى أغلبيتها الساحقة، أن هذا الموضوع لا يمكن أن يمر، فيقيمون الدنيا ولا يقعدونها حتى يجبروا الحكومة على التحرك أو التفسير أو النفى أو التحقيق.. وهذا استهتار لا مثيل له فى حياة الأمم.

لقد انقلبت الأمور رأسا على عقب فى الجزائر فى أواخر حكم الشاذلى بن جديد، لأن مسئولا كبيرا سابقا تحدث عن عمولات وسرقات فى دوائر الحكم بالمليارات.. أما فى مصر فقد تحول الاستبداد والفساد إلى هرم أكبر.. وعود الناس أنفسهم على سماع أنباء هذه الكوارث فلا يتحركون.. ولا ينطقون .. حتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يتصدون للعمل العام.

السقوط المدوى للنظم الشيوعية له أسباب عديدة.. ولكن لاشك أن من أسبابه الرئيسية، غياب حرية النقد.. وسيادة منطق تزييف الحقائق .. فكانت الوحدات الإنتاجية ترفع تقارير مزورة عن الانتاج.. حتى تصل التقارير إلى صانع القرار فى صورة وردية.. وأصيب النظام بالعمى.. لا يعرف ما فى يده بالفعل.. وما هو غير موجود.. وسقطت النظم فى لحظة واحدة كأنها من القش.. كذلك لم تكن هناك آلية فعالة لمقاومة الفساد والحد منه بل كانت رؤوس الدولة هى المتورطة فيه.

ومن الواضح أن النظام الصينى رغم اعتماده للحزب الواحد إلا أنه كانت ولاتزال بداخله آليات للتصحيح.. ومقاومة الفساد.. وقد ساعد على ذلك أن التجربة الحزبية الصينية اتسمت بقدر من التسامح النسبى.. الأمر الذى سمح بوجود تيارات ووجهات نظر فى إطار النظام والحزب.. المهم أنه كانت ولا تزال هناك آلية للمحاسبة.. لمقاومة الأخطاء.. وتشجيع الإيجابيات وهذه الآلية وجدت فى التجارب الآسيوية المعروفة بالنمور.. حتى قبل تطوير التعددية الديمقراطية الحزبية.. فالنظام الرشيد حتى فى إطار المركزية والحزب الواحد.. لا يكتم على أنفاس الآراء المعارضة أو المتباينة، ولا يصمت أو يتواطأ على الفساد.. وفى تجارب هذه الأمم التى كادت تخرج من أزمتها الطارئة وتعود إلى نهضتها الأصلية كثير من الدروس الثمينة، فى فهم أسباب صعود وهبوط الأمم. وأذكر أننى ألتقيت بمثقفة من كوريا الجنوبية، وجرى الحديث من قبلى حول حالة الإعجاب والانبهار فى مصر من القفزة الصناعية والتكنولوجية والاقتصادية عموما فى شرق آسيا وبالأخص فى كوريا الجنوبية، فردت علىّ المثقفة الكورية (ووالدها عضو بالبرلمان): إن أهم إنجاز فى كوريا الجنوبية أن

رئيس الجمهورية السابق فى قفص الاتهام يحاكم بتهم فساد اقترفها خلال حكمه، فقلت لها: صدقت!

ويعبر الشيخ الغزالى عن هذا الوضع بمرارة فيقول:

(تابعت انتخابات اليونان وما سبقها من انتصار اليمين فى فرنسا على الاشتراكية التى يمثلها رئيس الجمهورية !! وأحسست غصة وأنا أرمق ما يوصف بالديمقراطية فى البلاد الإسلامية! إننا نقلنا نظام الانتخابات وقيدنا أسماء الذين ينتخبون ولكن كان مُلاك السلطة حواة مهرة يجعلون صناديق الاقتراع تتحول بسحر ساحر إلى تأييد ساحق يشترك فى صنعه الأنس والجن والأحياء والأموات! وينتهى التنافس الوهمى إلى نصر أشرف منه الهزيمة، وإلى حكم شعبى أشرف منه الحكم الفردى الذى زهد فى التزوير والعبث. ثم رئى أن هناك من صور الديمقراطية فى البلاد الشيوعية ما هو أجدر بالاقتباس ذلك أن يرشح رجل وحده للحكم وينتظر الناس النتيجة بنفاد صبر، حصان واحد يجرى فى ميدان السباق!

قال رواة الفكاهة: ورئى الحصان الفذ واجما قلقا قبل أن تظهر النتيجة، فسئل: ما يقلقك!

قال: أخشى أن يعاد الانتخاب!!

يعاد بينك وبين من يا أخ العرب!.

ننتهى من كل ذلك إلى أن الدول التى سبقتنا شرقا وغربا استقرت فى مجتمعاتها آلية للحساب على الصواب والخطأ، المعروف والمنكر الذى تواضعت عليه هذه المجتمعات.. فهى لديها نموذج مرجعى تحاسب كل من ينحرف عنه، والمحاسبة قد تكفيها الصحافة.. وقد تصل إلى القضاء.. وقد تصل إلى الاقصاء من الحكم. أما عندنا فلا يوجد نموذج قياس (يقاس عليه)، ولا معروف ولا منكر، بل تحول المعروف إلى منكر، والمنكر إلى معروف، وأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. أصبحت أفضل جهاد عند سلطان جائر..

ولا مجال لإصلاح المجتمع إلا بالعودة إلى هذه الفريضة التى تقاوم استفحال الظلم والفساد، والمؤمنون حينما يقومون بذلك يتقربون إلى الله ويتعبدون له.. ويسلمون وجههم إلى أوامره بأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس بالعمل لا بالقول فحسب. أما التنكب عن ذلك الطريق فهو أقصر سبيل للهلاك فى الدنيا والآخرة، ولنا فى الأمم الخالية والراهنة العديد من العبر والدروس.

الفصل التاسع

مزيد من الآيات القرآنية تشرح ضرورة مقاومة الظلم والفساد

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]

نعود مرة أخرى إلى آيتنا التى كنا نتحدث عنها، وذلك لنربطها بما قبلها وما بعدها.. فالمعروف أن سورة الأنفال معنية بالجهاد بشكل خاص، وقد أحكمت آياتها لتسرى حول المعانى الشاملة للجهاد دون أن تحصرها فى أحكام القتال والغنائم.. وهذا طبيعى فصفات المؤمن المجاهد فى القتال ضد أعداء الخارج من الكفار.. هى نفس صفات المؤمن المجاهد فى الحياة الداخلية بالمجتمع المسلم.. لا يخشى فى الحق لومة لائم.. هو نفس الشخص المستعد للتضحية بحياته فى سبيل الله، وإن لم يحمل سلاحا أو يرفعه.. بل قال الحق فقُتل أو تعرض لأى مكروه أو اضطهاد أو أذى. وهذه الآيات هى مصداق لما نقول.. ولابد أن نقرأها معا دفعة واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٢٤-٣٠].

الآية٢٤: فى الآية دعوة عامة لطاعة الله ورسوله والإستجابة لدعوة الرسول عموما ولكن كما ذكرنا فإن هذه السورة تكاد تختص بالجهاد.. وهنا يأتى التعبير الإعجازى ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بما فى ذلك الاستعداد للاستشهاد فى سبيل الله.. لأن الاستشهاد حياة (لا تهلكة كما يقول الناس الآن) والضلال وعدم الامتثال لأوامر الله فى الجهاد وغيره هو الموت!

الآية٢٥: جاء فى تفسير المنتخب الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية:

(واجعلوا وقاية بينكم وبين الذنب العظيم الذى يفسد جماعتكم، كالامتناع عن الجهاد وكالشقاق وكالامتناع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن ذلك الذنب لا يصيب الذين ظلموا وحدهم بل يصيب الجميع، واعلموا أن عقاب الله شديد فى الدنيا والآخرة).

الآية ٢٦: هذه الآية تذكر بنصر الله عندما كان المسلمون مستضعفين.. وهذه حكمة عامة فى كل الأزمنة، فلا يتصور المؤمنون فى أى لحظة بسبب أنهم قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس أن الله سيتخلى عنهم.. وعن نصرهم.

الآية٢٧: الخيانة لله والرسول والأمانة عامة فى كل المجالات ولكن كما ذكرنا فإن هذه الآيات تركز على الجهاد بشكل خاص لذلك جاء فى المنتخب تفسيرا لهذه الآية:

(يأيها الذين صدقوا بالحق وأذعنوا له لا يصح أن تكون منكم خيانة لله ورسوله بموالاة أعداء الحق أو بالخيانة فى الغنائم أو بالقعود عن الجهاد..).

الآية٢٨: تشير إلى محبة الأموال والأولاد التى تفتن المؤمنين عن الجهاد.

الآية٢٩: إذا اتقيتم الله فسيجعل فى أنفسكم قدرة تفرقون بها بين الحق والباطل ويهبكم نصرا ليفصل بينكم وبين أعدائه.

الآية٣٠: تناولناها من قبل وهى متعلقة بتذكرة المؤمنين بنصر الله لرسوله بينما كان معرضا للحبس أو القتل أو الإخراج من مكة قبل الهجرة، وهذه الآية بموضعها هنا، تربط بين الجهاد القتالى والجهاد السلمى باعتبارهما صورتين لحالة واحدة.. فالجهاد ليس عملا فنيا لحمل السلاح.. فلكل شكل من أشكال الجهاد موضعه أو توقيته، ومن هنا فإن التعرض للحبس أو القتل أو الإخراج بسبب دعوة الحق وقول الحق ومقاومة الباطل، جزء لا يتجزأ من المفهوم العام للجهاد فى الإسلام.

*****

﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨] .

وهذه آية أخرى صريحة تحض على مقاومة الظلم وتحصن المظلوم حتى عند الجهر بالسوء خلال الإعلان عن مظلمته. وحول هذه الآية يقول الشيخ محمد عبده:

(خص الجهر هنا بالذكر لمناسبة بيان المفاسد فمن ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحا ظلامته للحكام أو غير الحكام ممن ترجى نجدته ومساعدته على إزالة الظلم فلا حرج عليه فى هذا الجهر ولا يكون خارجا عما يحبه الله تعالى، لأن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم ويخضعوا للضيم. بل يجب لهم أن يكونوا أعزاء أباة، فإذا تعارضت مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم وهو من قول السوء، ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والاستمرار عليه المؤدى إلى هلاك الأمم وخراب العمران، كان أخف الضررين مقاومة الظلم بالجهر بالشكوى منه وبكل الوسائل الممكنة).

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من وقع عليه الظلم للدفاع عن نفسه وقال بعضهم: أن الجهر بمعنى المجاهر.. أى لا يحب الله المجاهرين بالسوء إلا المظلومين منهم إذا هبوا لمقاومة الظلم، ولو بالقول وحده إذا تعذر الفعل.

وتتناول هذه الآية ما تتناوله القوانين الوضعية الآن حول جريمة «السب والقذف» وقد أخذ المشرع المصرى إلى حد بعيد بهذه الآية (حتى وإن كان ذلك نقلا عن قوانين غربية!!) فقد سمح بسب وقذف الموظف العام إذا كانت الوقائع التى يُنتقد عليها صحيحة.

والحقيقة أن معنى الآية لا يقتصر على الظلم الذى يقع على فرد بعينه.. فالظلم العام الذى يرتكب فى حق الناس والمجتمع عموما أولى.. وهذا ما أخذ به المشرع المصرى.. فقذف الموظف العام مباح.. بل تحدث شراح القوانين عن السب المباح للموظف العام.. وهو لا يتعلق بظلم شخص تعرض له شخص المجاهر بالسوء..ولكن بجريمة واقعة فى حق المجتمع ككل.. وهذه - فى عصرنا - مهمة الصحافة فى المحل الأول.. وإن كانت تسرى على ما يقال فى الاجتماعات والمنتديات والتجمعات العامة.

وقد تعرضنا فى جريدة «الشعب» لانتقادات من بعض المثقفين لأننا نستخدم أحيانا ألفاظا حادة ضد المسئولين الفاسدين والمنحرفين.. رغم أن الظلم الذى يرتكبونه يقع على المجتمع بأسره وليس علينا بصورة شخصية.. والغريب أن هؤلاء المنتقدين يقولون إن ما تقولونه صحيح.. ولكن فقط العبارات حادة!! والجهر بالسوء الذى رخصه الله للمظلومين أشد من مجرد العبارات الحادة التى لا تخرج عن تسمية الأشياء بمسمياتها، والواقع أنك عندما تكتب بالمستندات عن وقائع فساد ولا يرد عليك الحكام.. بل تتواصل نفس وقائع الفساد فإن عدم الرد بحدة على هذا الاستهتار بحقوق الشعب وأمنه وصحته يعنى أننا غير جادين.. ولا نأخذ هذه القضايا مأخذ الجد، فى حين أن الغضب هو الرد الإنسانى الطبيعى عندما ننشر مثلا أن وزارة الزراعة تغرق الأسواق بلحوم هندية فاسدة.. ونقدم المستندات الرسمية الدالة على ذلك (تقارير جهاز المحاسبات) ، فلا ترد علينا وزارة الزراعة

ولا الحكومة ولا أى مسئول.. وتظل اللحوم الهندية تتدفق إلى الأسواق!! كيف يمكن التعامل مع قضية على هذا المستوى من الخطورة ببرود، إلا إذا كنت غير مخلص فى تبنى القضية، وهى قضية عامة لا تمس الكاتب بل عامة الناس، وتتعلق بمسألة الحياة أو الموت!.

إن الله هو الأعلم بخلقه.. وبنفسيتهم.. إن المظلوم ـ حقا وصدقا ـ لابد أن يكون منفعلا وهو يعرض ظلامته.. وهو عندما يتحدث عن ظلم عام من المفترض ألا يكون أقل انفعالا لأن المؤمن بطبيعته ليس أنانيا.. وليس من النوع الذى لا يثور إلا من أجل نفسه.

هذه الآية كما ذكرنا تحض على مقاومة الظلم، وتحصن المظلوم من المحاسبة فيما يسمى قضايا السب والقذف.

وهذه الآية تمس مسألة الغضب.. الغضب المشروع فى الله.. والحق.. وهنا تحضرنى صورة قرآنية طالما مر عليها كثيرون مرور الكرام .. صورة الغضب الذى حل بموسى عليه السلام عندما عاد من لقاء ربه ليجد ارتداد قومه إلى الشرك.. فماذا فعل؟!

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف:١٥٠].

عاد موسى من لقاء ربه فوجد قومه صنعوا عجلا ليعبدوه.. فأصابه الغضب والحزن فلم يستمع لأخيه هارون النبى.. ولم يسمع وجهة نظره.. ولم يسأله كيف حدث ذلك؟ فالأمر جلل والغضب عظيم.. فألقى الألواح وبها كلام الله من شدة غضبه واندفع يأخذ «برأس أخيه يجره إليه» صورة رهيبة بين أخ وأخيه.. والاثنان من أنبياء الله.. صورة مؤثرة للغاية ترسم لحظة الغضب فى الله.. وهو تصرف يتضمن إلقاء اللوم على أخيه النبى الذى خاض معه الأهوال فى سبيل الدعوة.. وبعد ذلك المشهد تمكن هارون عليه السلام من شرح ما حدث وانه حدث رغم أنفه وفرض عليه.. فبدأ موسى يهدأ قليلا ودعا الله ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥١].

ثم ينبئنا القرآن بهدوء سيدنا موسى وانقشاع الغضب عنه بعد فترة زمنية ما ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

وفى سورة طه نجد نفس المشهد ببعض التفاصيل الاضافية.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه :٨٦].

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤].

وهنا تبدو صورة الغضب أشد وهو يجذبه من رأسه ولحيته معا.. وفى المشهدين بالسورتين يستخدم هارون تعبير (ابن أم) رغم أنهما شقيقان وهو أسلوب لترقيق قلبه حتى يهدأ ويستمع إليه.. والتذكرة بالأم تشير أكثر إلى الليونة والرحمة والعطف. ما نتعلمه من هذا الموقف أن الغضب فى حد ذاته ليس منكورا، بل إن الغضب فى الله مطلوب، وغيابه يُحسب على صاحب القضية.. إذ أن ذلك قد يشكك فى مصداقيته طالما نحن إزاء قضية خطيرة. والغضب فى الله إذا لم يحدث فى مسألة «وليمة أعشاب البحر» على سبيل المثال، فإن ذلك ما كان يعنى إلا شيئا واحدا أن هذه الأمة المصرية قد ماتت.. والحمد لله فقد أثبتت أنها حية. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتحمل الإساءة فى القول من صاحب الحق حتى لو كانت موجهة إليه.. فمعروفة قصة ذلك الرجل الذى جاء يقاضيه فى دين متأخر عليه واستعمل عبارات غير لائقة.. فكاد عمر بن الخطاب أن يفتك به فقال له النبى «كنت أحوج إلى أن تأمرنى بالوفاء وكان أحوج لأن تأمره بالصبر».

وفى الرواية عن ذلك نجد فى كتاب أخلاق النبى للحافظ أبى الشيخ الأصبهانى تفصيل ذلك:

عقب أداء صلاة الجنازة فى البقيع جاء زيد بن سعفة وجذب برد رسول الله ﷺ جذبة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبل عليه بوجه جَهْم غليظ وقال له: ألا تقضينى يا محمد، فوالله ما علمتكم بنى عبدالمطلب لُمطل، وقد كان لى بمخالطتكم علم، فارتعدت فرائص عمر رضى الله عنه ثم قال: أى عدو الله أتقول هذا لرسول الله؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسم ثم قال: لأنا وهو أحوج إلى غير هذا، أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه (إلى هنا عن ابن أبى عاصم وزاد أبو زرعة فى حديثه): إذهب به يا عمر فاقض حقه وزده عشرين صاعا من التمر مكان ما رُعته!

وأيضا عن أنس قال: بينما نحن جلوس إذ دخل رسول الله ﷺ من باب المسجد مرتديا ببرد إذ تبعه أعرابى، فأخذ بمجامع البرد إليه، ثم جذبه إليه جذبة فرجع رسول الله ﷺ فى نحر الأعرابى من شدة جذبته، وإذا أثر حاشية البرد فى نحر رسول الله ﷺ فنظر إليه رسول الله ﷺ وضحك وقال: ما شأنك؟ فقال له: يا محمد جد لى من المال الذى عندك، قال: مروا له.

ومن الروايتين السابقتين يتضح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قدر غضب صاحب الحق فلم يغضب من خروجه على مألوف السلوك أو اللفظ.

وننتقل إلى واقعة كان بطلها أبو بكر الصديق يوم الحديبية، عندما جاء عروة بن مسعود من مكة يفاوض رسول الله ﷺ حيث أراد أن يثنيه عن دعوته فقال له ـ ضمن ما قال ـ «فإنى ـ والله ـ لا أرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك» استهزاء بصحابة رسول الله وحطا من شأنهم فرد عليه أبو بكر: امصُص بَظْرَ اللات، أنحن نفرعنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك (البخارى).

قال أبو بكر الصديق هذا السب القاسى لاعتداء عروة بن مسعود باللفظ على الصحابة،

وجرت هذه الملاسنة فى حضور رسول الله ﷺ لم يعاتبه أو يراجعه فى قسوة لفظه.. والمعروف أن مجتمع المؤمنين الأوائل كان يقطر طهارة فى اللفظ والعمل.. وأبو بكر الصديق معروف عنه اللين والوداعة، ولكن وقاحة عروة وسخونة الموقف أخرجت منه هذا اللفظ القاسى.

وكذلك الإمام الشهيد الحسين عندما واجه شمر بن ذى الجوشن ذلك الظالم الذى كان له دور أساسى فى مذبحة كربلاء.. فى ذلك اليوم نظر الإمام الحسين إليه وقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ «كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى» (النجاة فى سيرة رسول الله - السيد محمد أبو العزائم).

وسئل الإمام حسن (حفيد رسول الله) عن رأيه فى السياسة؟.. فقال - من بين ما قال: (أن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا ما تنحى عن الطريق السوى).

وفى مسلم والبخارى أن عبد الله بن عمر سب ابنه بلال سبا سيئا حين أراد منع النساء من المساجد. ورأى بعض الفقهاء - كالسرخسى - أن التعريض بالشتم للإمام كاتهامه بالكفر لا يوجب التعزير، طالما أن الخلاف يدور حول قضايا عامة، ويقوم على أساس اجتهاد فقهى وكان ذلك استنتاجا من موقف الإمام على بن أبى طالب الذى ترك الخوارج وشأنهم طالما لم يختلفوا عن حق ولم يخرجوا عن طاعة ولم يحاربوا، فحتى الإمام العادل يجب أن يحتمل من يدعى عليه أنه ظالم ، بل وكافر! وهذا بطبيعة الحال يخرج عن نطاق هذه الآية التى نتحدث عنها، فهى تتحدث عمن ظُلم بالفعل، ولكن فى بعض الأحيان قد يرى المرء صوابا ما يراه الآخر خطأ، ولذلك فإن الحاكم العادل يجب أن يتسم بالحلم. وهذا اجتهاد من الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه سبق به الديمقراطيات المعاصرة وتفوق عليها.

أما فى عصرنا الحالى فقد استحدثت بعض الحكومات فى البلاد الإسلامية - ومن بينها

مصر ـ قوانين تعاقب على «اهانة رئيس الجمهورية أو الملك» وهى كلمة مطاطة وسيف مصلت على رقاب العباد، وهذا النص يخالف ويعارض هذه الآية الكريمة لأن المظلوم لم يعد من حقه أن يجهر بالسوء فى حق رئيس الجمهورية أو الملك وإلا لتوجه للسجن فورا.. أما جذبه من سترته.. فإذا طالت يد مواطن سترة رئيس أو ملك فإن جسده سيتمزق إربا قبل سؤاله عن سبب غضبه.. وقد حدثت وقائع من هذا القبيل بالفعل!

*****

﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

تعرضنا من قبل إلى الآية الكريمة التى تحدد أن من صفات المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى : ٣٩] ، وها هى هذه الآية تؤكد هذا المعنى.. مع تطبيق فى مجال الجهاد بالقول والكلمة.. فقد جاء ذلك فى إطار الآيات التى تحدد الموقف من الشعر والشعراء.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧] .

فالشعراء الذين يرضى الله عنهم ورسوله هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا حتى نضح ذلك الإيمان فى شعرهم.. والذين يستخدمون مواهبهم وملكاتهم فى الانتصار للحق والرد على الظالمين أى أن الشعراء الذين يهجون أعداء الحق والدين ليسوا من المذمومين.. حتى أن العلامة السيوطى ربط فى تفسيره بين تلك الآيات والآية السابقة التى كنا نتحدث عنها ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وأضاف أيضا الآية التالية: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

وتشير التفاسير إلى أن سبب نزول هذا الآيات في سورة الشعراء.. حدوث مواجهة تهاجى فيها رجلان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين.

وهكذا رخص لنا الله عزوجل هذا السلاح الذى يمس شغاف القلب ويحرك المشاعر (الشعر) فى عمل الخير ومقاومة الظلم والعدوان.. حتى وإن وصل إلى حد هجاء الظالمين.. وهو انتصار للحق دعانا الله عزوجل إليه.

*****

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

خطتى فى هذه الدراسة.. أن أعتمد على القرآن الكريم ثم السنة ثم كتابات السلف الصالح من الفقهاء.. ثم الفقهاء المعاصرون.. ثم اضافة تأملاتى وتجربتى الخاصة المتابعة للتطورات السياسية فى مصر والعالم العربى والإسلامى والعالم.. ومن دواعى أطمئنانى فى هذا البحث أن مجموعة الآيات التى أتوقف عندها فى القرآن الكريم على ما يبدو أحيانا من عدم وجود صلة ظاهرية بينها.. فإذا بدأت فى دراسة التفاسير وجدتها تربط بين الآيات التى استخرجتها للبحث حولها ودراستها.. فكثير من الآيات التى لا تبدو للوهلة الأولى لها علاقة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. ورأيت أنها متصلة بالموضوع وجدت المفسرين يقومون بعملية الربط هذه.. وهذا ما ألقى بالطمأنينة إلى قلبى فواصلت البحث.. أقول ذلك بمناسبة هاتين الآيتين الكريمتين.. وهى تمثل قانونا أساسيا من قوانين الله، وتحتاج إلى مؤلف مستقل فى علم الاجتماع.. لذلك سنحاول التركيز قدر الأمكان.. ونركز على الجوانب المتصلة بدراستنا نظرا لشمول واتساع القضية المطروحة فى هاتين الآيتين الكريمتين.

فى تفسير المراغى لأية سورة الرعد ربطها بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذى

أشرنا إليه من قبل «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب».

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

(انتهى الاقتباس) وقد تعرضنا بالشرح والتعليق على هذه الآية.

وهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تستخدم كثيرا على ألسنة الدعاة، وفى وسط العاملين فى الحقل الإسلامي والسياسى.. ولكنها تؤخذ على محمل فردى عادة.. وعلى محمل الأخلاقيات والسلوكيات الفردية.. بمعنى إذا أصلح كل مؤمن شأنه بنفسه فإن الأمور ستنصلح تدريجيا وتلقائيا فى المجتمع، وخطأ هذه الرؤية أنها تركز على طرف واحد من أطراف المعادلة وتتجاهل الطرف الآخر وهو الإصلاح الجماعى. وفى هذا عدم تقدير سليم لسنن الله فى خلقه الواردة فى القرآن الكريم والمشاهدة بالعين والملموسة باليد فى الواقع المعاش وتاريخ الأمم.. إن الإصلاح يقوم على ساقين لاغنى لأحدهما عن الآخر.. الإصلاح والتربية الفردية.. والإصلاح الاجتماعى الشامل لأحوال الأمة، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام تنطق بهذا وتجسده تجسيدا، فالرسول عليه الصلاة والسلام قام بتربية نواة صلبة من المؤمنين على عينه ..وأحتضنهم.. وحماهم بكل السبل.. حتى لقد خبأهم - إن جاز التعبير - فى الحبشة مرتين.. ثم أمرهم - بعد أمر الله له - بالهجرة إلى يثرب.. إنهم نواة المجتمع الصالح الجديد المنشود.. إنهم لبنات البناء.. وبدونها فلا بناء. أما الطرف الآخر للمعادلة فهو هندسة البناء وضرورة توفر مناخ اجتماعى صالح له، وهندسة البناء تعنى خطة ازاحة سلطة الطاغوت وأقامة سلطة المؤمنين العادلة.. أولا فى المدينة، ثم فى جزيرة العرب، ثم فى دوائر أوسع بعد ذلك.. ومن هنا كان التشريع بالجهاد.. وكانت السرايا، وكانت الغزوات وكان العمل السياسى واسع النطاق بين القبائل حتى تلك التى لم تدخل فى الإسلام لتحييدها وعقد تحالفات معها، وكانت الاتصالات الدولية، وكان

الحوار مع أهل الكتاب.. حتى يكونوا أكثر قربا للمؤمنين منهم للمشركين.. وإن كان اليهود نكصوا على أعقابهم، ونصارى الجزيرة العربية كانوا أكثر تسامحا وتفاعلا مع الدين الجديد.. وحتى لقد ارتبط الدخول فى دين الله أفواجا بالفتح والنصر والتمكين..

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢].

فالدخول الواسع فى دين الله قرين النصر فى هذا الصراع العقائدى السياسى العسكرى، ولم يكن نتاجا آليا تلقائيا للدعوة الفردية والإصلاح الفردى.. لكل إنسان على حدة.. وإلا فإنها تكون خطة غير عملية.. خطة مستحيلة.. أن تصلح فردا فردا من الملايين.. ليس لأن ذلك سيأخذ فترة طويلة تبدو لا نهائية فحسب.. ولكن أيضا عندما لا تكون السلطة فى يد المؤمنين.. وبالتالى التنظيم الكلى للمجتمع يدار على نحو معاد لهم.. فإن عوامل الهدم والنحت ستظل أقوى من عوامل البناء.. وهذا القانون سيظل يعمل إلى أبد الأبدين.. حقا لسنا الآن فى مرحلة دعوة جديدة.. ولسنا فى العالم الإسلامى عموما فى صراع بسيط بين الكفر والإيمان على المستوى المحلى.. إن نفس القانون يعمل فى مواجهة السلطة المستبدة الظالمة.. المنحرفة عن جادة الإسلام جزئيا أو كليا. ولعل تطورات العصر الحديث تؤكد هذه المعانى بعد تغول دور الدولة فى إدارة المجتمع.. سيطرة الدولة على مناهج التعليم، وهذا لم يكن متاحا لها فى تاريخنا الإسلامى الا لفترات محدودة وكان يتم ذلك عن طريق تغليب مذهب على مذهب فى إطار الإسلام.. سيطرة الدولة على الإعلام الذى يدخل فى كل بيت وكل غرفة نوم، وهذا ما لم يكن موجودا من قبل.. تدخل الدولة فى عالم الثقافة والكتب بالمنع أو الترويج. تأميم الدولة للعملية التشريعية وعزل هيئة العلماء وضرب استقلالها، وأيضا ضرب استقلال القضاء، والقدرة على الهيمنة البوليسية.. اليوم توجد أدوات رهيبة للتأثير الجماهيرى فإما أن تستخدم فى الخير فيكون خيراً عميما، وإما أن تستخدم فى الشر، فتكون شرا وبيلا فاليوم بعد الاذاعة والتلفزيون توجد القنوات الفضائية والفيديو والانترنت والكاسيت وأسطوانات الليزر.

فإذا كانت الخطة الفردية لم تكن مطروحة فى عهد رسول الله ﷺ «نقصد الخطة الفردية وحدها دون الخطة الجماعية لإصلاح المجتمع فى صورة طفرة» فهل يمكن أن تكون مطروحة الآن عندما أصبح الظلم والفساد والطغيان مسلحين بهذه الأجهزة المعاونة؟!

وإذا أخذنا مصر كمثال.. فنحن أمام حالة محيرة وغير مفهومة، إذا لم نفهم أصلا معنى القانون الإلهى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فالاقبال على الدين والتدين لاتخطئه العين، طوال العقدين الماضيين.. الاقبال على اقامة الشعائر والتمسك بالرموز الدينية.. وفى نفس الوقت يتجه المجتمع ككل إلى حالة من الانحدار الشامل، أزمات أخلاقية وجرائم لا مثيل لها فى تاريخنا كما ونوعا، فساد مستشرى حتى لقد تحول إلى قانون يحكم المجتمع، حالة من الترهل المجتمعى لم تشهدها مصر إلا فى أسوأ فترات تاريخها، وهى بالتأكيد أسوأ فترة فى تاريخنا المعاصر. ويستنتج البعض من هذا التجاور العجيب بين الاقبال على الشعائر الدينية من ناحية وحالة الفساد الخلقى والاجتماعى من ناحية أخرى، يستنتج أن هذا الاقبال على الدين اقبال مزيف وليس حقيقيا، ويقول بعض العلمانيين وكل الملاحدة إن هذه مجرد ظاهرة اجتماعية مؤقتة سببها الفقر.. وليس هذا صحيحا بطبيعة الحال ويكفى أن نقرر حقيقة يعرفها الجميع أن المد الدينى بلغ الطبقات العليا فى المجتمع، وأكثر النوادى والأحياء ارستقراطية، واخترق حتى بعض دوائر السلطة.

أما التفسير الحقيقى لهذا التجاور المخيف والعجيب بين المد الدينى.. ومد الفساد والانحلال.. هو تغلب النظرة الفردية لقضية التدين على النظرة الجماعية للإصلاح، حيث يفصل الناس بين اقبالهم على التدين.. الاقبال على دور العبادة «ليس لأداء الفرائض فحسب.. بل حتى لأداء النوافل. صلاة القيام فى رمضان كمثال»، وبين دورهم العام فى إصلاح المجتمع، وهو توجه أشبه ما يكون بخطة للخلاص الفردى وترك المجتمع نهبا لأزماته.. ويساعد على ذلك:

(١) حالة من الاحباط بعد هزيمة المشروع القومى الذى تصدى له النظام فى مصر فى

الستينيات وانتهى إلى هزيمة منكرة فى ١٩٦٧ لم تستطع حرب أكتوبر أن تمحو آثارها بسبب الادارة السياسية الفاسدة لما سمى عملية السلام، والذى قام بالأساس على الحل المنفرد المصرى - الإسرائيلى، وتزكية مشاعر الكراهية للعرب والمسلمين، والترويج لحياة الانتعاش والازدهار والاستمتاع بملذات الدنيا فى ظل الصداقة مع الولايات المتحدة، وترجع حالة الاكتفاء بالحل الدينى الفردى إلى أسباب عديدة أخرى.

(٢) تقديم تعاليم الدين الإسلامى بصورة انتقائية تستبعد مفهوم العمل الجماعى من خلال الإعلام الرسمى وقد أشرنا لذلك من قبل.

(٣) ترويج بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية - من غير المرتبطين بالسلطة - لمفهوم إصلاح الفرد والبيت كحل استراتيجى متكامل لاعادة بناء الدولة الإسلامية بصورة آلية تلقائية يوما ما. وهؤلاء يكون لهم مصداقية أكبر لأنهم لايتحدثون باسم السلطة، ويبعدون عنها، وبعضهم من المعارضين لها.

ولا شك أن المجتمع قطع شوطا مهما على هذا السبيل، وهذا التوجه خير لاشك فيه، ويقدم ذخيرة للمستقبل.. بتربية مجموعات من الشباب على أخلاق الإسلام وشعائره.. ولكنه وحده لايصلح خطة استراتيجية للتغيير، لأنه عمل يجرى على ساق واحدة كما ذكرنا، ولايمكن القول بأن هذه مرحلة تتلوها مرحلة أخرى فالعمل الإسلامى السليم يجمع بين الدائرتين الفردية والجماعية فى آن واحد ومنذ اللحظة الأولى.

(٤) الخوف من الممارسات الاستبدادية: سجون - معتقلات - تعذيب - تشريد.. وغير ذلك من وسائل الطغيان.

فى تقديرنا استقاء لسنن القرآن الكريم وسيرة رسول الله وما سبقه من أنبياء ورسل.. أن الإصلاح يسير على المحورين معا.. ذلك أن الاحتباس فى بناء الفرد المسلم كمرحلة مستقلة، يعنى احتباس مواز لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويعنى احتباس خيرة شباب الأمة فى مرحلة تغيير المنكر بالقلب.. ولم يحدث أن تم القضاء على منكر بالقلب

فى تاريخ البشرية فلابد من عمل إيجابى ومقاومة وتضحية وفداء وجهر بالحق مشخصا ومطبقا على كل موقف وحال أو قرار أو تشريع أو سياسة معلنة للدولة، وبهذا المعنى نفهم المغزى الأعمق لحديث رسول الله ﷺ: (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن «لو» تفتح عمل الشيطان) مسلم.

فكثير من الاقبال الحالى على الدين والتدين ما يزال يقع فى دائرة تغيير المنكر بالقلب.. وهو كما ذكرنا فى الحقيقة امتناع عن أداء المنكر أو الترويج له أو تأييده وهذا أدنى درجات المقاومة السلبية، وهذا هو الاستثناء فلا يمكن أن يتحول إلى قاعدة وتفلح الأمة.. إن أمة لا تمارس فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هالكة لامحالة..

ولنضرب مثلا واقعيا لتقريب المقصود إلى الذهن.. كم عدد الصحفيين الذين يؤدون الفرائض الدينية؟! لاشك أن عددهم كبير وفى تزايد مستمر مثلهم كمثل الشرائح الفئوية والاجتماعية الأخرى؟ ولكن كم واحد منهم احتج فى صحيفته أو من خلال النقابة شفويا أو مكتوبا على نشر إعلانات الخمور بصورة بارزة وعلى أغلفة المجلات الملونة.. وربما لأول مرة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. (اذكر منها الآن أكتوبر وروز اليوسف والأهرام) رغم أن قوانين الدولة المصرية تحظر هذه الإعلانات وتعاقب عليها بالحبس!!

كم عدد العمال الذين يؤدون الفرائض فى هذه المجلات وقاموا بطباعة هذه الإعلانات.. دون أدنى محاول للتعبير عن الاستنكار (بمناسبة العمال يذكر لعمال المطابع الأميرية أنهم كانوا يحتجون ويرفضون طباعة كتب الإلحاد والكفر الصادرة عن وزارة الثقافة وفقا لما صرح به أحد أتباع وزير الثقافة)، ولكن موضوع إعلان الخمور يتجاوز الصحفيين وعمال الطباعة لأن اعلانات الخمور تصدر فى المجلات ويقرأها الناس.. فماذا فعلوا للتعبير عن احتجاجاهم السلمى؟! كم واحد أرسل برقية أو رسالة احتجاج للصحيفة؟!

أرى أن الخمر ليس هو الخطر الأول الذى يهدد المؤمنين فى هذا البلد فى هذه اللحظة.. وللخمر موقعها فى سلم المحرمات الإسلامية والدينية عموما.. ولكننى أرى أن نشر الإعلانات وفى صحف حكومية هو الخطر الأول الذى يتهدد المجتمع، لأنه نوع جديد من الفجور لم يعرفه المجتمع، وجهر بالمعصية، وسياسة لإشاعة الفاحشة، واجتراء متبجح على حقوق الله، والمجتمع المتدين.. إنها حلقة فى سلسلة هدم الثوابت والمقدسات، وجعل الناس يعتادون على هذا الاجتراء على الله عز وجل.

إن صمت المؤمنين بالغ الخطر لأنه يفت فى عضدهم ويضعف إيمانهم، إن الأمر يتحول إلى سلبية مقيتة، حتى فى أمور لا تمثل أى خطر على الإنسان، فإن الاحتجاج السلمى الهادئ على هذه الاعلانات لن يؤدى إلى حبس أحد أو تشريده من وجهة نظرى، بل إن شيخ الأزهر أو مفتى الديار المصرية لو أصدر أى واحد منهما تصريحا صغيرا لتوقفت هذه الممارسة الشاذة، ولكن أحدا لا يعير ذلك التفاتا، ولا يرى حق الله المعتدى عليه.

أما الذين يتصورون أن خطة اعداد الفرد المسلم كخطة متكاملة ومنفردة ستؤدى إلى الفلاحُ فى النهاية ولو بعد عمر طويل، لأن المؤمنين يكسبون بها أرضا جديدة كل يوم.. أقول أن هذا غير صحيح لأن عوامل النحت والتعرية تفعل مفعولها فى هذا الاتساع المفترض للمساحة المحررة من المسلمين الحسنى التدين.. فعوامل الافساد محيطة بهم من كل جانب تقاوم توسعهم وتجذب عناصر منهم للتيار الدنيوى العام، وسنجد فى المجتمع شريحة واسعة من حاملى لقب «مجاهد سابق»، فخلاص المجتمع لايكون إلا خلاصا جماعيا.. ولايمكن أن يقتصر ذلك على لحظة التغيير الشامل فحسب، بل يجب أن تكون له مقدماته المتصاعدة.

نحن ـ كمثال آخر ـ أمام طوفان من الأغذية الفاسدة فى الأسواق.. وأصبحت الأمراض الخطيرة (السرطان ـ الفشل الكلوى ـ الكبدى) تأخذ أبعادا وبائية، ولايختلف أغلب الناس على أسباب ذلك (وسائل وزارة الزراعة ـ عدم ضبط الاستيراد)، ولكن لاتوجد حركة

شعبية لمقاومة هذا التخريب رغم أنه يمس حياة كل مواطن.. رغم أن كل أسرة مصرية أصبح لديها شهيد أو مصاب بسبب هذا الغذاء الملوث. لا توجد حركة جدية لحماية المستهلك، ولاحركة احتجاج منظم من أى نوع، إلا حملة جريدة «الشعب» وحركة حزب العمل، وما تنشره معظم الصحف من معلومات تؤكد صحة ما تنشره «الشعب» وتزيد عليه وقائع أخرى.

إن المجتمع وصل إلى حالة من السلبية.. تصل إلى مستوى عدم ممارسة حق الدفاع الشرعى عن النفس كإنسان يفتح صدره لقاتله كي يحسن قتله.. حالة مخيفة من الاستسلام رغم أن فساد مزروعاتنا وتأثيره على الصحة وصل الحديث عنه إلى الاذاعة والتلفزيون الحكوميين ورغم الرقابة الشديدة المفروضة عليهما.

ورغم انني رفضت أن أصف ظاهرة المد الدينى التى تشهدها البلاد منذ عقدين وحتى الآن بانها ظاهرة مزيفة.. إلا أنها ستتحول إلى تدين منقوص، ومجرد محاولة لارضاء النفس إذا أصر المؤمنون عليها.. فالمؤمن بطبيعته ليس أنانيا ولا فرديا.. وفى الحديث «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» البيهقى ـ الطبرانى.

وأيضا «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» البخارى ـ مسلم.

فكما ذكرنا مرارا فإن الله لايستزيد شيئا من الشعائر والعبادات وإنما شرعت لنا لتكون مولد الطاقة لإقامة المجتمع الصالح العادل.. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا» وفى حديث آخر عن الحسن رحمه الله: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهى وبال عليه» الكشاف.

حقا نحن نتحدث عن المؤمنين الذين يحاولون النجاة بأنفسهم دون أن يتورطوا فى مشاكل المجتمع وهم يسعون فى ممارستهم الشخصية أن يبتعدوا عن الفحشاء والمنكر، ولكن أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو رأس العمل الصالح.. والصمت على

جرائم لم تترك أسرة واحدة دون اصابة فى صحتها.. منكر لاشك فيه، بل لقد أمرنا الله والرسول عليه الصلاة والسلام أن ندافع عن حياتنا وأرواحنا وأموالنا وأهلينا، حتى لقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» رواه أبو داود والترمذى (حسن صحيح).

فماذا عن أمة مهددة فى حياتها وصحتها فى كل لحظة.. ولا تقاوم؟! ياخير أمة أخرجت للناس!

كذلك يمكن أن نستقى من معنى الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ما أشرنا إليه سابقا تحت عنوان (دستور الطغيان) وهو أن الحكم الظالم يستمر برضاء الناس إما خوفا وجبنا وإما بحثا عن حل فردى هنا أو هناك، مهرب فردى بصورة أو بأخرى، لذلك فإن الظالم إذا استمر فى حكمه طويلا.. فلأن المظلومين رضوا بظلمه وركنوا إلى خيار الذل وهو ذل لايرضاه الله ورسوله لهم.

كذلك نفهم من الآيتين الكريمتين فى الأنفال والرعد.. أن التغيير يتم نحو الأحسن أو نحو الأسوأ وفقا لما يستحق الناس ووفقا لما كسبت أيديهم.. فكما أن المنكوبين لن ترتفع هاماتهم إلا إذا تقدموا على الطريق المستقيم (كأفراد ـ وجماعات).. فإن المفرطين فى نعم الله لن يستمروا فى أحوالهم الرغدة بل سيسقطون إلى أسفل سافلين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

كذلك نفهم من الآيتين الكريمتين أن تداول الأيام بين الناس داخل المجتمع الواحد أو بين الأمم، مرتبط بالأخذ بالأسباب والسنن وهذا ما فصلناه خلال حديثنا عن الآية الكريمة (واتقوا فتنة...)، لماذا مثلا تتسيد إسرائيل علينا وعلى العرب؟ ولماذا تتفوق على مصر صاحبة الحضارة العريقة؟ هذا أكبر دليل على أن رفع رايات الإسلام دون مضمونه، أو الركون للعبادة دون العمل الصالح ودون العمل بسنن الله التى لاتتبدل، لن يجد فتيلا،

فتكون إسرائيل عدوة الله والمسلمين هى الأقوى والأطول يدا، ونحن ٦٥ مليون مصرى أمام ٤ مليون يهودى، لقد وقع حكامنا اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل بدعوى التفرغ للبناء والتنمية.. فماذا كانت النتيجة بعد ٢٢ سنة؟ لابد أن تكون النتيجة سيئة، لأننا بدأنا أولا بالتفريط فى نتائج حرب أكتوبر، ثم رفعنا من نبرة الاقليمية المصرية ونحينا الرابطة العربية - الإسلامية، وبشر حكامنا بالرابطة المصرية الإسرائيلية الأمريكية، ثم الشراكة مع أوروبا والغرب عموما؟ ثم البحر متوسطية ثم الشرق أوسطية، فى تعارض صريح مع آيات القرآن الكريم فى تحريم موالاة الكفار والمشركين دون المؤمنين، وكان البرنامج المعلن للنهضة والتنمية منذ عهد السادات فى سنواته الأخيرة وحتى الآن يعتمد على نقطة تكاد تكون الوحيدة أو الاساسية.. (الاعتماد على أريحية الولايات المتحدة ثم الغرب عموما) وغرقت البلاد فى بحار من الديون والمنح ضيعت ارادتها المستقلة مما حدا بالدكتور جلال أمين إلى اطلاق تعبير «اقتصاد البقشيش» باعتباره أدق تعبير عن حقيقة الاقتصاد المصرى.

وحتى ما بدا أنه زيادة للموارد بعيدا عن المنح والقروض الغربية، فلم يكن تعبيرا عن زيادة انتاجية.. بل كان استنزافا لمواردنا البترولية فى التصدير وإيرادات قناة السويس وتحويلات المصريين بالخارج، أى أن خطتنا للتنمية على مدار عقدين خرقت عددا من القوانين القرآنية وعملت عكسها:

(١) موالاة أعداء الإسلام باعتبارهم المنقذين والمخلصين من التخلف والذين يمدوننا بأسباب القوة الغذائية والاقتصادية.. وحتى العسكرية.. بل ووصل الأمر إلى حد تدخلهم فى شئون التعليم والمناهج والثقافة وقوانين الزواج والطلاق والختان.

(٢) أن هذه الموالاة لأعداء الإسلام جاءت على حساب موالاة المؤمنين من العرب والمسلمين فتدنت علاقتنا معهم إلى أبعد حد، بل وكنا فى بعض الأحيان عونا للأعداء على أمتنا.. (الالتزام بالحصار ضد ليبيا والعراق - اعطاء غطاء شرعى للتدخل العسكرى الامريكى فى الخليج..).

(٣) أننا بدلا من موالاة المؤمنين المصريين أنشغلت السلطة بانهاك واستنزاف القوى الإسلامية بكل اتجاهاتها ومجالات عملها.

(٤) كرست السلطة استبعاد الشورى كمنهج للحكم.

(٥) وهو الأمر الذى أدى إلى أن يوسد الأمر إلى غير أهله.. وقد وصف الرسول عليه الصلاة والسلام أن أمة هذه حالها عليها أن تنتظر الساعة، وكذلك جاء فى الحديث: «من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين».

(٦) أدى استبعاد الشورى إلى تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تدريجيا والتى كانت تمارسها بالاساس صحف المعارضة.. فاتجه الحكم للتضييق عليها والعصف بها فى أواخر عهد السادات ثم النصف الثانى من العهد الحالى بدءا من قانون ٩٣ حتى اغلاق الصحف وحبس الصحفيين.. بالإضافة للتنكيل بالعلماء المستقلين عن سطوة الدولة وعزلهم من الأزهر ومنعهم من النشاط الدعوى.

(٧) وبالتالى عدم وجود آلية لمكافحة الفساد.. ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

(٨) عدم أقامة العدل بالمعنى السياسى والاجتماعى مع التقليص المستمر للعدل القضائى من خلال تدخل السلطة التنفيذية فى شئونه، من خلال وزير العدل، وغياب العدل الاجتماعى أدى إلى تبلور طبقة المترفين.

(٩) عدم الأخذ بالقانون الإلهى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].. وهو الأمر الذى تطور إلى ترك فريضة الجهاد والتبشير بانتهاء الجهاد.. على أساس أن السلام مع أعداء الإسلام خيار استراتيجى.. وهذا ما لم يرد فيه نص فى قرآن أو سنة، بل هناك بالتأكيد نصوص عكسية.. فيمكن أن تكون هناك هدنة أو معاهدة.. ولكن لايوجد سلام استراتيجى مع أعداء الله الذين يحتلون أراض المسلمين.

(١٠) وجماع كل ما سبق هو حب الدنيا، وتكفى هنا الاشارة لحديث رسول الله ﷺ

الذى كشف فيه عن الأسباب العميقة لضعفها حين تضعف وهوانها حين تهون على أعدائها فقال ـ وصدق الزمن ما قال ـ عليه السلام: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ ـ أى ما سببه؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

قد لا يكون فى النقاط السابقة حصر شامل لكل سنن الله التى لم نراعها على مدار العقدين الماضيين ولكن بالتأكيد فهى السنن الرئيسية.

بعد ٢٢ عاما من خرق هذه القوانين الإلهية والسلام مع إسرائيل والصداقة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة ما هى النتيجة؟ وكما ذكرت فإن موضوع هاتين الآيتين وما يثيره من تطبيقات يحتاج إلى مُؤلف كبير، ولكننا نحدد رؤوس أقلام فحسب، وبعض الأمثلة الصارخة.

ما هو وضعنا بالمقارنة مع إسرائيل؟!

صادرات إسرائيل بلغت ٥٠ مليار دولار.. وصادراتنا ٦ , ٤ مليار دولار.

مصر تصدر ٥٠٠ كتاب سنويا ـ إسرائيل تصدر ٥ آلاف كتاب رغم أن عدد سكان مصر ٦٥ مليون وإسرائيل ٤ مليون نسمة، الحد الادنى للأجور فى مصر دولار واحد يوميا، وفى إسرائيل ٨دولارات، ترتيب مصر فى التنمية البشرية (التى تحسب الدخل والتعليم والصحة) ١١٩ على العالم، وإسرائيل ٢٣، ووصل التدهور الاقتصادى فى مصر إلى حد العجز عن التصدير للدول العربية، حيث بلغت الصادرات ٤٨ مليون دولار (الاحرار ١٥/ ٩/ ٢٠٠٠) وتحقق مصر عجزا تجاريا مع كل دول العالم تقريبا، فمصر تستورد من أفريقيا غير العربية بـ ١٤٥ مليون دولار وتصدر لها بـ ٣٩ مليون دولار وفقا لاحصاءات ١٩٩٩ (الوفد ١٥/ ٩/ ٢٠٠٠). وصادراتنا معظمها لأوروبا وأمريكا ومعظمها مواد خام!!! ولا أتحدث عن النواحى العسكرية والتفوق الإسرائيلى فيها فهو أمر مشتهر..

إسرائيل كيان مصطنع منذ ٥٠ عاما.. ونحن كيان أصيل منذ أكثر من ٧ آلاف سنة.. رد المعاندين جاهز.. ان إسرائيل تعتمد على الدعم الدولى من الصهيونية العالمية وأمريكا.. وهذا معروف.. ولكن إسرائيل نشأت رغم ذلك كدولة فقيرة ومتقشفة بالمقارنة مع مصر.. وهى لم تقفز ولم تقو إلابعد انتصارها فى ١٩٦٧، وهو الانتصار الذى أدى بدوره إلى ازدهار الصهيونية العالمية، فالمشروع الناجح المنتصر يحشد اليهود ويجيشهم.. وقد كان كثير من اليهود يخشون من مشروع الكيان الإسرائيلى فى فلسطين. فكما أن الحق يزداد أنصاره بالقوة والانتصار (سورة النصر) فإن البغاة حين ينتصرون أيضا فإن نصرهم يحدث زخما فى معسكرهم ومعسكر حلفائهم الاستعماريين.. هذه واحدة.. أما النقطة الأهم.. فهى: إذا كان لإسرائيل عمق صهيونى وغربى.. فإن لمصر بطبيعة الحال عمقاً عربيا ـ إسلاميا ـ أفريقيا.. فالسلطة المصرية ضيعت هذا العمق.. ثم تتباكى كلما وضعت فى وضع حرج.. من العمق الصهيونى الغربى للكيان الإسرائيلى. أنت ضيعت نقاط قوتك، وتذهب للأعداء (أمريكا) تريد استعواض هذه النقاط.. وهذه حماقة حتى بالمقاييس الدنيوية.. بل وصلت الحماقة إلى حد اللجوء لإسرائيل ذاتها لترعى أخطر قطاع اقتصادى فى البلاد (الزراعة).. هل أمة هذا وضعها يمكن أن تفلح وأن تجابه تحديات السلام والحرب؟!

ولكن كيف يمكن الله لأعداء الله علينا.. ونحن فى النهاية مؤمنين موحدين؟!

ولماذا تكون إسرائيل أقوى منا رغم أنها ليست أكثر قربا من الله؟!

والحقيقة.. هذا هو القانون الصارم.. وهذا معنى سنة الله.. فالقانون لا يعرف محاباة إلا فى البلاد التى يسود فيها الفساد.. وحتى فى أكثر البلاد عدلا تكون هناك درجة من المحاباة والتحيز.. أما القانون الإلهى فهو صارم لايعرف زيدا أو عبيدا، لايعرف مؤمنا أو كافرا.. قانون الجاذبية لا يفرق بين مؤمن وكافر.. وأيضا قوانين العمران البشرى... ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

والمسألة يمكن أن نضعها على النحو التالى:

على مستوى الصراع بين الأمم: فإن لهذا الصراع جانبين روحى ومادى .. ففى صراعنا مع إسرائيل هناك شقان: الشق العقائدى والوطنى.. والشق المادى.. على المستوى العقائدى فإن عقيدتنا تحمل عنصر التفوق.. فهى الرسالة السماوية الختامية.. تحمل رؤية حضارية إنسانية لا تعرف العنصرية منبثقة من تعاليم القرآن والسنة.. لدينا استعداد للاستشهاد فى سبيل الله..فوفقا لعقيدتنا فإننا لانهاب الموت بينما يودون هم أن يعمروا ألف سنة.. وهم أيضا لديهم عقيدة، قد تكون عنصرية محرفة إلى حد مذهل، ولكنهم أناس متعصبون لما يعتقدون، وهناك قواسم مشتركة عميقة تجمع العلمانيين والدينيين فى كل واحد.. فإذا أنت أسقطت الجانب الجهادى الجوهرى فى عقيدتك أصبحت متساو مع العدو.. وأخرجت من ساحة المواجهة أمضى سلاح، والروح الجهادية لاتقتصر على مجرد لحظة المواجهة المسلحة.. بل هى تسرى فى مرحلة الاعداد.. وفى عمليات البناء وتدعيم كل أسباب القوة بالمعنى الشامل وليس العسكرى فحسب مما يتطلبه ذلك من درجة من التقشف والاستعداد لتحمل معاداة الغرب المتحالف مع إسرائيل.. فقد صور لنا حكامنا مرحلة السلام بأنها مرحلة مستديمة.. من الرغد والعيش الهنيئ.. مرحلة مفتوحة من الناحية الزمنية ملؤها الدعة والاسترخاء والاستمتاع بملذات الحياة الدنيا.. وأسقطنا الآية الكريمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

إن قرار الحرب والسلام ليس فى أيدينا وحدنا، فهناك عدو متربص ممكن أن يفرض علينا الحرب فى أى وقت، وإذا لم نكن مستعدين لذلك، يمكن أن يفرض شروطه علينا.ففى عهود قوة الدولة الإسلامية كانت الصين وروسيا وبولندا-على سبيل المثال- تدفع الجزية دون أن تدخل الجيوش الإسلامية عواصم هذه الدول. وعندما نضعف فإننا ندفع الجزية للعدو الإسرائيلى دون أن يطلق علينا رصاصة واحدة.. ونحن بالفعل ندفع الجزية فى صورة بترول مصدر بالاكراه لإسرائيل.. وفى صورة تطبيع زراعى.. وفى صور أخرى..

لا يمكن لدولة إسلامية فى وزن مصر أن تسقط احتمال الحرب فى ظل احتلال القدس والأراضى الفلسطينية والسورية، وفى ظل حلف عسكرى تركى - إسرائيلى.. وفى ظل تربص عسكرى أمريكى.. وفى ظل قوى معادية تتحرش بمنابع النيل وبالقرن الأفريقى. وفى كل الأحوال - وطالما استمرت الحياة على الأرض - فلا يوجد شئ اسمه سلام أبدى مضمون.. وكل أمة تحمى نفسها ومكتسباتها.. حتى الدول التى أعلنت الحياد.. والتى لايوجد لها أعداء تقليديون.. تهتم بتطوير قدراتها العسكرية (سويسرا - الدول الاسكندنافية).. فأى غفلة تقع فيها مصر الواقعة على حدود فلسطين المحتلة.. عندما تسقط فريضة الجهاد.. ويظل إعلامها يمارس غسيل المخ على الشعب المصرى.. بأن حرب أكتوبر هى آخر الحروب.. وماذا إذا كان للعدو رأى آخر؟! هل نستسلم له؟! هل نفتح له الأبواب؟!

هذه النغمة لم تؤثر على استعدادنا العسكرى فحسب.. بل أثرت بالأساس على معنويات الشعب ودفعته دفعا للالتهاء بملذات الحياة الدنيا.. ومن لم يجد مالا كافيا فليسافر إلى الخليج.. وغير الخليج ليرتقى بمستوياته الاستهلاكية.. باعتبار أن ذلك هو الهدف الوحيد للحياة.

وطوال هذه الفترة ظلت إسرائيل تستعد للحرب كأنها ستقوم غدا..

ونحن لم نتعامل مع التنمية الاقتصادية باعتبارها أكثر مشقة من الحرب.. وأنها عمل كفاحى دونه العرق والدم والدموع.. واعتمدنا على عشرات المليارات من المنح والقروض.. واعتمدنا على صناعات التجميع والتوكيلات الأجنبية.. ولم نطور قاعدتنا الصناعية. ولم ندعم البحث العلمى.. أما ما حدث فى الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية فكان كارثة بكل المقاييس.. بل رحنا نلتمس العون من العدو فى البذور والتقاوى والمبيدات وسلع الهندسة الوراثية.. فكانت خرابا على انتاجنا فى هذه المجالات الحيوية، وخرابا على صحة الإنسان المصرى.

قلنا إن الصراع بين الأمم له جانبان: روحى ومـادى.. فنحن بتخلينا عن روح الجهاد التى يجب ألاتسقط فى حالات الهدنة.. فقدنا تفوقنا فى الجانب الروحى.. بينما سبقنا العدو فى الجوانب المادية.. لذلك كان لابد أن تكون له اليد العليا إلى أن نغير ما بأنفسنا.

ولا أعنى أن ما ينقصنا هو استعادة قوتنا العقائدية والروحية وترك الفجوة المادية كما هى بيننا وبين العدو.. فالأمـران متلازمان.. تظل القوة العقائديـة والروحية هى الأسـاس.. وهى قانون أسـاسى فى حد ذاته يحكم الصـراع.. ولكن استكمـال جوانب القـوة المادية أمر لازم ومكمل خاصـة وأن عقيـدتنا تحضنا على ذلك (وأعدوا لـهم ما استطعـتم من قوة). ولنا فى حزب الله اللـبنانى أسوة حسنة.. فـقد عـمل بكل هذه القوانين فكان له النصـر المؤزر على العدو.. حيث اندمجت الروح الجـهادية الاستشهادية باستكمال كل مـقومات القوة (الأخذ بالأسباب).. تدريب.. تطوير الأسلحة.. والتكتيات.. دعم صمود أهالى الجنوب.. وصمود الجبهـة الداخلية.. موالاة المؤمنين (تحـالفات مع القوى الإسلامـية والقوميـة) داخل وخارج لبنان.. التفـوق المذهل فى الأعمال الاستـخبارية التى وصلت إلى حـد اختراق قيـادة جيش لحد العـميل.. وقد كان ذلك من أهـم أسباب نجاح العـمليات التى استـهدفت تصفيـة قادة الجيش الإسرائيلى.

وقبل أن نصـاب بالانتكاسة الحـضارية الشاملة.. فـإن ما أنجزنـاه فى حرب أكتـوبر كان تنفيـذا وامتثالا لهـذه القوانين.. فقد سـعينا إلى أبعد حد لتـضييق الفجـوة المادية مع العدو، وتفوقنا عليه بالروح القتالى الاستشهادى تحت شعار الله أكبر.. إن سقوط خط بارليف بهذه الخسائر المصرية المحدودة مـوقعة عسكرية ستظل درسا يدرس عبر الأجـيال القادمة.. ولكن القيادة السياسـية لم تطور الهجوم العسكرى.. ثم أدارت الصراع سياسـيا بعد ذلك بما ضيع كثيـرا من ثمار هذا النصر لأن عين القـيادة السياسيـة كانت متركـزة على سرعة الارتماء فى أحـضـان الولايات المتـحدة، للتـوصل إلى حل سـيـاسى مع إسـرائيل بأسـرع مـا يمكن.. والدخول فى المعسكر الأمريكى حيث السمـن والعسل.. وحتى لقد بلغ الأمر بالسـادات إلى الإعلان عن أنه يدرس الانضمام لحلف الأطلنطى!!

والمثير للأسى.. أن الكيان الصهيونى يشهد تراجعا كبيرا فى الناحية العقائدية والروحية ويشهد عديدا من أشكال التشقق والتفسخ، ولكن المحصلة العامة ما تزال لصالح إسرائيل.. لأنه لايوجد مشروع مناهض جدى لمقاومتها.. ورغم التفسخ الأخلاقى المتسارع فى إسرائيل.. حتى أصبحت تل أبيب عاصمة للدعارة والشذوذ الجنسى.. ورغم الاندفاع نحو الاستمتاع بملذات الدنيا.. وكراهية الموت.. وتراجع فكرة دفع التكاليف أو تقديم تضحيات لصياغة المشروع الصهيونى.. إلا أن غياب المشروع المجاهد المضاد.. لا يسمح بالاستفادة من تنامى عناصر الضعف فى الكيان الإسرائيلى.. وفيما عدا مشروع حزب الله الذى انتصر على مستوى تحرير جنوب لبنان دون تنازلات، والاهم أنه انتصر على صعيد تقديم النموذج والمثل.. ولكن فى مقابل هذا التدهور فى البنية الإسرائيلية، فلا تزال إسرائيل تتمسك بعدد من القواعد الاجتماعية الرشيدة الغائبة عن المجتمع المصرى.. فهناك «شورى» داخل المجتمع اليهودى.. وانتخابات حرة.. وديمقراطية فى اتخاذ القرار.. وحرية تكوين التجمعات والجماعات المختلفة [ولا يسرى هذا بالطبع على عرب إسرائيل (مسلمين ومسيحيين) إلا على سبيل استكمال الشكليات الديمقراطية فهم حقيقة مواطنون من الدرجة الثانية والثالثة والعاشرة]. ولا يوجد فى الحكم شخص واحد بيده الأمر والنهى، وكل هذه عوامل تساعد على تماسك الكيان الصهيونى.. وترشيد اتخاذ القرارات. وهناك أولوية قصوى لمجالات البحث العلمى والصناعات المتطورة. وهناك آلية للمحاسبة شبيهة بآلية الغرب، فيمكن أن يستدعى نتنياهو للتحقيق معه فى قسم الشرطة. ويمكن أن يحاسب رابين على فتح زوجته لحساب فى بنك أجنبى بالمخالفة للقانون، ويمكن أن يحبس وزير بتهمة الفساد.. والفساد مستشر فى إسرائيل بصورة واسعة وفى ازدياد.. ولكن ما تزال هناك قواعد معقدة للعبة.. لاتجعل المسئول الكبير يتلاعب وهو مطمئن تماما من غوائل المحاسبة.. الناجمة عن التنافسات الحزبية.

والمحصلة النهائية لكل هذه العوامل الروحية والعقائدية والاجتماعية والمادية فإن إسرائيل لها اليد الطولى فى المنطقة، بل إنها تخترق المجتمع المصرى ذاته.. من داخله.. دون

أن تتمكن الدولة المصرية من وقف هذا الاختراق.. حتى لقد أصبح لدينا فى مصر لأول مرة بعد نشأة الكيان الإسرائيلى لوبى صهيونى مؤثر فى حياتنا السياسية والاقتصادية والإعلامية.. لوبى صهيونى من مصريين يحملون بطاقات شخصية مصرية.. لايستطيع أحد أن يقترب منهم، لهم حصانة، ومن يقترب منهم يحترق هو!! وهم موجودون وممثلون فى مختلف مؤسسات الدولة.

إذن فإن تطبيق ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فيما يتعلق بالصراع مع إسرائيل.. فإن ذلك يعنى ضرورة العودة إلى روح الجهاد.. والعمل بالسنن العشر التى أشرنا إليها أنفا. وهى بالمناسبة نفس السنن التى تصلح شأننا الداخلى فلا فصل حقيقة بين العلاقات الداخلية بين الحكام والمحكومين، وعلاقة أمتنا المصرية بالعالم الخارجى.. نحن أمام موضوع واحد: من نحن؟ وما هو مشروعنا لإعمار الأرض، ما هى رسالتنا؟ وإلى أى حد نحمل الأمانة التى عرضها الله علينا (على الإنسان) وقبلناها؟!

وعلى الصعيد الداخلى فإن تطبيق ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعنى أن تستعيد الأمة المبادرة.. وأن تؤكد للحكام أنها مصدر السلطات (فى ظل الشريعة الإسلامية).. وأن تستعيد الوعى، بالسنن العشر التى أشرنا إليها، وعلى رأسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنه وسيلتها للإصلاح بعد تدهور الاحوال إلى المدى الذى وصلت إليه. وأن يكون ذلك من خلال العمل الجماعى وبدعم الأحزاب والجماعات والهيئات الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، حتى يتحول الرأى العام من حالة سديمية غير مؤثرة.. إلى قوة مؤثرة وضاغطة على السلطة الاستبدادية.

*****

ولكن ماذا جاء فى بعض التفاسير عن هاتين الآيتين ويتفق مع المنحى العام الذى اتخذناه..

فى تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] يقول د.عبدالله شحاته:

(جعل الله لهذا الكون نواميس وأسبابا، فمن سلك طريق الهدى، يسر الله له سبل الهداية، ومن بدل نعمة الله كفرا، غير الله عطاءه له إلى نقمة وعقاب فى الدنيا والآخرة، وتلك آية فى العدالة الإلهية فقد جعل للنصر أسبابا، وللهلاك أسبابا، فلا يسلب الله نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخير والأعمال الصالحة. ومن أسباب استحقاق الناس للعقوبة ظهور الفاحشة يتعامل بها علانية وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأشار العلامة ابن خلدون فى مقدمة التاريخ إلى هذا المعنى تحت عنوان (الظلم مؤذن بخراب العمران) وأخذ يضرب الأمثال بكثير من الأمم التى ثلّ الظلم عروشها وأذل أهلها وجعلها طعمة للآكلين ومثلا للآخرين).

وحول التساؤل الذى يرد فى الذهن.. كيف يمكن لأصحاب عقيدة فاسدة كالإسرائيليين أن يكونوا أقوى من أصحاب عقيدة صحيحة.. هنا فإن العبرة تكمن فى مدى تمسك كل طرف بما يعتقده.. فإذا أهمل أصحاب العقيدة الصحيحة عقيدتهم.. وتمسك أصحاب العقيدة الفاسدة بها ينتصر الأخيرون.

يقول الشيخ محمد عبده:

(إن للعقائد الدينية الصحيحة والخرافية آثارا فى وحدة الأمة وتكافلها وقوة سلطانها أو ضعفه).

ويضيف: (إن من الأخلاق ما لا يجادل أحد فى حسنه على نفسه وفى استقامة المعاملات العامة فى الأمة به كالصدق والأمانة والعدل، وإن امترى كثيرون أو ماروا فى كونها دعائم أسباب النجاح والفلاح فى المعيشة أو الترقى فى مناصب الحكومة، ولكن قلما يجهل أحد من أذكياء هؤلاء الممترين فى فساد الجماعة أو الشركة أو الحكومة التى يرتقى العامل فيها بالكذب والخيانة والظلم، وإذا بلغ قوم هذه الغاية من الفساد ألفوه وعدوه من ضروريات الحياة، ولم تعد قلوبهم تتوجه إلى الخروج منه بإصلاح ما بأنفسهم).

وفى جريدة العروة الوثقى كتب محمد عبده عام ١٨٨٤ وهى فترة مماثلة لما نحن فيه من

حيث سيادة الأجنبى، وتدهور المعنويات، وخمود الحركة الشعبية (هذه هى الأمة العظيمة التى أصبح ملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الاجنبية، يا للمصيبة ويالرزية!! أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل، ما سبب هذا الهبوط وما علة هذا الانحطاط؟ هل نسئ الظن بالعهود الإلهية؟ معاذ الله! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا؟ نعوذ بالله! هل نرتاب فى وعده بنصرنا بعدما أكده لنا؟ حاشاه سبحانه! لا كان شئ من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها، إن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة ثم قال: (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أرشدنا سبحانه فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها ولابادت ومحى أسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر واشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة، والتدبر فى أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة، حادوا عن الاستقامة فى الرأى، والصدق فى القول، والسلامة فى الصدر، والعفة عن الشهوات، والحمية على الحق، والقيام بنصره، والتعاون على حمايته، خذلوا العدل ولم يجمعوا هممهم على اعلاء كلمته، واتبعوا الأهواء الباطلة، وانكبوا على الشهوات الفانية، وأتوا عظائم المنكرات، خارت عزائمهم، فشحوا ببذل مهجهم فى حفظ السنن العادلة واختاروا الحياة فى الباطل على الموت فى نصرة الحق، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين. هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل التى أشرنا إليها، وجعل هلاكها ودمارها فى التخلى عنها سنة ثابتة لاتختلف باختلاف الأمم ولاتتبدل بتبدل الأجيال، كسنته تعالى فى الخلق والايجاد وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال).

ويضيف: (كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ويسفكون دماء الأبرياء من إخواننا، ولانرى فى أحد منا حراكا) وكأن الامام يتحدث عن موقفنا مما يجرى الآن فى العراق وفلسطين والشيشان!.

ويضيف: (هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئا من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، كل واحد منهم يود لو يعيش ألف سنة، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ومسكنه الهوان، تفرقت كلمتنا شرقا وغربا وكاد يتقطع ما بيننا، لايحن أخ لأخيه، ولايهتم جار بشأن جاره، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلا ولاذمة، ولاندافع عن حوزة ديننا ولانعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا.

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب؟ هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف؟ فإن أصابهم خير أطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا ألا يبتلى الله ما فى صدورهم ولا يمحص ما فى قلوبهم؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره واعلاء كلمته لا يبخلون فى سبيله بمال ولايشحون بنفس! فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة فى سبيل الإيمان لا بماله ولا بروحه؟

يا سبحان الله، إن هذه أمتنا أمة واحدة، والعمل فى صيانتها من الأعداء أهم فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء، يثبت ذلك نص الكتاب العزيز، واجماع الأمة سلفا وخلفا، فما لنا نرى الأجانب يصولون على البلاد الإسلامية صولة بعد صولة ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الإيمان آهلون لكل أرض متمكنون بكل قطر ولا تأخذهم على الدين نصرة ولاتستفزهم للدفاع عنه حمية؟).

لاشك أن الصورة فى العالم الإسلامى فى نهاية القرن العشرين أفضل من هذه الصورة التى عاشها الافغانى ومحمد عبده فى لحظة سقوط العالم الإسلامى بأسره تحت أقدام الاحتلال الأوروبى فمنذ عقدين هناك صحوة فى العالم الإسلامى.. وموجة جديدة من التحرر من الهيمنة الغربية متحالفة مع المواقع الصامدة من مرحلة القومية العربية، ولكن الصورة تنطبق على حالنا فى مصر الآن مع كل أسف.. هيمنة أجنبية.. وقلة الاستعداد

والحركة لمواجهة هذه الهيمنة التى تأخذ شكل التبعية للولايات المتحدة.. والاستخزاء أمام إسرائيل والتخلى عن المجاهدين والصامدين فى كل مكان (إلا قليلا).

ويضيف الشيخ (أقول ولا أخشى نكيرا: لايمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان لايراعى فى ذلك عذرا ولا تعلة وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله).

* * * * *

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُون﴾ [الأنفال:٢٢].

مازلنا فى سورة الجهاد (الأنفال) وهذا الخطاب شديد اللهجة موجه للمؤمنين حتى يحذروا من السقوط فى هاوية المشركين والمنافقين، وقد جاء موقعها فى السياق التالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ ـ ٢٢] والطاعة لله والرسول أمر عام فى كل شئون المؤمنين، ولكن هذه السورة كما ذكرنا تتخصص فى الجهاد من أول آية حتى آخر آية.. وهكذا فإن التولى (أى الإعراض) عن الرسول فى موطن الجهاد.. يجعلكم كالمنافقين الذين قالوا: سمعنا الحق ووعيناه، ولكنهم لا يذعنون له ولا يؤمنون به فكانوا كغير السامعين.. وهؤلاء هم شر الدواب فلا تكونوا أمثالهم. وهذا المعنى تكرر فى القرآن عدة مرات مثل: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

فالإنسان إذا لم يرتفع إلى مستوى الأمانة التى رفعته فوق الملائكة حتى أمرهم الله بالسجود له.. إذا لم يرتفع إلى هذا المستوى.. يهبط إلى مستوى أدنى من الأنعام والدواب لأن الحيوانات لاتملك العقل وحرية الاختيار والقرار كالإنسان، فإذا ضيع الإنسان نقطة قوته الاساسية، فإن الحيوانات تتفوق عليه، لأنها ـ بطبيعتها ـ ليست معرضة للانحراف والكفر

ولا تلام على ذلك، أما الإنسـان فلأن له حريـة الاختيـار يلام عليه ألا يعقل وألا يفـقه وألا يسمو إلى المكانة التي استحقها.. وخلق من أجلها.

وهذا المعنى يستقى أيضا من القرآن الكريم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

وإذا كان مفهوما أن يكون الحيوان تابعا لراعيه وسيده يوجهه يمنة ويسرة بلا إرادة وأنه لا يطلب من الحياة إلا الماء والغذاء وحفظ النوع.. فإذا تحـول إنسان ما إلى هذا الوضـع بينما خلقـه الله حرا لديـه امكانية الاختيـار.. وهو لذلك كـائن مكرم ﴿وَلَقَـدْ كَـرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء : ٧٠] . فإنه يصـبح أسوأ من الحيوان عندما يرتضى هذا الوضع المذل المهين الذى لم يخلق له. ولنلحظ استخدام الآية لصفة «البكم» وكما قال الرسول عليه الصلاة السلام.. «الساكت عن الحق شيطان أخرس» فالله قد خلق لنا اللسان ونعمة النطق كي نذكره كثيرا ونسبحه باختيـارنا طوعا لا كرها كباقى المخلوقات من الأحيـاء والجماد، ومن طاعة الله أن نستـخدم نعـمة النطق فى الدعـوة إلى الخير ومـحاربة البـاطل وقول الصـدق والعزوف عن الكذب.. وصفـة «لا يعقلون» لأن المفترض أن الإنسان على خـلاف الحيوان (يعـمل عقله ويدرس سنن الله فى خلقـه و«يستمع» إلى القـول ويتـبع أحسنـه..)، فالآية الكريمـة وإن حملت معنى الحض على طـاعة الله ورسوله إلا أن هذا الحض جاء ببرهان عـقلى.. بمناقشة عقليـة.. والمؤمن يجب أن يتدبر ويعمل عـقله.. وأن يعلم أن الجهاد خيـر له من الركون إلى الباطل.. وأن مخـاطر الاستشهـاد حياة، والحقيـقة أن المؤمن لايسمى الشهادة فـى سبيل الله مخاطر.. بل هو يدعو الله أن يرزقه الشهادة.

لذلك فقـد أعقب ذلك الآية التـى تحدثنا عنهـا آنفا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فالجـهاد حياة.. والركـون إلى الباطل موت فى الدنيا والآخرة.

ولقد علمنا من سير الأمم السالفة والحالية.. أن أبناءها يستعدون للتضحية بحياتهم فى سبيل الإصلاح أو حماية الأوطان من الغزاة.. حتى بدون الإيمان بالله.. حتى إذا كان الكفر شائعا بين أفراد هذه الأمم، وأن العصبيات القبلية أو القومية تدفع أفرادها لمثل هذه التضحيات، وأن كل الأمم تعرف بدرجة أو بأخرى مفهوم حماية الوطن والعرض والمال، وتعرف مفهوم الكرامة والنخوة.. ومن باب أولى أن يكون المؤمنون أكثر ادراكا لهذه المفاهيم وأكثر ربطا لها بتعاليم الله وأكثر تحريرا لها من العصبيات.

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١] .

سورة الصف مدنية على رأى الجمهور، وهى تتناول القتال فى سبيل الله والجهاد بمعناه الواسع الذى يعنى الانحياز للحق وفى هذا يستخدم «الألوسى» تعبيرا جميلا حين يقول ان الخطاب يعنى (تجمعون بين الإيمان والجهاد أى بين تكميل النفس وتكميل الغير) فاعتبر الإيمان تكميلاً للنفس والجهاد تكميلا للغير.. وهو معنى رحب لمفهوم الجهاد فى الإسلام.

وفى تفسير أحمد حسين لهذه الآية (١١) أن الجهاد يتضمن ـ فيما يتضمن من معانى ـ (تغليب جانب الخير والاعتدال وكل ما يجعل الإنسان عونا لأخيه الإنسان والتعاون مع الآخرين على نصر الحق والخير، وأن يكون الإنسان مستعدا أن يموت فى سبيل نصرة الحق وسيادة العدل ودفع الظلم ونشر الخير).

وتؤكد هذه السورة المعنى الذى بدأنا به دراستنا وهى أن الجهاد لايقتصر على القتال العسكرى ضد الكفار وأعداء الله.. حيث تربط سورة الصف بين هذا النداء للجهاد بالمال والنفس باعتباره هو الصفقة الرابحة حقا، تربطه بموقف حواريى عيسى ابن مريم..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف:١٤] .

والثابت فى القرآن الكريم وفى مختلف نصوص الاناجيل أن المسيح لم يحمل السلاح يوما لنشر دعوته، فالقضية إذن فى جوهرها حين نتحدث عن الجهاد ليست مجرد حمل السلاح فهذه عملية فنية فى نهاية الأمر.. أما جوهر الجهاد فى سبيل الله.. أن يبيع المؤمن نفسه وأمواله لقضايا الله.. قضايا الحق والعدل والخير.. لايخشى فى هذه المواقف إلا الله.. ولا يتردد فى أن يصدع بالحق.. وهذه القوة تنبع من الإيمان بوعد الله فى الدنيا والآخرة.. وقد بدأ الله بوعد الآخرة لتوضيح لماذا هى تجارة رابحة ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف:١٢] ثم يأتى وعد الدنيا ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣] فالله يعلم أن من غريزة البشر أن يحبوا النجاح ويكرهوا الفشل، يحبوا النصر ويكرهوا الهزيمة، وكذلك فإن الطريق المستقيم لابد أن يثبت أنه هو الأجدر بالنجاح من طريق الضلال، وهناك وعد الله بالتمكين للمؤمنين لتكون هناك حجة عملية أمام الناس (إن دولة المؤمنين تكون أكثر تحضرا وعدلا وإنسانية من دول الكفر) ولكن السورة قدمت وعد الآخرة، لأن كل مؤمن على حدة قد لايشهد لحظة النصر، وبطبيعة الحال لأن وعد الآخرة لا يدانيه أى مكسب فى الحياة الدنيا. ولكن نصر المؤمنين أمر يتعلق بالسنن والقوانين الإلهية، وعندما يتأخر النصر لجيل أو جيلين فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بسبب نقص واضح فى خطة المؤمنين وعدم اعداد العدة على نحو سليم، نقص فى التجرد الإيمانى، نقص فى الأخذ بالأسباب، لأن الله لا يحب الفشل للمؤمنين، وهناك فرق كبير بين الابتلاءات والهزائم الجزئية وبين الفشل المستديم عبر الأجيال.

«فتح قريب» إذن ليست مجرد نبوءة بفتح مكة قريبا، بل هو قانون لمن يجاهد فى سبيل الله متجردا فى عمله لوجهه الكريم وآخذا بكل الأسباب، فالنصر ليس مسألة بعيدة تحتاج إلى مائة عام مثلا، ولدينا مثال حى معاصر، فالقاعدون عن الجهاد يقولون أن الانتصار على

إسرائيل يحتاج لأجيال، والمجاهدون الصادقون (المقاومة الإسلامية فى لبنان) انتصروا على إسرائيل خلال عقدين من الزمان، وهو بكل المقاييس يعتبر نصرا قريبا. ولا يطبق هذا المعيار على حركة حماس فى فلسطين لأن تحرير فلسطين يحتاج لقوى المسلمين جميعا وبالأخص المسلمين المحيطين بفلسطين مع أهل فلسطين.

إن تأخر التمكين لدين الله فى كثير من البلاد الإسلامية ترجع مسئوليته إلى حد بعيد إلى أخطاء الحركات الإسلامية، وعلى رأسها التخلى عن أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* * * * *

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة:١١] .

تقول التفاسير أن مناسبة نزول الآية تسلل كثير من المصلين أثناء إلقاء الرسول عليه الصلاة والسلام لخطبة الجمعة لوصول قافلة تجارية. وكما نرى فإن هذه الآية كغيرها من الآيات المرتبطة بمناسبات معينة تُحكم صياغتها، بحيث تصنع قاعدة عامة تتجاوز زمان ومكان وأطراف الواقعة المحددة. فالذى يستفاد من هذه الآية أن الاجتماع فى سبيل الله حول القضايا العامة للإسلام والمسلمين أولى من شئون التجارة واللهو، وهذه طبيعة المجتمع الجاد، وهذا هو الترتيب السليم لأولويات المؤمنين صادقى الإيمان، وخطبة الجمعة هى أهم اجتماع إسلامى دورى: تشمل شئون العقيدة، وتتضمن التوجيه العام لأمور المسلمين، وإذا أصر البعض على أن هذه الآية محصورة فى خطبة الجمعة لأن السورة مختصة بصلاة الجمعة وتضع الملامح الاساسية للآداب المحيطة بها ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] فسنجد فى القرآن الكريم آية أخرى صريحة فى وضع هذه القاعدة دون أى أشارة تحصرها فى صلاة الجمعة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ

يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

الآية هنا صريحة، فأمر جامع.. يعنى اجتماعا عاما يبحث أمورا مهمة وهذا نوع من الأحكام أو الآداب العامة أو القواعد، وهو حكم لايختص بشخص الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ينطبق على الاجتماعات العامة التى تعقد فى سبيل الله، فى قضايا الإسلام وشئون المسلمين العامة، وإذا كانت تربط تناولها للشأن السياسى العام بالمنطلق الإيمانى.

جاء فى تفسير المنتخب (أن المؤمنين الصادقين هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يتركوا الرسول وحده فى أمر مهم يتطلب اجتماعهم كالجهاد).

فاذا دُعى المؤمنون إلى أمر جامع لمناصرة المسلمين فى العراق أو الشيشان أو لشأن عام من الشئون الداخلية ما كان لهم ليتأخروا وإذا حضروا ما كان لهم أن يتسللوا من الاجتماع بدون أذن، وأن يكون الأذن لعذر قهرى. وفى هذه الآية تأكيد على الأولوية القصوى للعمل السياسى، وأخذه مأخذ الجد حتى لقد أشارت الآية التالية إلى أن التسلل من الاجتماع العام سيكون له عقاب فى الدنيا والآخرة.. وهكذا يرتقى العمل السياسى فى الإسلام إلى المستوى التعبدى، فهو جزء لا يتجزأ من العقيدة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] .

فما بالكم بالذين يعلمون بوجود اجتماعات حول أمور جلل فى حياة المسلمين (القدس ـ الاعتقالات ـ حالة الطوارئ ـ المحاكم العسكرية ـ التطبيع مع العدو الصهيونى) ولايفكرون فى الحضور اصلا.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى سورة الجمعة فسنجد احتفال القرآن الكريم بهذه الصلاة الجامعة كحدث تعبدى سياسى، فالأصل أن خطبة الجمعة هى الأداة الرئيسية التى يقوم من خلالها ولى الأمر بتوجيه المسلمين، ويهتم الإسلام بهذا المؤتمر الأسبوعى تأكيدا على أهمية

العمل الجماعي، وهذا يتكرر على نطاق أوسع في العيدين، وكذلك يعقد المؤتمر الأعلى كل سنة في الحج، ومعروف أن ثواب صلاة الجماعة أفضل من الصلاة الفردية بضعا وعشرين مرة، وذلك رغبة من الله عزوجل أن يتجمع الناس ويتعاطفوا ويتساندوا. فالإسلام كما هو دين توحيد الألوهية فهو دين تجميع البشر، ولن ينهض المسلمون من كبوتهم إلا إذا أدركوا هذه الحقيقة فعادوا للتجمع وأمنوا حقا وصدقا أن يد الله مع الجماعة.

* * * * *

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١] .

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بالآية التى تحدثنا عنها من قبل ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وهي شارحة ومفصلة لها، فعندما يعم الفساد في مجتمع ما فإن ذلك يكون نتيجة سلوك الناس ومواقفهم، وعندما تتعاظم الثمار المرة لهذا الفساد فإن هذه صورة من صور العقاب الدنيوي، لعل الناس تتوب وترجع إلى الحق. وسنجد في هذه المعادلة مسئولية مشتركة (تضامنية) بين الحكام والمحكومين حول هذا الوضع المفجع. وقد ورد الحديث عن الفساد ٤٣ مرة في القرآن الكريم بهذا المعنى المتوازن فحملت الآيات الكريمة بقسوة على كبار المفسدين الذين يفسدون في الأرض فسادا شاملا، إلا أنها لم تعف المستضعفين من المسئولية بالصمت والرضاء الذليل أو بالمشاركة في الحصول على الفتات.

والفساد في معناه المادي: الجدب والقحط وفي معناه الشامل يشير إلى كل ما هو نقيض الإصلاح و«الصالح» في اللغة بمعنى الكثير والمناسب والحسن. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١١] .

ومعنى ظهور الفساد في البر والبحر، أي أنه عم وطم ولف مجال المجتمع بأسره، فتعبير (البر والبحر) يشير أساسا إلى شمول وعموم الفساد، وهي أوقع الآيات التى تشخص

أوضاع مجتمعنا فى الوقت الحالى ، وقد أشرت من قبل إلى حيرة المفسرين القدامى فى مسألة ظهور الفساد فى البحر أو بالأحرى محدودية تصورهم، فهذه الآية دليل أضافى على احتياج تفسير القرآن إلى التجدد والتطوير مع مسيرة البشرية وظهور مزيد من الحقائق العلمية والوقائع التى تجعل فهمنا لبعض الآيات أكثر نصاعة وتلألأ. فقد قال بعض المفسرين أن البرهو الفيافى والبحر هو الأمصار والقرى، وقيل: البحر هو الأمصار والقرى الواقعة على الأنهار، وقال آخرون أن المقصود بالبحر: جزائره، وقيل: أن المقصود بالبحر أخذ السفينة غصبا (القرصنة)، وقال آخرون: بل هو البر المعروف.. والبحر المعروف.

والقول الأخير هو الأمر الذى يتسق ببساطة مع تعبير الآية، أما الاشارة للقرصنة فما هى إلا أحد مظاهر الفساد فى البحر. أما الآن ومع تطور العمران البشرى وما صحب ذلك من وسائل تكنولوجية أكثر حداثة مما ساعد على اكتشاف امكانيات وثروات الكرة الأرضية.. بما فى ذلك غزو البحار.. فإن الحديث عن الفساد فى البحر لم يعد محيرا، فقد أصبحت فى البحار حياة كاملة متكاملة، فالبحار أصبحت وسيلة رئيسية للنقل والانتقال، وفى البحار اكتشفت ثروات معدنية وغذائية تفوق ما تم اكتشافه على اليابسة، ولم يتمكن الإنسان بعد من استخلاص المواد المعدنية على نطاق واسع، إلا فى مجال البترول والغاز الطبيعى، والبحر أضحى مصدرا رئيسيا للغذاء، وفى البحر الآن مجتمع متحرك واسع النطاق بآلاف مؤلفة من الناقلات والبواخر السياحية التى يمارس على متنها كل ما يمارس على الأرض، ثم ظهر أخيرا ما يعرف بالتلوث البيئى من جراء القاء مخلفات ضارة وهو الأمر الذى يؤدى إلى انقراض أنواع من الكائنات البحرية أو تسميمها، وحدث ما يعرف بالاخلال بالتوازن البيئى عن طريق ابادة أحد الأنواع من الكائنات فيؤدى ذلك إلى استشراء نوع آخر بشكل ضار، وعبر البحار تتم عمليات التهريب للسلع المشروعة وغير المشروعة ، وعبر البحار عاثت أساطيل الدول الاستعمارية ـ ولاتزال ـ فسادا، فمع تطور إعمار الأرض أصبح ما يجرى فى البحر جزءا لايتجزأ من اليابسة ويمكن أن يسرى فيه كل ما يسرى على اليابسة من فساد. وأصبحت هناك قوانين محلية ودولية تنظم هذه الحياة البحرية. والفساد لايمكن

من المستوردين الشرفاء، والموظف بالجمارك الذى يدخل هذه الصفقات يحقق ثراءا سريعا وإن يكن غير مشروع واجراميا، والذين يزرعون الطماطم بالهرمون تومست الإسرائيلى يحصلون على محصول وفير خلال فترة قصيرة، ولكنهم ينشرون السرطان فى البلاد، وتشجيع وزارة الزراعة لهذه الممارسات (أدرجت الوزارة هرمون تومست ضمن التقاوى المسموح باستيرادها) يكسبها الشرعية والحماية ومن ثم الانتشار والتخريب واسع النطاق. وعندما تتفاعل كل هذه الممارسات، فإنها تخرب البلاد وتعم الكوارث على الجميع بما فى ذلك المشاركين فى الاثراء غير المشروع، كذلك الحال فى مجال الغش فى البناء، الذى يؤدى إلى اثراء سريع، وعملية قتل جماعى من خلال انهيار العمارات الحديثة، ويمكن أن يموت داخل هذه العمارات بعض الناس الذين شاركوا فى اصدار تراخيص زائفة لهذه العمارات المنهارة أو الذين شاركوا فى عمليات فساد أخرى!

وهكذا نفهم أن محق البركة مرتهن بما كسبت أيدى الناس فى كل هذه المفاسد وأنه مرتبط بخرق النواميس التى تحكم المجتمعات الرشيدة، وأن خرق هذه النواميس لابد أن يؤدى إلى الخراب، بالضبط كما يتجاهل من يلق بنفسه من ارتفاع شاهق قانون الجاذبية، متصورا أنه لن يسقط على الأرض، أو أنه لن يتحطم إذا سقط على الأرض، غاية ما هنالك أن القوانين الاجتماعية تعمل على نحو أكثر تعقيدا، والأفعال وردود الأفعال لاتكون فى كثير من الأحيان فورية، ولكنها تتفاعل لفترة من الزمن.

وهذا الحديث يصل بنا فى النهاية إلى أن ما قاله المفسرون القدماء صحيح تماما، إن انتشار المعاصى يؤدى إلى ظهور الفساد فى البر والبحر ولكننا نربط ذلك بالسنن التى تخرقها المجتمعات، وكيف يحدث ذلك بطريق متعرج تدريجي، أشبه بالانتشار البطئ للمرض الخبيث، ولكنه بدون علاج سيتمكن من الجسم لامحالة.

وإذا عدنا لحديث رسول الله ﷺ: (إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد والشجر والدواب) ممكن أن نفهمه الآن بصورة أعمق، لأن المفسرين القدامى نظروا للمسألة نظرة

$\frac{1}{6}$ اليابسة وينطوى على أجود الأراضى الزراعية كان يعتمد على القمح الأمريكى، وقد كان ذلك من معالم الفشل الزراعى وأكبر دليل على ظهور الفساد فى الاتحاد السوفيتى.

وخارج النموذج الشيوعى توجد أمثلة عديدة، وكيف يؤدى الفساد واستشراؤه إلى تحلل المجتمع وانهيار مؤسساته، وكل ذلك ينعكس بالتأكيد على انهيار الانتاج بكل أنواعه كما ونوعا. ويركز بعض المفسرين على أن انتشار المعاصى يؤدى إلى نقص الثمار والزروع نتيجة محق البركة حيث يكون ذلك نوعا من العقاب الإلهى ويشير ابن كثير فى تفسيره تدليلا على ذلك إلى حديث رسول الله ﷺ (إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد والشجر والدواب) والحقيقة ان بركات الله يمكن أن نرى فيها جزءا غير مرئى.. غيبى.. لايحسب بالورقة والقلم أو بالكمبيوتر وهذا ما يلحظه المؤمنون فى حياتهم الشخصية والعامة، فالله يبارك فى الرزق والأولاد.. ويبارك فى الانتاج وفى صنيع المؤمنين الصادقين فى السلم والحرب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولكن أيضا لبركات الله جزءا مرئيا يمكن حسابه وفهمه وتحليله بعقولنا. فالمفسدون يضيعون من الثروة القومية للبلاد مليارات الجنيهات من خلال المكاسب غير المشروعة التى توضع فى مصارف الخارج أو تنفق فى استهلاك ترفى سفيه، وإذا وظفت هذه الأموال الطائلة فى انتاج نافع لعادت على البلاد باليمن والبركات.

مثال آخر: اتخاذ القرارات بالشورى يقلل من هامش الأخطاء ويجعل المجتمع كله متضامنا فى تحمل عواقب أى قرار، أما اتخاذ القرارات على نحو فردى استبدادى يزيد من هامش واحتمالات الأخطاء، حتى إذا توفرت حسن النية، فما خاب من استشار. إن للفساد أشكاله المتعددة وهى كلها أشبه بالورم الخبيث الذى يمتص الحيوية من الجسم، فالمفسدون المتكالبون على تحقيق أعلى الأرباح فى أقصر وقت ممكن وبأقل مجهود ممكن تتجه عقولهم ـ مثلا ـ إلى تجارة المخدرات وكل دروب ما يسمى الاقتصاد السفلى: تجارة الممنوعات والتهريب والجنس والميسر، إن المستوردين الذين يستوردون من أوروبا اللحوم الفاسدة (المنتهية الصلاحية) المحظورة على الكلاب هناك، يحققون أرباحا أعلى بما لا يقاس

حصره فى هلاك المزروعات والجدب والقحط (كما جاء لدى بعض المفسرين) فالفساد كما ذكرنا هو نقيض الصلاح.. فكل خروج عن الصراط المستقيم فى الحياة الفردية أو الاجتماعية هو فساد أيضا، كاختلال القواعد بأن يوسد الأمر إلى غير أهله وأن يسود المجتمعات أفسدهم خلقا ودينا، وضرب عرض الحائط بقواعد العدالة، وأن يصبح المعروف منكرا، والمنكر معروفا. كذلك لايمكن أن نحصر الفساد ـ فى معناه الشائع الآن ـ فى الرشوة والاختلاس والمحسوبية ونهب المال العام والخاص وإن كانت هذه المظاهر بطبيعة الحال جزءا لايتجزأ من الفساد، فالفساد فى التعبير القرآنى يبدأ من الانحراف الأخلاقى الفردى إلى الانحراف الاجتماعى العام إلى الفساد المادى فى المزروعات وكل ما تنتجه الأرض والبحار ومختلف الثروات الحيوانية إلى الكفر الصريح بالله، فللفساد شق مادى، وشق معنوى. وعندما يعم الفساد فى مجتمع من المجتمعات ويتحول إلى نظام أو قاعدة وماعداه استثناء فإن هذا الفساد فى مجاله المعنوى (الاستغلال ـ الظلم ـ الأثرة) تنعكس آثاره فى نقص الثمار والمزروعات وغيرها من المصائب الاقتصادية، وعندما تكتمل الدائرة على هذا النحو البشع فإن القرآن الكريم يفسر ذلك بأنه نتيجة منطقية «بما كسبت أيدى الناس» وما كسبت أيدى الناس لايخرج عن عنصرين متكاملين:

(١) ارتكاب الظلم من ناحية الفئة المسيطرة ومن يلوذ بها ويتبع سنتها.

(٢) عدم مقاومة الظلم وعدم ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهذا يؤدى فى النهاية إلى حالة عامة من الافقار والهلاك للمجتمع. وتحضرنى التقارير التى نشرت عقب سقوط الرئيس شاوشيسكو فى رومانيا، وكيف وصلت أحوال البلاد فى نهاية عهده إلى حد أن أنواع الفواكه صارت أندر من الذهب، وما تزال معظم البلاد الشيوعية سابقا عاجزة عن تجاوز آثار الحكم الاستبدادى الشيوعى الذى أهلك الحرث والنسل، حتى لقد تحولت روسيا بكل ما تملكه من امكانيات إلى دولة من دول العالم الثالث التى تمد أيديها بحثا عن معونة وقروض ميسرة ! بل إن الاتحاد السوفيتى الذى كان يمثل

غيبية فحسب، ورغم صحة ذلك كما ذكرنا، إلا أنه له وجهه العملى الواضح لكل ذى عينين.

وربما التطورات الحديثة فى طرائق الانتاج الزراعى والحيوانى، تساعدنا على فهم ذلك أكثر من الذين فسروا الآيات والأحاديث منذ قرون.. فإذا كان موت الفاجر تستريح له «العباد والبلاد»، فهذ أمر مفهوم وأزلى ولايحتاج لكثير بحث، وهذا ما نراه فى كل زمان ومكان، ولكننا عشنا لنرى أن الفاجر يفسد «الشجر والدواب» بالمعنى الحرفى للكلمة، لقد تطور الشر فى العصر الحديث ووضع يده على أسلحة جديدة لم تخطر على قلب بشر من قبل، فقد قامت شركات أمريكية - صهيونية فى سعيها لاحتكار الانتاج الزراعى على مستوى العالم باستخدام أساليب الهندسة الوراثية، لزيادة الانتاج وتعظيم الأرباح مع احتكار البذور المهندسة وراثيا، وقد ثبت أن هذه البذور تكثر الانتاج بالفعل على المدى القصير، ثم تؤدى إلى تخريب الأرض والثمار، كذلك ثبت أن هذا النوع من الانتاج غير مأمون من الناحية الصحية حتى أن معظم دول العالم أصبحت تمنع استيراده وعلى رأسها دول الاتحاد الاوروبى.

روى أحد الأدباء المعروفين لأحد محررى جريدة «الشعب» تجربته الخاصة التى تؤكد صحة المعلومات التى تضمنتها حملة «الشعب» ضد وزارة الزراعة قال: إنه يملك فيلا لقضاء العطلات وبها مجموعة من أشجار المانجو، وأن أحد معارفه من كبار موظفى وزارة الزراعة عرض عليه تنمية هذه الأشجار بعلاج هرمونى، فوافق الأديب، ولكن لأمر ما طلب منه أن يترك شجرتين على حالهما، وقد أدى العلاج الهرمونى - والمقصود به تقديم خدمة للأديب المعروف - إلى «حرق» (وهو التعبير المستخدم عند هلاك الشجرة) أدى إلى حرق كل الأشجار عدا الشجرتين اللتين لم تمتد إليهما يد وزارة الزراعة، فى تجربة حية على اغتيال الأشجار (وهذه مجرد قصة رمزية لما يجرى فى طول البلاد وعرضها بأشكال مختلفة.. ما حدث للنخيل وغيرها من أنواع الأشجار والثمار) ومعروف أن قطع الأشجار ممارسة طبيعية فى البلاد لأى غرض سخيف ولا توجد حتى الآن قوانين لحماية الأشجار من الابادة.

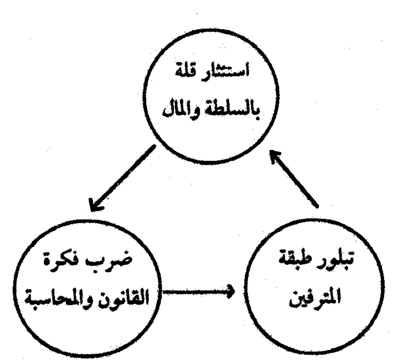
أما الدواب فقد تعرضت الثروة الحيوانية خلال العقد الماضى لأوبئة متوالية لم تعرفها البلاد من قبل من جراء الاستيراد غير المنضبط لبعض السلالات، وأصبحت تربية الماشية محفوفة بالمخاطر وهو الأمر الذى يفاقم أزمة اللحوم ويرفع أسعارها ويزيد من لجوئنا لاستيراد اللحوم الجاهزة التى هى بدورها غير مأمونة (اللحوم الهندية) المصنفة عالميا ضمن اللحوم الموبوءة.

فى عام ٢٠٠٠ نشرت الصحف عن أصابة ٢٤ ألف بقرة بأمراض الحمى المتنوعة فى ٣محافظات فقط (الاسكندرية - كفر الشيخ - الغربية) وتم اعدام العديد منها، وأصيبت ١٤٥١ بقرة فى الفيوم (محافظة وزير الزراعة!) وقد أدى انتقال الحمى إلى الإنسان إلى اصابة ٧٠ مواطن يوميا فى محافظة الغربية وانتقلت أمراض الحمى إلى مختلف المحافظات بنسب متفاوتة ووصلت إلى الأقصر والوادى الجديد وانعكست على تلوث الألبان. وهذه الحميات ليست إلا الموجة الأخيرة فى سلسلة متصلة لم تنقطع على مدار العقد الأخير، وهى بالغة الأثر حيث أن ثروتنا الحيوانية ليست كبيرة أصلا. هذان مجرد مثالين لتوضيح ما ورد فى حديث رسول الله ﷺ عن معنى أن تستريح الأشجار والدواب بموت الفاجر، وهذا نموذج من إعجاز السنة النبوية المكملة لإعجاز القرآن الكريم.

نعود مرة أخرى إلى آيتنا «ظهر الفساد فى البر والبحر» والظهور فى القرآن الكريم لايعنى مجرد التواجد والإطلال بالرأس، ولكن يعنى السيادة والانتشار (ليظهره على الدين كله).. والآن لنلقى نظرة على أحوال الفساد فى بلادنا التى كثيرا ما تعرضنا لها فى حملاتنا الصحفية بـ «الشعب» وأشرنا فى ثنايا هذه الدراسة لبعض النماذج والأمثلة وعلى رأسها «تهريب ١٥٠ مليار دولار» خارج البلاد، وضربنا أمثلة على إهلاك الفساد للحرث والنسل، وقد جاء فى تقرير دولى لمنظمة الشفافية أن مصر هى البلد الـ ٦٤ الأكثر فسادا من بين ٩٩ دولة، أى أن مصر تقع فى الثلث الأكثر فسادا بين هذه الدول، ومن خلال المشاهدات والأرقام فإن هذا التقدير يبدو معقولا وقريبا من الواقع، إن لم يكن الواقع أسوأ من ذلك!

وصول الفساد إلى درجات قياسية مرتبط بحلقة شريرة متصلة، تبدأ باستئثار قلة بالسلطة

السياسـية والمال ثم تحافظ على احتكارها للسلطة والمال بضرب فكرة القـانون الذى يتساوى أمامـه الجميع (ضـرب سيادة القـانون) ثم يؤدى ذلك إلى غياب المحـاسبة فـيؤدى ذلك إلى مزيد من تركز السلطة والمال فى يد القلة (طغيان واستبداد) وتبلور طبقة المترفين ثم مزيد من احتكار السلطة ثم مزيد من ضرب الشرعية القـانونية ثم مزيد من الأمان لكبار المفسدين من أن تطالهم يد المحـاسبـة فيـزدادوا عتـوا وهكذا دواليك.. ويمكن أن نرسم الدائرة الشـريرة كالتالى:



وهذا القانون يعـمل بانتظام فى مختـلف المجتمـعات بغض النظر عن عـلاقتهـا بالإيمان بالله، ولكن المجتـمعات المؤمنة تملك مـيزة عظمى فى أنها إذا أعـملت صحيح الدين، فـإنها تملك أمضى سلاح لكسر هذه الحلقة الشريرة، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، فتكون فكرة المحاسبة الأخروية سـياجا يحمى المجتمع من التطرفات الدنيـوية، كما أن إحداث توازن بين الحكام والمحكومـين يرتقى لمستوى الفـريضة الإلهـية ويصـبح جزءا لايتـجزأ من العـقيـدة (الشورى)، ولاشك أن من أسباب تفوق المجتمعـات الغربية والآسيوية علينا أنه لديها التزام أكبر بفكرة القانون والمحاسبة وهـناك درجة أكبر من التوازن بين السلطات ومنع تركزها فى يد واحدة.. وهناك درجة أعلى من توزيع الثـروة.. وفى مجتمع يعيش فى حالة تبـعية لقوى أجنبية فإن العنصر الأجنبى يزيد معادلة الفساد استفحالا لأن الأجنبى لايهمه سوى استمرار هيـمنته ونفـوذه وحمـاية مصـالحه ويهـمه فى المحل الأول أن ينمى اللوبى الخـاص به الذى

يحمى مصالحه ويرعاها ويتبنى فكرة استمرار الصداقة الاستراتيجية (التبعية) مع الأجنبى ولابد من الانفاق على هذا اللوبى (مجموعة العملاء) وشرائه، لذلك فإن جزءا من القروض والمعونات وأموال الاستثمار الأجنبى توظف فى هذا الغرض، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تضاعف معدلات الفساد فى البلدان التى تعانى من التبعية للأجنبى.

ومن المهم أن ندرك من خلال نظرة منطقية لهذه المعادلة أن كسر الحلقة الشريرة لايمكن أن يتم إلا فى نقطة (فكرة القانون والمحاسبة) لأن المحكومين لا يملكون وقف عملية تركز السلطة السياسية والمالية ولاعملية تبلور طبقة المترفين إلا من خلال الجهاد لاعادة الاحترام لفكرة القانون والمحاسبة، والمحكومون ليس لديهم برلمان ولا قوة مسلحة، إنما سلاحهم الرئيسى إن لم يكن الوحيد هو «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وأن عدم ممارسة هذه الفريضة يؤدى إلى استفحال وتعمق الدائرة الشريرة، وهو الأمر الذى يؤدى إلى ظهور الفساد فى البر والبحر، وانعكاس البلاء على الجميع.

وبطبيعة الحال فإن ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لن تقوم مقام السحر، فهى تحتاج لصبر وفترة زمنية حتى تحدث أثرها، وبالاساس لأن الطغاة لا يرجعون إلى الحق بمجرد تذكيرهم به، بل هم عادة ما تأخذهم العزة بالأثم، وبالتالى فإن قيام قلة معزولة غير مدعومة شعبيا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجعلها عرضة للتنكيل فى بداية الأمر، ومحاولة عزلها عن الناس بالمعنى الحرفى للكلمة (تمنع قوات الأمن عقد المؤتمرات وتمنع سفر الدعاة والمجاهدين للاقاليم لالقاء المحاضرات، وتغلق السلطات الصحف والأحزاب، وتحظر الجماعات الإسلامية، وتعزل الدعاة المستقلين عن المساجد ..) ولكن إذا صبرت هذه القلة وأدرك الجمهور العام صدقها وسلامة ما تطرحه وفقا للشريعة والمصلحة العامة (ولا تعارض بين الشريعة والمصلحة) والتحم بها، وأصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى القضايا العامة له صوت هادر فإن الطغاة يضطرون إلى التراجع وتقديم التنازلات، وإذا لم ينصلح حالهم فإن العمل الشعبى السلمى الجماعى يؤدى إلى ازاحتهم من السلطة فى نهاية المطاف، وسنجد أن البذرة كانت دائما «هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» بذرة التغيير

وهى ما نسميه بمصطلحات السياسة المعاصرة: انتزاع حق الاجتماع والتنظيم والتعبير الحر، وانتزاع حق المعارضة الشعبية، ولكن «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» يعنى اضفاء قداسة وتعبدية على هذه الممارسة وربطها بضوابط الشريعة.. بالحلال والحرام.. وفقا للقرآن والسنة.

ولكن كما ذكرنا فإن القانون يعمل حتى فى البلاد التى لايحكم الدين أفئدة الحكام والمحكومين، فالثورات التى اجتاحت المعسكر الشيوعى، ثارت ضد الظلم والاستكبار واحتكار السلطة والمال وضد انتهاك فكرة القانون والمحاسبة، هذه الثورات التى قضت على الحكم الشيوعى فى روسيا وأوروبا الشرقية ووسط آسيا وبعض البلاد الأفريقية تحركت بقانون «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ولكن فى اطار تعريف دنيوى للمعروف والمنكر، فحتى فى ظل النظم الدنيوية هناك درجات وأنواع من الحكم، هناك نظم أكثر عدلا، ونظم أكثر ظلما ونظم متطرفة فى الظلم!

وفى هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: (ولدت فى زمن الملك العادل) ويقول الاستاذ مصطفى الطير فى كتابه (اقباس من نور الحق) الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية.. أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشير إلى كسرى أنو شروان الذى كان يقول: (لا ملك إلا بالجند ولا جند إلا بالمال ولا مال إلا بالبلاد ولا بلاد إلا بالرعايا ولا رعايا إلا بالعدل فلزمت العدل واعتمدت عليه فأمنت الرعايا وعمرت البلاد).

والحقيقة أن هذا القول إذا كان صادرا عن أنو شروان حقا فإنه يقدم معادلة رائعة تحوى نفس المعادلة التى أشرنا إليها فى «الرسم» ولكن بشكل إيجابى لأنها تقول أن العدل أساس الملك وبه يتحقق الاستقرار للحكام والمحكومين، ذلك أن ظهور الفساد فى البر والبحر الناجم عن انتفاء العدل يؤدى إلى أن يعم البلاء الجميع فى النهاية.. حتى الحكام أنفسهم، وقد رأينا فى التاريخ مرارا كيف أن الحكام الظالمين عندما يستفحل ظلمهم ويزداد إنفاقهم السفيه على أنفسهم لا يجدون بعد فترة من الزمن مع الناس ما يمكن أن يعتصروه بفرض مزيد من الضرائب، فكان الفلاحون المصريون يهربون من أراضيهم أو يهجرونها مؤقتا حتى

تتوقف حملات اعتصارهم بالضرائب والاتاوات. كما يؤدى الفساد إلى خواء الخزانة العامة لأن أصحاب السلطات يراكمون الأموال المنهوبة فى أرصدتهم الشخصية أو فى انفاقهم السفيه، وعادة فى هذه الظروف لايجد الحكام ما ينفقونه على اعداد الجيوش ويكتشفون هذه الثغرة إذا واجهتهم أخطار خارجية، بل إن الجند ـ كما فى المراحل المتدهورة من حكم المماليك ـ كانوا يثورون على الحاكم من أجل رفع مرتباتهم أو صرف مرتباتهم المتأخرة. وقد رأينا فى بلد كبير كروسيا كيف تعجز الدولة عن صرف المرتبات للمدنيين والعسكريين لشهور طويلة بينما تعج البلاد بأصحاب المليارات!

والحاكم العاقل يدرك أن المبالغة فى افقار المحكومين تؤدى فى النهاية إلى أزمة خطيرة فى ادارة الدولة والاقتصاد، وهذا ما يعبر عنه الاقتصاد الحديث بمعدل الادخار، فمعدل الادخار الذى يشارك الجميع فى تحديده عنصر أساسى فى عملية التنمية والتوسع الاقتصادى، وإذا تراجع هذا المعدل يعم الخراب الجميع، ومعدل الادخار فى مصر حاليا ٦٪ فى حين أن المعدل الصحى يتراوح بين ٢١ ـ ٢٥٪ فالادخار هو ببساطة ما يدخره المجتمع فى لحظة محددة من أجل الاستثمار المقبل والتوسع فى الانتاج لمقابلة تزايد الاحتياجات ولرفع مستوى المعيشة.

كذلك عندما تتلوث مصادر البيئة، فإن الحكام يحرصون على أن يأكلوا ويشربوا من مصادر مختلفة عن تلك التى يأكل منها الشعب ويشرب، ولم يعد من قبيل البدع أن يأتى الغذاء من عواصم أوروبية للحكام وأن تتوفر فى الأحياء الراقية سلع أجنبية مرتفعة الثمن فى متناول يد الطبقات العليا لأنها تكون مأمونة أكثر، بينما لاتزال نسبة لايستهان بها من الشعب المصرى تشرب مياها ملوثة بالمجارى والمبيدات، وبالأخص الذين يشربون من مضخات فى الريف.

والحاكم فى النهاية لا يستطيع أن يعيش فى جزيرة معزولة، وهو يجد نفسه عندما يعم البلاء فى المجتمع وتتزايد مظالمه عاجزا عن الخروج من قصوره، وعاجزا عن الاختلاط بالناس، عاجزا عن استهلاك ما تنتجه الأرض، فيأكل أكلا مستوردا خصيصا أو من مزارع

خاصة وهى أوضاع لاتجعل الحاكم سعيدا أو مستمتعا بجبروته. كما أن عدم مقاومة الحكام للهيروين وغيره من المخدرات ـ مثلا ـ يؤدى إلى انتشار الوباء، ثم يجدون بعضا من أبنائهم قد أصابهم الادمان (وهناك أمثلة واقعية على ذلك) ونحن لانريد أن نستثير الشفقة على الحكام الظالمين، ولكننا نفسر معنى كيف يعم البلاء الجميع، ولماذا لم تميز الآية التى نتحدث فى ضوئها بين الحكام والمحكومين، واستخدمت تعبير (الناس) لأن الحكام ترتد عليهم عواقب الفساد، وتكون الذروة فى تداعى أركان نظام الحكم وسقوطهم ولأن المحكومين مسئولون أيضا بصمتهم وتواطئهم. أما ما يصيب بعض أفراد الحكم من آثار الفساد العام فما هو إلا جزء من العقاب الدنيوى، أما الحساب الأخروى فهو أشد وطأة بما لايقاس، وقد صاغ الامام على رضى الله عنه نفس قانون أنو شروان ولكن فى اطار إسلامى فقال: (العالم حديقة سياجها الشريعة، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة، والطاعة سياسة يقوم بها الحاكم، والحاكم راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية سواد يحكمهم العدل، والعدل أساس العالم) وقد تحدثنا عن تأثر اعداد الجيش بالخزينة الخاوية، أما الجزء الداخلى للجيش الذى أصبح فى عصرنا الحديث منفصلا وله اسم الشرطة، فلنلحظ ارتباط اختلال الأمن بالمعنى الواسع لكلمة الأمن، من جراء الانخفاض المذهل فى رواتب رجال الشرطة خا صة الجنود وصف الضباط وصغار الضباط، وقد أشار لى يوما أحد كبار ضباط وزارة الداخلية إلى ضرورة تحمل عواقب «الأمن الرخيص»!!

أشرنا من قبل إلى آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن العدل حتى مع الذين نبغضهم، وقول الحق على النفس والأقربين، وعندما يتحدث الله عن العدل فإنه يتحدث بصيغة الأمر الصريح ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨] .

و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] وفى الحديث الشريف: «أحب الناس إلى الله

وأقربهم السلطان العادل وأبغضهم إلى الله وأبعدهم السلطان الجائر» و«إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون فى أهليهم وماولوا» وفى رواية «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدى الرحمن بما أقسطوا فى الدنيا» والمقسطون هم العادلون (المرجع السابق).

وجوهر العدل أن تكون القاعدة مطبقة على الجميع بلا تفرقة بغض النظر عن السلطان والجاه والحسب والنسب ولذلك فإن النظام اللا إسلامى عندما يطبق قاعدة دنيوية على الجميع يكون أفضل من النظام الذى يعلن الإسلام ولايطبق الشريعة على الناس بالعدل بل يطبقها بصورة انتقائية.

وفيما يتعلق بفكرة «سيادة القانون» فهى من عند الله تنزلت مع الأنبياء والرسل وقد شرع رسول الله لها بصورة مباشرة فى حديثه المعروف: «إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيْمَ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» متفق عليه.

ومناسبة هذا الحديث أن الحد كان يجب أن يقام على امرأة مخزومية، واعتبر بنو مخزوم أن لهم مكانة يمكن أن تحول دون تطبيق الحد عليها، وبحثوا عن شخص يحبه رسول الله ﷺ ليتوسط فى الأمر واختاروا أسامة بن زيد، فغضب رسول الله غضبا شديدا من أسامة وقال له: «أتشفع فى حد من حدود الله تعالى» وقد رأى عليه الصلاة والسلام أن يأخذها فرصة لاقرار تشريع أو مبدأ سيادة القانون فقام إلى المسجد وجمع الناس وخطب فيهم بهذا الحديث المشار إليه.

وفى حديث آخر رواه أبو داود: (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره).

وأخيرا يبقى شئ يجب شرحه فى معنى الآية الكريمة فى عبارة ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فقد أشرنا من قبل إلى مسئولية المظلومين عن عدم مقاومة الظلم وعدم ممارسة

فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو الأمر الذى يعظم من شراسة المفسدين، ولكن الآية تتضمن أيضا معنى مشاركة كل الناس أو أغلبيتهم الساحقة فى الفساد، فالبعض يشارك بالصمت أو التواطؤ ولكن البعض الآخر يشارك فى فتات الفساد.

وفى بلادنا انتشر هذا النوع من الفساد، فأصبح هناك الفساد الصغير والمتوسط بمختلف الأحجام والمقاييس بين مختلف فئات وقطاعات الشعب. وهذا نوع من الاستسلام أمام الفساد واعتباره قدرا لافكاك منه، وبالتالى على كل فرد أن يأخذ نصيبه!

نحن مثلا تعودنا أن نعطى الموظف الصغير أو الساعى الذى يؤدى لنا خدمة فى مصلحة حكومية مبلغا صغيرا وربما يكون فى ذلك نوع من التعاطف وتقديرا لقلة راتبه، أما إذا حول الموظف أو الساعى حصوله على هذا المبلغ الرمزى إلى شرط لانجاز المهمة تتحول إلى جريمة، وصاحب الطلب إذا استهدف تقديم المال لانهاء طلب غير مشروع يصبح راشيا، والمؤسف أن القانون الوضعى المصرى يعفى الراشى من العقوبة! خاصة إذا اعترف على المرتشى!! مع أن الراشى هو أساس الجريمة لأنه هو الذى يغوى بالمال لتحقيق غرض غير مشروع.

وإذا أخذنا مثالا آخر من شريحة المعلمين، فلاشك أن الدروس الخصوصية فى حد ذاتها عمل مشروع، ولكن إذا تحولت إلى وسيلة للاكراه من مدرس فصل على تلاميذه وشرط للحصول على نتائج عالية، واقتران ذلك باهمال الشرح فى الفصل فإن هذه تكون جريمة فساد متكاملة، والدخل من الدروس الخصوصية بهذا الطريق يعد دخلا غير مشروع.

ونحن نعلم أن النوع الصريح للرشوة (مع العاملين فى الحكومة) والدروس الخصوصية الاكراهية منتشران فى البلاد (تقدر قيمة الدروس الخصوصية سنويا بـ ٦ ـ ٧ مليارات جنيه) وهذان مجرد مثالين على مشاركة الناس فى الفساد ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ باقتراف الفساد وليس مجرد الصمت عليه وعدم مقاومته. وهذان المثالان يسريان على كل فئات المجتمع وليس على الموظفين والمعلمين فحسب، يؤكدان أن معالجة الفساد لابد أن تكون فى اطار جماعى. فلاشك أن الموظف والمعلم وغيرهما من العاملين فى الدولة والقطاع العام

يتعرضون لفتنة شديدة فى حياتهم لحصولهم على دخول غير منطقية لمواجهة الحد الادنى من متطلبات الحياة، وهذه الفتنة تفتح باب جهنم على كل فرد على حدة، ويحتاج كل واحد منهم لأن يكون من أولياء الله الصالحين ويتحلى بأعلى مراتب الإيمان كى يستطيع أن يقاوم هذا الوضع خاصة فى وقت تروج فيه وسائل الإعلام بالإعلانات وغيرها لنمط استهلاكى عالى التكاليف، وهكذا يتحول الإعلام إلى شيطان اضافى يوسوس فى صدور الناس ويذكرهم بأن مرتباتهم لن تجد فتيلا !! وهكذا فلا مجال لاجتثاث الفساد من جذوره إلابحلول سياسية عامة لسد أبواب الفتنة وضمان توفر الرزق الكريم والشريف بما يضمن حد الكفاية. أما كبار المفسدين فإنهم يسعدون لانتشار قاعدة الفساد عند المتوسطين والصغار لأن هذا يعلى من مشروعية الفساد وأنه نظام متكامل، وأنه الناموس الواقعى لادارة البلاد (وقد انتهى عهد الأنبياء كما يقولون تبريرا لجرائمهم) حتى لقد انتشر تعبير يصف الوضع القائم بأنه (كل مواطن يضع يده فى جيب المواطن الآخر!) وفى النهاية تعم قلة البركة بمعناها الواسع الذى أشرنا إليه، ويكتوى الجميع، ويبكون على اللبن المسكوب، ومن الناحية النفسية والمعنوية.. يقول الناس لبعضهم البعض (إن نفوس الناس تغيرت!! ولم تعد العلاقات الإنسانية كما كانت) وعلى المستوى المادى يهرب رجال الأعمال بمليارات البنوك وتظهر مشكلة السيولة وانهيار الجنيه المصرى ويعم الركود وينهار الاحتياطى النقدى، وتهتز الثقة فى البنوك العاجزة عن الوفاء بالحقوق. وكل هذه أمثلة ونماذج لشطر الآية ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ولاحظ استخدام «بعض» أى أن كل هذه الكوارث ليست إلا ردا على بعض ـ وليس كل ـ ما عملوا. وهذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

ولكن آيتنا تنتهى بالحل، وأن الحل بأيدى الناس وأيدى المؤمنين ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

الفصل العاشر

مصر: حالة تطبيقية

تحت مظلة المعادلة: استئثار بالسلطة ضرب فكرة القانون والمحاسبة تبلور طبقة المترفين مزيد من تركز واحتكار سلطة السياسة والمال وهذا مالا نحتاج إلى التدليل على وقوعه فى البلاد. فلا يختلف اثنان على أن السلطة السياسية محتكرة فى يد شخص واحد وعدد قليل حوله حتى أن الحزب الحاكم نفسه مغيب عن عملية اتخاذ القرار، وهناك سياسة فعلية بعدم تمثيل المعارضة فى البرلمان إلا بشكل رمزى وعبر فلتر (مرشح) لاختيار نوعية هؤلاء المعارضين، والقضاء تتآكل استقلاليته بتدخلات وزارة العدل فى شئونه، وحتى السياسات العليا لا يقرها مجلس الوزراء، وقد أعلن رئيس الوزراء عاطف عبيد أنه مجرد منسق بين الوزراء!!

أما بالنسبة لتركز المال فيكفى ما نشرته الصحف والمجلات الحكومية عن أن ٢٦ من أبرز رجال الأعمال مدينون للمصارف بأكثر من ١٠٠ مليار جنيه (الأهرام العربى) وإذا راجعنا هذه الأسماء سنجدها هى التى تتبرع - مثلا - لمشروعات السيدة قرينة رئيس الجمهورية، فهم لا يدفعون شيئا من جيوبهم بل من قروض البنوك أى من أموال الشعب. وسنجد عموما ارتباطا حميما بين أصحاب المليارات وأصحاب السلطة السياسية، وسنجدهم أحيانا

مندمجين اندماجا فى مصالح مشتركة وأحيانا يتجسدون فى نفس الأشخاص، فتجد صاحب الثروة هو نفسه صاحب النفوذ السياسى، ولا يمكن أن يسأله أحد عن مصادر ثروته.

ضرب فكرة القانون والمحاسبة، ليس معناه الإعلان الرسمى عن إلغاء تطبيق القانون فلاشك أن القانون يطبق على ناس دون ناس، وهناك محاسبة لناس دون ناس، فالقانون يطبق على الصغار دون الكبار وغير المسنودين دون المسنودين، فالضرائب يدفعها الصغار، والكبار لديهم ألف وسيلة ووسيلة للتهرب من الضرائب، أما أبرز مثال على تعطيل القانون بل وحتى نصوص الدستور فهو التعطيل الفعلى للمادة ١٥٨ من الدستور والتى تقول (لا يجوز للوزير أثناء تولى منصبه أن يزاول مهنة حرة أو عملا تجاريا أو ماليا أو صناعيا أو أن يشترى أو يستأجر شيئا من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئا من أمواله أو يقايضها عليه)، وهناك نص دستورى مماثل يخص أعضاء مجلس الشعب.

أما فى الواقع فإن الأغلبية الساحقة من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب يخرقون نصوص الدستور بصورة دائمة، وعلنية ولا يفيد النشر فى صحف المعارضة فى احراج أحد أو فى العودة للالتزام بالدستور. وفى قضايا الشيكات يحبس عادة الصغار بمبالغ تبدأ بمئات وآلاف الجنيهات أما المدينون بالملايين والمليارات فهم فى حصن حصين من المساءلة.. وعند الضرورة يسافرون علنا ولا يعودون.

وحتى قانون جهاز الكسب غير المشروع فهو مصمم على أساس عدم المساس بالوزراء، والجهاز لا يملك التحرك إلا حتى درجة وكيل وزارة.

وكلما مرت عدة سنوات رأت الدولة ضرورة القيام بعملية تجميلية فتختار كبش فداء من غير المرضى عنهم وتقدمهم للعدالة.. وعلى مدار التسعينيات فإن السلطات لم تقم إلا بقضيتين بارزتين:

١ ـ قضية الحباك وهو فى النهاية وكيل وزارة ولكن تم تسليط الضوء عليه بصورة مبالغ فيها.

٢ ـ قضية نواب القروض، وإذا لاحظنا حالة الفساد المنتشرة فى البنوك فسنجد أن معظم ممارساتهم لاتختلف عن ممارسة الباقين من كبار المتعاملين مع البنوك.

ولم يحدث ـ ولا لمرة واحدة ـ أن تمت محاسبة وزير قضائيا وهو فى السلطة حيث يُوضع الوزراء فى خانة «الملائكة» التى لا تخطىء بحكم وظيفتها!

أما عن تبلور طبقة المترفين فإن الصحف الحكومية والمستقلة ترسم ملامح انغماسهم فى الترف من المتجعات إلى مدن الجولف إلى التنقل بالطائرات الخاصة وإلى اليخوت وإلى اقامة حفل زفاف يكلف ٧,٥ مليون دولار، بينما نسبة تتراوح بين ٢٠ ـ ٥٠٪ من الشعب تعانى من نقص المياه الصالحة للشرب أو انعدام شبكات المجارى (حسب احصاء رسمى فإن ٢٠٪ من الشعب بدون مياه صالحة للشرب و ٥٠٪ بدون شبكات مجارى).

تحت مظلة معادلة الفساد التى أشرنا إليها ما الذى حدث فى مصر؟! وما هى الأشكال التى أخذها ظهور الفساد فى البر والبحر؟ إن رصد ذلك يحتاج إلى مجلدات، ولكن تكفينا بعض الوقائع الرئيسية فى مختلف المجالات، ومن بينها المجال الذى ركز عليه بعض المفسرين (الجدب والقحط وهلاك المزروعات).

أولا: التدهور الشامل فى القطاعات الانتاجية:

الأمم الحية تقوم نهضتها المستقلة وتستمر بالاعتماد على القطاعات الانتاجية وهى بالاساس الصناعة والزراعة وملحقاتها من ثروة حيوانية وسمكية، أما الموارد الأخرى فتكون عادة مكملة، والانتاج هو الوسيلة الرئيسية لاشباع الحاجات الرئيسية للسكان، وضمان استقلال الأمة، وتوفير امكانية للصادرات الصناعية الأكثر ربحية، فالمعلوم أن صادرات المواد الأولية أقل ربحية وهى عرضة بشكل أكبر لتقلبات السوق العالمى، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا القطاع الأساسى هو القطاع الضامر فى الاقتصاد المصرى على مدار العقدين الماضيين، وتعتمد مواردنا بالاساس على السياحة وقناة السويس وتحويلات العاملين بالخارج والمنح والقروض وهى كلها قطاعات غير انتاجية وغير مضمونة الثبات وتخضع

للسياسات الأجنبية وتزيد تبعيتنا للخارج (خاصة المنح والقروض)، بالنسبة للصناعة فقد تعرضت لكارثة حقيقية خلال العقدين الماضيين، ومعظم ما ينشر من أرقام عن توسع صناعى أو مصانع جديدة، ما هى إلا صناعات تجميعية وصناعات توكيلات ليست إلا فروع لشركات عالمية، وهى لا تستهدف التصدير بل السيطرة على السوق المحلى، وهى أحيانا تشترى أصول مصانع قائمة بالفعل ولا تضيف شيئا. هذا هو وضع معظم المصانع الجديدة فى القطاع الخاص، أما بالنسبة للقطاع العام ـ ونحن لسنا ضد الخصخصة من حيث المبدأ بل نرى أن يجرى ذلك وفقا لخطة وطنية ترعى المصالح الاقتصادية والاجتماعية ـ فقد حدثت مذبحة للقطاع العام، وتم بيع وحداته للأجانب وأحيانا ليهود (المراجل البخارية) بأثمان بخسة، وبدون خطة رشيدة، وقد وصل بخس الأثمان المريب إلى حد أن المشترى هدم المصانع أحيانا وقسم أراضيها للبناء، لأن الثمن الذى دفعه أقل من ثمن الأرض وحدها.. وهذا ما حدث فى الاسماعيلية والاسكندرية على سبيل المثال (قنا لكترون فى الاسماعيلية وكوكا كولا فى الاسكندرية) وعندما واجهت رئيس الوزراء د.عاطف عبيد بهذه الظاهرة... قال لى أمام جمع من رؤساء التحرير.. (إن ثمن الأرض مرتفع لذلك لا يدخل فى صفقات البيع والشراء ولكن بشرط عدم هدم المصنع وطلب منى تقديم أى شكوى لدراستها) والحقيقة فإن الأمر لا يحتاج لأى شكوى فالمصانع هدمت بالفعل.. وقد رأيت بنفسى الأبنية السكنية التى شيدت مكان المصانع المباعة فى الاسكندرية!!

كما أن الموارد المحدودة للخصخصة تم تبديدها فى متطلبات جارية، وعلى حد تعبير الخبير الاقتصادى د. رمزى زكى فإن (بيع الأصول الخدمية والانتاجية تم لفك زنقة عابرة فى النقد الأجنبى)! ولاحظوا أننا حينما نتحدث عن القطاع العام فإننا نتحدث عن العمود الفقرى الصناعى، وعن أصول استثمارية للأجيال ومن دم وتضحيات هذا الشعب.

وقد أدت الخصخصة الارتجالية إلى فقدان ربع مليون مواطن لوظائفهم بينما ينتظر ٢ مليون هذا المصير خلال سنوات قليلة. وذكرت احدى صحف المعارضة أن د. عاطف عبيد عندما كان وزيرا لقطاع الأعمال أسقط ٦ مليارات جنيه من ديون الشركات العامة قبل البنوك وأن هذا من أسباب أزمة البنوك.

ويلخص وضع الصناعة فى مصر سواء فى القطاع العام أو الخاص د. اسماعيل صبرى عبدالله وزير التخطيط السابق بقوله: (نحن فى مصر نعيش على قاعدة «اخطف واجرى» المشكلة هنا مشكلة ادارة من كافة المستويات: حكومة، قطاع عام، قطاع خاص، فالخصخصة تمت من وقت أن تمت تصفية كل القيادات الأصلية على ثلاث دفعات فى عهد السادات ومن استمر ثبت أنهم أسوأ المديرين ولذلك تجد أن بناة القطاع العام فى مصر بكوا وهم يشاهدونه وهو يباع، ومن لم يبن شيئا انتظر لحظة البيع للحصول على نصيبه منه. توقفت الاستثمارات الكبيرة وعمليات الاحلال والتجديد، وتم الهدم المتعمد فى صناعة الغزل والنسيج التى كنا نتباهى بها، الآن أكثر من ثلث الانتاج بداخل المخازن، وأرباح رجال الأعمال المصريين تخرج من مصر ولا يعاد استثمارها وإلا كان معدل الادخار لدينا زاد والدولة تعلم ذلك جيدا. أساتذة الاقتصاد الرأسمالى فى مصر سعيد النجار وأحمد الغندور وحازم البيلاوى انتهوا إلى أن ما يحدث فى مصر ليس برأسمالية ولهذا اشتهرت الآن باسم (رأسمالية المحاسيب) بعيدة تماما عن الرشد الاقتصادى والحساب الدقيق، تعتمد على مدى الاتصال بالسلطة والمنتفعين وجمعيات تساعد بعضها ولا تهتم بشىء وهى أقرب إلى التجارة منها إلى الصناعة وأكبر دليل على ذلك أن من بدأ منهم فى مجال الصناعة تحولوا إلى مضاربة العقارات وهذا بعيد تماما عن فكر الرجل الرأسمالى صاحب النظرة المستقبلية لمشروعه الصناعى. ما يطلق عليه رأسماليون فى مصر الآن هم أصحاب ثروات غير مشروعة ولهذا يبذرون الأموال بشكل استفزازى على عكس الفكر الرأسمالى، فالرأسمالية الأوروبية قدست الادخار وقللت الاستهلاك أثر تمردهم على تبذير وتبديد الاقطاعيين للموارد. ومن هنا كان الاصلاح الدينى المتمثل فى البروتستانتية التى نادت بأن الثروة نعمة الله وبالتالى هى قرينة على أن صاحبها رجل فاضل مسئول عن المحافظة عليها وينبغى تنميتها فلا يبذر فى الاستهلاك بعكس الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى التى كانت تقول للفقراء «أنتم أحباب الله» لأن الثروة هى التى تشجع الناس على الفسق ولهذا أتعجب مما يحدث فى مصر الآن!).

ويعترف د. عاطف عبيد رئيس الوزراء بهذه النتيجة المفجعة التي وصلت إليها الصناعة المصرية فيقول ببساطة: (إن ٥٠٪ من طاقات المصانع العامة والخاصة على الأقل معطلة)!!

وقد أدى التدهور في القطاعات الانتاجية كما ونوعا إلى ارتفاع العجز التجاري عام ٩٨ ـ ٩٩ إلى ١٥ مليار دولار (د.رمزي زكي). وقد لاحظ البنك الدولي في أحد تقاريره إهمال الحكومة للقطاع الانتاجي فأشار إلى أن «الحكومة خصصت ٢١٪ من إجمالي استثماراتها لبناء مجموعة من الفيلات والقرى السياحية في الساحل الشمالي على حساب القطاعات الانتاجية» (جريدة العربي) وقد تحول الساحل الشمالي بالفعل إلى بؤرة اهتمام الدولة بصورة مثيرة للقلق، لأن الساحل الشمالي تحول إلى مجموعة منتجعات لطبقة المترفين الحاكمة (وقد تمكن بعض متوسطي الحال من وضع أقدامهم في بعض هذه المنتجعات ولكن ليس هذا سبب اهتمام الحكومة بالمنطقة!!) فوصل الأمر برئيس الوزراء د. عاطف عبيد لأن يعلن توفير التأمين الصحي لكل سكان القرى السياحية في الساحل الشمالي، بينما التأمين الصحي لا يشمل إلا ٥٠٪ من سكان الاسكندرية ولا يزيد عن ٢٠٪ في بعض محافظات مصر (جريدة الأهالي). وما حاجة سكان القرى السياحية للتأمين الصحي وهم من علية القوم؟! ولكن هذا يتضح من الجزء الثاني من تصريح رئيس الوزراء (مستشفى كل ٥٠ كيلو متر من الاسكندرية لمرسى مطروح)! إن إمكانيات الدولة ستسخر أذن لكبار القوم الذين يمضون شهرين في السنة بالساحل الشمالي. فتبنى لهم الدولة مستشفى كل ٥٠ كيلو مترا. حتى إذا شعر أحد من الكبراء بأي أوجاع خلال الطريق يجد مستشفى كل ٢٠ دقيقة، أو لا قدر الله وقع له حادث مروري. ولم يفكر رئيس الوزراء يوما ببناء مستشفى كل ٥٠ كيلو متر على طول خط الصعيد (وهو مشهور بكثرة الحوادث المرورية) أو بحري مثلا لأن هؤلاء الرعاع من أبناء الشعب ما حاجتهم للعلاج؟! ومنذ تحول مصيف رئيس الدولة إلى الساحل الشمالي حتى أصابت الحمى أجهزة الدولة وأصبح الساحل الشمالي على قمة الأولويات، في حين أن الدولة ما كان لها أصلا أن تقوم بهذا الاستثمار العقاري الكبير لصالح الأغنياء في عمل غير انتاجي. وتتركز الخدمات على الطريق الشمالي بين برج

العرب ومارينا. ثم انتقلت حمى الاستثمار العقارى إلى حزام عريض حول القاهرة ببناء مدن فاخرة وترك الصناعيون صناعاتهم للتفرغ لهذه المشاريع التى كانت تحقق مكاسب هائلة، وقد أدى هذا الاندفاع إلى أزمة عقارية، حيث تم بناء مدن للمترفين بأكثر من احتياجاتهم فتراجعت الأسعار وتحولت كثير من هذه المدن إلى مدن أشباح. وساهمت هذه الظاهرة فى أزمة البنوك التى مولت هذه المشروعات السفيهة بعشرات المليارات! وذلك فى حين تعانى القطاعات الانتاجية من شلل متزايد.

أما الاندفاع خلف الأجنبى لينقذ الاقتصاد المصرى فقد تحول إلى قبض الريح، وبعد ربع قرن من ما يسمى سياسة الانفتاح الاقتصادى جاء فى تقرير للبنك المركزى المصرى أن الاستثمارات الأجنبية المباشرة قد انخفضت إلى ١١٥ مليون دولار خلال الربع الأول من عام ٢٠٠٠ وكانت ١٥٨ مليون دولار فى نفس الفترة عام ٩٩ (والرقمان تافهان).

بالنسبة لما جرى فى الزراعة فهو يتطابق مع قول المفسرين (إن ظهور الفساد يشير بالاساس إلى هلاك المزروعات والجدب والقحط) وما حدث فى الزراعة له شقان:

(١) خراب انتاجى من حيث الكم خاصة الحاصلات الرئيسية.

(٢) خراب نوعى من حيث انتاج ثمار ملوثة تهدد الصحة العامة. وعلى سبيل التذكرة ـ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ـ نشير إلى بعض الوقائع والتى قد لا تكون جديدة كلها ولكنها جميعا من مصادر جديدة، وبعد انتهاء حملة الشعب على وزارة الزراعة..

ونبدأ أولا بشق التراجع الكمى فى الانتاج الزراعى:

فقدت مصر من أراضيها الزراعية الخصبة فى الدلتا والوادى ـ بسبب التجريف ـ أكثر من مليون فدان، وبخلاف المشروعات الاستصلاحية والاستزراعية الكبيرة (كالتحرير والصالحية) التى تم اهدارها وتصفيتها تحت شعار «التحرير والخصخصة» (جريدة الأهالى)، وقد أشار د. رشدى سعيد فى كتابه المرجع (نهر النيل) إلى تجريف مليون فدان، وهذا احصاء قد مر عليه عدة سنوات ومن المفترض أنه ارتفع عن ذلك لأن التجريف يجرى كل

يوم، وبالعين المجردة نشـهد تدمير الأرض الزراعيـة كل يوم فى محافظة القليوبيـة والجيزة.. اللتين تتـحولان تـدريجيـا إلى مـجرد ضـواحى سكنيـة للقاهرة!! إذا تم حـصـر ما تنشـره الصحف حول الأرض الـتى تعرضت للبوار بسبب سـياسات وزارة الزراعة سيـرتفع حجم الأرض الزراعيـة المفقودة إلى ما لا يقل عن مليـون ونصف المليون الفدان. وإذا أخـذنا عينة عشوائية مما نشرته الصحف فى أسبوع واحد فقط من عام ٢٠٠٠ نجد التالى:

١ ـ ٥٠ ألف فدان من الأراضى المستـصلحة منذ عام ١٩٧٠ فى محافظة قنا مـهددة بالبوار وبدأ المزارعون يهربون منها بعد أن أصبحوا مهددين بالحبس لتراكم فوائد قروض بنوك التنمية، وأصبحوا يتركون المحـاصيل فى الأرض حتى تجف أو حرثها لعدم وجود سوق لها لانخفاض أسعارها، فى مقابل التكلفة العالية للرى فى الصحراء.

٢ ـ مركز طامية فى الفيوم (محـافظة وزير الزراعة) تعانى أراضيه الزراعية من البوار ورغم أن المنشور لا يحدد مساحة الأراضى التى خرجت فـعليا من الانتاج.. إلا أن قصتها هى قصة نموذجيـة فى كيف يؤدى الفساد إلى إهلاك الحرث والنسل، فقـد قام بعض أعضاء مجلس الشعب وبعض القيـادات الشعبية والتنفيذية باستـغلال نفوذهم فى زراعة الأرز بالمخالفـة للسياسـة الزراعية المعلنـة والاستيلاء عـلى المياه من الترع والمصـارف لزراعة الأرز فى أرض مستـصلحة تابعة لهم دون أن يكون لهذه الأراضى الجـديدة أية مقننات من المياه اللازمة للرى، فـجاء ذلك على حـساب الأراضى الزراعـية الأصليـة للأهالى الغلابة، فقد دمرت محاصيلهم وأصبحت أرضهم مهددة بالبوار.. ونفقت المواشى.

٣ ـ تعانى أراضـى ٥٠ ألف مواطن بمركزى الخـانكة وشبين القناطر بمـحافظة القليـوبية من البوار بسبب اضطرارهم رى أراضيهم بمياه المصرف التى تؤدى إلى ارتفاع نسبة الملوحة فى الأرض، كما تتـرك وزارة الرى مخلفات عمليـة تطهير المصرف على أراضـيهم منذ ١٠ سنوات وهو الأمـر الذى يؤدى إلى اقـتطاع فـعلى للأرض الزراعيـة للأهالى على جانبى المصـرف.

٤ ـ تعرضت ٥ آلاف فدان للبوار فى جنوب بورسعيد، فبعد أن تم توزيع الأراضى على شباب الخريجين من أجل زراعتها وبعد ما انفقوه فى اعداد الأرض، تراجع المسئولون عن توفير الخدمات الأساسية وعلى رأسها وصول مياه الرى إليهم وفى المقابل كانت هناك الموافقات جاهزة لأصحاب المزارع السمكية، وهكذا ظلت أراضى الشباب فى حالة بوار تام منذ أكثر من ٥ سنوات.

٥ ـ نفس المصير تتعرض له مساحات شاسعة من أراضى وادى النطرون التى تم توزيعها على المستثمرين عام ١٩٩٦ وتمت زراعتها بأشجار الزيتون والتفاح والموز، ثم اكتشفوا ارتفاع تكلفة الرى بالآبار بالاضافة لتحملهم مصاريف شبكة الطرق المؤدية للمنطقة المستصلحة وأمام ديون البنوك وجدوا أنفسهم عاجزين عن استكمال العمل وزراعة الأرض. (لم يتم توصيل الكهرباء للأراضى المستصلحة).

٦ ـ عمليات بناء واسعة النطاق تجرى على الأرض الزراعية فى محافظة الغربية بعد وقف العمل بقرارات الحاكم العسكرى التى تمنع البناء على الأرض الزراعية، ومذبحة الأرض الزراعية تتركز بشكل خاص فى مراكز زفتى والسنطة وقطور والمحلة.

٧ ـ تسود حالة من الذعر والغضب بين مستثمرى ومستصلحى الأراضى بصحراء الأقصر بعد قيام مسئولى المدينة بازالة أكثر من مائة فدان من زراعات القمح وآبار المياه الجوفية واتلاف المعدات رغم حصولهم على موافقة وزارة الزراعة على استصلاح هذه الأراضى.

وفى صحراء الأقصر أيضا تم تطفيش مستثمرين فرنسيين بعد بدايتهم لأعمال الاستصلاح بعد رفض مسئولى وزارة الزراعة استكمال تخصيص الأراضى لهم رغم أن شركتهم مسجلة بهيئة الاستثمار ورغم حصولهم على كافة الموافقات.

٨ ـ تحولت أحلام أكثر من ٥٠٠ أسرة من ملاك الأراضى المستصلحة فى غرب طهطا (سوهاج) إلى كوابيس بعد شرائهم أراضى من مشروعات التعمير والتنمية الزراعية،

حيث اكتشفوا أن الأرض لا تصلها المياه، ومر على هذا الحال ١٠ سنوات، فقد تبين أن الترع المصممة لرى الأراضى ترع مسامية سرعان ما تشرب المياه قبل جريانها لتظل ٤ آلاف فدان عطشى للمياه، سارع المزارعون بحفر الآبار ليكتشفوا أنه حتى عمق ٦٥ مترا لا توجد مياه وإن وجدت فهى غير صالحة للرى.. وهذه الآلاف من الأفدنة تحسبها وزارة الزراعة ضمن التوسعات التى حدثت فى الأراضى الزراعية!!

٩ - تسود حالة من الاستياء بين أهالى قريتين فى شبين الكوم بسبب قيام ادارة الطرق بالمحافظة بتوسيع جسر ترعة فرع «شنوان» الذى يبلغ طوله ١١ كم مما أدى إلى اتلاف المزروعات والأراضى الزراعية لصالح أحد أصحاب النفوذ الذى يمتلك مزرعة على مسافة ٢ كم من بداية الطريق.

١٠ - مصرف كتشنر فى محافظة كفر الشيخ المحمل بالصرف الصناعى يؤدى إلى تدمير الزراعة فى الحامول وبلطيم، وأدى إلى ارتفاع نسبة ملوحة الأرض فى مركز بيلا وبالتالى انخفاض خصوبتها وضعف انتاجها الزراعى.

١١ - تسبب اهمال وتقاعس مسئولى الصرف الزراعى بكفر الشيخ فى بوار ألفى فدان من أجود أراضى الدلتا بمركز مطوبس.

ولنلحظ مرة أخرى أن هذه الوقائع نشرت فى أسبوع واحد.

* * * * *

المشروعات القومية الكبرى:

نشرت فى جريدة «الشعب» دراسات متوالية حول مشروع توشكى الفاشل، الذى يستنزف موارد البلاد للتوسع الزراعى فى المكان الخطأ وبالأسلوب الخطأ. أما فيما يتعلق بالتوسع الزراعى فى سيناء فقد أيدنا ذلك ولكننا أعترضنا على مسار ترعة السلام لأنها لم تتجه إلى وسط سيناء حيث الأراضى الخصبة واتجهت إلى شمال سيناء وكأنها مرحلة أولى لتوصيل المياه يوما ما لإسرائيل.. مسار الترعة الحالى (ولاحظ اسمها «السلام») يتجه إلى

سهل الطينة، وهذا السهل تربته مالحة بنسبة أعلى من ملوحة البحر! حتى إنها مرشحة لغسيل ملوحتها بماء البحر!! أراضى سهل الطينة (٥٠ ألف فدان) تم بيعها لشركات ليس لها تاريخ فى استصلاح الأراضى، وقامت هذه الشركات بدور السمسار وعادت وباعت هذه الأراضى للأفراد وكسبت الملايين من لا شىء! أما الأفراد الذين اشتروا هذه الأراضى فقد حولوها إلى مزارع سمكية بالمخالفة للقانون!! وستؤدى هذه المزارع إلى اهدار كميات كبيرة من المياه، وتحول الأرض إلى أرض قلوية يسود فيها عنصر الصوديوم.

* * * * *

أحوال قطاع الزراعة:

انخفضت كما ذكرنا من قبل المساحة المزروعة بالقطن إلى أقل من ٦٠٠ ألف فدان (بعد أن كانت مليونى فدان) والقطن هو العمود الفقرى الزراعى ـ الصناعى ـ التصديرى للبلاد. كذلك انخفضت انتاجية الفدان.

مصر هى الدولة الأولى فى العالم بالنسبة لحجم استيراد القمح والدولة العربية الأولى فى استيراد الغذاء.

نستورد زيوتا نباتية بما قيمته ٢,٢٥ مليار جنيه سنويا (٨٥٪ من حاجة السوق وننتج ١٥٪!!).

يشهد عام ٢٠٠٠ تكدس مليون ونصف مليون طن أرز فى المخازن منذ عام ومعرضة للتلف.

ورغم تدهور انتاجنا من القمح إلا أننا نبدد ما ننتجه، فقد صرح وزير التموين أن مليون ونصف مليون طن قمح تتلف كل عام فى المخازن (وهذا هو ربع الانتاج حسب كلام الوزير) وانخفاض انتاج الحبوب الرئيسية وسوء تخزينها يؤدى إلى استيرادنا القمح بـ ٢,٥ مليار جنيه سنويا وبـ ٢ مليار للذرة (تصريحات رئيس الوزراء).

وفى حين تعلن وزارة الزراعة أن مصر تحرز المرتبة الأولى عالميا فى انتاج قصب السكر

(جريدة الأهرام) إلا أن البلاد تستورد ثلث احتياجاتها من السكر من الخارج (جريدة العالم اليوم).

ويشهد عام ٢٠٠٠ كارثة فى محصول قصب السكر بسبب أزمة الحشرة القشرية أو «الفيروس الخشبى» الذى أصاب المحصول فى صعيد مصر. كشفت تقارير مديريات الزراعة فى الصعيد عن ارتفاع نسبة الاصابة من ٣٪ العام الماضى إلى ٣٥٪ عام ٢٠٠٠. وأكدت التقارير أن انتاج السكر سوف ينخفض بمعدل ٣٠٠ ألف طن فى الموسم القادم.

«الفيروس الخشبى» أصاب عشرات الآلاف من الأفدنة ورغم انذار الاصابة فى العام الماضى (ألف فدان فى مركزى الأقصر وقوص) إلا أن وزارة الزراعة لم تتحرك حتى امتدت الاصابة هذا العام من مركز أدفو بأسوان إلى مركز نجع حمادى شمال محافظة قنا.

تجفيف البحيرات السمكية الكبرى المتصلة بالبحر المتوسط وتدميرها بالتلوث من الصرف الصحى والصناعى والزراعى (نموذج من الفساد فى البحر) وانهار انتاج الأسماك فى بحيرة ناصر من ٣٤ ألف طن عام ١٩٨١ إلى ألف طن فقط عام ١٩٩٩، وتقلصت بحيرة البرلس من ١٤٤ ألف فدان إلى ٨٠ ألف فدان. وقصة هذه البحيرة قصة نموذجية على استشراء الفساد الذى يصل إلى حد إهلاك الحرث والنسل، فنحن أمام تصفية للثروة السمكية، أو تحويل الأسماك إلى غذاء ضار بالصحة. وجاء فى تقرير لجنة الثروة المائية بالمجلس الشعبى المحلى لمحافظة كفر الشيخ أن مصادر تلوث البحيرة من صرف صحى وزراعى وصناعى تحتوى على مواد عضوية وغير عضوية تشكل خطورة بالغة على الكائنات الحية بالبحيرة. ويشير التقرير إلى ارتفاع نسبة المعادن الثقيلة والرصاص بسبب المزارع السمكية المقامة على مساحات الأراضى المجففة من البحيرة، ويتهم هذه المزارع التى يمتلكها أصحاب النفوذ بزراعة شتلات البوص فى عمق البحيرة مما يؤدى إلى عدم صلاحية البحيرة للحياة البحرية.

انخفاض قيمة انتاج اللبن من ٣,٢ مليار جنيه (عام ٩٩) إلى ٢ مليار جنيه عام ٢٠٠٠ ووصل الأمر إلى قيام المزارع بالقاء مئات الأطنان من اللبن فى الترع والمصارف فى بلد يقع

أكثر من ٥٠٪ من سكانه تحت خط الفقر، وتتعرض استثمارات هذا القطاع (٣٠ مليار جنيه) إلى الضياع ويرجع ذلك إلى اعتماد الصناعات الغذائية بصورة متزايدة على اللبن البودرة المستورد وارتفاع تكاليف تربية الحيوانات ومقاومة الأمراض الجديدة (الحميات) التي تصيبها.

قصة النحل:

قصة النحل في مصر هي احدى قصص التخريب الإسرائيلي للزراعة المصرية، فمع بداية التسعينيات تم استيراد عذارى النحل مصابة بمرض الفاروا من الكيان الصهيوني على أنها «عذارى مهجنة» ستزيد انتاج العسل وغذاء الملكات وعدد الشغالات وذلك عن طريق وزارة الزراعة. ثم تبين أن العذارى مصابة بهذا المرض الخطير الذي يمتص دم النحلة ويصيبها بالكساح ثم الموت. وأدى هذا المرض إلى انخفاض رهيب في انتاج النحل فبعد أن كانت الخلية تنتج ما بين ٩، ١٥ كيلو جراما من العسل في العام وصل الأمر إلى أن الخلية الآن لا يزيد انتاجها على ٣ كيلو جرامات للخلية القوية في العام.

ويقول د. محمد عبدالوهاب عبدالفتاح بزراعة القاهرة: اننا نعتمد في علاج هذا المرض على الدول المصدرة له (إسرائيل) واتضح أنها تعطينا علاجا لا يقضي على المرض تماما فعند وضع العلاج يتوقف المرض عن الانتشار وإذا تم رفع هذا العلاج يعاود المرض الانتشار. ويقول د. أنور عبدالعزيز بقسم بحوث النحل بوزارة الزراعة ان تعداد خلايا النحل في مصر قبل دخول المرض كان نحو مليوني خلية وقد وصل الآن إلى نحو مليون ونصف مليون خلية، ويتوقع أن يقل كثيرا في المرحلة القادمة. كما أشار د. عبدالوهاب إلى أن كمية الأزهار الموجودة في مصر بها نحو ١,٢ مليون طن عسل أما المنتج الحقيقي فهو نحو ٨ آلاف طن عسل نتيجة مرض الفاروا آفاق عربية ـ الأخبار).

ويقول د. عبدالوهاب: «إن ٨٠٪ من الزراعات تعتمد اعتمادا كليا على تلقيح النحل»، وبالتالي فإن الخراب ينتقل من النحل إلى الزراعة. وقد نشرت هذه القصة المؤلمة مرارا

وتكرارا ولم تحرك ساكنا لا من الحكام ولا المحكومين! والعسل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ كما جاء فى القرآن الكريم.

والمثير للسخرية والحزن أن العالم كله يتجه للعلاج بالعسل على نطاق واسع وتم انشاء معاهد علمية متخصصة فى العلاج بالعسل. وفى منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة هناك لجنة للعسل!! وقال أحد أعضاء هذه اللجنة (وهو مصرى) أن العلم أثبت أن العسل يعالج ٥٠٠ مرض، وأن وخز النحل يعالج ١٠٢ مرض، وأن صمغ النحل يدخل فى مكون ٣٠٠ دواء. ولكن فى مصر بلد القرآن، يتم تدمير صناعة النحل وتنتشر فى الأسواق أنواع مغشوشة من عسل النحل.

ومأساة عسل النحل تتمثل فيها كل معانى محق البركة، فهذه الصناعة كانت لابد أن تكون فى حدقات عيون المسئولين فى بلد يؤمن بالقرآن، فاستهانوا بتوجيهات القرآن وهذا يمحق البركة فى شقها الغيبى، ويمحق البركة فى شقها المادى الظاهر بحرمان الشعب من العسل الصحى الشافى لكثير من الأمراض، كذلك فإن هذه القصة تشير إلى أن الأمم التى تأخذ بالأسباب تتمتع بصحة أكبر وبالتالى فإن الشعوب الغربية والآسيوية التى اهتمت بالعلاج بالعسل (وبغيره من الأسباب كالعودة إلى الأعشاب والتخلى عن المبيدات..) تتمتع بصحة أفضل ومتوسط أعمار أعلى..

أما على صعيد الإضرار بالصحة العامة للمواطنين وبسلامة المزروعات والثروة الحيوانية وهو ما اسماه القرآن الكريم (إهلاك الحرث والنسل) وقد ضربنا أمثلة خلال تعرضنا لهذه الآية الكريمة، ونضيف إليها ما يلى مما نشر بعد انتهاء الحملة الصحفية لـ «الشعب» على وزارة الزراعة:

* نشرت مجلة «الأهرام العربى» موضوعا خطيرا بعنوان (الموت بطعم الخوخ والنزلات المعوية بطعم الكانتلوب) انتهى فيه أحد المتخصصين إلى القول بأنه لم تعد هناك فاكهة مأمونة إلا الموز فى الصيف والبرتقال فى الشتاء، أما الباقى فكله ملوث بالمبيدات والهرمونات، والكانتلوب يؤدى إلى نزلات معوية، والحقيقة أن الموز أيضا ليس آمنا حيث

انتشرت البذور الإسرائيلية فى مجال زراعته.. والبذور الإسرائيلية قائمة على الهندسة الوراثية.

* بعد الاتحاد الأوروبى السعودية تحظر صادرات البطاطس المصرية لضررها على الصحة العامة (جريدة الأهرام).

وترجع أمراض الزراعة فى كثير من الأحيان كالعفن البنى فى البطاطس إلى اعتمادنا المتزايد على استيراد التقاوى من الخارج.

* أكد مصدر مسئول بمركز البحوث الزراعية التابع لوزارة الزراعة أن سموم «الافلاتو كسينات» التى تظهر فى بعض المحاصيل مثل الفول السودانى والذرة وراء انتشار سرطانات الكبد والأمعاء فى مصر وأن هذه السموم تعوق التصدير للخارج، والاتحاد الأوروبى فرض حظرا على استيراد الفول السودانى من مصر (جريدة الحقيقة).

* الجمعيات الزراعية وزعت بذورا وتقاوى فاسدة ومبيدات تساعد على تكاثر الآفات الزراعية فى زراعة القطن بالجيزة (جريدة الحقيقة).

* تلقت المنظمة العالمية للأوبئة تقريرا من رئيس هيئة الخدمات البيطرية فى مصر يفيد وجود مرض الحمى القلاعية فى محافظة الفيوم (محافظة وزير الزراعة) ومن المثير للسخرية أن كثيرا من الكوارث الزراعية تجدها ممثلة فى هذه المحافظة.

* أشار تقرير لنفس المنظمة إلى انتشار مرض الحمى القلاعية فى ولاية اندهارا الهندية وبها ٤١ بؤرة مرضية للحمى القلاعية ومع ذلك قامت الهيئة العامة للخدمات البيطرية فى مصر بالموافقة لاحدى الشركات على استيراد ١٠ آلاف طن لحم جاموس من هذه الولاية وتم استيرادها فى نوفمبر ١٩٩٩، فى حين أن الاتحاد الأوروبى أصدر تحذيرات لمواطنيه من مجرد السفر إلى البلاد المصابة بهذا المرض وما تزال اللحوم الهندية الموبوءة وفقا لتقرير المكتب الدولى للأوبئة فى باريس تتدفق إلى مصر تحت اشراف وزارة الزراعة (جريدة الوفد).

* وذكرت جريدة الأهرام (بعد انتهاء حملة جريدة «الشعب») ما يلى:

تمثل الزيادة المطردة فى استخدامات المبيدات خطرا يمس كل أوجه حياتنا الصحية لما لها من ترسيبات فى الغذاء والجسم والبيئة وتنشر السموم والضعف الجنسى خاصة بين عمال المكافحة الكيمائية حيث أشارت الأبحاث أخيرا إلى وجود متبقيات لهذه المبيدات فى ثمار الفاكهة والخضروات والحبوب والمواد الغذائية ومياه الشرب والهواء، وهذا ما دعا معظم الدول إلى وقف مبيدات الكلور واحلالها بمركبات أخرى. وتؤكد د. نادية ذكرى الأستاذ بقسم البيولوجى بالمركز القومى للبحوث أن الخطورة فى ذلك أن مصر تستورد ما قيمته ١٠٠ مليون دولار سنويا منها كل عام دون حذر من أخطارها. وأشارت إلى أن الاختبارات التى أجريت مؤخرا على تأثير المبيدات أكدت أن ٢٠ مبيدا حشريا شديد السمية للكائنات المائية والكائنات القشرية التى تمثل حلقة مهمة فى سلسلة الغذاء. ويضيف د. محمود توفيق الأستاذ بقسم الحيوان بالمركز أنه ثبت الأثر الخطير للمبيد على حيوانات المزارع خاصة الدواجن التى تتعرض للمبيدات المستخدمة فى مزارعها فتؤدى إلى تغيرات فى وظائف الكبد والكلى وتؤثر على درجة الخصوبة بالحيوانات وكفاءتها التناسلية (إهلاك الحرث والنسل).

وتحدث د. إبراهيم مصطفى الأستاذ بقسم الحيوان بالمركز عن التأثير السرطانى للمبيدات. وتحدث د. محمود توفيق عن تلويث المبيدات لألبان البقر والجاموس. ودعت د. نهى حجازى الأستاذة بالمركز إلى ضرورة دعم سياسة ترشيد استخدام المبيدات بمصر ووضع توصيف قياسى للحدود القصوى المسموح بها من بقايا المبيدات فى الغذاء الحيوانى النباتى لتأمين سلامة الإنسان.

الهندسة الوراثية:

تصر وزارة الزراعة على ادخال منتجات الهندسة الوراثية، وتخصص مساحة إعلانية فى الصحف الحكومية للدعاية لهذا النوع من الزراعة، رغم الثورة العالمية ضده، ورغم أن كل أوروبا وكثير من دول العالم قررت مقاطعتها لخطورتها على صحة الإنسان.. وقد نشرت

مجلة «الأهرام الاقتصادي» الحكومية هذا المقال لأحد المتخصصين نقتبس معظمه لأنه يلخص القضية تلخيصاً جيداً:

«ساهمت التكنولوجيا الحيوية عن طريق الهندسة الوراثية فى انتاج الأغذية المعدلة جينيا وهى ذات خطورة على صحة الجماهير وتشمل الخضروات والفواكه والحبوب وبعض الزيوت وبعض أنواع الدقيق والنشا المستخرج من البطاطا والقمح وفول الصويا، وهى تسبب العديد من الأمراض بداية من الحساسية حتى السرطان. إن موضوع هذه الأغذية يختلف تماما عن موضوع التهجين وتحسين السلالات، حيث يتم اختيار كائنات لها صفات مرغوبة ثم يتم تهجينها بنقل هذه الصفات إلى كائنات من نفس النوع للحصول على سلالات أفضل وهذا شىء غير مخالف للطبيعة. أما فى الهندسة الوراثية فإنه يتم نقل صفات من كائن إلى كائن آخر ليس من نفس النوع بل ليس من نفس المملكة أى من حيوان إلى نبات أو من إنسان إلى فيروس أو جراثيم وهذا شىء مخالف للطبيعة، لأن الطبيعة لا تسمح بتمازج جينات الكائنات مختلفة النوع، أما الهندسة الوراثية فيمكنها فعل ذلك، وهى بهذا تحدث خللا بالشفرة أو القانون الخاص بـ D.N.A ومن أمثلة ذلك زرعهم فى بذور الخضروات والفواكه جينات مقاومة للمضادات الحيوية وجينات مضادة للحشرات والآفات الزراعية أى تقتلها وهذا يعنى الكثير من الخطورة لأنه عندما نتناول هذه الخضروات والفواكه فكأنما نتناول مباشرة مبيدات حشرية تدخل أجسامنا، ثم ماذا يحدث عندما نتناول مثل هذه الأطعمة المحتوية على جينات مقاومة للمضادات الحيوية؟ أى ماذا يحدث إذا كان الشخص يتم علاجه آنذاك بالمضادات الحيوية، إنه لن يتم شفاؤه بسببها أبدا، وماذا عن مرضى الربو عندما يتناولونها وهى المثيرة للحساسية لأنها بروتين جديد.

وتقول عالمة الهندسة الوراثية فيونا دوجلاس: إن الكارثة فى الدول المتقدمة أن هناك تحالفا أو ما يشبه المؤامرة بين علماء الهندسة الوراثية ورجال الأعمال حيث يطلب منهم هؤلاء العلماء تمويل أبحاثهم بالمزيد من الأموال الطائلة فى مقابل أن يخلقوا لهم نوعيات من الأغذية تحقق لهم المزيد من الأرباح وتحقق للمستهلكين لها المزيد من الأمراض بداية من

الحساسية حتى السرطان والآثار المدمرة على الحوامل والأجنة والأجيال القادمة» (انتهى الاقتباس من الأهرام الاقتصادى) وكذلك نشرت جريدة كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية فى تقرير لها تصريحا لمتخصص فى الهندسة الوراثية للنبات بجامعة ساسكا تشوين الكندية جاء فيه: «إننا ننظر إلى المحاصيل المعدلة وراثيا عالمين بالأخطار المحدقة وهى أخطار حقيقية غير مبالغ فيها ولن تزول هكذا بجرة قلم» وأشارت دراسة علمية منشورة فى مجلة جورنال ساينس الأمريكية إلى أن أعداد طائر الزرزور قد تنخفض بنسبة ٩٠٪ إذا ما قرر المزارعون زراعة بنجر مهندس وراثيا. ونشر باحثون بجامعة أيوا الأمريكية دراسة حول الذرة المعدلة وراثيا وقدروا أن نوعا من الفراش (الفراش الملكى) مهدد بالابادة بسبب طلع الذرة المهندسة وراثيا.

وتتعاون وزارة الزراعة المصرية مع أمريكا وإسرائيل فى مجال الهندسة الوراثية بعيدا عن أى نوع من المراقبة الشعبية أو العلمية، بعد أن ترأس وزير الزراعة بنفسه لجنة الأمان الحيوى التى تتابع هذا النشاط، وفي معرض تأييده للهندسة الوراثية أدلى د. يوسف والى بتصريح خطير تم نشره فى جريدة الأهرام من خلال إعلان مدفوع الأجر من وزارة الزراعة قال فيه بالحرف الواحد: «إننا نعيش عالم القرية الكونية الصغيرة الذى تلاشت به الحواجز الجغرافية وأصبح هناك اختياران ولا ثالث لهما وهما اما اقتناء السيارة ليكساس وهى رمز العولمة والتكنولوجية وثورة المعلومات والسوق الحر، أو التمسك بشجرة الزيتون وهى رمز التمسك بالجذور والتقاليد. ولذا فنحن نؤمن بحقيقة العولمة».

والخطير فى هذا التصريح أن والى يعلن صراحة انحيازه لتوماس فريدمان اليهودى الصهيونى الذى انقلبت ضده مصر حكومة وشعبا لأسباب مختلفة.. فالقوى الوطنية ضد أفكاره واستهزائه بالإسلام.. والحكومة ضد مهاجمته لشخص الرئيس مبارك.. و«السيارة ليكساس أو شجرة الزيتون» هو عنوان كتاب فريدمان.. ويوسف والى يعلن انتماءه لفكر توماس فريدمان.. على صفحات الأهرام الرسمية وبعد قيام فريدمان بالسخرية من الرئيس مبارك.. ليقول والى انه الرجل القوى فى مصر.. وانه سيواصل التعاون مع الشركات

الأمريكية الصهيونية فى مجال الهندسة الوراثية شاء الناس أم أبوا.. وأنه لن يرجع إلى أى هيئة وطنية حول هذه السياسة مهما كانت مضرة بصحة المواطنين.

البترول والمعادن:

استخراج البترول والغاز الطبيعى والمعادن يمكن أن يكون حلقة رئيسية لتطوير النهضة الصناعية، ولكن الزيادة الانتاجية تتجه للتصدير بأثمان بخسة، بدلا من ادخالها فى الانتاج الصناعى.. وأيضا على حساب الاحتياطى الاستراتيجى للأجيال المقبلة. خاصة وأن بعض هذه الموارد معرضة للنفاد.

التجارة:

التجارة ليست قطاعا انتاجيا، ولكنها حلقة رئيسية لاغنى عنها بين المنتج والمستهلك، وبدون شبكة تجارية محكمة يمكن أن تفسد المنتجات فى مكانها أو تبقى فى المخازن ولا تصل إلى المستهلك الذى يريدها. وتجرى فى السنوات الأخيرة عملية تستهدف هذه الشبكة الوطنية التى تضم ٢٥٠ ألف محل تجارى (وفق الاحصاء الرسمى والواقع أكثر من ذلك بكثير) فبالاضافة لمتاعب كثيرة تعانيها طبقة التجار. إلا أن الخطر الرئيسى الآن هو السماح لشركات أجنبية كبرى باحتكار السوق التجارى الداخلى، وهو أمر بالغ الخطر على الاستقلال الاقتصادى.. وسيؤدى إلى إفلاس طبقة التجار الوطنيين، ويؤدى إلى السيطرة على الصناعات الغذائية الوطنية من قبل الأجانب.. حتى يتحكموا فى حياتنا فى كل مراحلها. فبعد أن سلمنا الأجانب الصناعة والزراعة نسلمهم الآن التجارة والخدمات (شركة فرنسية تتولى جمع القمامة فى محافظة الاسكندرية مقابل ٧٠ مليون جنيه سنويا!!)، وعن هذه المخاطر على التجارة الوطنية يقول د. الفونس عزيز خبير التخطيط:

«يتعرض حوالى ٢٥٠ ألف محل تجارى فى جميع أنحاء الجمهورية وهو قطاع تجارة التجزئة يتعرض لهجوم شرس من جانب بعض «المحلات العالمية» التى تعمل فى تجارة التجزئة مثل محلات «سنسبرى» البريطانية و«مترو» الألمانية (وفى الطريق أيضا محلات

فرنسية وغيرها) وبدأت فروع سلسلة «سنسبرى» تغزو الأحياء الشعبية، كما بدأت فى التعاقد مع عدد من مصانع المنتجات الغذائية المحلية لشراء بعض خطوط الانتاج فيها، الأمر الذى يعنى أن هذه «المحلات العالمية» تخطط لتحتل مركزا احتكاريا فى مجال تجارة التجزئة فى الداخل استنادا إلى المشاركة فى مجال الانتاج المحلى فى بعض الصناعات الغذائية والاستهلاكية، والأمر المثير للدهشة أن تشجيع رأس المال الأجنبى للاستثمار فى الداخل يرجع أساسا إلى التطلع لاكتساب تكنولوجيا جديدة متقدمة، فأى تكنولوجيا متقدمة يكتسبها الاقتصاد المصرى من وراء غزو المستثمر الأجنبى مجال تجارة التجزئة فى الداخل؟ إنها حقا مهزلة لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية السلبية:

١ ـ تعريض ما لا يقل عن مليونى شخص للبطالة فى تجارة التجزئة.

٢ ـ خطورة الوضع الاحتكارى للأجانب على تجارة التجزئة والانتاج الغذائى معا، وهو ما سيؤدى إلى التحكم فى الأسعار مستقبلا نحو الارتفاع.

٣ ـ أرباح هذه الشركات تحول للخارج وهى تتحول بالدولارات مما يؤدى إلى رفع سعره.

٤ ـ فى مرحلة لاحقة ستقوم هذه المحلات بتصريف انتاج مصانعها فى الخارج على حساب صناعتنا الوطنية.

ألا يستحق الذين يقفون وراء هذه المهزلة كشفهم سياسيا ومحاسبتهم؟».

وبالتوازى مع هذه المأساة فى التجارة الداخلية، فإن تجارتنا الخارجية تشهد انهيارا حقيقيا من زاوية الصادرات.. وقد اشرنا لذلك من قبل.. والأساس أننا لا نملك سلعا مصنعة جيدا للتصدير حتى أن بلادا مثل بنجلاديش سبقتنا فى مضمار صادرات المنسوجات وأصبحت تحتل ٦,٤٪ من السوق الأوروبى. وتتقدم كينيا على مصر فى تصدير الزهور حيث تصدر ٣٠ ألف طن فى حين تصدر مصر ٣٠ طنا فقط رغم أنها تزيد على مصر فى عدد ساعات الطيران لأوروبا بنحو ٦ ساعات، وتفوقت تونس على مصر فى التصدير.. (السفير جمال البيومى ـ مساعد وزير الخارجية المصرى).

ورغم أن أزمتنا الأساسية فى التصدير النقص الفادح كما ونوعا فى السلع الصالحة للتصدير إلا أن هناك عديدا من الأسباب المكملة لهذه الكارثة.. ومن بينها تدهور صناعة النقل البحرى، وتراجع أوضاع أسطولنا الجوى، فهناك تناقص متزايد فى عدد سفن الأسطول التجارى من ١٤٤ باخرة تحمل العلم المصرى إلى ٨٩ باخرة فقط حاليا (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠) كما أن نسبة ٧٥٪ من السفن الباقية يزيد عمرها على ١٥ سنة بالمخالفة لقانون سلامة السفن. ويعانى الخط الملاحى الذى تم تدشينه مؤخرا إلى دول شرق أفريقيا «الكوميسا» من خسائر بالملايين بسبب ضعف الصادرات المصرية إلى أفريقيا (لجنة النقل بجمعية رجال الأعمال المصريين).

وأشارت دراسة لـ د. نجلاء الأهوانى إلى أن التكاليف غير المنظورة فى الموانىء التى تدفع كأكراميات ورشاوى فى جميع مراحل العمل (الفساد) ويجبر المصدر على دفعها ترفع تكلفة تصدير الحاويات فى الموانىء إلى أعلى التكاليف فى العالم.

أما عن أسطولنا الجوى فقد صدر تقرير دولى فى لندن عن الأمان والسلامة فى الطيران وكان التقرير من ١٠ درجات وجاءت مصر للطيران فى ذيل الشركات العربية مع أنها أقدم شركة طيران عربية وأكثرها خبرة، وكانت شركة الامارات العربية الأولى على الشركات العربية بتقدير ٣٨,٧ درجة ثم تتوالى الشركات العربية بالترتيب التالى: الخليج والسعودية والكويت والمغرب ولبنان وسلطنة عمان وتونس والأردن وسوريا ثم مصر التى حصلت على ٦٣,٥ فى المركز الحادى عشر وبعدها اليمن والجزائر والسودان وفلسطين. ومع ذلك فهناك اصرار على التجديد لرئيس الشركة رغم بلوغه ٧٣ عاما. والتكلس والجمود والتمسك «الأبدى» بالمسئولين هو من علامات التدهور الاقتصادى والحضارى.. فى وقت يدعى المسئولون أنهم يشجعون الشباب والأجيال الشابة.. بينما يرأس شركات كبرى فى العالم شباب فى الثلاثينيات ويرأس دولا رجال فى الأربعينيات.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى النقل الداخلى وهو يخدم التجارة الداخلية والخارجية معا نجد أن مصر رغم أنها من أقدم دول العالم التى أدخلت شبكات السكك الحديدية إلا أنها لا

تمثل الآن أكثر من ٤٠٪ من النقل الداخلى ومن المفترض أن النقل بالسكك الحديدية أقل تكلفة وبالتالى فإن عدم توظيفه يؤثر على ارتفاع الأسعار داخليا وفى التصدير.

وفى ختام الجزء المتعلق بالتجارة يكفى أن نشير إلى الكارثة التى جاءت على لسان رئيس الوزراء وهى: (إن ٣٠٪ من الواردات يدخل إلى البلاد مهربا!) وهذا التصريح فى حد ذاته يكشف إلى أى حد لم تعد هناك دولة بالمعنى المفهوم، ولا قانون، ولا قواعد،ولا أخلاق. وأن البلاد أصبحت نهبا لكل ساع إلى مكسب حرام. فالمهرب يكسب أكثر من المستورد الشرعى، كما أنه يغرق البلاد بما يدمر الصناعة الوطنية. فى حين نشرت جريدة الأهالى استنادا لتقرير رسمى أن ٨٠٪ من اجمالى التجارة الداخلية من التهريب (وليس ٣٠٪)، ورقم رئيس الوزراء كاف لادراك حجم المأساة مع ملاحظة أن السلع المهربة لا تخضع للمراقبة على المواصفات.

شيوع الفقر.. والفقر المدقع:

أدى التدهور فى القطاعات الانتاجية التى هى أساس ثروة الأمم، بالإضافة للسياسات والتشريعات التى لم تراع العدالة الاجتماعية (طرد المستأجرين الزراعيين ـ طرد عمال القطاع العام.. وغيرها) إلى شيوع الفقر بصورة لم تعرفها البلاد منذ فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. والأرقام الرسمية والدولية تتحدث.

وضع تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام ١٩٩٨ مصر فى المرتبة ١١٢ بين ١٧٥ دولة.

أما تقرير التنمية البشرية لمعهد التخطيط القومى فيقدر نسبة الفقراء بـ٤٨٪ من عدد السكان من بينهم ٤,٧٪ يعانون من الفقر المدقع (٤,٤ مليون نسمة) متوسط انفاقهم السنوى يقل عن ٥٩٤ جنيها! كذلك تؤكد التقارير الرسمية أن أغنى ٢٠٪ من السكان يستأثرون بما يزيد عن ٤٥٪ من إجمالى الدخل بينما لا تزيد نسبة ما يحصل عليه أفقر ٢٠٪ على ٦٪ (جريدة الأهرام).

وتشير تقارير وأرقام المعهد القومى للتخطيط فى نوفمبر ١٩٩٩ إلى أن ٥ ملايين شخص يعيشون على أقل من جنيه واحد يوميا (البنك الدولى يرفع هذا الرقم إلى ٧,٥ مليون مواطن) ووفقا لآخر موازنة ٩٩/ ٢٠٠٠ فإن متوسط أجر الموظف (من الوزير إلى الغفير) حوالى ٤٥٠ جنيها فى الشهر فإذا كانت لديه أسرة من خمسة أفراد بات نصيب الفرد ثلاث جنيهات يوميا. وبينما كانت الأجور تمثل نصف الناتج المحلى عام ١٩٧٠ باتت تمثل ثلثه فقط فى منتصف التسعينيات. وتقدر د. كريمة كريم أستاذة الاقتصاد فى بحث أخير لها أن نسبة الفقر قد بلغت ٥٥٪ من سكان الريف فى أول التسعينيات، بينما تشير أبحاث أخرى إلى ارتفاع نسبة الفقر فى بعض محافظات الصعيد إلى ٧٠٪.

ووفقا لتقرير صادر عن البنك الدولى فإن مصر تمثل المركز الـ ٥١ فى قائمة أفقر دول فى العالم، ويؤكد التقرير أن مصر أكثر فقرا من سوريا والأردن وباكستان والجزائر والمغرب وأن متوسط دخل الفرد ٧٩٠ دولار مقابل ١٦ ألف دولار فى إسرائيل.

ويقول التقرير أن ٢١ مليون مصرى (٣٤٪) يصل فقرهم إلى حد حرمانهم من دخول تكفى لسد احتياجاتهم من الطعام والخدمات الاساسية من كساء وعلاج وتعليم وخلافه، وأن ١٣,٧ مليون مصرى آخرين يمثلون ٢٢,٩٪ من سكان مصر لا تكفى دخولهم لسد احتياجاتهم الاساسية من الطعام من بينهم ٤,٤ مليون مصرى يعيشون فى فقر مدقع . وهذا التقرير يرفع نسبة الفقراء بمستوياتهم المختلفة إلى ٥٦,٩٪ من سكان مصر.

وتقدر البطالة بما لا يقل عن ٢ مليون مواطن ويقدر وزير التنمية الادارية أن حجم البطالة المقنعة داخل الحكومة بـ ١,٥ مليون موظف.

ويشير تقرير لمجلس الشعب إلى أن ١٧٪ من الأسر الفقيرة لاتصلهم المياه النقية فى الحضر وأن أكثر من ٧٥٪ من الأسر الفقيرة فى ريف الصعيد لا تصلهم المياه داخل المساكن. وفى دراسة للمجالس القومية المتخصصة نجد أن ١٦٪ من السكان لا يحصلون على الماء النقى فى القاهرة وأن العاصمة بها ٦ ملايين مواطن يعيشون فى العشوائيات وأن ٤٨٪ من أصحاب المعاشات لا تكفيهم معاشاتهم لاشباع الحاجات الاساسية (الأهرام).

وتتعرض الأحياء الشعبية لعدوان متكرر يسمى «الازالة» دون تعويض مجز لاستخدام أراضى الأحياء فى مشروعات غير انتاجية، والأمثلة على ذلك كثيرة.. آخرها منطقة بولاق أبو العلا التى يجرى قضمها تدريجيا، وقد جاء الدور على أرض ماسبيرو حيث يتعرض عشرات الآلاف للتشريد.

تدهور الحالة الصحية للشعب:

تدهور الانتاج وشيوع المظالم يؤدى إلى الفقر.. والمرض قرين الفقر، بالإضافة لانتشار الأغذية المسممة بمختلف أنواع المواد الضارة وعلى رأسها الهرمونات. وقد ترافق ذلك مع انهيار النظام العلاجى المجانى لصالح العلاج الاستثمارى مرتفع التكلفة ومرة أخرى الأرقام والوقائع تتحدث:

* أصابت البلاد حالة وبائية من الأمراض الخطيرة وعلى رأسها: الفشل الكبدى والكلوى والسرطان، وأصبح انشاء مراكز علاج السرطان والفشل الكلوى لا يلاحق هذه الحالة «الجماهيرية» وفى الفشل الكلوى حققت البلاد أعلى معدل على مستوى العالم (١٧ فى الألف)، والقطاع الزراعى مسئول إلى حد كبير من خلال المبيدات المتسربة لماء الشرب، ومن خلال المزارع السمكية التى لا تراعى الاشتراطات السليمة.

* الأسواق مليئة بالمواد الغذائية المغشوشة ومجهولة المصدر حتى إن وزير التموين أعلن ضبط ٤٠٠ ألف حالة غش كل ٦ شهور، أى ٨٠٠ ألف حالة فى السنة، وهذا ما يتم ضبطه فحسب!!.

* كشفت تقارير الرقابة الإدارية وجود أكثر من ١٠٠ مصنع فى مختلف المحافظات يقوم بإنتاج ملح طعام فاسد وبالغ الضرر بالصحة يعتمد على «سياحات» لاتعدو أن تكون مياها راكدة لبرك ومستنقعات لا يدخلها سوى مياه الصرف الصحى والزراعى والصناعى يستخلصون منها ملحا للإنتاج الصناعى فحسب ولكنهم يحولونه إلى ملح طعام ليتناوله الناس.. وهو من أحد أسباب انتشار الفشل الكلوى والوباء الكبدى.

وقد أدى هذا الملح المغشوش منذ فترة إلى نكبة فى محافظة الوادى الجديد حيث أصيبت بنقص حاد فى اليود وقامت الشركة العامة المسئولة عن إنتاج الملح بالاشتراك مع وزارة الصحة ومنظمة اليونيسيف العالمية بإضافة اليود إلى الملح الموجود بأسواق المحافظة لمواجهة الموقف. الأمر الذى أدى إلى الهبوط بنسبة الأصابة إلى ٢٠٪!!

ورغم أن ملاحة المكس أهم وأكبر مركز لإنتاج الملح الصحى. فقد بلغ حجم الاستقطاعات منها منذ عام ١٩٩٨ حوالى ٨٥٠ فدانا لإقامة مشروعات أخرى!! (جريدة الأهرام).

* حذرت شعبة صناعة الزيوت باتحاد الصناعات من انتشار الزيوت الملوثة فى الأسواق من إنتاج مصانع وشركات عشوائية غير مرخصة مما يضر بصحة المستهلكين.

* دراسة لمركز الأرض لحقوق الإنسان تؤكد أن الإحصاءات تشير إلى أن ١٨ مليون نسمة أى ما يمثل ٣٠٪ من سكان مصر مصابون بالبلهارسيا ومضاعفاتها، بينما لا تتعدى هذه النسبة فى العالم ٥٪ من السكان، ويرجع ذلك إلى ندرة المياه النقية، فنسبة السكان الذين يحصلون على مياه نقية فى الريف لا تتعدى ٥٠٪ مما يتسبب أيضا فى الإصابة بالعديد من الأمراض، من أشهرها الطاعون (الذى انقرض فى العالم!!) الذى أصيب به أكثر من ٤٠٠ فرد فى مركز بلقاس دقهلية لتناولهم مياه ملوثة بالصرف.

ويتضمن التقرير معلومات بالغة الخطورة فيقول: إن الانفاق الحكومى على الصحة لا يتجاوز ٣,٨٪ من إجمالى الناتج القومى، وهى نسبة ضئيلة للغاية، فنصيب قرى مصر من الخدمات الصحية لا يتجاوز ٥٠ مليون جنيه!!

ثم يشير التقرير إلى الحقائق التى أصبحت مستقرة - دون أن تنطق الحكومة عنها ببنت شفة - وهى أن الزراعة تستخدم موادا ضارة بالبيئة وبالإنتاج مثل المبيدات الحشرية المحرمة دوليا والهرمونات، ومن أمثلة آثار ذلك ظهور حالات تسمم فى مناطق بالقاهرة والجيزة والمنوفية فى مارس ٢٠٠٠ نتيجة تناول الخيار المهجن.

وعلى مستوى سوء التغذية فحدث ولا حرج، فمتوسط استهلاك الإنسان المصرى للحوم الحمراء لايتجاوز ١٥ جراما فى اليوم، بينما حددت المنظمات الصحية الدولية المتخصصة مقدار ٥٠ جراما كحد أدنى لازم لصحة وحياة الإنسان (جريدة الأهالى) نصيب الفرد من السمك ٩ كيلو جرامات سنويا وهذا معدل متدنى (جريدة الحياة) متوسط استهلاك الفرد من اللبن ٥٧ كيلو جرام سنويا والمعدل العالمى ٩٠ كيلو جرام (جريدة الأحرار).

والدراسات العلمية تؤكد إصابة ٥٤٪ من الأطفال بالأنيميا، و٢٠٪ لديهم نقص فى الفيتامينات. كما يعانى الأطفال وتلاميذ المدارس من نقص تناولهم للبروتين الحيوانى الذى يمثل نسبة ١٥٪ من إجمالى نصيبهم من البروتين. ويقول تقرير لمعهد التخطيط القومى عن التنمية البشرية إن سوء التغذية هذا يؤدى إلى انتشار الأمراض التالية بين التلاميذ: ضعف عام وهزال، ضعف الإبصار، جفاف البشرة والجلد، أمراض الجهاز التنفسى والأسنان واللثة ولين العظام ونقص الوزن، والبرى برى، والقلب، وفقدان الشهية، والإحساس المستمر بالإجهاد والتعب وشحوب الوجه والصداع واصفرار العين والبلهارسيا المزمنة، والإسهال وانخفاض سرعة تجلط الدم.

وقد أدت هذه الحالة الصحية المزرية التى تعود إلى غلاء الأسعار وعدم قدرة الفقراء على تلبية احتياجات التغذية الصحية، وانهيار النظام العلاجى المجانى، وشيوع الفقر فى حلقة شريرة مع شيوع المرض. أدت هذه الحالة الصحية المزرية إلى نتائج بالغة الخطر.. ففى الأحاديث الشعبية هناك «تعبير» شهير بأن يقول شخص لآخر (ربنا يوقف نموك) وكانت هذه العبارة أشبه بالطرفة أو «النكتة» ولكنها الآن تحولت إلى حقيقة.. فتقارير التنمية البشرية تقول إن ٥ ,١٢٪ من أطفال مصر يعانون من نقص الوزن، وأن نسبة الأطفال ناقصى الطول بلغت ٥ ,٣١٪. وقد أهتم د. نادر فرجانى بهذه الظاهرة الخطيرة فجاء فى إحدى دراساته أن نسبة التقزم فى الأطفال أى انخفاض متوسط الطول جيلا بعد جيل تتزايد. وأن هذه الظاهرة تفاقمت فى هذا العهد تحديدا. فكان ربع الأطفال يعانون من ذلك عام ١٩٩٢، فباتت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٩٥، وترتفع النسبة فى الريف فبات أبناء القرية «خاصة فى الصعيد»

يعرفون مشكلة قصار القامة بالنسبة لـ ٤٠٪ من الأطفال. (جريدة الأهرام ـ محمود المراغى) وتلمس الكليات العسكرية والشرطة هذه الكارثة عاما بعد عام حيث تكتشف الانخفاض الهائل فى نسبة الصالحين صحيا من المتقدمين لهذه الكليات وهم عادة من الأشخاص الذين يتصورون أن صحتهم جيدة!! ففى مقابلة أذاعها التلفزيون المصرى تحدث مسئول فى أكاديمية الشرطة عن شروط القبول فيها وختم حديثه بتحذير واضح «لقد انخفض عدد اللائقين طبيا وبدنيا انخفاضا كبيرا، وهو انخفاض تزايد عاما بعد عام».

وكان مسئولون بالكليات العسكرية قد أدلوا بتصريحات مماثلة من قبل!.

وتقول الإحصاءات الرسمية إن متوسط العمر فى مصر ٦٦ عاما، أما فى إسرائيل فقد بلغ متوسط العمر ٧٦,١ عاما للرجال و ٨٠,٣ عاما للنساء وفقا لاحصاءات عام ١٩٩٨، (أى أن الفجوة تتراوح بين ١٠ سنوات و ١٤ سنة).

وكأن مصر قد أصبحت وطن الأوبئة التى لا يعرفها العالم أو التى انقرضت من معظم بلاد العالم، فبلغ عدد المصابين بمرض الفيل (الفلاريا) ٣٠٠ ألف مواطن ويتهدد المرض ٢مليون مواطن فى ١٦٣ قرية نسبة الإصابة فيها بلغت ١٠٪ (مجلة الأهرام العربى).

ونتيجة الإهمال والفساد والتسيب تظهر فى بلادنا ظواهر لا تشكو منها أى بلد آخر كظهور ما يسمى باستاكوزا النيل، أعدادها بالملايين زاد وزن الواحدة منها عن ربع كيلو جرام، وهى تسبب الفشل الكلوى وأدت إلى إبادة الأسماك فى النيل خاصة البلطى وهو أهم نوع بالنيل، بعد انقراض الأنواع الأخرى فى السنوات الأخيرة (البورى الكبير والصغير والثعابين والبنى واللبيس الأبيض والشيلان البلدى والشفا)، والاستاكوزا تمزق شباك الصيادين وأدت إلى توقف بعضهم عن الصيد نتيجة هلاك الشباك خلال شهرين وكان عمرها سنة، بالإضافة لافتراس الاستاكوزا للأسماك، وينتشر هذا الكائن فى الدلتا والقاهرة ووصل إلى حدود بنى سويف جنوبا. ويقول د. عباس سيد أبو العز فى المعهد القومى لعلوم البحار: (نرجو محاسبة المسئول عن نزول هذا الكائن إلى النيل، وهذه ليست أول مرة.. فى بحيرة قارون بالفيوم جرى إسقاط الجمبرى الأبيض الصغير لتتغذى عليه الأسماك وكانت

النتيجة خللا بيولوجيا خطيرا لأن الجمبرى تضخم وأصبح يتغذى على طعام السمك البورى من العوالق فتدهورت الثروة السمكية، وفى بحيرة ناصر حدثت كارثة أخرى باسقاط أسماك المبروك لالتهام ورد النيل، ولكنها تنافس الآن أسماك البلطى والبياض على غذاء البحيرة). وتقول مجلة «المصور» إن جهة حكومية اسقطت هذا الكائن فى النيل لأكل ورد النيل وهذه أرجح الروايات، وهناك رواية أخرى تقول إنه تسرب من أحواض مزرعة أحد رجال الأعمال. وفى الحالتين نحن أمام تسيب وفساد واستهتار بصحة الشعب لامثيل لها. وكل هذه الكوارث ينشر عنها ولا تحرك ساكنا لاعند الحكام ولا المحكومين!!

انتشار المخدرات بصورة وبائية:

شهد العقدان الماضيان انتشار المخدرات بأنواعها بصورة فتاكة ويتحول بيع المخدرات إلى حالة شبه علنية فى بعض الأحياء.. وراجت بصورة خطيرة داخل المدارس والجامعات والاندية الرياضية، وانتشار المخدرات خاصة الهيروين والبانجو بآثارهما المدمرة لغز كبير، لم يتجرأ أحد على كشفه، ولم تتوفر معلومات أكيدة وموثقة عن رأس أو الرؤوس الكبيرة لهذه التجارة الفتاكة، وقد وصل حجمها إلى عشرات المليارات فى السنة الواحدة، وبلغ غسيل أموال المخدرات خلال ٣ شهور فقط فى عام ٢٠٠٠ (١٢,٣ مليار جنيه) وفقا لمسئول مصرفى. والحقائق الثابتة تقول أن انتشار تجارة السموم بهذا النطاق لابد أن تكون وراءها رؤوس كبيرة، وهى لم تكشف حتى الآن، والسجون لا يوجد فيها إلا صغار موزعى المخدرات.. ونحن لدينا أجهزة أمنية على مستوى عال من حيث كفاءة المراقبة وسرطانية الانتشار.. وهى تعرف كل كبيرة وصغيرة عن المعارضة السياسية عندما تريد، وهى تستكمل نقص كفائتها فى جمع المعلومات بانتزاع المعلومات بالتعذيب.

وبالتالى فإن عدم ضرب رؤوس شبكة تجارة السموم، بل واستمرار توسع سوق المخدرات يشير إلى لغز كبير.. لن تحل رموزه إلا فى عهد جديد، وكان اللواء مصطفى الكاشف أحد أبرز العاملين فى مكافحة المخدرات بوزارة الداخلية قد تقدم للوزارة بدراسة موثقة عن أن كل قضايا ضبط المخدرات هى لصغار الموزعين وأن معظم المضبوطات تتراوح

حول عدد ضئيل من الجرامات.. بل وألمح فى احدى القضايا التى رفعها ضد وزير الداخلية السابق إلى أنه اضطهد لأنه كان وراء كشف نواب الكيف.

إننا نحمل الحكام مسئولية هذه الجريمة ولا نرى أى مبرر أو سبب مقنع لعجزهم عن توجيه ضربات قاصمة لهذه الشبكات والكشف عن كبار رؤسها ومحاكمتهم.. ورغم أن جلب المخدرات أصبحت عقوبته الإعدام.. إلا أن رأسا كبيرا واحدا لم يتم إعدامه ولا حتى سجنه.. بينما المخدرات هى أحد الأسباب الرئيسية وراء الثراء السريع والمفاجىء لفئات معروفة فى المجتمع.

الانهيار فى الرياضة وعلاقته بالصحة:

ليس من خلق المسلم أن يبالغ فى إظهارالمساوىء لأنه فى موقع المعارضة بغرض إحراج الحكام، فهذا أسلوب مقيت ومجوج وهو من مظاهر السياسة فى مفهومها العلمانى الغربى المكيافيلى (نسبة إلى مكيافيلى صاحب كتاب الأمير الذى نصح فيه الحاكم أن يستخدم كل الوسائل اللاأخلاقية للبقاء فى الحكم)... لذلك أتوخى الدقة وأسعى لعدم تحميل الأمور أكثر مما تحتمل.. وعندما أقول إن الآية الكريمة ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...﴾ تنطبق على حالة مصر الآن بصورة نموذجية فقد استندت فى ذلك لأرقام وإحصاءات ومعلومات يقر بها الحكام.. وتقر بها وسائلهم الإعلامية.. استندت إلى حقائق لا يختلف عليها اثنان. ومن مظاهر دقة ما نقول به، الإحصاءات الرسمية المصرية والدولية التى تضع مصر فى الثلث الأخير فى مجال التنمية البشرية (الدخل - التعليم - الصحة - الخدمات) على مستوى العالم، وأيضا مصر فى الثلث الأخير فى البلاد الأكثر فقرا، ومصر فى الثلث الأخير فى البلاد الأكثر فسادا، ومصر فى الثلث الأخير فى العالم الذى لا يحصل على أى ميداليات فى الدورات الأولمبية.

والمنافسات الرياضية التى تتجسد فى البطولات العالمية وعلى رأسها الدورات الأولمبية. هى منافسة حضارية.. والفوز فيها مقترن بكل عناصر التقدم الحضارى: المال - العلم -

الأسلوب الإدارى والتربوى السليم - الصحة. ونتائجها لا تعرف المحاباة فهى تحسب بالمتر والدقيقة والثانية والكيلو جرام.

مصر لم تحقق ميدالية واحدة طوال هذا العهد، إلا ميدالية فضية واحدة عام (١٩٨٤) والبطل رشوان الذى حققها نشأ واستعد قبل بداية هذا العهد، فهو انجاز لا يحسب لهذا العهد حقيقة.. وهذه الظاهرة يقترن فيها الفساد مع الانهيار الصحى.. فالفساد المسيطر على الاتحادات الرياضية التى تحولت إلى مغنم لتحقيق المكاسب الشخصية.. هو المسئول الأول عن هذا التدهور المخيف بين الأمم، ثم يأتى بعد ذلك المستوى الصحى.. والمستوى الصحى مسألة تثار إذا كنا نريد أن نحصل على عدد كبير من الميداليات، أما العجز عن الحصول على ميدالية واحدة خلال ٤ دورات متتالية فهذا هو الفساد المطلق فى المجال الرياضى.. وفى الدورة الأخيرة حصلت ٧٨ دولة على ميداليات وهذا مقياس حضارى علمى دقيق لحالة مصر فى ظل هذا العهد. فنحن دائما فى القسم الأخير الراسب فى الامتحان. والفاسدون يبررون الفشل بأن القاعدة الرياضية فى مصر ليست كبيرة وأننا لسنا متقدمين علميا كالغرب، ولكن هل توجد قاعدة رياضية أكبر فى سورينام أو سرى لانكا أو جزر البهاما وهل لدى هذه الدول تقدم علمى أكبر.. إنها وقاحة الفاسدين..

فى الدورة الأخيرة التى رسبت فيها مصر للمرة الرابعة على مدار ١٦ سنة ولم تحصل على ميدالية برونزية واحدة.. فإن الدول التى من وزن مصر أو أقل والتى حصلت على ميداليات هى:

كوريا الجنوبية حصلت على ٢٧ ميدالية - أثيوبيا ٨ ميداليات (وتعد أثيوبيا من أفقر دول العالم) - إيران ٤ ميداليات - تركيا ٤ ميداليات - كينيا ٧ ميداليات - اندونيسيا ٦ ميداليات - المكسيك ٦ ميداليات - الجزائر ٥ - أوزبكستان ٤ - جزر الباهاما ٢ - تايلاند ٣ - الكاميرون ١ ذهبية - كولومبيا ١ ذهبية - موزمبيق ١ ذهبية - البرازيل ١٢ - جامايكا ٧ - نيجيريا ٣ - جنوب أفريقيا ٥ - الأرجنتين ٥ - المغرب ٤ - تايوان ٥ - كوريا الشمالية ٥ - السعودية ٢ -

أورجواى ١ ـ فيتنام ١ ـ كوستاريكا ٦ ـ باربا دوس ١ ـ شيلى ١ ـ الهند ١ ـ قطر ١ ـ سرى لانكا ١ ـ الكويت ١ ـ قيرغيزستان ١ ـ ترينيداد وتوباجو ٥.

ملاحظة: السيد اللواء منير ثابت شقيق السيدة سوزان مبارك هو رئيس اللجنة الأولمبية منذ فترة طويلة ولا يتزحزح عن موقعه مهما حدثت من نتائج!

التسمم الجماعى ظاهرة مستمرة:

على فترات متقطعة تحدث ظاهرة تسمم جماعى لتلاميذ المدارس، وقد كشفت فى أحد المقالات أن هذه الظاهرة تعود لاستخدام فول الصويا المهندس وراثيا فى تركيبة البسكويت الموزع على المدارس بناء على توصية بذلك من وزارة الزراعة، ورغم أن المستندات لدى النيابة العامة إلا أنها لم تحرك ساكنا.. كذلك لا يمر أسبوع دون حدوث حالة من حالات التسمم الجماعى بسبب الأكل الملوث والسلع المغشوشة بالأسواق. (راجع صفحة الحوادث فى الجرائد اليومية).

مسئولية وزارة الزراعة عن انتشار الأمراض:

يؤكد د. فيصل عامر أستاذ جراحة الأورام بمعهد الأورام أن ٩٩٪ من أورام الكبد خبيثة. وأن أحد أسباب انتشار هذه الأورام فى مصر تلوث الأطعمة وبوجه خاص الخضروات بالمكونات الكيماوية المستعملة بكثرة هذه الأيام لرش الخضروات. أما بالنسبة للعلاج فيوضح أنه للأسف غير مؤكد لذلك فالوقاية خير من العلاج، وينصح بتجنب الخضروات التى ترش بالكيماويات مع غسلها جيدا بالمطهرات. (جريدة الأهرام). ولكن كيف يعرف المستهلك المصرى المسكين!!

ويؤكد د. عبدالحميد محمد عبدالحميد الأستاذ بكلية الزراعة بجامعة المنصورة ضرورة التوقف عن عشوائية الاستيراد للحيوانات والدواجن والأسماك والمواد الغذائية حتى لا تنافس المنتجات المحلية ووقف انتشار الأمراض وانتقالها إلى مصر مشيرا إلى ضرورة القضاء على فساد الأجهزة الرقابية للجودة وعدم التهوين من حجم هذا الفساد الذى أدى

إلى انتشار الأمراض الخطيرة بسبب استهلاك منتجات فاسدة إما لتلوثها بالاشعاع أو بمتبقيات السموم الفطرية أو الهرمونات أو بالميكروبات ومسببات الأمراض المختلفة (جريدة الأحرار).

وأخيرا فإن الحكومة تتجاهل أن الدستور - الذى تتمسك به وترفض تعديله - ينص على التزام الدولة بكفالة الخدمات الصحية والتأمين الصحى لكل مواطن، وتترك العلاج المجانى ينهار وتتحول المستشفيات العامة إلى العلاج الاستثمارى وما يسمى بالعلاج الاقتصادى.

ووفقا لتقارير منظمة الصحة العالمية فإن أكثر من ٤٠ مليون مصرى مصابون بأمراض مختلفة، ١٨ مليون مصابون بالبلهارسيا (١٥ مليون آخرون معرضون للإصابة) و٧ ملايين مصرى مصابون بالربو الشعبى و ١٢ مليونا بالفشل الكلوى والتهاب الكبد الوبائى و٢٥٪ من المصريين مصابون بالسكر بمعدل ١٠٠ ألف حالة سنويا. أما ميزانية الصحة فهى لاتتعدى ٣مليارات جنيه بنسبة تقل عن ٣٪ من الميزانية، بينما تخصص إسرائيل ٦ مليارات دولار أى ما يساوى ٢٤ مليار جنيه للصحة أى ٨ أمثال الميزانية المصرية لـ ٥ , ٤ مليون يهودى) (جريدة الوفد).

ولقد كشف التقرير الأخير لمنظمة الصحة العالمية أن ترتيب مصر فى المستوى الصحى هو ١١٦ بين ١٨٩ دولة بينما احتلت سوريا المرتبة ١١٥ وليبيا ١٠٨ والاردن ١٠٢ والجزائر ٨٥.

*****

التعليم:

جوهر العملية التعليمية هو المناهج الدراسية والتربوية.. وهذا ما يصعب تناوله فى هذه العجالة ولكن نشير إلى أن أخطر ما فى هذا المجال.. هو التقلص المتزايد للجرعات والثقافة الدينية والوطنية، ونزع كل ما يشير للجهاد، وأن هذا الخطر زحف حتى على المناهج فى الأزهر. والمناهج تنفصل رويدا رويدا عن الغطاء الحضارى الإسلامى على مختلف

الأصعدة، ويعانى التعليم من الازدواجية بل والتعدد، بين المدارس العامة والخاصة، المدارس الحكومية والمدارس الأجنبية.. التعليم العام.. والتعليم الأزهرى.. وهذا ما يؤدى فى النهاية إلى تفتيت لحمة وتماسك الأمة.. وعلى أرضية هذه المشكلة الكبرى كيف تجرى العملية التعليمية، وكيف تصل المادة التعليمية المتوفرة الآن بكل نواقصها؟!

تراجع نصيب التعليم من الإنفاق العام من ٢٥٪ عام ٧٧ ـ ٧٨ إلى ١٧,٨٪ عام ٨١ ـ ٨٢ ثم إلى ٩,٨٪ عام ٨٥ ـ ٨٦ ووصل إلى أدنى من ذلك عام ٩٠ ـ ٩١ «٩,٢٪» ورغم ارتفاع النسبة بعد ذلك.. إلا أنها لم تعكس تقدما نظرا لانخفاض الرقم الكلى للإنفاق العام، الذى انخفض إلى النصف فى أول التسعينيات، وهو الأمر الذى يعكس تدهورا كبيرا فى الإنفاق على التعليم. وتدهور نصيب الطالب الجامعى من مستلزمات العملية التعليمية إلى ١٤٦,٧ جنيه فى العام وهو أقل مما كان عام ٨٠ ـ ١٩٨١ بنسبة ١٨٪. وانخفض نصيب الطالب فى التعليم العام من ١٤,٧ جنيه عام ٨٠ ـ ٨١ إلى ٢,٤ جنيه فى عام ٨٩ ـ ٩٠، وهو رقم أشبه ما يكون بالصفر!.

ورغم أن البلاد تعانى من نقص حاد فى عدد المدارس إلا أن الحكومة قررت عام ١٩٩٩ خفض عدد المدارس التى تبنى سنويا من ١٥٠٠ إلى ٧٠٠ مدرسة لتحويل هذه المبالغ إلى المشروعات القومية الكبرى الفاشلة، كذلك قرر مجلس الوزراء رد المدارس المؤجرة لأصحابها!! فزادت أزمة المدارس استفحالا، وأصبحت العملية التعليمية أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، مدارس بلا فناء، فصول مكتظة بـ ٦٠ تلميذ وأكثر، مدارس بلا أسوار، بلا دورات مياه، بلا مقاعد.. بينما توجد مدارس خاصة للطبقات الراقية بها ملاعب كبيرة وحمامات سباحة وأتوبيسات لتوصيل التلاميذ وكأننا أمام شعبين منفصلين. (تقول دراسة علمية أن ٥١٪ من المدارس غير صالحة للاستخدام فى وجه بحري وتصل النسبة فى الجيزة إلى ٧١٪) و٢٠٪ من مدارس الحكومة تعمل على فترتين.. والعام الدراسى فى مصر ١٥٥ يوما.. بينما يبلغ ٢٢٢ يوما فى كوريا وتايوان وماليزيا، ٢١٥ فى إسرائيل!

التعليم الجامعى يستوعب ١٨٪ من المتعلمين.. بينما تصل النسبة فى قطر إلى ٢٢٪،

والأردن ٢٧٪، ولبنان ٢٩٪، وإسرائيل ٣٦,٥٪ (تصريحات وزير التعليم د. حسين كامل بهاء الدين) والتعليم المجانى تحول إلى أسطورة فى ظل الدروس الخصوصية، وارتفاع المصاريف، وارتفاع أثمان الكتب ومستلزمات العملية التعليمية التى انتقلت إلى الأسر !. بينما نجد فى بلد رأسمالى كالمانيا التعليم فيها بالمجان بالكامل من المهد إلى اللحد بما فى ذلك الجامعة.

ويقول وزير التعليم أنه سيبنى ألف مدرسة بنظام B.O.T، وهو يعنى خصخصة التعليم لصالح مستثمرين أجانب ومصريين، فنظام B.O.T يعنى أن تقوم شركة ببناء مرفق على حسابها وأن تستثمره لمدة ٢٠ أو ٣٠ سنة ثم تسلمه للحكومة بعد ذلك، وهو ما يعنى خضوع العملية التعليمية لسوق الرأسمال، ومزيد من تراجع الإشراف الحكومى على المناهج والتعليم، ومزيد من ضرب مجانية التعليم.

ظاهرة الغش الجماعى وتسريب الامتحانات أصبحت سبة فى جبين المجتمع ولامثيل لها فى تاريخ مصر، ولا فى أى بلد آخر فى هذا الزمان.. وتصل نسبة الغش فى بعض المواقع إلى ١٠٠٪، وهى أزمة اخلاقية ـ اجتماعية ـ علمية مروعة، وأصبح الغش هو القاعدة، والمدرس الذى لا يساعد على الغش يصبح مستهجنا ومكروها وربما يتعرض للضرب والإيذاء. وهذا نموذج حى يجسد تحول المعروف إلى منكر والمنكر إلى المعروف، ونموذج يؤكد كيف تحول الفساد إلى قاعدة، فإذا خرج عليها أحد يصبح هو الشاذ والمُستنكر والملام!

مسائل متفرقة:

بعد هذه الجولة السريعة فى القطاعات الأساسية من زاوية التداعى والذبول والانهيار.. فيما يلى عدد من الوقائع والمؤشرات المتناثرة التى تكشف عمق الفساد الضارب فى أعماق المجتمع. والتدهور الاقتصادى العام.

* لن نقف طويلا عند القطاع المصرفى وهو أحد القطاعات الحاكمة فى المجال الاقتصادى لأن الفساد فى هذا القطاع أصبح مشتهرا ولاكته الألسنة والصحف الحكومية ذاتها بعد أن أصبح مستحيلا إخفاء حجم الفساد فيه، والذى يتلخص فى دائرة مكتملة ممن

يسمون رجال أعمال والقيادات المنحرفة فى المصارف، فأصبح الأوائل يحصلون على قروض طائلة من أجل الاستيراد الترفى أو أى مشروعات أخرى غير انتاجية، على طريقة اضرب واهرب، وتسهل لهم قيادات منحرفة فى البنوك هذه التسهيلات مقابل الحصول على جزء من هذه القروض كرشوة. وقد وصل الأمر بأحد قيادات هذه البنوك التى اعتادت الانحراف إلى ضبطه وهو يسرق أدوات الطعام الفضية من طائرة مصرية، ورغم ضبطه متلبسا فى هذا العمل المشين إلا أنه ما يزال ملء السمع والبصر حتى الآن. وهذا مجرد حادث رمزى على حالة الانهيار الخلقى فى الدوائر العليا بالدولة والمصارف.. ذلك أن الكوارث التى حلت بالمجتمع من جراء فساد رجال المصارف أكبر بكثير من ثمن الملاعق والشوك !! إنها بعشرات المليارات من الدولارات.

وظاهرة الهروب الجماعى لمقترضى البنوك ظاهرة مصرية لا مثيل لها بهذا الحجم فى كثير من البلدان العربية والإسلامية.. وذكرنا من قبل أن مجلة حكومية نشرت أن ٢٦ فقط من رجال الأعمال مدينون للمصارف بأكثر من ١٠٠ مليار جنيه، ويقول أحدث تقرير للبنك المركزى المصرى إن مديونية رجال الأعمال فى القطاع الخاص للبنوك بلغت ٩٩,٤ مليار دولار وإن الكثير من هؤلاء متعثر فى السداد.

أما عن ظاهرة الهروب فتضم قائمة طويلة لا يتم الكشف عنها دفعة واحدة ولكن الدفعة الأخيرة التى شهدها عام ٢٠٠٠ وحده والتى تم الكشف عنها تضم: محمود وهبى المدين بـ٤٨٠ مليون جنيه، رامى لكح المديون بـ١,٤ مليار جنيه - حاتم الهوارى ٢٥٠ مليون جنيه، والمستثمر اليونانى الأصل مارك دوارف المدين بـ٧٠٠ مليون جنيه، وعلية العيوطى ١٤٠ مليون جنيه، البلبيدى ١٤٨ مليون جنيه، ماهر قيصر ٩٥ مليون جنيه - عبدالرحيم ميتكيس ٥٠٠ مليون جنيه، جيفرى بشاى ٦٠ مليون دولار - هشام عمارة ٧٠ مليون جنيه - محمد الغريب ٢٧ مليون جنيه للبنوك، ومدين بـ٢٥ مليون جنيه لشركات عامة - النمس ٥ ملايين جنيه لشركة عامة، ليلى الفار وعلاء السيد (٣٠٠ مليون جنيه).

وتشير الأنباء إلى هروب قرابة ٥٤ من المقترضين من البنوك على أقل تقدير، ونشرت

مجلة «المصور» أن عدد الممنوعين من السفر تجاوز ألفى شخص منهم ١١٢٦ من رجال وسيدات الأعمال وفقا لما صرح به مصدر قضائى بوزارة العدل. ورصد د.حمدى عبدالعظيم (الخبير الاقتصادى بأكاديمية السادات للعلوم الإدارية) ما يقرب من ٣٦ مليار دولار خرجت من مصر أو هربت منها خلال عام ١٩٩٨ فقط.

وتكشف هذه الظاهرة حجم التداخل بين طبقة السياسين والسلطة السياسية عموما وطبقة رجال الأعمال، وهذه من أهم خصائص نشوء طبقة المترفين. ومن أهم شروط استفحال الفساد، فرجال الدولة ينشغلون بجمع المال ويؤثر ذلك على تفكيرهم وقراراتهم وتشريعاتهم التى تبدو أمام الناس - غير العارفين ببواطن الأمور - عشوائية، وتختلط أمامهم المصالح العامة بالمصالح الخاصة، وتتحول البلد إلى عزبة فى نظرهم، أما رجال المال والأعمال فينشأون أو يتعلمون الحصول على المال بدون مجهود أو عمل انتاجى، فتكفى جرة قلم من مسئول، أو مكالمة هاتفية ليحصلوا على الملايين والمليارات فى صورة قروض بلا ضمانات أو أراضى دولة، وتصل ذروة الفساد إلى التزاوج الكامل فيصبح رجل الدولة هو نفسه رجل المال والأعمال وبالتالى تضطرب المقاييس فى دنيا السياسة والمال على السواء. ويتم هذا التزاوج عادة عن طريق الأبناء أو الزوجات أو الأقارب، ولكن بعض رجال أو «مختثى» الدولة يتبجحون ويمارسون التجارة علنا. ويصرحون بذلك للصحافة ويقولون أنهم يقتدون بالرسول عليه الصلاة والسلام الذى كان تاجرا، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يمارس التجارة قط وهو رئيس للدولة الإسلامية، بل ومنذ بداية تصديه للدعوة. والوزير الذى صرح بذلك يخرق النصوص الصريحة للدستور.. ولكن من يحاسبه فى زمن لم تعد فيه أى نوع من المقاييس.

والمفارقة المحزنة أن الدول الغربية تطبق - من الناحية النظرية على الأقل - مفاهيم الشريعة الإسلامية فى الفصل بين الحاكم وأعمال المال والأعمال، حيث لا يحصل الحاكم إلا على مرتب مقنن ومعلن، وتثور وسائل الإعلام على أى رئيس جمهورية أو رئيس وزراء إذا استخدم طائرة تابعة للدولة أو أى امكانية من إمكانيات الدولة فى أغراض

شخصية، وهؤلاء عادة لا يحققون ثروات إلا بعد خروجهم من السلطة من خلال طباعة مذكراتهم وإصدار الكتب أو العمل مستشارين لدى الشركات أو مراكز البحوث. وكما ذكرنا فإن دستورنا ينص على شيء من هذا ولكن الدستور تحول إلى وثيقة ميتة، يستخدم الحكام ما يريدون من نصوص، ويتغافلون عن نصوص أخرى إلى حد إلغائها فعليا.

والتمازج والاختلاط بين أصحاب الثروة وأصحاب السلطة.. يدفع إلى حالة من الإفلاس العام والانهيار الاقتصادى.. لأن معيار العمل المنتج والمجهود للحصول على المال يصبح مغيبا، فيتراجع العمل الإنتاجى الذى هو أساس الثروة.. وتتمركز الأموال الناجمة عن المضاربات وسرقة أموال البنوك والاقتصاد السرى فى أيدى قلة، ولا يتم تداول المال بشكل صحى، فيتزايد الفقر، وتعم البطالة.. ثم تظهر كل هذه الأعراض (انهيار قيمة الجنيه - أزمة السيولة - الركود).

* البورصة فى بلادنا ليست مرآة للأوضاع الاقتصادية للشركات، فهى تحولت إلى نوع من المقامرة للحصول على أموال بدون مجهود، ومن خلال أشكال مختلفة من التلاعب، وترتفع أسهم شركات دون علاقة لذلك بقوة هذه الشركات، وتحول بيع بعض شركات القطاع العام إلى حطب لإذكاء نيران ارتفاع أسهمها بشكل مفتعل، لأنها بيعت بأرخص الأثمان، ولكن لابد لهذا البالون الفارغ من أى قيمة حقيقية من الانفجار، فانهارت الأسعار سريعا، وزادت نسبة الخسارة فى رأس مال السهم الواحد عن ٦٥٪ فى ٣٠ شركة بل وصل فى بعضها إلى ٨٠٪.

كما بلغت نسبة الخسارة ما بين ٥٠٪ و٦٥٪ فى نحو ٢٠ شركة أخرى، كما بلغت نسبة الخسارة ما بين ١٧٪ و٣٠٪ فى ١١ شركة أخرى، ليبلغ متوسط معدل الانخفاض فى البورصة خلال عام ٢٠٠٠ (٤٨,٨٣٪).

ومن مظاهر الفوضى والفساد أن البنوك تعطى قروضا لشركات لمجرد إصدار سندات فى البورصة، والتى سرعان ما تحولت إلى سندات مكشوفة غير مغطاة بشركات انتاجية حقيقية.

وتفصيلا لما أشرنا إليه من قبل عن بيع شركات القطاع العام بثمن بخس، وتبديد حصيلتها فى أمور جارية، وليس تدعيما للقطاع الإنتاجى أو البحث العلمى، فبين عامى ٩٥، ٢٠٠٠ تم بيع ١٢٤ شركة بـ ١١ مليار جنيه، تم استخدام هذه الحصيلة لسداد مديونيات البنوك ٣٦١٠ مليون، وللمعاش المبكر (أى دفع العمال لـلبطالة) ١٩٣٠ مليون و٣٣١ مليون لإعانة عمال المناجم وأجور الشركات الخاسرة و٤١٣٧ مليون تم تحويلها إلى وزارة المالية (تصريحات للدكتور مختار خطاب وزير قطاع الأعمال).

* ارتفع إجمالى الدين العام الداخلى (دين الحكومة والهيئات العامة) إلى ٢٤٦ مليار جنيه فى أول يناير ٢٠٠٠، أما الدين الخارجى فيصل إلى ٢٩ مليار دولار (١١٦ مليار جنيه) ويكون المجموع ٣٦٢ مليار جنيه. وتواصل الحكومة خلال عام ٢٠٠٠ الاستدانة بشراهة من البنوك رغم أنها أكبر عميل متعثر فى السداد، حتى إنها استدانت ١١ مليار جنيه خلال شهر واحد (يوليو ٢٠٠٠) لمواصلة ما يسمى بالمشروعات القومية الفاشلة وعلى رأسها مشروع توشكى.

* أشرنا من قبل إلى العجز الهائل والمتزايد فى الميزان التجارى مع العالم الخارجى ولكن المقارنات تعطى صورة لحجم التدهور الشامل للمجتمع على كل الأصعدة لأن العجز المتزايد عن التصدير يعنى العجز عن الإنتاج الذى يتمتع بالجودة وهو مؤشر لتراجع: التعليم ـ البحث العلمى ـ نظم الإدارة ـ الأخلاق «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» حديث شريف. والحقيقة أن أخطر الحقائق والمؤشرات تأتى على لسان المسئولين. يقول السفير جمال الدين بيومى مساعد وزير الخارجية:

(فى الستينيات كان نصيب مصر من التجارة العالمية ١٪، فى السبعينيات نزل نصيبنا من حجم التجارة العالمية إلى ٢٤ فى الألف ثم هبط الرقم الآن ـ أكثر وأكثر ـ ليصبح نصيبنا سبعة فى العشرة آلاف، وبهذا تحتل مصر المركز رقم ١٧٤ بين١٨٦ دولة تتعامل فى التجارة العالمية).

أى أن مصر بكل ثقلها ووزنها التاريخى أصبحت قريبة جدا من المركز الأخير على العالمين!!.

ويقول اللواء إهاب علوى رئيس الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء إننا نستورد سلعا كمالية بما قيمته ٤,١١ مليار جنيه سنويا وهى سلع ترفيهية فلا يدخل فى هذا الرقم السيارات مثلا.. ووفقا لتقرير مركز معلومات مجلس الوزراء فإن الفترة من يوليو ٩٩ إلى يوليو ٢٠٠٠ شهدت صدور ٢٢٠٨ أحكام إفلاس نهائى و٢٥ ألف حكم إفلاس ابتدائى، وأعلنت غرفة الطباعة أن أكثر من ١٢٠٠ مطبعة قطاع خاص قد أغلقت أبوابها خلال الفترة الأخيرة، وأعلنت غرفة الصناعات الدوائية أن عام ١٩٩٩ شهد إغلاق ٤٠ شركة مستحضرات تجميل. وفى كافة القطاعات الصناعية ـ باستثناء الصناعات الغذائية ـ ينخفض عدد المنشآت العاملة يوما بعد آخر.

* أشرنا من قبل إلى الأرقام الإجمالية لعملية تهريب البضائع من الخارج والتى تمثل ٣٠٪ على الأقل من السوق التجارى وفقا لتصريح رئيس الوزراء. وإذا حولنا هذه النسبة إلى أرقام سنجدها بعشرات المليارات، ففى مجال السلع الهندسية وحدها أعلن المجلس السلعى للصناعات الهندسية أن مصر تخسر نحو ٨مليارات دولار سنويا نتيجة تهريب الصناعات الهندسية.

* كشفت تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات أن جرائم الانحراف والفساد ونهب المال العام فى قطاع الأعمال العام بلغت ٣٣ مليارا ونصف المليار جنيه وقد رفض مجلس الشعب تشكيل لجنة تقصى حقائق للوصول إلى اللصوص.

* ٢,٥ مليون مصرى يعيشون فى المقابر بالعاصمة القاهرة.

* وقد أدت الأزمة الاقتصادية المتزايدة وما تولده من فقر إلى زيادة سن الزواج، وكشفت آخر الإحصاءات أن ٩ ملايين مصرية ومصرية فى سن الزواج لم يتزوجوا ولا يخفى ما تولده هذه الحقيقة من كوارث اجتماعية وأخلاقية.

* وأخيرا نختتم هذه الاطلالة الكثيبة السريعة على ظهور «الفساد فى البر والبحر» بمعناه الشامل والواسع بالإشارة إلى قضية سكرتير وزير الثقافة.. وهى نموذج مركز لكثير مما تحدثنا فيه من قبل، نموذج لكيف يتم تخليص المصالح فى دواوين الحكومة، وكيف وصلت وضاعة المسئولين إلى حد شرائهم بحذاء إيطالى، أو بدلة، أو أكلة كباب، وكيف تحول بعض كبار المسئولين إلى متسولين لكل رشوة صغرت أو كبرت، وأن حصولهم على الرشاوى النقدية الكبيرة لا يغنى عن الرشاوى الصغيرة، حيث تعودوا أن تكون حياتهم كلها على حساب المنتفعين.

كذلك فإن هذه القضية نموذج لحكاية «كبش الفداء» فالأمر العجيب هو إصرار سلطات العدالة على حصر الاتهام فى سكرتير وزير الثقافة، دون أن يصل إلى الوزراء والمحافظين وكبار المسئولين الذين وردت اتهامات صريحة لهم فى التحقيقات. وهو الأمر الذى يؤكد أن الكبار دائما محصنون ولا خوف عليهم، وهو الأمر الذى يشجعهم على المضى قدما فى غيهم سادرين.

(يلاحظ ادخال محافظ الجيزة فى الاتهام بعد خروجه من السلطة.. دون باقى كبار المسئولين).

*****

كما ذكرنا سابقا فإن هذه الدراسة لا تستهدف أساسا دراسة الأحوال التى آلت إليها مصر عام ٢٠٠٠ وبعد ٢٠ عاما من هذا العهد، ولكن الآية الكريمة فرضت نفسها وكان لابد من شرح مغزاها العميق من خلال هذه الحالة التطبيقية، كما أن إدراك الدرك الأسفل الذى انحدرت إليه الأحوال فى مصرنا العزيزة أمر ضرورى لتوضيح مسئولية المؤمنين صادقى الإيمان، فكيف يصلح إيمانهم والأحوال حولهم مترديه إلى هذا الحد، وكيف يقبل الله منهم النكوص عن فريضته «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، وما فائدة الإيمان فى الحياة الدنيا، إذا ظن المؤمن أن من حسن الفطن أن يكون عاجزا أو جبانا أو شيطانا أخرسا، حقا إن الدنيا ليست إلا معبرا وجسرا إلى دار القرار، ولكن الدنيا بالأساس دار اختبار، ولن

يسأل المؤمن عن عدد الركعات التى أداها، وعدد الأيام التى صامها، وعدد الآيات التى تلاها فحسب بل سيسأل بشكل لا يتجزأ عن مدى عمله بهذه الآيات، وكيف جعلته هذه العبادات مؤمنا لا يخشى إلا الله، وماذا عمل لإصلاح الدنيا، يقول الله عز وجل ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] ويقول الرسول ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن» رواه البيهقى فى الشعب، أى لاتجعلوه كالوسادة.

وقد تصور كثيرون فى مصر أن التخلى عن فريضة الجهاد بشقيها الداخلى والخارجى سيوفر لهم النجاة فى الحياة الدنيا على الأقل، والواقع يقول بغير ذلك، فقد شهدنا بأم أعيننا كيف عمل قانون محق البركة بإحكام خلال العقدين الماضيين.. وكيف أننا تعرضنا لخسائر حروب بكل معنى الكلمة متصورين أننا ننعم بالسلام ولم يكن هذا إلا شعورا زائفا.. وعلى سبيل المثال يشير تقرير الأزمات والكوارث فى مصر الصادر عن وحدة الأزمات بجامعة عين شمس إلى أن خسائر المصريين عام ١٩٩٩ من الأزمات والكوارث بلغت قرابة ١٢٠٠مصرى وإصابة ٦٢٦٠ آخرين. بينما لم يزد ضحايا الكوارث فى عام ١٩٩٨ عن ٤٧٨ شخصا واصابة ٤٩٩١ آخرين. وتتضح عظم المأساة إذا لاحظنا أن التقرير عن ١٩٩٩ لم يشمل وفاة ٥٣٦٧ مواطنا واصابة أكثر من ٢٢ ألف آخرين فى حوادث مرور لم يعتبرها التقرير فى إطار الكوارث. وبذلك يرتفع عدد القتلى فى الحوادث والكوارث إلى أكثر من ٦ آلاف و٥٠٠ مصرى، وهذه أرقام خسائر حرب بكل معنى الكلمة. ولا يمكن المرور مرور الكرام على حوادث المرور على أساس أنها تجرى فى كل مكان فى العالم، والحقيقة أن مصر تعد من أسوأ دول العالم من حيث عدم احترام قواعد وقوانين المرور سواء داخل المدن أو على الطرق السريعة، وذلك فى إطار عملية التآكل المستمر لقيمة احترام القانون، كذلك أشار التقرير إلى أن التسمم الغذائى نسبته ٨,٥٪ من الكوارث، وأن نسبة انهيار المنازل ٣,٣٪.

والحقيقة أن الكوارث الأكبر فى هذا الزحف الوبائى للأمراض الفتاكة التى أشرنا إليها

عند حديثنا عن الأحوال الصحية. كذلك تتسم الحياة بتصاعد التوترات النفسية والاجتماعية حتى بدأ الناس يتوقون إلى أزمان خالية حيث كانت العلاقات الإنسانية أكثر رقيا، والنفوس أكثر صفاءا. والحياة أكثر دفئا، ذلك أنه فى غياب المثل الأعلى الروحى الذى يوحد الأمة واستبداله بهدف جمع المال وزيادة النزعة الاستهلاكية، وهو الشعار الذى أفلح «الانفتاح الاقتصادى» فى ترويجه، لابد أن تسود الحياة الوحشة والظلمة والبرودة وتتعدد الشروخ والتمزقات الإنسانية والاجتماعية.. هذا ضرب من ضروب عذاب الدنيا.

الفصل الحادى عشر

الشرك بالله.. والموقف من الحكام

الإيمان بالله وفى مقابله الكفر والشرك به هو أم القضايا فى الدين.. وهو لب العقيدة، والموقف من الله عزوجل أشبه بالقلب الذى يضخ الدماء فى كل شرايين الجسم حتى أبعد أطرافه، إن كان إيمانا أو كفرا، فإن صلحت هذه المضغة صلح الجسد كله وإن فسدت فسد ولقد أهلك الذين كانوا من قبلنا أنهم فصلوا بين هذه القضية الأم وبين مجريات الحياة اليومية، وما أصاب المسلمين من تدهور فى أحوالهم ومن هوانهم على الناس وتراجعهم على مختلف الأصعدة إلا بسبب هذا الفصل بين لب العقيدة وحياتهم اليومية، وما النهوض الإسلامى الذى نراه فى مختلف بقاع الأرض منذ عقدين من الزمان إلا انعكاسا لبداية العودة إلى هذا الأصل: أى إعادة دمج الإيمان بالله بتنظيم المجتمعات ، وعمرانها، ومجريات الحياة اليومية. ولا أعنى بالفصل، ذلك الفصل العلمانى بين الدين والدولة.. بين الدين والحياة.. بين الدين والتعليم..ولكن أعنى فصلا أعم من ذلك وأشمل.. وإن تضمن فى طياته هذا الفصل العلمانى.. أعنى فصل المؤمنين ذاتهم بين العقيدة الإيمانية ومجريات الحياة العامة للمسلمين، وهذا ما أوردنا مورد التهلكة، وعلى حد قول الشيخ محمد

الغزالي: «ما كانت كلمة التوحيد نبتا مشلولا فى تربة خبيثة، ولكنها نبت تمتد أصوله فى القلب الخصب، وتظهر آثاره ظلالا وارفة وثمرات شهية» (عقيدة المسلم).

ومسألة العقيدة (الإيمان والكفر بالله) أكبر من أن يتم تناولها فى فصل واحد فى كتاب، كما أن كبار فقهائنا المعاصرين والسالفين قد استفاضوا فى شرحها بما لا مزيد عليه من حيث الجوهر، استنادا للقرآن والسنة، لذا سنكتفى بالزاوية الوثيقة الصلة بدراستنا هذه (الجهاد صناعة الأمة) وهى زاوية أشار إليها فقهاؤنا المعاصرون ولكنهم لم يستفيضوا فيها ربما لعدم اشتغالهم بالعمل السياسى.

ما الفارق بين الكفر والشرك بالله؟ لقد استخدم القرآن الكريم هذين المصطلحين وكأنهما مترادفان، وقد اصطلح العلماء على التفرقة بين نوعين من الكفر:

(١) الجحود بفكرة وجود الله من حيث المبدأ.

(٢) الاعتراف النظرى بوجود إله مع إشراك «إله» آخر معه.

والحكمة فى أن القرآن الكريم استخدم اللفظين كمترادفين، أن الشرك بالله هو كفر، لأنه يعنى اعترافا شكليا بوجود الله، دون أن يترتب على ذلك الاعتراف أى آثار عملية، فهؤلاء المشركون تتوجه أفئدتهم للإله المصطنع بأكثر من الله، ثم تتعاظم هذه الممارسة حتى يصبح القول بوجود الله مجرد كلمة يلفظونها ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

ثم إن هؤلاء المشركين ـ كجاحدى وجود الله ـ لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب أخروى، وبالتالى فإن التفرقة بين هذين النوعين من الكفر هى تفرقة فنية، أى تفرقة للمساعدة على الفهم والتحليل والتصنيف، ولكنها من الناحية العقائدية لا قيمة لها، فالصنفان فى الضلال سواء ومأواهم جهنم وساءت مصيرا.

وما يعنينا فى هذه الدراسة الموجهة لجمهور المؤمنين (أو ما اصطلح على تسميته بالأغلبية الصامتة) هو مخاطر الشرك التى تزحف على معسكر المؤمنين. وقد تعرضنا لشىء من هذا المعنى خلال حديثنا عن قصة فرعون وموسى وقلنا إن هذه القصة التى احتلت المكانة الأولى بين كل القصص القرآنى من حيث كم الآيات ليست بلا مغزى، إذا تعاملنا مع القرآن ككتاب الله المحكمة أياته، وأشرنا إلى أن أخطر أشكال الشرك المعاصر هو عبادة الحكام، حتى وإن لم يسموا أنفسهم آلهة، حتى وإن لم نسمهم آلهة. فالعبرة بجوهر الممارسة، فإذا كان الحكام يطاع أمرهم دون أوامر الله، ويتقرب إليهم دون التقرب لله حتى وإن عصى الحكام أوامر الله، فهذه أخطر صور الشرك المعاصر التى يعانى منها المسلمون وليست الأوثان أو الأصنام.

وقد كانت آيات الله فى القرآن الكريم عامة فى ذلك الأمر ولم تقتصر على الأوثان والأصنام وغيرها من صور الشرك المباشر التى تدعى لإنسان الألوهية.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦].

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فجاءت الصياغات القرآنية عامة شاملة بحيث تشمل أى أحد، أى شىء، أى ند من دون الله، وهى تبدأ بالحجر (الوثن) إلى نظام العولمة الأمريكى فى عصرنا الحالى، كذلك سنجد الآيات التالية: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:٤٣]، وقد علق الزمخشرى فى الكشاف على هذه الآية بقوله: (كان فيهم من لا يصده عن الإسلام إلا داء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالا).

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾[النساء:٦٠].

إننا أمام دائرة واسعة متنوعة من الأشكال التى يتلبسها الشرك ولكن يجمعها جميعا أنها تحت رئاسة الشيطان قائد حزب الشيطان، حتى أن سيدنا إبراهيم يخاطب أباه الذى كان يعبد الأصنام قائلا: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤] على أساس انقسام البشرية إلى حزبين رئيسيين: حزب الله، وحزب الشيطان.

وفى تفسير (لا يشركون بى شيئا) يقول القرطبى فى تفسيره (فيه أربعة أقوال: أحدها ـ لا يعبدون إلها غيرى، الثانى ـ لا يراءون بعبادتى أحدا، الثالث ـ لا يخافون غيرى. الرابع ـ لا يحبون غيرى).

ويقول ابن القيم الجوزية فى «تهذيب مدارج السالكين» فى إطار تعداده لأنواع الشرك:

(الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله وابتغاء الرزق من عند غيره وحمد غيره على ما أعطى).

ولاشك أن السلطة الاستبدادية التى تأخذ من الدين فى المناسبات ما تريد وتترك ما تريد فإنها هى الخطر الأعظم على صحة العقيدة، إذا رأى جمهور المؤمنين الاستكانة إليها ومحاولة استرضائها طلبا للسلامة. وهذا ما يفسر ما ذكرناه فى الفصول الماضية عما جاء فى القرآن الكريم عن الفساد والاستكبار فى الأرض الذى يمارسه الحكام كخطر رئيسى على التوحيد وإقامة شرع الله على الأرض. وقديما قال شقيق البلخى المتصوف ينصح هارون الرشيد:

«إنما مثلك كمثل معين الماء وسائر العلماء كمثل السواقى، فإن كان المعين صافيا لا يضر كدر السواقى، وإن كان المعين كدرا لا ينفع صفاء السواقى»!

وفى هذا النوع من الشرك أى المتصل بطاعة الحاكمين فى معصية الله يقول الشيخ يوسف القرضاوى إن التوحيد الحق يعنى (رفض لكل الأرباب إلا الله وإعلان الثورة على المتألهين فى الأرض المستكبرين بغير الحق، الذين أرادوا أن يتخذوا عباد الله عبيدا لهم).

ويضيف: (إن الله تعالى لا يقبل الشركة فى قلوب عباده المؤمنين فلا يجوز أن يكون

بعض القلب لله وبعضه للطاغوت، وأن يكون بعض ولائه للخالق، وبعضه للمخلوق، ان الولاء كله والقلب كله يجب أن يكون لله، صاحب الخلق كله، والأمر كله، وهذا هو الفرق بين المؤمن والمشرك، المؤمن مسلم لله، خالص العبودية لله، والمشرك موزع بين الله وبين غير الله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر: ٢٩]).

ويضيف: (ألا تبغى غير الله حكما، أي رفض الخضوع لكل حكم غير حكم الله، وكل أمر غير أمر الله، وكل نظام غير نظام الله، وكل قانون غير شرع الله، وكل وضع أو عرف أو تقليد أو منهج أو فكرة أو قيمة لم يأذن بها الله. ومن قبل شيئا حاكما كان أو محكوما، بلا إذن من الله وسلطانا، فقد أبطل عنصرا أساسيا من عناصر التوحيد لأنه ابتغى غير الله حكما، والحكم والتشريع من حق الله وحده ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فإن من اتخذ أحدا من عباد الله شارعا وحاكما يأمر بما شاء، وينهى عما يشاء، ويحل ما يريد ويحرم ما يريد، وأعطاه حق الطاعة فى ذلك، ولو أحل الحرام كالزنا والربا والخمر والميسر وحرم الحلال كالطلاق وتعدد الزوجات وأسقط الواجبات كالخلافة والجهاد والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة حدود الله وغيرها، من اتخذ مثل هذا حكما وشارعا فقد جعله فى الحقيقة ربا يطاع فى كل أمر، وينقاد له فى كل ما شرع، وهذا ما جاء به القرآن وفسرته السنة النبوية، فقد جاء فى سورة التوبة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فكيف اتخذوهم أربابا وهم لم يسجدوا لهم ولم يعبدوهم عبادة الأوثان؟ وعندما سأل عدى بن حاتم الطائى رسول الله ﷺ: انهم لم يعبدوهم! فقال ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم لهم».

ويقول الشيخ القرضاوى معلقا: (إن هذه الآيات المحكمة وإن نزلت فى سياق خاص قد جاءت بألفاظ عامة، تتناول بحكمها جميع الأفراد الذين يشملهم مدلولها وهم كل «من لم يحكم بما أنزل الله» فالمدار على عموم اللفظ، لا على خصوص السبب كما قرر أئمة الإسلام) (ملامح المجتمع المسلم).

وليس معنى أن جمهور المؤمنين معرض لمخاطر الشرك بطاعة الحكام فى معصية الخالق، وبالامتناع عن ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبنفاق الحكام ليس بالصمت عن انحرافاتهم فحسب بل بمدح كل ما يصدر عنهم، ليس معنى ذلك حكما عاما بتكفير المجتمع، كما وصلت لذلك بعض الفرق الإسلامية، ولكن الأمر يتصل بما ذكرناه من قبل أن الإنسان فى حالة صراع دائم من سن التكليف حتى اللحد ضد الشيطان، أى ضد الشر عموما، وأنه إذا توانى لحظة فإن الشيطان يتسلل إلى فؤاده ومن ثم إلى أعماله. فالإنسان المؤمن لابد أن يكون فى يقظة دائمة ولا يأمن من مكر الله حتى آخر لحظة فى العمر، فالنطق بالشهادتين ليس نوعا من الحصانة المضمونة، بغض النظر عن الأفعال، وأن الخيار سيظل مطروحا أمام كل إنسان بين الجنة والنار إلى آخر لحظة فى الاختيار الدنيوى، كما أن الطالب معرض للرسوب مهما استذكر دروسه طوال العام إذا أصابه الإهمال أو الغرور قبل آخر العام. وصحيح أن الإيمان والكفر ضدان لا يلتقيان ولكن هذا من ناحية النموذج النظرى. أما على أرض الواقع فإن المؤمن لايوجد فى مختبر معزول عن الابتلاءات والتحديات التى تختبر قوة وصلابة هذا الإيمان، وهو إذا لم يتدرع خلف درع من العقيدة الصلبة فإن سهام الشرك لابد أن تصيبه بدرجة أو بأخرى، وحول هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالى:

(إن الإيمان قد يجامع شعبة أو أكثر للكفر أو الجاهلية أو النفاق. وهذه الحقيقة قد خفيت على كثيرين فى القديم والحديث، فحسبوا أن المرء إما أن يكون مؤمنا خالصا أو كافرا خالصا ولا واسطة بينهما، إما مخلصا محضا أو منافقا محضا وقريب منه من يقول: إما مسلم محض أو جاهلى محض ولا ثالث لهذين الصنفين) ويقول إن الكفر والإيمان قد يجتمعان كما دلت على ذلك النصوص ويورد ما يلى:

* فى الصحيح أن النبى ﷺ قال لأبى ذر رضى الله عنه: إنك امروء فيك جاهلية (البخارى) هذا وهو أبو ذر فى سابقته وصدقه وجهاده.

* من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق (مسلم).

* روى أبو داود عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب مصفح وذلك قلب المنافق وقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يحدها ماء طيب ومثل النفاق مثل قرحة يحدها قيح ودم فأيهما غلب عليه غلب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا الذى قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد، غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب].

وحول تفسير نفس الآية يقول أحمد حسين:

(إن الإيمان يزيد وينقص، فالقرآن لا يفتأ يحدثنا عن زيادة الإيمان فى مثل قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، فالقرآن الكريم يحدثنا من أوله إلى آخره عن زيادة الإيمان) (تفسير آل عمران ـ أحمد حسين).

وبعض المؤمنين يدرك هذا المعنى ويصرح بأنه يرضى بأقل الإيمان، وأنه يجمع أقل الدرجات الكافية لعبور اختبار الآخرة. وكأنه يدرك ماديا كيف سيجرى الحساب على وجه الدقة ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] هكذا ترد آيات القرآن الكريم على أقوال بنى إسرائيل وهو رد لكل الناس فى كل الأجيال كما أشار د. القرضاوى من قبل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل التقريع الوارد فى القرآن الكريم لبنى إسرائيل هو موجه لمن بعدهم وعلى رأسهم المسلمين إلى يوم الدين إذا هم وقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل، لذلك تتابع الآيات فى سورة البقرة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١ ـ ٨٢] وتدل الآية الكريمة (٨١) على أن من يمارس السيئات حتى تحيط به خطيئته يصبح من أصحاب النار المخلد فيها، ومن هنا فإننا ننصح كل من له أذنان للسمع أن لا يتمادى فى خطئه وأن يبادر بالتوبة، جاء فى الحديث الصحيح أن العبد إذا أذنب ذنبا تكتب فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب وفزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (أحمد حسين ـ تفسير البقرة).

ونفس المعنى نفهمه من آية سابقة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] ذلك أن الإصرار على المعصية يؤدى إلى الكفر بآيات الله وقتل النبيين بمعنى أن الإصرار على الخطأ الصغير يمكن أن يؤدى إلى الخطأ المتوسط والإصرار على الخطأ المتوسط يمكن أن يؤدى إلى الخطيئة الكبرى. وبالتالى فإن المسلمين الذين يتهاونون فى أمور العقيدة بحجة أن لديهم بعض الدرجات جمعوها من هنا وهناك، هم من ذلك الصنف الظالم لنفسه، فهو يعرض نفسه للخطر الأعظم يوم الحساب، ولو كانت الجنة والنار مستحضرتين فى عقله وفؤاده بصورة يقينية وتذكر قول الله عزوجل ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] لو تذكر كلمة «زُحزِح» لارتعدت فرائصه، فإذا كان الأمر جد وما هو بالهزل، فكيف يقصر فى حق الله وهو يعلم أنه مقصر، وكيف يسمح لنفسه لاحتمال أن يتعرض لهذا العذاب العظيم الذى تم وصفه تفصيلا فى القرآن الكريم بما تقشعر له الأبدان. إن الذى عرف القرآن وعقل ما فيه لاشك أن حسابه سيكون أكبر وأعسر من إنسان لم تصله الدعوة لأى سبب من الأسباب وهذا ما شرحه الشيخ شلتوت فى كتابه (الإسلام عقيدة وشريعة) وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].. ونعنى هنا بشكل خاص (كذب بالحق لما جاءه) والتكذيب يكون

بالقلب والعمل وليس مجرد التكذيب اللفظى. وأيضا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

وقد أشار القرآن الكريم صراحة لحالة خلط الإيمان بالشرك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقد فسر الرسول عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك، ثم هذه الآية الأكثر صراحة﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وقد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع عدة تقسيم المسلمين إلى درجات، مشيرا إلى أن الدرجة الدنيا الضعيفة الإيمان معرضة لعذاب الدنيا والآخرة. فى سورة التوبة المعنية بالجهاد وحيث الجهاد هو المحك الأول والأهم فى فرز جماعة المؤمنين إلى ٣ أقسام:

(١) المؤمنون صادقو الإيمان ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(٢) المنافقون ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وهؤلاء يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهم صنفان: صنف عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها، وصنف آخر مردوا على النفاق أى حذقوه حتى صار أملس ناعما لا يكاد يشعر أحد بشىء يستنكره منه يظهر عليه، ويقول الشيخ محمد عبده فى المنار:

(وكل من الفريقين يوجد فى كل عصر ولا سيما منافقى السياسة، وهم الذين اتخذهم الأجانب المعتدون على بلاد الإسلام دعاة وولائج وأعوانا على استعباد أمتهم واستعمار أوطانهم، فما من قطر من هذه الأقطار التى رزئت بالأجانب إلا ولهم أعوان وأنصار من أهلها يزعمون أنهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم. ومنهم من يخدمون الأجانب خدمة خفية لا تشعر بها الأمة لأنهم مردوا على النفاق. وأشد المنافقين

مرودا واتقانا للنفاق أعوان الملوك والأمراء المستبدين، وشرهم وأضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين).

(٣) الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فهذا صنف ثالث فى منزلة وسط بين الإيمان والنفاق وهم ينقسمون بدورهم إلى صنفين:

أ ـ صنف اعترف بذنوبه وتاب عنها.

ب ـ لم يعترفوا بذنوبهم فهؤلاء مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم. وهذا ما ورد فى الآيتين الكريمتين التاليتين:

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢] .

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٦].

والآيات تدور حول المسلمين الذين تخلفوا عن الجهاد إيثارا للدعة ولمتع الحياة الدنيا، والله يتوب عن عباده إذا تابوا بالفعل توبة نصوحا ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١] فالتوبة الصحيحة التى هى سبب المغفرة والرحمة تتحقق بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه، والإقلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الألم الذى هو ثمرة ذلك العلم، والعزم على عدم العود إلى اقترافها ثم العمل بضدها ليمحى من النفس أثرها (المنار) ويضيف الشيخ محمد عبده: «لعل أسوأ سيئات المسلمين ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية. وبما ورد فى سبب نزولها من توبة أبى لبابة وأصحابه، ولا تتم العبرة بها إلا بتدبر ما بعدها، وهو تطهير النفس من النفاق وضعف الإيمان».

أما الصنف الثانى الذى لم يعترف بذنبه فحكمهم ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك وحاروا

فى أمرهم ولم يعتذروا للرسول ﷺ لأنهم لا عذر لهم وأرجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعى فى أمرهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أى أبهم الأمر عليهم وعلى الناس، لا يدرون ما ينزل فيهم، هل تصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم أم يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين؟ فالترديد بين الأمرين هو بالنسبة إلى الناس لا إلى الله عزوجل، وحكمة إبهام أمر هؤلاء عليهم إشارة لهم والخوف فى قلوبهم لتصح توبتهم وحكمة إبهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين على ما يجب فى أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد فى سبيله لإعلاء كلمة الحق والعدل.

وقد كان هذا الأمر يتعلق بثلاثة من الصحابة فلما تألموا أشد الألم ورجوا الله التوبة لحقتهم توبة الله عليهم وقد أجمل القرآن الكريم هذا الموقف بأبهى صورة وأروع وصف حين جمع الصنفين من المتخلفين لغير علة النفاق، ولكن خوفا من الموت وحبا للدنيا، الذين تابوا لفورهم واعترفوا بذنوبهم والذين تابوا لاحقا فقال عز وجل: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

وبطبيعة الحال فإن الحكم الأول يظل ساريا (أى حكم إرجاء العقوبة أو التوبة عليهم) وفقا لسلوك المتخلفين عن الجهاد.. فإن ظلوا على تخلفهم فلن تنالهم رحمة الله ولن يتوب عليهم كما أسلفنا الحديث من تفسير الشيخ محمد عبده.

وفى أحاديث رسول الله نجد الكثير حول تحذير المسلمين من الشرك مثلا (أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل) أخرجه أحمد والطبرانى.

والشرك الذى نركز عليه حديثنا وثيق الصلة بالإشارة القرآنية إلى الطاغوت. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

وفى هذه الآية يقول الشيخ محمد عبده: (إنه ما كان للمسلمين أن يقبلوا قول أحد أو يعملوا برأيه فى شىء له حكم فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ الثابتة) والطاغوت مشتق من الطغيان وهو تجاوز الحد، وفى تفسير ابن كثير يعنى ـ على قول مجاهد ـ الشيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم، والمعنى الأعم الذى يتضمن كل التلاوين أن التحاكم إلى الطاغوت يعنى لمن عدل عن الكتاب والسنة والتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، أو كما قال مالك (كل ما يعبد من دون الله).

ويقول الشيخ الشعراوى «الطاغوت يطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع ويعطون أشياء بسلطة زمنية من عندهم وهو ينطبق على أى حاكم بغير أمر الله» (تفسير الشعراوى ـ المجلد الثانى).

وحول الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] يقول الشيخ محمد عبده:

(أما الحكمة فى عدم مغفرة الشرك فهى أن الدين إنما شرع لتزكية نفوس الناس وتطهير أرواحهم وترقية عقولهم، والشرك هو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسهم ومنه تتولد جميع الرذائل والخسائس التى تفسد البشر فى أفرادهم وجمعياتهم لأنه عبارة عن رفعهم لأفراد أو لبعض المخلوقات التى هى دونهم أو مثلهم إلى مرتبة يقدسونها ويخضعون لها ويذلون بدافع الشعور بأنها ذات سلطة عليا فوق سنن الكون وأسبابه فهذه الخلة الدنيئة هى التى كانت سبب استبداد رؤساء الدين والدنيا بالأقوام والأمم واستعبادهم إياهم وتصرفهم فى أنفسهم وأموالهم ومصالحهم ومنافعهم تصرف السيد الملك القاهر بالعبد الذليل الحقير، وناهيك بما كان لذلك من الأخلاق السافلة والرذائل الغاشية من الذل

والمهانة والدناءة والتملق والكذب والنفاق وغير ذلك. والتوحيد الذى يناقض الشرك هو عبارة عن إعتاق الإنسان من رق العبودية لكل أحد من البشر، وجعله حرا كريما عزيزا لا يخضع خضوع عبودية مطلقة إلا لمن خضعت لسننه الكائنات، لا لأمثاله فى البشرية وأقرانه، وأما طاعته للحكام فى طاعة للشرع الذى رضيه لنفسه لا تقديسا لسلطة ذاتية لهم، ولا ذلا واستخزاء لأشخاصهم، فإن استقاموا على الشريعة أعانهم، وإن زاغوا عنها استعان بالأمة فقومهم كما قال الخليفة الأول: «وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن زغت فقومونى». فهكذا يكون شأن الموحدين مع حكامهم، وهكذا يكونون سعداء فى دنياهم بالتوحيد، كما يكونون أشقياء بالشرك الجلى أو الخفى). وهو فى موضع آخر يقول (لا فرق فى المسألة بين إشراك الصنم والوثن، وإشراك الولى أو النبى أو الملك) وهو يشير إلى اتخاذ أرباب من دون الله يشرعون الأحكام ويتحكمون فى الحلال والحرام بما يخالف الشريعة الإلهية).

وفى كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى نقرأ ما يلى:

(جاء عن النبى ﷺ : «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شىء من الجور وأن تبغض على شىء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض».

يعنى أن إخلاص التوحيد يقتضى محبة العدل وكراهية الظلم، فإذا أحب الإنسان جائرا وكره عادلا فقد أشرك!!).

ويقول د. محمد عمارة:

(نداء «الله أكبر» الطاقة العظمى والدائمة الفعل فى تحرير الإنسان، وإطلاق طاقاته الفاعلة من أسر قيود الغرائز والشهوات والأشياء والأغيار والطواغيت، تدفعهم وتعينهم على مواجهة هيمنة القوى الخارجية التى تفرض على ديار الإسلام وأمته الاستلاب الفكرى والنهب الاقتصادى والإلحاق العسكرى والتبعية السياسية وعلى مواجهة الطواغيت الذين

يتزاحمون على مسرح الحياة السياسية طالبين أن يعبدوا مع الله أو من دون الله ! طواغيت الاستبداد السياسى والاستبداد المالى) ثم يشير إلى قول المغيرة بن شعبة عندما دخل يوم القادسية على «رستم» قائد الفرس، فعجب من عبادتهم للملوك والطبقات والألقاب وقال لهم: «إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضا.. فلقد أحيانا الله تعالى بالإسلام أما أنتم فإن بعضكم أرباب بعض! ولقد تيقنت الآن أن أمركم مضمحل! فليس يقوم ملك على هذه السيرة ولا على هذه العقول؟!» (معالم المنهج الإسلامى).

* * * * *

إذن فإن عبادة الحكام أو إشراكهم مع الله لا تنحصر فى صورة الحاكم الذى يعلن نفسه إلها كما كان الحال فى عهد الفراعنة بل إن هذا الشكل المتبجح لم يتخذه إلا قلة من الفراعنة أبرزهم فرعون موسى، أما الشكل الذى كان أكثر شيوعا فهو ادعاء الفراعنة أنهم أبناء «الإله».

أما الشكل المعاصر للشرك فى المجتمعات الإسلامية، فهو إشراك بعض حكام المسلمين الاستعمار الأمريكى فى ملك الله، فهم يوقنون أن الموت والحياة، الرفعة والخفض، البقاء والفناء لعروشهم وبلادهم فى يد أمريكا ونظامها العالمى (العولمة) لا شريك لها بيدها الملك وهى على كل شىء قديرة. وهذه المسألة تناولناها بالتفصيل فى كتاب «أحكام القرآن الكريم فى موالاة الكفار والمشركين» ومسايرة جمهور المؤمنين لهذه التصورات مشاركة للحكام فى هذا الشرك. أما فى دراستنا هذه فنركز على الأوضاع الداخلية وواجبات المؤمنين من منظور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا شك أن على رأس ذلك مقاومة ورفض موالاة الكفار والمشركين (الحلف الصهيونى الأمريكى) واسداء النصح للحكام بموالاة المؤمنين فى العالمين العربى والإسلامى دون المشركين، وتصعيد المعارضة لاهتمام الحكام بالتعاون فى إطار الشراكة الأوروبية والمناطق الحرة مع الولايات المتحدة والتطبيع مع إسرائيل بدلا من إقامة مثل هذه المشروعات مع البلاد العربية والإسلامية.

وغير مقبول إسلاميا أن نوافق الحكام عندما يقولون ان مصلحة مصر الاستراتيجية مع

الولايات المتحدة، فهذا يتعارض مع ألف باء العقيدة، ويخرق بشكل صريح نصوص القرآن الوضاءة، ونفس الشيء فيما يتعلق بالتعاون الاقتصادى مع الكيان اليهودى الإسرائيلى.. ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الممتحنة: ٩] فالتسليم والخضوع لأى مبادىء أو مواقف لم يشرعها الله، بل شرع عكسها بالضبط، هو شرك بالله.. لأن الإيمان بالله يتحول عندئذ إلى مسألة شكلية لا يترتب عليها التزامات هذا الإيمان. فما معنى أن نؤمن بالله.. ثم نكسر أوامره صباح مساء؟! فالإيمان بالله مسألة يقينية لذلك قال رسول الله ﷺ «إن الله حرم النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله». (كتاب التوحيد ـ محمد بن عبد الوهاب) أى أن ترك الشرك ليس بقول «لا إله إلا الله» باللسان. وفى الحديث الشريف أيضا ردا على سؤال لأبى هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه» واخلاص القلب لله لا يكون دون أن يظهر فى طبيعة عمله..

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: من أحب فى الله وأبغض فى الله، ووالى فى الله، وعادى فى الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لايجدى على أهله شيئا. رواه ابن جرير (المصدر السابق).

لقد قلنا من قبل أن الحلف الأمريكي ـ الصهيونى هو مركز الكفر العالمى فى هذا العصر، أى هم أئمة الكفر ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] هذا قول الله عزوجل، ولا يزال نفس الحوار الأزلى يدور فالمنادون بالتبعية يقولون إن لم نتبع أمريكا سنجوع ونعرى ونتخطف من أرضنا، وقديما قال المشركون للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

والحاكم الذى يمارس الاستبداد على عباد الله يشرك بالله.. لأنه يكسر أوامر الله فى الشورى وخفض الجناح للمؤمنين، وهو يجعل من نفسه ـ عمليا ـ ندا لله، ومن يخالفه

يستحق العقاب.. فهو لا يرى المخالف له صاحب وجهة نظر مخالفة أو رؤية أو اجتهاد.. وإنما «مغرض» أو «مشكك» أو «عميل» وربما «زنديق» فهو يتحدى الذات «الملكية» أو «الجمهورية». لذلك نصح الإمام على رضى الله عنه الأشتر النخعى لما ولاه على مصر فقال له : (وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة ـ أى الخيلاء والعجب ـ فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكف عنك من غربك ـ أى من حدتك ـ ويفىء إليك بما غرب عنك من عقلك. إياك ومساماة الله فى عظمته والتشبه به فى جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال) وأضاف عن الوزراء (ليكن آثرهم عندك أقوالهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا ذلك من هواك حيث وقع، وألصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدنى من الغرة).

وأضاف (واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول فى غير موطن: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع» ثم احتمل الخرق منهم والعى، ونح عنك الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته).

أين حكامنا الآن من هذه النصيحة.. أين الحاكم الذى يفتح مجلسه للناس، ويستبعد رجال الشرطة والحرس والمخبرين من اللقاء.. حتى يتحدث أصحاب الحاجات غير خائفين.. أين الحاكم الذى يحتمل الشدة فى النقد ولو فى مجالس خاصة.. إن حكام هذه الأيام لا يتحدثون إلا من خلف جدار من خلال التلفزيون، وإذا حضروا لقاءا يكون مع الأنصار والأتباع أو يتم تدبير الحاضرين وترتيب الأسئلة معهم مسبقا، ثم يكون عملاء الشرطة أكثر الحاضرين، ثم بعد كل ذلك يجرى «مونتاج» قبل البث فى التلفزيون! ثم بعد ذلك بيوم لابد أن تصور وسائل الإعلام أن خطاب الرئيس أو الملك قد اهتزت له أركان الأرض (أصداء عالمية واسعة لخطاب الرئيس!!).

ويضيف الإمام على: (وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فإنه من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين، وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق).

أما اليوم فإننا نسمع حكاما يمنون على شعوبهم بأنهم «يؤكلونهم» رغم أن الشعوب هى التى تفلح الأرض وتنتج الطعام!

وفى حياتنا المعاصرة تختلط الأمور فعلا لدى الحكام ويظنون أنفسهم الملك الذى خاطب سيدنا إبراهيم عليه السلام قائلا (أنا أحيى وأميت) فقال رئيس جمهورية يوما واصفا نفسه ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩].

فالحاكم المستبد يزين له الشيطان أن الأمور كلها بيده.. فهو يملك أن يقتل من يشاء. وإذا لم يقتله فهذا تفضل منه.. وهو يملك أن يسجن أو يعذب من يشاء ويعفو عمن يشاء .. ولا شك أن الملك فاروق كان مستيقنا أنه سيقتل أحمد حسين شنقا خلال أيام، واختار له دائرة قضائية محددة لتنفذ هذا الحكم.. ولكن خلال أيام تمت الإطاحة بفاروق نفسه.. وخرج أحمد حسين من السجن.. ثم مات الملك فاروق فى الستينيات فى أوروبا.. وعاش أحمد حسين حتى عام ١٩٨٢، وهذا مجرد مثال واحد من آلاف مؤلفة من الأمثلة..

وبدلا من الحديث عن توجيهات الله ورسوله.. تتحدث بطانة الحاكم المستبد عن توجيهات فخامة الرئيس أو جلالة الملك. فكل ما ينطق به.. أقوال لم يأت بها الأولون ولا الآخرون . لابد أن تكتب بماء الذهب، وأن ينعقد البرلمان - إذا كان هناك برلمان - لدراستها وتفسيرها.. وتحويلها لخطط عملية ناسين أو متناسين أن هناك خططا رسمية معلنة ومقرة من ذات الحكومة. ويمكن أن تسمع رئيس وزراء منافق يريد أن يستقر فى موقعه فيقول لولا الحاكم لما كانت هناك شبكات صرف صحى ولا مدارس ولا مصانع.. ولتضور الشعب جوعا، ولا فرق بين حديثه وبين ما جاء فى القرآن الكريم عن الله عزوجل من أنه يحيى ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير وواهب الرزق. ويقول منافق آخر إن ما

يفعله الحاكم لم يحدث منذ فجر التاريخ. ولن يحدث مثله حتى يوم الدين.. (أى أن الحاكم هو الأول والآخر) ويقول منافق ثالث (إن الحاكم لا يقول إلا الحق والصدق) والله وحده هو الذى لا يقول إلا الحق والصدق..

يبقى أن هؤلاء المنافقين لا يسجدون للحاكم ولا يصلون فى اتجاه القصر الجمهورى أو الملكى.. ولكنهم يحلون ما يحل هذا الحاكم ويحرمون ما يحرمه. وهذه عبادتهم إياه.. إنهم يوافقون مسبقا على أى شيء يصدر عنه.. ففى إحدى البلاد العربية كان على الحاكم أن يتخذ قرارا.. فكتب أحد المنافقين قبل صدور القرار، مشيدا بالقرار الذى لم يصدر، وقال إنه إذا كان بنعم أو لا.. فهو صحيح وسديد. لأن الحاكم لا يقول إلا صدقا وحقا!!

ونحن نعبد الحق سبحانه وتعالى خوفا وطمعا ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] نحن نخاف الله.. ونخاف عقابه.. لذلك نتوخى تنفيذ أوامره، ونتجنب نواهيه وهذا هو جوهر التقوى.. ونعبد الله طمعا فى رحمته فى الدنيا.. وما وعدنا به فى الآخرة من نعيم مقيم.. أما عبادة الناس للحاكم المستبد فهى تكون بدورها خوفا وطمعا، خوفا من عقابه ولما يملكه من سلطات، أو طمعا فى فتات موائده.. أو مناصبه.. أو عطاياه.. ولاشك أن الغالب لدى عامة الناس هو الخوف منه، لأن المستبد لا يملك عطايا أو مناصب تكفى الملايين، أما ما تطمع إليه العامة فهو مجرد اتقاء شره، والاستمتاع بحياة دنيوية رخيصة هابطة فى معاييرها وسقفها وطموحاتها، أى أن مستويات وأنواع الخوف والطمع تختلف من الخاصة المحيطة بالسلطان حيث يكون الخوف عظيما من فقدان المزايا والامتيازات والطمع أعظم أما العامة فيطمعون فى حياة الأكل والشرب (البطن والفرج) دون أن يتعرضوا لبطش أو عقاب.. ثم يريحون ضمائرهم بالقول أنهم يكرهون السياسة لأنها كلها كذب ونفاق وانتهازية، بينما هم يكرهون تحديدا أن ينتقدوا الحاكم ـ وفقا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ فيتعرضون لعقابه.

ومخاطر الشرك هنا.. أنك تخاف الحاكم دون الله.. وتطمع فى رضائه عنك أو بعده عن حياتك.. وتغلب هذا الموقف على الخوف من الله.. والامتثال لتعاليمه، والطمع فى رحمته

فى الدنيا وجزائه فى الآخرة. وتتخلى عن القول الخالد لأحد الأنبياء (شعيب) الذى ورد فى القـرآن الكريم ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فهذا دستور المؤمنين.. كل المؤمنين.. عبر مسيرة البشرية.. وليس مجرد قول مأثور لنبى من أنبياء الله.. نحفظه ونردده ونعجب به فى ذاته.. دون أن ندرى أن ذلك تكليف عام لنا جميعا.

هل ينسى الناس أن الحاكم يمكن أن يموت فى لحظة؟! لا ولكنهم يتناسون.. ولا توجد أهمية للاعتراف النظرى.. المهم أن يترتب على هذا الاعتقاد..أو الحقيقة البدهية موقف مغاير لموقف الانبطاح أمام من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، إن أى حقيقة لا أهمية لها إذا لم تكن حاضرة فى الذهن دائما، ويتم العمل وفق مقتضياتها، وليتذكر كل منا.. الحالة النفسية الشفافة التى يكون عليها عندما يودع عزيزا فى قبر من القبور.. وكيف يعود من المقابر موقنا بتفاهة الدنيا وأنها لا تساوى جناح بعوضة، ولكن هذا الشعور يتلاشى مع الأيام ولا يكون بنفس شفافية لحظة مواراة جثمان إنسان فى التراب. وهذه هى الحكمة المستفادة من زيارة القبور.. وأن تكون الصلاة خمس مرات فى اليوم، وأن يكثر الإنسان من تلاوة القرآن قدر الطاقة، فالنسيان من صفات الإنسان الأساسية ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ولذلك نجد القرآن يقوم أسلوبه على التذكرة..والإعادة.. والتكرار للمعانى الرئيسية.

وكما أن الإيمان بالله لا يستقر ويتدعم إلا بالصلاة.. التى هى نوع من التذكرة.. فما هى إلا أقوال وحركات مكررة ، كذلك الأمر ينطبق على شتى المعانى الرئيسية، فالاعتراف بالموت لايحتاج إلى عبقرية ويتفق فى ذلك المؤمن والكافر.. (وإن كان بعض العلماء فى الدول الكافرة حاولوا تحدى الموت ولا يزالون من خلال بحوثهم الخرقاء.. وآخر طبعات هذه المحاولات ما يسمى بالاستنساخ!) لو تجاوزنا عن هذا الشذوذ فإن الجميع تقريبا يعترف

بالموت ولكن العظة من الموت هى الفارق بين المؤمن والكافر الذى يقول ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

والإنسان المشدود للإغـراءات الدنيوية.. يتناسى فكرة الموت معظم الوقت، وفيـما يتعلق بالنظرة إلى الحكام فإنه يقول لعلـه يعيش فى الحكم ٢٠ أو ٣٠ أو ٤٠ سنة.. وقد بقى حكام بالفعل مددا طويلة هكذا.. والإنسان المشدود للإغراءات الدنيـوية يرفع شعار (أحيينى اليوم وموتنى بكرة)! ثم إنه يردف هذا الاحتـمال باحتمال آخر لا ينفـصل عنه، بأنه حتى إذا مات فـسيـتم توريث الحكم لأحـد أبنائه، أو أى فـرد من بطانة الحـاكم لا يخـتلف عنه فى شىء وسيـسير على نفس نهـجه وهو بهذا يكون قـد أعطى الحاكم قـدرة خلود إلهية من الناحـية العملية. وفى المقابل فإن النظم الاستبدادية تكون منتبهة جدا لفكرة موت الحاكم فهى تحاول المد فى عمـر الطاغية ـ كـما تتصـور ـ باستخـدام كل وسائل تطور العلم فى مـجال الطب، وأشرنا من قبل للنمـوذج الأبرز فى الاتحاد السوفيتى حيث بقى بريجنيـف رئيسا وهو أقرب إلى الخُشب المسندة. ولكن هذا النمـوذج يشـيع فى كل نظم الطـغيـان القـائمـة على حكم الفرد.. فالحـاكم لا يتحرك إلى أى مكان حتى داخل وطـنه بدون مستشفى مـتنقل بجواره.. وتتم متـابعة أحواله الصـحية بأعلى الكفـاءات التى يتم استقدامـها من شتى أنحـاء العالم. وحمـاية حيـاته من أى اعتـداءات هى الشغل الشـاغل لعدد من الأجـهزة الأمنيـة، حتى إذا تطلب الأمر عدم احتكاكـه بأى تجمعات جماهيرية.. حـتى إذا تطلب الأمر أن يُسجن داخل قصوره المـنيفة. إن الحالة الصـحية للحاكم المستبد هى أخطر أسرار الأمن القـومى، حتى لا يتطرق إلى ذهن الشعب أن الحاكم مهدد فى حياته بأى صورة من الصور، وأخطر ما يصيب هذه النظم من اضطراب أن يشيع خبر أو ينشر عن تدهور الحالة الصحية له.

أثناء زيارتى لإحدى الدول العربية ألتقيت بقيادة سـياسية معارضة تعرضت لعنت شديد وصل إلى حـد حصـاره فى بيتـه بعـد فتـرة من اعتـقـاله، وكان السـبب أنه صرح لاحـدى الصحف الأجنبية بأن الحـاكم مصاب بالسرطان رغم أن هذه المعلومة كانت صحـيحة، وقد مات بالفعل الحاكـم بعد ذلك بسنوات قليلة!! والمقصود بهذا التكتم الشـديد، عدم التذكرة

بإنسانية الحاكم وأنه معرض للموت، لأن ذلك ربما يشجع «التطاول» عليه والتجرؤ على نقده، أو يغرى بـ«التآمر» على خلافته.

والحاكم المستبد يخضع نفسه وحياته لقواعد صارمة فى أسلوب الحياة من الناحية الصحية والغذائية حتى يطيل أمد استمتاعه بجنة السلطة.

وفى هذا المناخ يتم استبعاد (أو تناسى) فكرة الموت.. وأن الحاكم يمكن أن يموت فى لحظة وفى أى لحظة، ويتم التعامل معه عمليا على أنه مستقر فى دست الحكم إلى أجل غير مسمى. ويرتب الحكام والمحكومون حياتهم على هذا الأساس. ثم يتحول اعتقاد الناس بأن الحاكم يملك أن يذل من يشاء ويعز من يشاء إلى يقين، ويرتبوا حياتهم على أساس هذه «الحقيقة» المزعومة، وهى تستند لظواهر بعض الأمور، فالحاكم المستبد يملك ظاهريا أن يحبس من يشاء أو يعدم من يشاء (سواء عن طريق محاكمات شكلية أو من خلال التصفيات الجسدية)، والناس ترى نماذج من ذلك فيزداد يقينها، والواقع أن الحاكم المستبد لا يملك أن يحقق كل رغائبه وينصحه بعض معاونيه الأذكياء أن التمادى فى ذلك قد يقلب الأمور عليه. والحاكم - مهما بلغ سوؤه - لا يود أن يظهر دائما فى صورة السفاح بل يمنى نفسه بأن يكون له شعبية حقيقية! ويحب المستبد أن يستمع إلى تقارير تقول له ان الناس تلهج بالثناء عليه أثناء الليل وأطراف النهار حتى ولو كانت تقارير كاذبة. وهذا من طبيعة الإنسان، فالإنسان الذى يربى حيوانات يسعد عندما يجد هذه الحيوانات تتعرف عليه وتحبه وتهز ذيلها لمقدمه! والسيد الإقطاعى يسعد إذا أحبه الخدم والتابعون وإن كان يظلمهم..

ويرتدع المستبد أحيانا عن تنفيذ رغائبه خوفا من ردود أفعال شعبية غاضبة أو ردود أفعال خارجية. ولكن يبقى الأساس فى ردع المستبد هو التصدى الجماعى الدائم له.. فلا يستطيع حاكم أن يسجن كل الشعب أو يقتل كل الشعب.

والواقع أنه لا يمكن قهر شعب يؤمن بالله حقا وصدقا، ويوقن أفراده أن الإيمان والجهاد دائرتان متطابقتان فلا يوجد مؤمن بالله حقا ينكص عن الجهاد فى سبيله أو يخشى أحدا من دون الله، وشعب هذه صفاته لا يخضع للطغاة، وهو إما يقومهم أو يغيرهم. فالإسلام

والاستبداد ضدان لا يلتقيان، والحاكم المستبد هو الخطر الرئيسى على الدين والعقيدة، لأنه يفتن الناس عن دينها، ومقاومته فرض عين على كل المؤمنين.

أما تركيز الكتابات الدينية المعاصرة على ربط الشرك بالأوثان والأصنام فحسب فإنه يؤدى إلى إراحة ضمائر المسلمين لأنهم واثقون من أنهم لا يعبدون أحجارا ولا يسجدون لأوثان وأنهم كافرون بالتأكيد باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ويتصورون بذلك بأن لديهم ضمانات موثقة بدخول الجنة، هذه الكتابات تحرف الأنظار عن الأخطار الرئيسية والأشكال المعاصرة للشرك بالله التى تهدد عقيدة المؤمنين. وهذه الكتابات تحول كثيرا من آيات القرآن الكريم إلى سرد تاريخى لصراع قديم جرى فى مكة بين الرسول ﷺ، ونفر من المشركين من عبدة الأصنام والأوثان، وأن هذا الشرك قد قطع دابره والحمد لله واستراح المسلمون منه إلى يوم الدين. والواقع أن إشارات القرآن لعبادة الأصنام والأوثان ليست من قبيل التسجيل التاريخى، فهذا الخطر قائم دائما، وهذا النوع من الشرك موجود فى كل العصور والأزمان.. نتيجة الميل المادى لدى فريق من الناس الذين ينجذبون لأصلهم الترابى دون الأصل الربانى، هذا الميل الذى دعا الأوائل منهم إلى طلب رؤية الله عيانا بيانا حتى يؤمنوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] كذلك هذا النزوع المادى لعبادة تمثال ولمسه باليد ورؤيته بالعين لايزال موجودا بين ظهرانينا فى العصر الحديث (تماثيل بوذا على سبيل المثال) أو التمسح بالأضرحة والقبور التى ترضى رغبة فى إمساك شىء مقدس باليد، وهو مما يعطى حالة «يقينية» بالاتصال المادى المحسوس بقوى علوية. فى حين أن التوحيد الصافى من أى كدر يقوم على الإيمان بالغيب، بعيدا عن أى محسوسات، ولاسبيل له دون ذلك، لأن الاتصال المادى بالله مستحيل.. لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن يبدأ القرآن الكريم بهذه الصفة للمؤمنين فى سورة البقرة بعد إعلان التوحيد فى سورة الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بالقول ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ١ - ٣] وقد قامت حركة الإصلاح الكنسى فى أوروبا بعد الاحتكاك بالمسلمين (خلال الحروب الصليبية) على ثلاثة مبادىء:

(١) محاربة التماثيل والصور فى الكنائس.

(٢) السماح لأى مسيحى بمطالعة الكتاب المقدس.

(٣) اسقاط القداسة عن البابا التى وصلت به إلى مرتبة الألوهية.

(تفسير سورة آل عمران ـ أحمد حسين).

ولكن القرآن الكريم والسنة المشرفة لم يقتصرا على تناول هذا الشكل وحده كما أسلفنا القول، فلماذا التركيز عليه وحده رغم أنه لم يعد الخطر الرئيسى فى هذا العصر فى مجتمعات المسلمين، لماذا تبتعد الكتابات الدينية عن الخوض فى (الطاغوت) أو الآية الكريمة ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويقول أحمد حسين فى تفسيره:

(لقد أصبح ماركس ولينين وماو تسى تونج أربابا، ولو قلت ذلك لشيوعى لقال لك نحن لا نعبدهم، ولا رد لنا إلا ما رد به سيد الخلق سيدنا رسول الله ففى حديث لعدى بن حاتم أورده الترمذى وكأنه أعترض على القول باتخاذ بعض البشر أربابا فقال: ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال ﷺ : أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بأقوالهم قال: نعم فقال ﷺ: هو ذاك فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر به وينهى عنه).

وما ينطبق على ماركس ولينين وماو تسى تونج ينسحب على كل الحكام الطغاة فى المجتمعات الإسلامية الذين لا يلتزمون بالحلال والحرام وفقا لتعاليم الله، ويلتزمون بالحلال والحرام وفقا لمؤتمرات الأمم المتحدة وتعاليم الولايات المتحدة الأمريكية! إن عامة المؤمنين الذى يستسلمون لهذا النوع من الحكام يظلمون أنفسهم مرتين وهذا المعنى يشرحه الشيخ الشعراوى فى معرض حديثه عن معنى (ظلموا أنفسهم) فيقول:

(ومن الناس من يبيع دينه بدنياه، ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره، الذى يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة، أما من باع دينه بدنيا غيره، خاب فى الأولى والآخرة، هو الذى ظلم نفسه،

كالإنسان الذى يشهد زورا ليؤذى غيره دون أن يقبض ثمنا ما مقابل ذلك، إنسان يكتب تقريرا كاذبا فى إنسان ليمنع ترقيته أو يشى بشخص كذبا ليدخله السجن أو يضعه فى الاعتقال أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة، كل هؤلاء يظلمون أنفسهم، إنهم يرتكبون الاثم فى الدنيا ولا يجعلون له فائدة لا فى دنياهم ولا فى آخرتهم، فكأن الذى ظلم نفسه هو الذى جعلها تدخل النار هو الذى جعلها ترتكب الاثم وفى نفس الوقت لم يعطها شيئا على الإطلاق، فهو ظالم لنفسه فى الدنيا.. ظالم لنفسه فى الآخرة). (محمد متولى الشعراوى - معجزة القرآن).

فهذا هو حال جمهور الناس الذين يخضعون للطاغية لمجرد اتقاء شره دون تحقيق أى مكسب دنيوى حقيقى.. وينطبق عليهم هذا القول السديد (باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم)! فأنت تجد أناسا لا يجدون كفاف يومهم، لا يعيشون فى مسكن آدمى، معظم حقوقهم الإنسانية مهدرة، ومع ذلك يخشون الجهر بالحق.. وتتعجب من أى شيء يخافون، فلا هم نالوا العاجلة (الزائلة) وعرضوا آخرتهم للخطر!

والمسلم لا يأمن موقفه من الجنة والنار.. فلو كان الأمر مضمونا على أساس تصنيف شكلى لما كان للاختبار فى الدنيا أى معنى جدى. وآيات القرآن الكريم قاطعة:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقد انشغل الشيخ محمد الغزالى بهذه القضية كثيرا بالإضافة لكوكبة من أبرز الفقهاء والمعاصرين.. يقول الغزالى:

(بعض الوعاظ قصار النظر قد يقعون على آثار دينية محدودة المعنى والمجال، فيسيئون فهمها وتطبيقها ويتجاهلون بها - جملة - الكتاب والسنة، بل طبيعة الإيمان نفسه، تلك الطبيعة التى تخلق من الموات حياة، ومن الفوضى نظاما.

خذ مثلا حديث البطاقة الذى رواه الترمذى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما من أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يارب فيقول تعالى: بلى. إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات! فقال: فإنك لا تظلم. فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شىء».

هذا حديث مثير للدلالة: وهو لو أخذ على ظاهره يضيع عن الناس شتى التكاليف الإلهية ويبطل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١ ـ ٨٢].

وعندى أن هذا الحديث ـ إن استقام سنده ـ إنما يصح فى شخص مشرك، قضى حياته فى الفساد، ثم آمن قبل أن يحين أجله بقليل فلم يستطع بعد إسلامه أن يبقى مدة يصلح فيها ما مضى، والحديث بهذا ينوه بما لخاتمة الإيمان من قيمة وما لتوحيد الله من منزلة. أما إطلاق هذا الحديث وأشباهه بين العوام أو بين الناشئة دون وعى فهو هدم للدين كله، وهو الأساس لتكوين طوائف من المتدينين، تحط من قدر الإيمان وأثره. إن العالم اليوم فقير إلى الإيمان الذى يصله بربه صلة وفاء وبر، ويربطه بالحياة رباط انتاج وجد، وإلا فالمستقبل حافل بالنذر.

إن أعداء الإسلام ـ وقد عجزوا عن هزيمته فى ساحات القتال ـ لم تُعيهم الحيل لسحقه فى عقر داره فدسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها وأمانى لا عمل معها.

فالمرء إذا غمغم بين شفتيه بكلمة التوحيد، تحصن وراءها، فأصبح يسيرا عليه ألا يقوم إلى الواجب وألا ينتهى عن محرم، وقد زعم هؤلاء المغفلون: أن الدين ينص على ذلك! ألا ساء ما يصنعون. ولو فرضنا أن حزبا ما، تقدم إلى الناس وقد أضاف إلى جملة المواد التى

تبين للجماهير منهاجه وتوضح أغـراضه، مادة أخرى تصرح أو تلمح بأن لكل منتم للحزب ألا يعمل بمبادئه وألا يتقيد بتعاليمه لقال الناس أجمعـون. هذا هو العبث والمجون! فكيف نتهم الإسـلام بأنه يحمل فى ثناياه ما يهدمه؟ وكيف ننطلق إلى نصوص نبحث بينها عن (المادة) التى تبيح الخروج عليه واللعب بـه؟ وكيف ندعى أن الأعمـال أمر كمالى بحت لا يضير نقصـانه؟ أولئك هم الحمقى ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١] وعلى رؤوسهم يقع التفريط الهائل فى إقامة حدود الله وأداء فـرائضه، وما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات عندما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتر. أمة تعتبر العمل من (الكماليات) الخفيفة، كيف يقوم لها دين؟ أو تقوم بها دنيا؟

إننا نعرف تاريخ الأمم التى هلكت بسوء عملها. ونعرف أن الله نقم على قوم لوط ـ مثلا ـ لارتكابهم الفاحشة وعلى قـوم شعيب ـ مثلا ـ لبخسهم المكيال والميـزان وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين. فهل أمتنا وحدها هى التى تريد أن ترتكب السيئات دون حذر أو وجل؟

إن النطق بالشـهادتين بداية لما بعـده من اعتـقاد أو عمل، لا مـا تحسب الأبصـار الكليلة، والهمم القاصرة من أن مجرد النطق فيه الكفاية والغنى.

وحروف هذه الكلمة ـ كلمة التوحيد ـ منافذ تفـضى بالإنسان إلى ساحات رحيبة وآفاق ممتدة يشرب القلب فيها حقيقة التوحيد الخالص كلما سجد لبارئه وبادر إلى مرضاته، ونفر من مساخطه، وأدى الواجب وترك المحرم.

وأدران الشرك ليست كلمـة تلوث الفم وحده حتى تطهرها كلمة مـقابلة ينطق بها الفم، ولكن الشرك توجه الفؤاد لما دون الله، وعمل الجوارح لغير الله.

فإذا لم يسيطر التوحيد على القلب والجوارح ويتـحول إلى قوة باعثة إلى العمل الصالح فلا قيمة له!! إن كلمة التوحيد حصانة البشرية من الخنوع للآلهة المزيفة. وهذه الآلهة ليست حجـرا منحوتـا فحسـب، بل كل ما يقطع صلة الإرادة الإنسـانية بالله، ويربطـها بغيـر رباط الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والألم والأمل، فهو ذريعة للشرك.

ولما كان الإسلام قد قرر ما ينبغى عمله فى الشئون المتصلة بنواحى الحياة كافة، من أحكام ومعاملات وأخلاق، فإن موقف المؤمنين تجاه ذلك واحد لا يتغير، هو الخضوع المطلق، فإذا انكشف الغطاء على غير ذلك، وتبين من خلال السلوك ضلال القلب، فإن الإيمان زعم باطل. وبهذا القياس فضح الله طوائف المنافقين الأولين، وبه ـ كذلك ـ نفضح أشباههم اليوم) (عقيدة المسلم).

كان لابد من هذا الاقتباس الطويل من شيخنا لأنه يبسط الأمر بجلاء وحزم ويحسم القضية، ويقضى على أى مصداقية لهذه الفكرة الشائعة التى طالما سمعتها من عامة المسلمين الخائضين فى المعاصى والذنوب فهم يعلنون دائما أنهم محصنون ببطاقة «لا إله إلا الله» ومصداقا لقول الشيخ محمد الغزالى نورد الأحاديث الشريفة التالية الواردة جميعا فى رياض الصالحين:

* كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا ومن يأبى يا رسول الله، قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى.

* من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئا دخل النار «مسلم» مع فهم الشرك بمعناه الواسع وعدم حصره فى الأوثان.

* ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار «لاحظ صدقا من قلبه وهو ما يجب أن ينعكس فى سلوكه وأعماله. وقد جاء هذا المعنى بصيغة أخرى».

* فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله «متفق عليه».

* اذهب فمن لقيت وراء هذا الحائط (البستان) يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة.

كذلك فإن كثيرا من الأحاديث توضح أن النطق بالشهادتين لايضمن الجنة للمسلم بصورة آلية ومن أمثلة ذلك:

* من اقتطع حق امرء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، قالوا وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله، قال «وإن قضيبا من أراك» ـ مسلم، والأراك هو الخشب الذى يستخدم فى السواك. فانظروا إلى مصير الحكام الظالمين الذين اقتطعوا من المسلمين حقوقا بملايين الأطنان!.

* إن رجالا يخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة ـ البخارى، فانظروا إلى مصير طبقة المترفين الفاسدة.

* لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ـ وفى رواية أخرى (لا يؤمن.. لا يؤمن.. لا يؤمن.. من لا يأمن جاره بوائقه).

وردا على هؤلاء المطمئنين بأنهم يحوزون بطاقة مرور للجنة نورد لهم الحديث التالى:

* الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك «البخارى» والحكام كما ذكرنا هم أكثر المهددين بعذاب الآخرة لعظم المسئولية التى يتولونها.

* ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة «متفق عليه».

* ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة.

وقد أشرنا من قبل إلى الأحاديث التى توضح واجبات الرعية، وكيف يأثمون ويشركون إن هم لم يتصدوا للظالمين ويضربوا على أيديهم أى إذا لم يمارسوا فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* * * * *

ويبقى فى النهاية أن نؤكد أن الشرك يتضمن اشراك قيم غير تلك التى كرسها الإسلام لتنظيم المجتمع، وقد قال أحد المفكرين الإسلاميين المعاصرين:

(والشرك بالله معناه إذن اشراك غير هذه القيم معها فى الدعوة).

ففى مجتمعنا الآن دعوة إلى أن تكون مرجعية حياتنا مقررات مؤتمر بكين للمرأة، وهى مقررات نجسة تقر الشذوذ الجنسى والحرية الجنسية. رغم أن دستور المسلمين (القرآن) وما ورد فى كل الكتب السماوية قد فصل تفصيلا شديدا العلاقات بين المرأة والرجل، والحياة الأسرية، باعتبارها من ثوابت الحياة البشرية، على خلاف موضوعات أخرى تركت فيها مساحة واسعة «للعفو» أى للاجتهاد، باعتبارها من المتغيرات. والقرآن لم يترك شيئا فى الحياة الأسرية لم يحدد أحكامه.. ووصل إلى حد الحكم فى مواقيت وضوابط دخول الأبناء على والديهما. وآداب دخول الضيوف للبيت، وتفاصيل العلاقة بين الزوجين..

إن التوحيد يعنى رفض أى قيمة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية يحاول أن يفرضها علينا طواغيت الغرب إذا كانت تتعارض تعارضا صريحا مع القيم الإسلامية.

إن الخروج على التعاليم الإسلامية والخضوع والالتزام بمقررات المؤتمرات الدولية المشبوهة شرك صريح بالله عزوجل.

ملحق

الخطايا العشر للمحاكم العسكرية
من وجهة نظر الشريعة الإسلامية

بمناسبة الحكم على ٦ مواطنين بالإعدام:

أحكام المحاكم العسكرية خروج صريح على أحكام القصاص القرآني (*)

قرأت وقائع القضية المعروفة باسم «العائدون من السودان» التي حكمت فيها منذ أيام إحدى المحاكم العسكرية وتوقفت عند الحكم بإعدام ستة مصريين.. وقد سبق لي منذ أكثر من عامين أن نشرت بحثا من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.. حول هذا الموضوع.. ونظرا لأن أرواح البشر ليست لعبة.. ولا يصح إزهاق الأرواح بحسابات سياسية .. لأن الله قد حرم قتل النفس إلا بحقها.. فإن الواجب الديني قبل الوطني يحتم عليّ أن أعيد نشر هذه الدراسة التي لم يستطع في حينها أن يرد نتائجها أي عالم من علماء الإسلام حتى من هؤلاء الصنف المرتبط بالسلطان..

والدراسة تؤكد القاعدة الإسلامية في القصاص (النفس بالنفس).. وقد تناولت القضايا الأولى للمحاكم العسكرية والتي حكمت بإعدام أشخاص لم يقتلوا أحدا.. وهذا هو نفس العوار الذي يتسم به هذا الحكم الأخير .. حيث لم ترتكب في إطار وقائع هذه القضية أية جريمة قتل.. ولم يستخدم بعد أي نوع من السلاح ..

نحن إذن نفترض التسليم بصحة كل الوقائع الواردة في حيثيات الحكم.. ونؤكد أن

(*) جريدة الشعب ١٩/ ١/ ١٩٩٦.

الشريعة الإسلامية تحرم قتل المتهمين .. بناء عليها .. فالمحكوم عليهم بالإعدام (ستة أشخاص) متهمون بجمع السلاح .. بهدف استخدامه .. ولكنهم لم يستخدموه بعد.. أى أنهم لم يصلوا حتى إلى مرحلة الشروع فى القتل.. نعلم أن المحكمة العسكرية تستند إلى تعديلات قانون العقوبات التى سميت (قانون الإرهاب).. والتى تتضمن عقوبة الإعدام لمجرد حيازة السلاح إذا كان المستهدف به القيام بأعمال إرهابية .. وقد أكدنا فى دراستنا السابقة .. أن هذا النص يتعارض مع الشريعة الإسلامية بصورة صريحة .. بالإضافة إلى مثالب شرعية أساسية أخرى فى عمل .. وفى أحكام المحاكم العسكرية.

إننا نطالب رئيس الجمهورية وقبل التصديق على الحكم.. بقراءة هذه الدراسة .. وعرضها على الأزهر الشريف.. للتأكد من صحة الأسانيد الشرعية .. ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾..

إن إعدام هؤلاء الستة يعد عملية قتل خارج نطاق القانون الإلهى (الشريعة الإسلامية) وخارج نطاق القوانين الوضعية (التى تحتم عدم اللجوء أصلا للمحاكم العسكرية فى حالة المدنيين).

والله من وراء القصد.. وهو الذى يهدى السبيل.

*****

من المعروف أننا ضد مبدأ المحاكمة العسكرية للمدنيين وهذا مبدأ دستورى وديمقراطى معروف فى العالم أجمع، وموقفنا هذا منقطع الصلة بجوهر الاتهامات وحقيقة المتهمين .. فهذه ضمانات للجميع .. لكل المواطنين: حكاما ومحكومين !!

وليس فى موقفنا هذا أى تعريض أو تجريح فى المحاكم العسكرية التى لها اختصاصات فى مجالاتها المحددة، بل إننا نرى أن القضاة العسكريين يظلمون حين يفرض عليهم هذا الموقف الحرج..

أنطلق فى دراستى هذه من الأحكام الصريحة للشريعة الإسلامية وفقا للقرآن والسنة، وهذا موقف دستورى .. فالدستور ينص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى

للتشريع.. وهذا حكم ملزم لكل القضاة ـ مدنيين وعسكريين ـ أمام الله.. قبل أن يكون أمام الدستور..

وهذا يعنى أننا لا أقتصر (فى هذه المناقشة على الأقل) على ما يسمى مواد مكافحة الإرهاب التى أدخلت على قانون العقوبات، لأن هذه الأحكام يجب أن تنضبط بالشريعة الإسلامية .. حتى تكون دستورية ..بل إننى بالأحرى سأتعرض لهذه التعديلات منسوبة لشرع الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. فرغم أن حكامنا لا يريدون للمجتمع أن ينضبط بالشريعة الإسلامية .. فإن عامة المسلمين يجب أن ينضبطوا لها قدر الطاقة، ويقيموا الأشياء استنادا إليها .. وهذا المعنى ينطبق أيضا على القضاة العسكريين فمنهم من درس القانون وبالتالى لابد من أنه قد درس الشريعة الإسلامية كمادة من مواد القانون على الأقل!

* * *

قضايا الإعدامات:

نحن أمام إعدام مواطنين دون أن تثبت المحكمة أنهم قتلوا أحدا، فهل توجد إساءة للسلطة أكثر من ذلك؟! أليست هذه عملية تصفية جسدية وقتل، أخذت «شكلا قانونيا» كبديل عن اغتيال أفراد الجماعات الإسلامية فى الطرقات (كالدكتور علاء محيى الدين)؟!

وتأكدوا أنكم بذلك تزرعون أحقادا وثارات دفينة لا يمكن اقتلاع جذورها.. فما هو موقف الشريعة الإسلامية ؟!

مطابقة الأحكام العسكرية على الشريعة الإسلامية:

المعضلة الأساسية التى تواجهنا لدى الاحتكام للشريعة الإسلامية، أن هذه الشريعة الإلهية لا يمكن أن تفهم أو تطبق إلا فى مجتمع إسلامى متكامل، مجتمع يحتكم بالأساس إليها ويعيد ترتيب أوضاعه كلها استنادا إلى أحكامها .. وليس هذا هو حالنا ـ مع الأسف .. وكذلك معظم الدول الإسلامية..

وعاظ السلاطين وحدهم هم الذين يتجاهلون ذلك، فيفتون مثلا بمساندة أمريكا فى

ضرب العراق وفقا لآية مقاتلة الباغي، مع أن الفئة الباغية تستحق هذا التعريف لأنها انشقت عن الإمام العادل أو شقت صف الدولة الإسلامية، فأين هو الإمام العادل فى دول التحالف الثلاثينى العربية أو الغربية!! وأى آية فى القرآن تنصب أمريكا قاضيا وحكما ومنفذا لأحكام الشريعة الغراء؟!!!

وعاظ السلاطين وحدهم ينقبون عن الآية الكريمة التى تبرر - كما يتصورون - تصرفات السلطة .. فيحدثنا أحدهم عن حد الحرابة !!

لاشك أن غياب النظام الإسلامى الشامل يجعل من العسير مناقشة حكم الشرع فى قضية جزئية وبخاصة إذا كانت متعلقة بالسياسة والاقتصاد (بخلاف أحكام الزواج والمواريث وما شاكلها)، ومع ذلك فلا بأس من المناقشة الجزئية لتوضيح موقف الشريعة الإسلامية، ولتحديد موقف الإسلاميين النظرى بناء على ذلك .. لا بأس أيضا من دفع النظام إلى الالتزام بهذا الجزء أو ذاك من الشريعة !!

حد الحرابة لا ينطبق على الجماعات الإسلامية !

لكى تتواصل المناقشة .. سنفترض جدلا أن الحكم الحالى يمثل للشريعة الإسلامية مائة فى المائة.. وأنه نظام عادل، وبمنزلة امتداد لأروع فترات الحكم الإسلامى، وأن الجماعات الإسلامية (خوارج) خارجين عن الإمام العادل، وهذا افتراض جدلى كى نتعرف على الموقف الشرعى حتى فى ظل هذا الاحتمال الذى قد لا يقبله البعض !!

استقر الفقه بصورة تكاد تكون إجماعية على أن هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ﴾ وما بها من حد الحرابة، تتصل بقطاع الطرق المجرمين، الذين يستخدمون القوة لسلب الأموال، واغتصاب النساء، وخطف الأطفال، وترويج المخدرات، وما يصاحب هذه العمليات من جرائم قتل وترويع للآمنين، وقد ميز الفقهاء بين الحرابة (قطع الطريق) وبين البغى (أى الخروج السياسى عن الإمام بتأويل شرعى)، باعتبار الأولى جريمة اجتماعية، والثانية سياسية.

ولا يوجد حد مقرر للبغي بل يجيز القرآن الكريم ويحتم مقاتلة الفئة الباغية ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وإذا كانت الجماعات الإسلامية المتشددة فى محل الاتهام فيجب أن يكون ذلك فى خانة (البغى) أى الخروج السياسى لا (الحرابة) الجريمة المجردة من أى أبعاد سياسية.

يعرف الفقهاء البغاة بأنهم الذين يخرجون على الإمام ويخالفون الجماعة وينفردون بمذهب يبتدعونه، وذلك بتأويل سائغ مع وجود المنعة والشوكة لهم.

بل ويفترض ثقاة الفقهاء أن البغاة إذا لم يتحيزوا بمكان يعتزلون فيه، أى قيامهم بحركة انفصالية على جزء محدد من تراب الدولة الإسلامية، وكانوا أفرادا تنالهم القدرة وتحيط بهم يد الإمام فإنهم يتركون دون حرب وتجرى عليهم أحكام أهل العدل (باقى السكان) فى الحقوق والحدود، بل إنهم لو تحيزوا بمكان وظلوا على طاعة الإمام تركوا وشأنهم كما فعل الإمام على مع بعض الخوارج بـ «النهروان».

وأهل البغى لا يقاتلون إلا إذا بدأوا هم بالقتال.. وقتالهم يختلف عن قتال المشركين والمرتدين (راجع كتابى: أزمة الخليج بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان) من عدة وجوه أهمها:

١ ـ أنه يجب إنذارهم قبل القتال، ولا يهجم عليهم بغتة (كما حدث فى عملية قتل الصبية فى منقباد!).

٢ ـ أن يقاتلوا ما داموا مقبلين على الحرب فإن أدبروا فلا يقاتلون.

٣ ـ لا يجوز الإجهاز على جريحهم (لاحظ التصفيات الجسدية).

٤ ـ يفك أسرهم ومحبسهم فور انتهاء القتال.

٥ ـ وإذا انتهى القتال فلا أحكام إعدام.

والأساس فى التفرقة بين البغاة وغيرهم أن جريمتهم تعتبر جريمة سياسية، فيقابل ذلك أن

يكون المقصود هو عودتهم إلى الطاعة ليس غير، وما دام ذلك قد توافر فلا عقاب عليهم بعده، كما أن الجرائم التى ترتكب منهم فى حالة الحرب لا تأخذ حكم الجرائم العادية. فحربهم كان بتأويل سائغ، هذا بخلاف أهل الحرب والمرتدين فإن قتلهم فى الحرب مقصود، إعلاء لكلمة الله وإرهابا لهؤلاء، وذبا عن الدين.

* * *

هذا العرض الفقهى يؤكد أن مدخل السلطة قد تناول مشكلة الشباب الإسلامى الذى جنح إلى العنف مدخل خاطىء.. وأن مظلة حد الحرابة التى أراد أن يوفرها وعاظ السلاطين .. مظلة واهية وغير شرعية .. وبالتالى تتحول أحكام المحاكم العسكرية إلى أعمال قتل، وانتقام سياسى عشوائى.. وبناء على الانتماء الفكرى وليس بناء على وقائع محددة كقول المحكمة العسكرية: (الانضمام لجماعة أسست على خلاف القانون بهدف تعطيل أحكام الدستور والقوانين والاعتداء على الحرية الشخصية للمواطنين والإضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى).. إلى آخر هذا الكلام المرسل! هذا العرض الفقهى يؤكد سلامة توجه مجموعة الحكماء والعلماء الذين اجتمعوا فيما عرف بالوساطة بين الدولة والجماعات الإسلامية المتشددة، باعتبار أن جوهر الأزمة سياسى، ولابد أن يحل سياسيا والحقيقة أن الدولة وافقت ثم تراجعت وضحت بعبدالحليم موسى وزير الداخلية السابق على مذبح هذا التراجع .. وقد كان ذلك خطأ بكل المعايير الوطنية والإسلامية، فلا يجوز للدولة أن تتجبر وتتعالى عن الحوار حتى مع مواطن (فرد) وليس مع تنظيم إسلامى متشدد .. فهذا الحوار يزيد من شأن الحكام ولا ينقص منه.. والحوار المفضى إلى حل الأزمة الوطنية، أفضل لكل الأطراف من تواصل التحارب الأهلى .. ولن يخفى هذا أن يأخذ القتل من جانب الدولة شكل الأحكام «القضائية المقننة».

* * *

هذا هو المدخل الفقهى لدحض كارثة المحاكم العسكرية.. ولكن لاتزال هناك عشر نقاط على الأقل.. أو بالأحرى عشر مخالفات للشريعة الإسلامية فى أحكام القضاء العسكرى التى أفضت إلى إعدام عشرات المواطنين حتى الآن..

الله يقول «النفس بالنفس» .. والمحكمة العسكرية تعدم غير المتهمين بالقتل.. ورئيس الجمهورية يصدق على الأحكام(*)

هذه الدراسة أعيد نشر حلقاتها بمناسبة صدور أحكام بإعدام ستة مواطنين فى القضية التى عرفت باسم «العائدون من السودان».. وفى محاولة لوقف إعدام هؤلاء المواطنين .. الذى سيتم بصورة غير شرعية .. ونحن نعرف أن رئيس الجمهورية لا يهتم بكل هذا الكلام .. وإلا لكان اهتم عندما نشرت هذه الدراسة لأول مرة فى يوليو ١٩٩٣..

.. ولكننا نقيم عليه الحجة أمام الله .. وأمام الشعب ..

*****

وضعنا المدخل الفقهى لأحكام المحاكم العسكرية .. التى استندت بالأساس إلى أن الحوادث التى ارتكبتها الجماعات الإسلامية المتشددة تقع فى خانة «البغى» كجريمة سياسية، لا خانة «الحرابة» كجريمة اجتماعية: مع افتراض أننا نحكم حكما إسلاميا عادلا يلتزم بالشريعة الإسلامية !! وقلنا: إن الفقهاء أجمعوا على عدم وجود «حد» معين لجريمة البغى، وإن الهدف هو إعادة «الخوارج» إلى طاعة الإمام العادل، وفى كل الأحوال عدم قتلهم وهم فى الأسر، وإسقاط ما قاموا به ما داموا قد عادوا إلى الطاعة.

(*) جريدة الشعب ٢٦/ ١/ ١٩٩٦.

ولكننا سنواصل الاحتمال الآخر مع وعاظ السلاطين والإعلام الرسمي .. وهو اعتبار أن ما ارتكبه بعض الشباب يقع في خانة الجريمة الاجتماعية: قتل ـ اعتداء ـ قطع طريق (الحرابة)، ولكن حتى في هذا المجال سنجد عشر مخالفات للأحكام الجنائية في الشريعة الإسلامية. في حديث الرئيس مبارك مع الجيش في الساحل الشمالي .. قال (لماذا تعترضون على المحاكم العسكرية؟ لماذا تعترضون على إعدام من قتل؟ وهل هذا هو الإسلام ؟!!).

سيادة الرئيس: هل قرأت الحيثيات التي صدقت عليها؟! فليس فيها قتيل واحد مصرى ولا إنجليزى ولا حتى يهودى. أما الإسلام.. فهذا هو الإسلام .. اقرأ ـ إذا كان لديكم بعض الوقت ـ هذه السطور وكل مراجعى فيها كتب صادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أو هيئة الكتاب، وهما هيئتان تابعتان للدولة.. وأنا بكل إمكانياتي المتواضعة مستعد لمناظرة مفتى الديار أو شيخ الأزهر إن هما اختلفا معى .. بل ومستعد ـ وحدى ـ لمناظرة أى عدد من العلماء تختارهم أنت في جلسة علنية أو سرية، مذاعة أو مسجلة. وأنا أتحدث بكل هذه الثقة لأنى لم أدخل في منطقة الاجتهاد إلا في أقل القليل.. وإنما أتناول أمورا هي من المسلمات في عالم الفقه الإسلامى !!

***

نبدأ المخالفات العشر آخذا باحتمال أن الجرائم التي ارتكبت تدخل في مجال حد القتل العادى أو حد الحرابة (جريمة قطع الطريق).. التي تحكمها الآية التالية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

١. درء الحدود بالشبهات:

المقصود بدرء الحدود بالشبهات ما يصفه القانون الوضعى بأن أى شك هو لصالح المتهم ولكننا هنا مع شريعة الله فحسب.. درء الحدود بالشبهات يستند إلى الحديث الشريف (لأن يخطىء الإمام في العفو أحب إلى من أن يخطىء في العقوبة)، وتفسيرا لذلك يقول تقى الدين السبكى (الخطأ في ترك ألف كافر أهون من سفك محجمة دم امرىء مسلم).

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام (ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله. فإن الإمام لأن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة). ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام: (ادرأوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا). وعمر بن الخطاب يقول (لأن أعطل الحدود في الشبهات خير من أن أقيمها في الشبهات) ونحن نعلم حزم عمر وشدته (رضى الله عنه) ولكنه لا يستطيع أن يحيد عن سنة الرسول.

وأكتفي بأن عدم قتل المتهمين أي نفس بشرية شبهات، والاعتراف تحت التعذيب شبهات، وقصر فترة التحقيق شبهات، وعدم ارتكاب المتهمين في قضية أفغانستان أي عمل مباشر في مصر شبهات، وعدم احتكام الحاكم إلى الشريعة الإسلامية شبهات.

٢. الحلال والحرام في القرآن فحسب:

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه، ولا واجب إلا ما أوجبه ولادين إلا ما شرعه).

لا يوجد في القرآن والسنة أي تحريم لإحراز السلاح، وإذا جاز للحاكم المسلم أن ينظم عملية إحراز السلاح، فلا يمكن أن يرفع عقوبة التعزير إلى الإعدام !! بدون نص من القرآن أو السنة المؤكدة، بل لقد وصل الأمر بالتعديل الأخير في قانون العقوبات إلى تجريم الأسلحة البيضاء، كالسواطير والمطاوى القرن غزال وسكاكين المطبخ ..!!

وهذا ما استندت إليه المحكمة العسكرية في أحكامها المتشددة بلا مسوغ.

كذلك لا توجد عقوبات في القرآن والسنة - ولا حتى في قوانين الكفار - على عقد المؤتمرات والاتصال بالصحفيين ووكالات الأنباء الأجنبية ونشر الأحاديث بالصحف الأجنبية وإعداد المنشورات وتوزيعها وإحراز المطبوعات!! (ص٥ من حيثيات الحكم!!).

راجع الحوار الذي دار بين الإمام علي والخوارج الذين قالوا له سنقتلك، وتركهم لأنه كان مجرد كلام لم ينتقل إلى منطقة الفعل، وإذا انتقل الخوارج بعد ذلك للقتال، فإنهم لا يحاسبون على آرائهم!! وإنما يقاتلون لردعهم وردهم للطاعة فحسب!!

٣. مبدأ الاستئناف:

يتصور البعض أن مبدأ الاستئناف من اختراع القوانين الوضعية، والحقيقة أن الشريعة الإسلامية تقرر حق الاستئناف.. وهو الأمر غير المتوافر فى المحاكم العسكرية، فالالتماسات التى تعامل بصورة شكلية لا تعتبر استئنافا، كما أن الحاكم العسكرى ليس جهة قضائية أعلى!!

ويستند الفقهاء فى مبدأ الاستئناف إلى القرآن الكريم الذى يوضح احتمال تعرض أحكام القضاء للخطأ، فى حديث القرآن عن داود الذى وصفه الله بـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، ولكنه أخطأ فى نظر إحدى القضايا فيقول الله ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٦].

ويتحدث القرآن عن تباين الفهم بين قاض وقاض، ولو كان القاضيان نبيين معصومين ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩]. وفى رسالة عمر المشهورة فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى جاء: (ولايمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم ولا يبطله شىء ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل).

وهذا المبدأ الإسلامى يتحصن أكثر عندما يختلف قاضى الاستئناف عن قاضى الأصل، هذا وقد عرفت النظم الإسلامية مبدأ الدرجتين فى التنظيم القضائى، كما يظهر من استقراء كتب التاريخ (خذ مثالا واحدا من كتاب الولاة والقضاة للكندى).

٤. استقلال القضاء:

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ صدق الله العظيم.

أى أن الشنآن (البغض والعداوة) لا يجوز أن يؤثر فى القرار العادل. وهذا ما يقتضى فصل القضاء عن الحاكم، الذى لا شك تصيبه حالة البغض والعداوة لمن يعارضونه، وبالتالى فإن القضايا ذات الطابع السياسى لا يمكن أن يقدم فيها الالتماس إلى الحاكم (فهو خصم وحكم) ولا يمكن أن يحاكم المعارض سياسيا أمام محكمة عسكرية لا تملك إلا الانضباط العسكرى!

ولقد عمل الإسلام على أن يحيط القاضى بسياج يصونه عن الهوى والميل فحفظ له مكانته وصان حقوقه.. يقول الإمام على بن أبى طالب فى رسالته للأشتر النخعى: (وأعطه من المنزلة لديك - أى القاضى - مالا يطمع فيه غيره من خاصته، ليأمن بذلك على اغتيال الرجال له عندك).

والإمام حريص على تأمين القاضى ماديا بجانب تعزيزه أدبيا، فيقول فى رسالته السابقة (وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس).

ولاحظ هنا أن القاضى العسكرى موظف فى إدارة القضاء العسكرى التى تتبع القائد الأعلى للقوات المسلحة، وليست له أية حصانات خاصة: مادية أو أدبية..

٥.النفس بالنفس:

أساس القصاص هو المساواة بين ما وقع من الجانى بالفعل وما يكون من عقاب ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

يقول الله عز وجل:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. هل أحتاج إلى تعليق أو تفسير أو فقه والنصوص قاطعة (النفس بالنفس)؟! وحتى الآن أعدم ١٤ إنسانا

دون أن يقتلوا نفسا واحدة مسلمة أو غير مسلمة، وفقا لأوراق الاتهام وحيثيات الحكم العسكرى.. وليس وفقا لتقديراتنا!!

وتضيف الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨ ـ ١٧٩].

وهذا ينقلنا إلى العفو:

٦.العفو:

كان النبى ﷺ يحكم بالقصاص، ويدعو إلى العفو، والله سبحانه وتعالى حبب إلى العفو فى كتابه الكريم ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

وهذا فى القتل، وقد اكتشفنا ـ كما ذكرت ـ بمراجعة قضية السياحة أنه لا يوجد قتيل واحد فيها، ولا فى القضايا الأخرى، فلا داعى للخوض فى هذه النقطة.. وإن كان من الواجب ـ إحقاقا للحق ـ أن نقول إن المحاكم المدنية ـ كما العسكرية ـ لا تأخذ بهذا الجانب من الشريعة الإسلامية، وهو جانب يكشف الرحمة الواسعة لربى التى يخفونها ويتحدثون عن «إسلام قطع الأيدى والرقاب» وكأن هذا هو جوهر العقيدة!!

٧.الدية:

الدية هى العقوبة البديلة فى القتل العمد وتحل محل القصاص كلما امتنع القصاص أو سقط لسبب من أسباب الامتناع أو السقوط، وحيث لا يجب القصاص تجب الدية، إلا إذا تناول العفو الدية فتسقط هى الأخرى بالعفو عنها. وهذه النقطة كالسابقة غير واردة فى المحاكم المدنية أو العسكرية، لأن النوعين من المحاكم يستند إلى نفس القوانين العامة للدولة، ولا داعى للمزيد من الشرح، فالقضايا المطروحة ليست بها أى جريمة قتل!!

الشروع فى القتل ليس عقوبته الإعدام
حد الحرابة يلتزم بقاعدة النفس بالنفس(*)

هذا هو الجزء الأخير.. من دراستنا.. «الخطايا العشر للمحاكم العسكرية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية» وتتركز حول التوسع فى عقوبة الإعدام فى حق أفراد الجماعات التى انتهجت أسلوب العنف والإرهاب فى معارضتها السياسية للحكم..

وقلنا: إن هذه الأعمال الإرهابية تقع فى ثلاث خانات محتملة: البغى ـ الحرابة ـ جريمة القتل العادية.. وقلنا فى البداية: إنها أقرب إلى «البغى» أى الجريمة السياسية وذكرنا أحكام ذلك، ومع ذلك فمع افتراض أنها تقع فى خانة الحرابة... أو جريمة القتل العادية.. فإن الأحكام يعتورها النقص بل والتعارض مع أحكام الشريعة الغراء فى عشر نقاط على الأقل وقد تناولنا فى العدد السابق ٧ مخالفات ونستكمل فى هذا العدد المخالفات الباقية.. ونحن نحتسب هذه الدراسة عند الله.. وقبل التصديق على إعدام ستة مواطنين أخرين متهمين بجمع وتخزين السلاح دون استخدامه ليصل عدد الذين وقعت عليهم عقوبة الإعدام إلى ٧٠ شخصا.. وهذا مالا مثيل له فى كل تاريخ مصر المعاصر.

إننا لا ننتهج ولا نؤيد أن ينتهج غيرنا طريق العنف.. ولكن مواجهة أعمال العنف

(*) جريدة الشعب ٢ / ٢ / ١٩٩٦.

والإرهاب يجب أن تكون بإعمال العدالة.. وبالاحتكام إلى شريعة الله.. فهذا يساعد على وأد الفتن وعلى عدم توليد ثارات متواصلة.. يدفع المجتمع ثمنها غالياً من أرواح أبنائه.. من مختلف الأطراف.

وللتذكرة فقد تناولت حتى الآن بعد المدخل الفقهى حول الفارق بين البغى والحرابة.. سبع مخالفات وهى:

١ـ إغفال مبدأ درء الحدود بالشبهات.

٢ـ عدم الالتزام بالحلال والحرام وفقا لأحكام القرآن.

٣ـ إغفال مبدأ استئناف الأحكام.

٤ـ إغفال مبدأ استقلال القضاء.

٥ـ إغفال مبدأ القصاص القرآنى (النفس بالنفس).

٦ـ إغفال مبدأ العفو.

٧ـ إغفال مبدأ الدية.

* * *

والآن فلنتابع..

٨ـ عقوبات حد الحرابة لا تقتصر على الإعدام!

قلنا: إن أعمال العنف التى ترتكبها بعض الجماعات الإسلامية المتشددة تقع فى خانة «البغى» (كجريمة سياسية) لاخانة «الحرابة» كجريمة اجتماعية، مع افتراض أن النظام الحاكم نظام إسلامى عادل ملتزم بالشريعة الإسلامية، وهو افتراض ضرورى لأنه من المفارقات أن نتذكر تطبيق الشريعة عند العقوبات ولا نتذكرها عند إقامة العدل (كالزكاة مثلا)، ومن المفارقات أيضا أن يخرج أحد وعاظ السلاطين فيتحدث عن حد الحرابة... ويصمت عن حدى الخمر والزنا مثلا!! ولكننا قلنا من قبل: إننا نفترض أننا نحكم حكما إسلاميا عادلا حتى نتابع الجدل والنقاش إلى منتهاه.

وبالتالى نفترض أن أعمال العنف التى ترتكب من قبل بعض الجماعات الإسلامية المتشددة تقع تحت طائلة (حد الحرابة).. ونذكر مرة أخرى بالآية الكريمة التى تحكمها:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾.

قلنا: إن المقصود ـ على رأى الجمهور، إن لم يكن على إجماعهم ـ هم قطاع الطرق الذين يستخدمون العنف لسلب الأموال واختطاف الأولاد والنساء أو اغتصابهن أو ترويج المخدرات..إلخ إلخ. ونحن نعلم بالتأكيد أن هذه ليست أهداف الجماعات الإسلامية المتشددة..

فمهما اختلفنا معهم.. فلا يجوز أن نقف موقف المنافق الذى (إذا خاصم فجر)، ونقر بأن المشكلة الرئيسية معهم أنهم يسعون لإقامة الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامى بقوة السلاح ووفق اجتهادات متشددة وانهم حينما جنحوا للعمل السياسى والإعلامى قوبلوا بعنف السلطات فاقتنعوا أكثر بأن النهج المسلح العنيف هو الأسلوب الناجع لتحقيق أهدافهم ورغم كل ذلك سنفترض أنهم مجرد قطاع طريق تنطبق عليهم آية حد الحرابة، ولنلحظ أن المدعى العسكرى يشير دائما إلى ذلك فيصفهم بأنهم «المفسدون فى الأرض».

عند دراسة تفسير القرآن والفقه الإسلامى حول هذه الآية الكريمة (حد الحرابة) سنجد أن هناك ضوابط كثيرة فى تطبيق الحد وانها لا تفضى آليا إلى عقوبة الإعدام..

فالآية الكريمة تشير إلى أربعة بدائل أو احتمالات:

١ـ القتل (الإعدام).

٢ـ الصلب (شكل آخر من الإعدام).

٣ـ قطع الأيدى والأرجل من خلاف.

٤ـ النفى من الأرض (السجن على رأى الجمهور).

وهكذا فإن حد الحرابة يحتمل الإعدام أو القطع أو السجن، ولا يؤدى آليا إلى الإعدام،

ولاحظوا أن المحاكم العسكرية تستخدم الإعدام والسجن وتستبعد الصلب والقطع لأنها كالمحاكم المدنية لا تلتزم بالشريعة الإسلامية!! فلا داعى إذن لأن يلوح المدعى العسكرى من حين لآخر بمصطلحات إسلامية أو يتحدث بلكنة الشريعة!! وإلا فليعمل بها بصورة كاملة ولو حتى فى مجال العقوبات!! ولو حتى فى مجال حد الحرابة الذى يتغنى به!!

حكمة تعدد العقوبة:

وقد بحث علماء الإسلام فى الحكمة الإلهية لتعدد العقوبة.. وهل هى بدائل مفتوحة أمام القاضى أو الإمام؟ أو أنها عقوبات تدريجية تصاعدية حسب غلظة الجريمة وحجمها؟

الحقيقة أن كثيرا من الفقهاء وعلى رأسهم الشافعى وأحمد يرون أن قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض (أى سجنوا)، وهذا القول قريب من قول أبى حنيفة أيضا.

وهكذا فإن القتل والصلب مرتبطان عند الجمهور بالقتل، وليس مجرد سلب المال أو إفزاع السبيل، وهكذا نعود مرة أخرى إلى نفس المبدأ (النفس بالنفس)، لنجد فى هذا المجال أن الإعدام فى الإسلام يقابل القتل، وحتى الإعدام قابل للإلغاء بناء على العفو أو الدية.. ونحن ندعو منظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات التى تدعو إلى إلغاء عقوبة الإعدام إلى دراسة هذا النظام العظيم للعقوبات فى الشريعة الإسلامية الذى يكاد يلغى عقوبة الإعدام أو يجعلها فى الحد الأدنى.. وبالمناسبة نشير إلى أن وزارة العدل بجمهورية مصر العربية كانت قد شكلت لجنة عليا لتطوير القوانين وفق الشريعة الإسلامية وفقا لقرار وزير العدل رقم ١٤٦٣ فى ٣٠/ ١١/ ١٩٧٥ وأصدرت هذه اللجنة مشروعات قوانين القصاص، ولمن يريد الاطلاع على نصها فليتجه إلى مكتبات الهيئة المصرية العامة للكتاب التابعة لوزارة الثقافة ويشترى كتاب المستشار عزت حسنين.

وانظروا أيضا فى نفس الكتاب مشروع الأزهر واسألوا حكامنا لماذا لاينفذونه؟!

المهم أن عقوبة حد الحرابة وفقا للجمهور هى باختصار:

(لايقتل من المحاربين إلا من قتل، ولا يقطع إلا من أخذ المال، ولا ينفى إلا من لم يقتل ولم يأخذ المال)!

أظن الكلام واضحا يفقهه أى إنسان مهما كانت درجة ذكائه!

.. والآن فإن بعض القضايا.. التى عرضت على المحاكم العسكرية لم يتضمن الاتهام ولاحيثيات الحكم فيها أى تهمة قتل، ومع ذلك تم الإعدام بالجملة، كقضية السياحة التى قرأت أوراقها من الألف للياء ولم ترد فيها سيرة أى جريمة قتل، كذلك الأمر فى قضية العائدين من أفغانستان لأنهم لم يعودوا أصلا ليقتلوا بنى آدم أو حتى نملة!!

٩ـ الشروع فى القتل ليس عقوبته الإعدام:

الشروع فى ارتكاب جريمة القتل وفقا للشريعة الإسلامية لاتصل عقوبته للإعدام، سواء أكان هذا الشروع مجرد تفكير أم شروع فعلى حالت ظروف خارجة عن إرادة الجانى دون تنفيذ شروعه فعليا.

وهذه نقطة قاطعة على تعارض التعديلات الأخيرة (فى قانون العقوبات لمواجهة الإرهاب) مع الشريعة الإسلامية لأن هذه التعديلات جعلت مجرد التفكير وإحراز السلاح دون استخدامه وبالتأكيد محاولة التنفيذ، كافيا لتطبيق عقوبة الإعدام.. ويشهد الله ورسوله والمؤمنون أن هذا ليس عدلا.. بل هو حرام بكل المقاييس!

القاعدة فى الشريعة الإسلامية أن الإنسان لا يؤاخذ على ماتوسوس له أو تحدثه به نفسه من قول أو فعل. وهذه القاعدة تستند إلى أصل تشريعى هو قوله عليه الصلاة والسلام «إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم».

هذا فى مرحلة التفكير.. وهذا أول مراحل الشروع فى ارتكاب الجريمة.

٢ـ المرحلة الثانية: التحضير للجريمة: الشريعة تفرض التعزير فى هذه المرحلة. والتعزيز لا يصل إلى مرتبة الإعدام فإحراز مواطن السلاح بهدف استخدامه للقتل.. ولكنه لم يستخدمه بعد.. فليس عقوبته الإعدام بأى حال من الأحوال (راجع على سبيل المثال: من الفقه الجنائى المقارن بين الشريعة والقانون ـ المستشار أحمد موافى).

٣ـ المرحلة الثالثة.. الشروع فى تنفيذ الجريمة..

انصب اهتمام الفقه الإسلامى على التمييز بين الجريمة التامة المعاقب عليها بالحد والجريمة غير التامة المعاقب عليها بالتعزير.

والشروع فى القانون الوضعى وفى الشريعة: هو «البدء فى تنفيذ فعل أو وقف تنفيذه أو خاب أثره لأسباب لادخل لإرادة الجانى فيها» وهذه هى التعبيرات التى استخدمتها المحكمة فى قضية السياحة وقضية صفوت الشريف (خاب أثر التنفيذ لأسباب لادخل لإرادة الجانى فيها).

وهكذا فإنه فى هذه الحالة ـ أى الشروع فى القتل والفشل فيه ـ تكون العقوبة التعزير أى عقوبة يقررها القاضى أو الإمام ولا ترقى إلى عقوبة الإعدام.. لأن الإعدام كما ذكرنا يحكمه مبدأ ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾..

وفى حالة قضية صفوت الشريف وحارسه فإن القصاص يكون بالجروح التى وقعت لهما ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. (قرآن كريم).

فإذا بترت ساق حارس صفوت الشريف مثلا لاقدر الله تبتر ساق الجانى وهكذا.. إلا إذا أراد الحارس أن يتصدق ويعفو ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ (قرآن كريم).

ومصداقا لذلك يقول د. عبدالعزيز عامر فى كتابه (التعزير فى الشريعة الإسلامية):

«الشريعة الإسلامية لا تعاقب على التفكير فى ارتكاب الجريمة، ولا على التصميم على ارتكابها، مادام الشخص لا يفعل شيئا فى سبيل تحقيق ما فكر فيه أو صمم عليه. وهى كذلك لا تعاقب على الأعمال التحضيرية بصفتها متعلقة بالجريمة التى وقعت هذه الأعمال تحضيرا لها، لأن المدى لايزال متسعا بينهما وبين ارتكاب الجريمة، وقد يعدل الشخص عما قصد إليه». وهذا الكلام يدلل على خطيئة إعدام الذين أعدموا لمجرد إحراز السلاح وقبل أن يشرعوا فى استخدامه.

أما فى مرحلة التنفيذ كقضية صفوت الشريف.. فيقول د. عبدالعزيز عامر وكأنه يصف حادث محاولة اغتيال صفوت الشريف: (إذا قصد إنسان قتل آخر وأطلق عليه عيارا ناريا لتنفيذ هذا القصد فاصيب المجنى عليه بالعيار النارى ولكنه لم يمت لإسعافه بالعلاج، فإن الجانى قد شرع فى القتل، ولكن التنفيذ أوقف لسبب لادخل لإرادته فيه، وهو مداركة المجنى عليه بالعلاج، ويكون على الجانى التعزير) والتعزير عقوبة دون الإعدام وتنطبق نفس الأحكام على جريمة الشروع فى قطع الطريق (الحرابة) فإذا لم تقع الجريمة التامة حتى بسبب خارج عن إرادة الجانى فلا يقام الحد المنصوص عليه فى القرآن، ولكن يحكم عليه بعقوبة تعزيرية يقدرها القاضى أو الإمام (حبس.. جلد.. إلخ).

١٠ـ حكم الشريعة فى المشاركة:

اعتبرت المحاكم العسكرية الشريك فى أى عملية هجومية كالفاعل الأصلى (الذى قام بالقتل) مع ملاحظة أن معظم الذين صدرت فى حقهم أحكام إعدام ونفذت بالفعل لم يتهموا بقتل أحد!! واعتبرت المحكمة العسكرية ـ وفقا للتعديلات الجائرة على قانون العقوبات ـ أن هذا أمر بديهى! وهو ليس كذلك فى الفقه الإسلامى فالشافعى يقول: من شارك المحاربين لمجرد زيادة العدد.. ولم يقتل أو يسلب مالا فلا حد عليه. وبهذا قال أيضا ابن عباس والحسن وقتادة والسدى ومذهب الإمامية ويكتفون بعقوبة التعزير.

ومن هنا لا يوجد إجماع فى الفقه على مايسمى بالاتفاق الجنائى على قدم المساواة.. فالإجماع على إقامة الحد على من قتل بالفعل وبنفسه أو سلب المال بالفعل وبنفسه.

هذه هى الخطايا العشر فى أحكام المحاكم العسكرية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية.. كما شرحها الأساتذة الأجلاء وقمم الفقه الإسلامى.

* * *

وأخيرا يقولون لى: إن الرئيس مبارك لا يقرأ جريدة «الشعب».. وأنا أشك فى هذا.. ولدى معلومات معاكسة فالرئيس يقرأ بعض موضوعاتها على الأقل!

وفى كل الأحوال أدعو الله.. أن يلهمه قراءة هذه المقالات.. التى أكتبها لوجه الله تعالى،

وإبراء للذمة.. وإحقاقا للحق.. ولإقامة العدل .. فلسنا دعاة تطرف ولا عنف.. ولكننا نستلهم قول الله عز وجل.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.. وأقول مخلصا: إن مواصلة خط المحاكم العسكرية لاستصدار أحكام الإعدام بالجملة.. سيدفع البلاد إلى الهاوية.. وسيخطو بنا إلى نقطة اللاعودة.. إذا لم نكن قد تخطيناها بالفعل.. ولا أملك إلا أن أعيد كتابة كلمات «عمر بن الخطاب» الشامخة: (لايمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق فإن الحق قديم ولا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل)..

* * *

ليشهد الله أنه لم يحركني إلى الكتابة إلا حديث الرسول الكريم:

«لايقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه» صدق رسول الله ﷺ.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ أحكام القرآن الكريم فى موالاة الكفار والمشركين.

٢ـ فقه التغيير السياسى فى الإسلام.

٣ـ أزمة الخليج وحرب الأفغان.. بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان.

٤ـ من كامب ديفيد إلى مدريد.

٥ـ هموم الأمة مع نهاية القرن.

٦ـ مصر والسودان (التمرد ـ الحصار ـ الإنقاذ).

٧ـ الإسلام والعروبة.

٨ـ أمريكا .. طاغوت العصر.

٩ـ الخيانة .. الملف الأسود للزراعة فى مصر.

عزيزى القارىء:

إذا أردت الحصول على أى من اصدارات المؤلف، اتصل بـ:

٠١٢ / ٣٣٧٥٤٠٤

أو راسلنا على البريد الالكترونى :

Tarekalkarket @ Hotmail.com

إصدارات أخرى

١ - إيران.. الدولة الإسلامية ماذا تعنى ؟ تأليف : عادل حسين.

٢ـ الجبهة العربية الإيرانية ضد الحلف الصهيونى الأمريكى. تأليف : عادل حسين.

٣ـ بلغنا حافة الحرب .. إسرائيل تحت الحصار والتهديد. تأليف : عادل حسين.

٤ـ مؤتمر مدريد ومستقبل التسوية. تأليف : عادل حسين.

٥ـ الخليج الأمريكى .. العربى سابقا. تأليف : عادل حسين.

٦ـ فلسطين .. والحقائق القرآنية. تأليف : د. صلاح الخالدى.

٧ـ الإسلام والمرأة. تأليف : أحمد حسين.

٨ـ من أجل مصر .. أعارض بكل حرية. د. محمد حلمى مراد.

عزيزى القارىء :

إذا أردت الحصول على أى من هذه الاصدارات، اتصل بـ:

٠١٢ / ٣٣٧٥٤٠٤

أو راسلنا على البريد الالكترونى :

Tarekalkarket @ Hotmail.com